

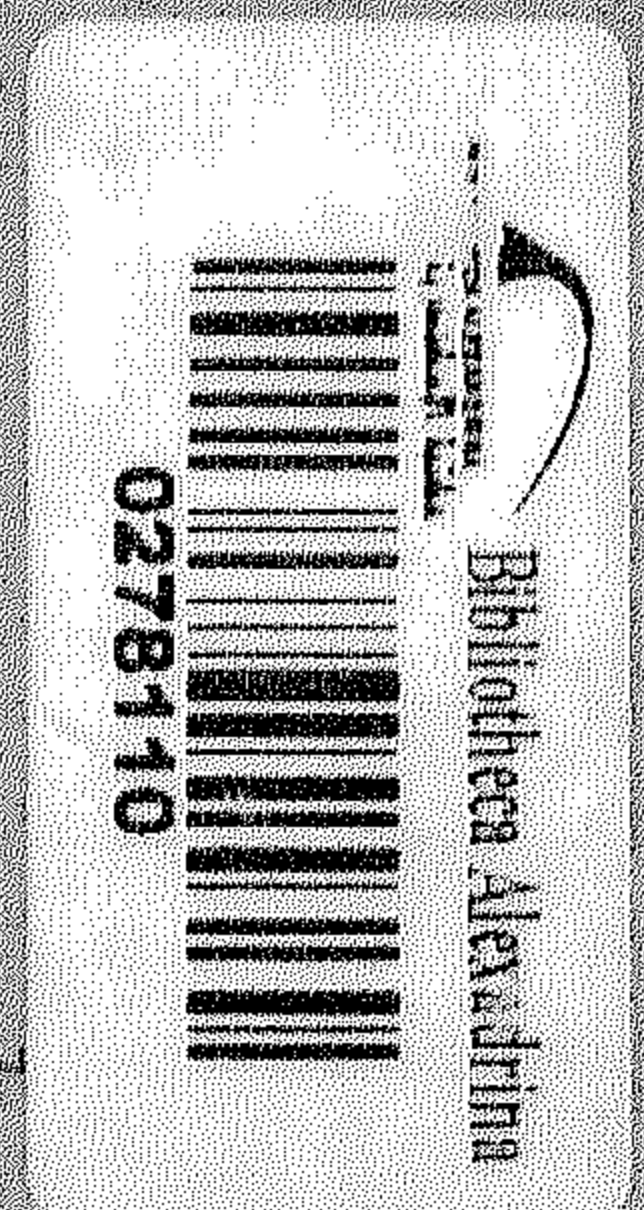
آرثر اددوارد جولدشميت (الابن)

الحزب الوطني المصري

(مصطفى كامل - محمد فريد)

ترجمة : فنؤاد دواره

تقديم وتعليق : فتحي رضوان



الحزب الوطني المصري

مصطفى كامل - محمد فريد

تأليف

آرثر ادوارد جولد شميت (الابن)

ترجمة: فتواد دواره

تقديم وتعليق: فتحى رضوان



المهنة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٣

تقديم الكتاب

بقلم : فتحي رضوان

الكتاب الذى أقدمه لقراء العربية والمعنون « الحزب الوطنى المصرى » هو كتاب « فريد » • ووصفه بالفريد ليس من قبيل الشناء عليه ، أو الاشادة به ، بل من باب تقرير الحقيقة ، لأنه لا يوجد فى المكتبة التاريخية الحديثة ، ولا فى المكتبة الامريكية المعاصرة كتاب يشبهه • فهو كتاب علمى ، قائم على جمع الحقائق من مصادر ومراجعها مع ذكر هذه المصادر والمراجع ، أولا بأول ، فى الموضع المناسب ، وهو فى الوقت نفسه كتاب سياسى ، لا يروى الوقائع رواية المؤرخ العالم ، حسبه أن يذكرها ، أو حسبه أن يذكرها مصحوبة بالتعليق الذى يزيد دلالتها - من وجهة نظر المؤلف - وضوحا ، بل ان المنهج الذى يتبعه فى جمع هذه الحقائق ، ثم فى تبويبها ، وتصنيفها ، ثم الاسلوب الذى يلتزمه فى التعليق والشرح ، كلاهما يخدمان أغراض المؤلف وغاياته ، التى لا تقتصر على أهداف العالم المؤرخ ، بل تتجاوزها الى تحقيق معتقداته • ووجه تفرد هذا الكتاب بين أمثاله وأشباهه ، أن مؤلفه الأستاذ آرثر جولد شميث (الابن) هو من أبناء الولايات المتحدة وهو قد تخرج من جامعة « هارفارد » التى تعتبر بحق معملا لتفريخ أساتذة السياسة النظرية ، وكبار رجال السياسة العملية •

وحصل المؤلف بهذا الكتاب، فى ابريل ١٩٦٨ ، على درجة الدكتوراه فى الفلسفة فى تاريخ ودراسات الشرق الأوسط من تلك الجامعة •

وكون المؤلف أمريكيا من أبناء الولايات المتحدة ، وكون الكتاب عن « الحزب الوطنى المصرى » مظهرين أو عنصرين من عناصر ما أصفه

« بالتفرد » ، فأهل الولايات المتحدة كانوا قليلي الاهتمام بما يجري في منطقتنا التي كانت تسمى البلاد العربية حيناً ، والشرق العربي حيناً ثانياً ، والشرق الأوسط آناً ، والشرق الأدنى تارة أخرى . فقد كان موقع الولايات المتحدة البعيد عن أوروبا وما يجري فيها من جهة ، وكان غناها الفاحش ، ومواردها غير المتناهية ، وبروزها كقوة اقتصادية وسياسية في النصف الغربي من الكرة الأرضية ، جعل هذا النصف الشاسع ، مترامى الآفاق ، الملىء بالخيرات والثروات . . عالماً موقوفاً على الولايات المتحدة تلعب فيه دور الأستاذ الرائد ، والسيد نافذ الكلمة ، والشرى السخى الذى اتقن فن خلق المال ، والاستكثار منه ، وتوزيعه بعد أن دانت له سبل الابتكار الآلى ، التي بلغت مرتبة السحر .

ان « مبدأ مونرو » ، الذى أعلن ، فى بداية القرن التاسع عشر ، أن أمريكا للأمريكيين تصوير حقيقى وشامل لسياسة الولايات المتحدة فى كل جانب . فقد أصبحت تلك الولايات دنيا قائمة بذاتها ، تصل منتجاتها الصناعية ، وحاصلاتها الزراعية ، الى أهل أوروبا ، والقارات الأخرى وكأنها آتية من كوكب آخر .

الا أن هذه العزلة لم يكن ممكناً أن تبقى ، فالقارة الأم ، قارة أوروبا ، تضخمت مشكلاتها بعد العصر الاول من عصور الاستعمار الذهبية ، الذى كان فيه الرجل الأبيض سيد القارات ، وأمير المحيطات يغزوها ويخضعها لنفوذه وسُلطانه ، وينهب مواردها ، ويتحكم فى تجارتها ، ويمنعها ما يشاء من فتات موائده الثقافية الفكرية والصناعية والزراعية . ولكن بانقضاء هذا العصر ، وتحرك الانسان الاسمر والاسود والاصفر ، وتنافس الدول الاستعمارية بعضها مع بعض ، وتعرض مذهب الرأسمال الحر ، لأزمات تفاقمت حتى أصبحت حروباً دولية متصلة ، وانتهت بالصراع الدولى الأسمى الاول سنة ١٩١٤ حتى سنة ١٩١٨ . عندها وصلت هذه الازمات الى الولايات المتحدة ، وبدأت المسألة الفاصلة بين الغرب القديم والحديث أصغر من أن ترد عن أمريكا الخطر الذى وقعت فى براثنه أوروبا . وتوالت نذر هذا الخطر ، فحدث تطور فى التفكير السياسى بالولايات المتحدة عبر عنه رئيس الولايات المتحدة وودرو ولسون ابان الحرب العالمية الاولى عملياً ، بارساله فيالق من الجيش الأمريكى عبرت المحيط ، ونزلت الى أوروبا لتنقذ بريطانيا وفرنسا وحليفاتهما من أن يفتك بهما العملاق الألمانى ، الذى بدأ وكأنه لن يقهر .

وزاد تورط الولايات المتحدة فى شئون العالم القديم ، لما خيل لودرو ولسون أنه قادر على أن يمنع تجدد هذه المجزرة البشرية التى عصفت بالعالم ، وكانت أول حرب عالمية ، فأعلن مبادئه الاربعة عشر ، التى مثلت للعالم المثخن بالجراح ، المثقل برزايا الحرب وويلاتها ، المتطلع الى عالم جديد تسوده المحبة ، انجيلا جديدا جاء به هذه المرة مسيح من العالم الجديد . وألقت ألمانيا سلاحها فى انتظار سلم ، لا غالب فيه ولا مغلوب ، ولا انتقام يشوبه ، ولا ثأر يعكره . وصدقت الأمم المغلوبة على أمرها ، والمستعمرات التى كانت تئن تحت وطأة استعمار الغرب ، وعسفه ، وسوء حكمه ، ما أعلنه نبي السلام الأمريكى من أنه سيكون من حق جميع الشعوب تقرير مصيرها .

وكانت مصر آنذاك قد فاض بها الكيل من فرط ما عانت خلال الحرب العالمية الأولى وقبلها ، فثارت ثورتها العظمى سنة ١٩١٩ بعد أربع سنوات من الأحكام العرفية البريطانية ، أرسل أثناءها زعماء الحزب الوطنى الذى أسسه مصطفى كامل سنة ١٩٠٧ الى المنافى فى الخارج والسجون والمعتقلات فى الداخل ، بعد أن أغلقت الصحف ، ومنعت الاجتماعات العامة .

وكانت بذور هذه الثورة قد ألقاها محمد فريد زعيم الحزب الوطنى المنفى فى أوروبا ، وتلاميذه وأعوانه الذين تخفوا فى مصر ، والذين عانوا الأمرين فى مدن أوروبا المختلفة ، فعرفوا الجوع فى جو قارس البرودة ، كما قاسوا الوحشة والمرض .

وعلق بعض الثوار المصريين حسنى الظن أملهم على « ودرو ولسون » الذى كان بدوره أستاذًا حسن الظن بالناس ، قليل التجربة السياسية ، فلما وصل الى أوروبا ، واستقبل استقبال الفاتحين ، وفرشت الأرض أمامه بالورود ، وسمى « المسيح الجديد » ، ضحك عليه دهاقين السياسة الاستعمارية : لويد جورج ، وجورج كليمنصو فأقر الحماية البريطانية على مصر ، وهى النظام الذى ثار المصريون لاستقاطه ، فكانت صدمة للمصريين أفقدتهم الأمل فى أمريكا . وقد اعترف آرثر جولد شميث – مؤلف هذا الكتاب – بحادث عظيم هذه الصدمة .

وتواصى المتحاربون بإنشاء عصبة أمم وفض المشكلات بالتصالح والتفاوض . ولكن برلمان الولايات المتحدة المسمى « بالكونجرس » رفض إبرام معاهدة هذه العصبة ، وسقط ولسن ، وثقلت عليه خيبة الأمل

ولجا الى عزله ، ثم مات كسير القلب ، حزينا ، مغلوبا على أمره .
غير أنه قبل أن يسقط عن الحكم ، صدمت الولايات المتحدة الشعب
العربي صدمة أخرى ، فقد اقترح « ودر ولسون » على حليفته
بريطانيا وفرنسا أن يرسلوا لجنة مشتركة لتحقيق موضوع انشاء
وطن قومي لليهود في فلسطين طبقا لوعده بلفور ، وهو الوعد الذي
أثار غضب عرب فلسطين ، والعرب بعامة وقتذاك . ولكن ما لبثت
بريطانيا وفرنسا أن عدلتا عن رأيهما ، وخذلتا « ولسون » كالعادة ،
فاضطر أن يبعث لجنة أمريكية لتقوم بالمهمة التي كان مفروضا أن
تقوم بها اللجنة الثلاثية . وتكونت اللجنة الأمريكية برئاسة اثنين من
كبار سياسة أمريكا الدكتور « كنج » والمستر « كرمين » ، وسافرت
اللجنة الأمريكية واستفتت الشعب العربي والطائفة اليهودية في
فلسطين ، وكانت طائفة ضئيلة لا تمثل أكثر من ١٠ / من سكان
فلسطين . ووضعت اللجنة تقريرا رفضت فيه جميع مطالب الصهيونيين
وقالت عن الصهيونية انها مذهب شاذ ، وأوصت بوقف هجرة اليهود الى
فلسطين . ولكن هذا التقرير لم يلبث أن ضاع ولم يلتفت اليه أحد في
أمريكا ، بعد أن بعث آمالا كبيرا في نفوس العرب ، لكنها سرعان ما انطقت
ولم تخلف وراءها الا الحسرة والحزن .

وبهذا انتهت الصفحة الاولى من كتاب العلاقات الأمريكية العربية .
ومضت السنوات والولايات المتحدة مصممة على عزلتها ، حتى أعاد
التاريخ نفسه ، وبرز من صفوف الشعب الألماني « غليوم » آخر ،
يحكم ألمانيا ، ولكن بضراوة أكثر ، وبتنظيم أعمق ، وبكفاءة عسكرية
وسياسية أشمل . ذلك هو الأماشي « أدولف هتلر » .

وأحس « روزفلت » ، رئيس الولايات المتحدة أن انجلترا وفرنسا
وأوربا كلها هي خط الدفاع الأول عن بلاده ، فأخذ يعالج الكونجرس
والرأي العام الأمريكي ، ويحتال عليه ، ليتقبل الدخول الى الحرب
الاوربية ، حتى نجح أخيرا ، وبعد لأي ، في أن ترسل الولايات المتحدة
جيوشها للمرة الثانية الى أوروبا . وهزمت ألمانيا وقائدها « هتلر »
بعد أن دانت له أكثر أوربا .

ولكن الولايات المتحدة لم تستطع هذه المرة أن تعود الى العزلة ،
أولا لأنها تبين أن النظام الاوربي الاستعماري ، الذي كان لسنوات
عديدة قويا ومزدهرا ، قد أصبح خاويا ، وأن الفراغ الذي سينجم عن
استوطله لا بد أن يملأ ، والا انتقلت العدوى الى الولايات المتحدة من
أوربا .

ثانيا : لانه فى الوقت نفسه ، خرج من أنقاض أوروبا عملاق جديد هو اتحاد الدول الاشتراكية ، الذى عرف بعد ذلك باسم الاتحاد السوفييتى ، الذى يضم دولا وولايات فى أقصى الشرق من أوروبا ، والذى يتسع لروسيا الضخمة بأراضيها الشاسعة فى كل أوروبا وآسيا . ولم يكن خروج هذا العملاق مقصودا على برونه كقوة سياسية واقتصادية وعسكرية ضخمة وجديدة وطموحة ، بل ان الامر تجاوز هذا الحد الى كون هذه القوة الجديدة نذيرا بتحدى نظام الاقتصاد الحر ، الذى بنت على أساسه الولايات المتحدة قوتها وثروتها وازدهارها ، وهو تحد مزدوج ، اذ أن القوة السلافية الجديدة تحدث فى الوقت نفسه نظام الولايات المتحدة السياسى ، وهو نظام «الليبرالية» القائم على حرية قيام الاضراب ، وحرية الرأى المتمثلة فى انتخابات حرة وصحافة حرة .

منذ ذلك التاريخ ، والولايات المتحدة مشغولة البال بما يجرى فى أوروبا ، شرقها وغربها ، وبما يجرى فى افريقيا وآسيا ، الى جانب ما يجرى فى محيط الولايات المتحدة التقليدى ، ولعننى به نصف الكرة الغربى ، أى الأمريكتين الشمالية والجنوبية ، بما حولهما من جزر صغيرة وكبيرة ، قريبة وبعيدة فى المحيطين الهادى والهندي .

ولما كانت منطقتنا التى كان يجب أن تسمى « الشرق العربى » ، هى ملتقى القارات الثلاثة : أوروبا وافريقيا وآسيا ، وكانت فى الوقت نفسه ، مجرى قناة السويس التى تصل أوروبا بآسيا ، وكانت موطن المقدسات للمسلمين والمسيحيين واليهود . . حيث تقم فيها البلاد الحجازية بمكة والمدينة ، والأرض التى بعث فيها موسى ، والتى جرى على أرضها عيسى طفلا ونبيا ، والتى بنى فيها هيكلي سليمان ، وصخرة المعراج ، والمسجد الأقصى ، فقد استحضت هذه البقعة من الأرض أن تستأثر من اهتمام وانشغال بال السياسة الأمريكية ، ما يساوى اهتمامها وانشغال بالها بمواقع الأرض الأخرى . اذ ما من مشكلة فى العالم من أقصى الشرق الى أقصى الغرب ، ومن أقصى الشمال الى الجنوب الا لها اتصال حى عليها وانعكاس مباشر من منطقة الشرق العربى التى تحدد فيها النصر ، وتحدد الهزيمة فى الحرب العالمية الثانية عند موقع ضبيل على شاطئ مصر يسمى « العلمين » .

الا أن هذه المنطقة استأثرت بمشكلة أخرى ، شديدة الالتهاب ، ثم أزممت ، وهى المشكلة التى سميت بمشكلة « الشرق الأوسط » ،

والتي كان يجب أن تسمى منذ البداية « مشكلة فلسطين » ، أو على الأقل يجب أن يسميها العرب كذلك ، ولا يسمونها بغير هذا الاسم .

ولكن هذه المشكلة عرفت عند الغرب بمشكلة « الشرق الاوسط » وذلك لازتباط دول الغرب بمشكلة اليهود التي أطلق عليها اسم « اللسامية » أي عداوة الساميين . فقد دأب الغرب على مطاردة اليهود ، والاعتداء على أفرادهم بالأذى المادي والأدبي ، وإساءة الظن بهم كشعب . وقد ساعد على نمو هذه الحركة وتفاقمها ما يؤمن به المسيحيون من أن اليهود صلبوا السيد المسيح ، بعد أن ذهبوا في تعذيبه الى أقصى درجات الوحشية . وقد أسفر هذا كله عن اعتزال يهود أوروبا مجتمعات المسيحيين ، والاحتماء بأحياء لهم سميت « بالجيوتو » واصطناع لغة لهم هي لغة « اليديش » ، وهي لغة ألمانية عامية .

ولم تخفف هذه العزلة من آلام اليهود الأوروبيين ، بل زادت من توجس مسيحيي الغرب منهم والمبالغة في كراهيتهم ، حتى أصبح من المألوف أن تقوم حملات دورية في أكبر عواصم أوروبا تقتحم على اليهود دورهم ، وتفتك بالعشرات منهم ، وقد أطلق على هذه الحملات اسم خاص بها هو (البوجروم) .

وقد انتهت هذه الروح المعادية لليهود ، المصحوبة باحتقارهم ، وسوء الظن في طبيعتهم التي خلقوا بها ، أو فطروا عليها الى قيام الحزب النازي في ألمانيا ، الذي جعل من عداوته للسامية جزءا من مذهبه ، كان هذه العداوة انجيل نزل من السماء .

ولكن في نفس الوقت الذي كانت تقع فيه هذه الاضطهادات على يد مسيحيي أوروبا حدث أمران غريبان غاية الغرابة ، الأول نفوذ اليهود المالي والسياسي في كل دول الغرب ، حتى آلت اليهم مصائر السياسة والحرب في كثير من دول أوروبا ، والأمر الثاني هو أن اليهود في الدول العربية عاشوا في أمن ودعة ، لم تمس لهم شعرة ، ولم تسفك من دمائهم قطرة ، ولم يجرح لهم شعور .

ولما كانت دول الغرب في حاجة الى مال يهود الغرب ، واستمالة سياسيينهم ، وكبار رجال الاقتصاد فيهم ، فقد منحت بريطانيا - في شخص وزير خارجيتها « بلفور » - التصريح المشهور باسم هذا الوزير في ٢ من نوفمبر سنة ١٩١٧ الذي قالت فيه بريطانيا انها تنظر الى نشوء وطن قومي لليهود في فلسطين نظرة عطف . فلما أسفرت الحرب العالمية عن فوز بريطانيا وحلفائها ، فقد استعثت يهود بريطانيا وفرنسا

حكومات هاتين الدولتين ، لتحول وعد بلفور الى واقع ، واستجابت الحكومتان ، وانتهى الامر الى قيام دولة اسرائيل فى ١٥ من مايو سنة ١٩٤٨ بتصريح من الجمعية العامة للأمم المتحدة ، ثم قامت الحروب بين العرب واسرائيل ، ودارت بينهما أربع جولات من الحروب ، الاولى فى سنة ١٩٤٨ ، والثانية فى سنة ١٩٥٦ ، والثالثة فى سنة ١٩٦٧ ، والأخيرة سنة ١٩٧٣ .

ولما كانت بريطانيا هى زعيمة الغرب ، فقد بذلت أقصى ما تستطيع لتحمى اسرائيل ، ولتضمن لها البقاء ، فلما زالت زعامتها على الغرب ، وحلت الولايات المتحدة محلها فى مقعد الزعامة واصلت ما بدأته بريطانيا . وقد زاد من هذا العطف أن كثيرا من سياسة أوروبا وأمريكا تأثروا فى قراراتهم السياسية فى هذه المرحلة بثلاثة اعتبارات :

الاول أنها طليعة الحضارة الغربية فى هذه المنطقة الحيوية عسكريا واقتصاديا ، فالقائمون على أمرها ، هم من أهل أوروبا عاشوا فيها ، وتثقفوا بثقافتها ، وآمنوا بمذاهبها ومبادئها ، ولا سيما الايمان بالاقتصاد القائم على الملكية الخاصة ، وبالسياسة القائمة على حرية الفرد .

والاعتبار الثانى أن هذه المنطقة زادت أهميتها بعد أن ثبت أن احتياطي البترول فيها يفوق هذا الاحتياطي فى أية منطقة أخرى فى العالم ، على الأقل عند التهاب مشكلة فلسطين ، ومن الخير للغرب أن توجد دولة ، تدين بالولاء له ، وتتمتع بالانتماء اليه .

والاعتبار الثالث أن ازدياد نفوذ الاتحاد السوفييتى الذى ورث بعض سياسة روسيا القيصرية بشأن هذه المنطقة الثمينة الغالية جعل وجود الغرب فيها أمر حياة أو موت .

وقد أدى هذا كله الى أن وصل اهتمام الولايات المتحدة الامريكية بمنطقة الشرق العربى الى أقصى الغاية ، وأصبح من الطبيعى أن يكتب رجال السياسة والاقتصاد والاجتماع عن جوانب هذه المنطقة الكتب والبحوث والدراسات . وقد كثر فعلا هذا الانتاج الفكرى الأمريكى فى شئون الساعة ، ولكن لم يقع نظرننا على كتب أو دراسات تتناول المقدمات التاريخية التى أدت الى واقع المنطقة بعد الحرب العالمية الثانية . ونستطيع أن نقول ان الكتاب الذى تقدمه للقارئ العربى ، عن الحزب الوطنى المصرى هو واحد من أوائل ذلك الطراز من الكتب . ولقد كان اختيار المؤلف تاريخ الحزب الوطنى المصرى موضوعا لكتابه

مشارا لدهشتي ، ذلك أن اتصال هذا الحزب بأحداث أيامنا قد لا يبدو واضحا ، ولكن الفاحص المتأمل يستطيع أن يكتشف بيسر كيف أن الأحداث الجارية الآن ترد الى الأحداث التي عاشها وخاض معامعها مصطفى كامل الزعيم المصري الشاب الذي أسس الحزب الوطني المصري في ٢٢ من ديسمبر سنة ١٩٠٧ ، وأن تلك الأحداث هي المقدمات المباشرة للوقائع والمشكلات والأزمات الضخمة التي تهز منطقتنا هزا والننى تهز مع منطقتنا العالم كله ، حتى توشك أن تؤدي الى حرب عالمية ثالثة ما لم يتدارك سياسة العرب ، والشرق والغرب ، الامور ، وما لم يلهمهم الله الحكمة ، فلا يستسلموا لاهداف اللحظة ، حتى ينجو العالم من حرب مدمرة لن تبقى هذه المرة - حقا وصدقا - على شيء .

الحق أن المؤلف - آرثر جولد شميث (الابن) جدير بأن يهنا على صراحته ، فقد نص في السطور الاولى عن بواعثه لتأليف هذا الكتاب فقال :

« في الخامس من يونية ١٩٦٧ شنت اسرائيل حربا وقائية على جيرانها العرب ، ردا على اغلاق المصريين خليج العقبة في وجه الملاحة الاسرائيلية ، وعلى حملة الدعاية العدائية المتصاعدة في العالم العربي كله بقيادة القاهرة . »
ثم قال :

« . . اذا كان باستطاعة التاريخ أن يضيء الحاضر عن طريق اعادة بناء الماضي ، فان المؤرخ يستطيع أن يساعد الأجنبي على فهم الثلاثين مليون مصري المعاصرين حين يوضح له كيف ولماذا سيطرت على عقولهم قومية معادية للغرب الى هذا الحد . »

وهذه السطور ، ليست الا نموذجا لأسلوب المؤلف ومنهجه في الحكم على الوقائع المتصلة بالسياسة ، فهو لا يستطيع أن يتغلب على النزعة السائدة في الغرب فيما يتعلق بشئون الشرق بعامة ، والشرق العربي بخاصة ، فهو يستعمل مثلا اصطلاح حرب « اسرائيل الوقائية » و « حملة الدعاية العدائية المتصاعدة في العالم العربي » ، ثم هو يصف القومية المصرية بأنها « قومية معادية للغرب » وليسبت مجرد قومية ، ترد بشكل طبيعي على ما تلقاه من مواقف معادية أو ودية . ولكننا نعرف منه أن الذي قاده الى تأليف هذا الكتاب الجيد هو انشغال باله باسرائيل ومستقبلها ، وبمشكلة ذات قيمة خاصة عنده وعند زملائه في

الفترة التي وضع فيها كتابه . تلك هي مشكلة رفض العرب التفاوض مع إسرائيل ، وهي السياسة التي استمرت في العالم العربي حتى سنة ١٩٧٨ .

وعلى الرغم من أن المؤلف يتورط في أحكام خاطئة ، كلما استدعى الأمر إصدار حكم سياسى على المصريين أو العرب أو الشرقيين ، وهي أخطاء فاحشة تنضج بسوء نية غير قليل ، ولكنه حينما يتناول الوقائع ويحللها ، نظفر منه بعمل جيد ، يستأهل أن يقرأه المؤرخون ، وطلبه التاريخ ، ورجال السياسة . فقد امتاز هذا العمل بأن الدراسة التي سبقته كانت جادة وطويلة وشاملة ، فالمراجع والمصادر التي أوردها المؤلف في هوامش الكتاب كانت من الكثرة والتنوع بحيث تكاد تكون ميزة خاصة لم تتوافر لأى كتاب آخر بالعربية أو بلغة أجنبية عن نفس الموضوع أو ذات الحقبة ، فقد قرأ جميع الذى كتب عن الموضوع والعهد ، باللغة العربية حتى ما قبل إصدار كتابه بقليل ، ثم رجع الى المراجع الأجنبية من كتب ومن وثائق الحكومة البريطانية ، ومراسلات وزارة الخارجية الألمانية التي وضعت الحكومة الأمريكية يدها عليها عندما وصلت جيوشها الى الأراضى الألمانية سنة ١٩٤٥ ، ولهذه الوثائق أهمية خاصة في موضوع هذا الكتاب لأن محمد فريد وعبد العزيز جاویش وتلاميذهما ، عاشوا فترة الحرب العالمية الأولى فى ألمانيا ، وكانت لهم اتصالات عديدة وطويلة بوزراء خارجيتها ووكيل هذه الوزارة والسفراء الألمان فى تركيا وسويسرا وغيرهما ، ثم جاء مؤلف الكتاب الى مصر ، وقابل عددا كبيرا من زعماء الحزب الوطنى الذين وجدهم على قيد الحياة أو أولادهم وأحفادهم ، أو اطلع على مذكراتهم . وزار مصر أكثر من مرة ، وتنفس جوها ، وعرف خصائص أهلها ، وأسلوب حياتها . وكان من حسن المصادفات أن حضر فى دار الأوبرا الاحتفال الذى أقامه الحزب الوطنى بمناسبة مضى خمسين عاما على وفاة محمد فريد وسمعنى وسمع فكرى أباطة نخطب فى هذه الذكرى ، كما سمع الشعراء المرحومين محمود حسن اسماعيل وصالح جودت ينشدان الشعر فى هذه الذكرى وصاحبها ، وفى الختام سمع نشيد « بلادى بلادى » تؤديه فرقة الموسيقى العربية ، فكان شديد الانفعال بما رأى وسمع ، لأنه عاش سنوات يقرأ عن اجتماعات الحزب الوطنى والخطب التي تلقى فيها ، والقصائد التي تنشد على الجموع التي تؤمها ، ولكنه لم يشهد شيئا منها ، فلما حضر هذا الاجتماع خيل اليه أن الماضى بعث وأن اجتماع تلك الليلة هو اجتماع من اجتماعات الليالى الخوالى .

ومما يذكر للمؤلف أنه لم ينصب نفسه محاميا للاستعمار البريطاني شأن أكثر كتاب الولايات المتحدة الذين يتحمسون لذكر أفضال الاحتلال الانجليزى لبلادنا ويتهمون المصريين بنكران الجميل والجحود ، واعترف بالعمل العظيم الذى قام به مصطفى كامل والحزب الوطنى ، وبالأخطاء التى تورط فيها الحكم البريطانى وما قام به الاستعمار بعامة من سلب الأمم التى منيت به . وإن كان ، فى الجملة ، مؤمنا بنظرية الغرب القائمة على الاتهام الصريح أو الضمنى لأهل الشرق عامة بالخمول والكسل ، وضعف الاستعداد للترقى والتقدم ، وحسن التنظيم والمثابرة ، وكأنهم خلقوا هكذا ، وكان الاستعمار الذى فرض عليهم سلطانه ، ونهب أرزاقهم ، ولم يحسن انفاق موارد بلادهم على التعليم واستنباط أسباب الثروة ، ومكافحة الأمراض والأوبئة وشق الطرق ، وإقامة المدن ، وبث الثقافة والفنون ، لا يذنب له ، ولا ذنب فيما وصلت اليه الشعوب الشرقية من تدهور اجتماعى ، وتحلل خلقى ، رقد عبر عن هذا رأى رئيس الولايات المتحدة تيودور روزفلت حينما زار مصر سنة ١٩١٢ ، فأقامت تصريحاته الدنيا وأقعدتها ، ونظم فى الرد عليه أمير الشعراء أحمد شوقى قصيدته البارعة التى كان مطلعها :

« أيها المنتحى بأسوان دارا . . . »

وقد اجتراً المؤلف على رمى المصريين بصراحة جافية خالية من كل ذوق ، ومجافية للروح العلمى والحقائق الموضوعية حينما قال أن المصريين خاملون وسلبيون ، وقد عقت على هذا الحكم الظالم الفاسد فى هامش الصفحة التى ورد فيها هذا القول (*) ، وهو لا يستحق أن نقف أمامه أكثر مما وقفنا . وصدوره بهذه الصراحة ينفعنا لنقف على رأى الغرب فينا ، لا لنثور ونحتد ، ولا لنرد عليهم بالسباب واللعنات . بل لنقدر هذه الأحكام ، ونتصرف على ضوءها ، فيما نضع من خطط .

وأحسب أن الأوربيين والأمريكيين لا يجرون الآن على إصدار مثل هذا الحكم وأبناؤنا يعيشون بين ظهرائهم أساتذة جامعات ، وخبراء علوم ، ومستشارى صناعة واقتصاد ، ينافسسون أبناءهم ويسبقونهم ، على الرغم من أنهم طارئون على المجتمع الغربى ، وحديثو

(*) يجد القارئ تعليقات الأستاذ فتحى رضوان على متن الكتاب بعد هوامش المؤلف وبحروف أكبر مسبقة بهذه العلامة (*)

عهد بأساليب ومناهجة . والحق ان الانسان ليعجب من أن يرمى كاتب غربي ، شعب مصر ، بالخمول والسلبية ، وقد قام شعب مصر في خلال خمسين سنة أو يزيد قليلا ، بأربع أو خمس ثورات ، غيرت تاريخ العالم في المنطقة العربية أو منطقة شرق البحر الابيض المتوسط . فتورة عرابي سنة ١٨٨١ تلتها حركة مصطفى كامل ضد الاحتلال البريطاني ، وهي ثورة بكل معنى هذا اللفظ ، ثم ثورة سنة ١٩١٩ ، التي أذهلت الغرب ، وكان يحسب أن انتصاره على ألمانيا وحلفائها في حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ سيخيف شعب الفلاحين الفقراء الذين يقيمون في وادي النيل ، أعلاه بمصر ، وأدناه بالسودان . فاذا بهؤلاء الفلاحين الحفاة يخرجون عليهم بفؤوسهم ، يتحدون بنادق الأقوياء ومدافعهم . ثم كانت ثورة ١٩٣٥ ، وتوجت كل هذه الثورات بثورة سنة ١٩٥٢ التي كنست ما بقي من نفوذ الاستعمار الغربي في ميادين العسكرية والسياسة والاقتصاد والثقافة ، وطردت فلول هذا النظام الظالم ، المعتدى ، الذي فرغ من معناه ، ان كان له معنى غير السلب والنهب والقرصنة .

وترى المؤلف حائرا بين نظريتين ، فهو يأخذ على الحزب الوطني حزب مصطفى كامل ، تارة أنه ليس ثوريا بالقدر الكافي الذي يمكن الحزب من قيادة الشعب الى مواجهة صريحة مع جيش الاحتلال ، ثم يعود فيأخذ على الحزب أنه يلجأ الى أساليب ثورية لتحطيم الأنظمة الدستورية التي يطمع فيها ، ويدعو اليها .

والحق أن الحزب الوطني كان يلجأ الى الأسلوب أو الخطة التي تقتضيها الظروف ، فهو يدعو بأسلوب الاصلاح والدعوة ، حتى تكتمل أسباب الثورة ، ويتوافر جوها ، ويتهيأ الشعب ليخوض معاركها ، وعندها يلجأ الى أسلوب الثورة كما حدث في ٣ مارس و ٣١ ابريل سنة ١٩٠٩ بمناسبة قانون المطبوعات الذي مس حرية الصحافة وانتقصها ، كما حدث تهيؤ ثوري في حادثة طابة حتى خيل للسلطات البريطانية أنهم على أبواب ثورة ، ولما اشتد تضيق السلطات العسكرية خلال الحرب العالمية الأولى ، فاغلقت صحف الحزب الوطني ، ومنعت الاجتماعات العامة ، ونفى زعماء الحزب الى مالطة وغيرها ، واعتقل شباب الحزب في الداخل ، ولم يعد يسمع الا صوت الحكومة ودعايتها وصحفها ، لم يكن ثمة مفر من اللجوء الى الأساليب الثورية ، فتوالت حوادث الاعتداء على الوزراء المصريين الدائرين في فلك الاستعمار البريطاني ، بل وعلى السلطان نفسه ، رأس هذا النظام .

وقد تورط المؤلف فى نسبة وقوع الفتنة الطائفية سنة ١٩١٠ الى الحزب الوطنى ، وحمل عبد العزيز جاويش وزر تلك الفتنة ، وقد علقنا على هذا الاتهام الكاذب فى موضعه ، وحسبى هنا أن أقول ان مصطفى كامل لم يكف قط عن الدعوة الى وحدة الأمة ، والى التصريح بأعلى الصوت ، وملء الفم ، بأن الاسلام ينفر من التعصب ، ويدعو الى وحدة الأديان السماوية ، وبذل الحب والاخاء لاتباع أهل الكتاب وان عبد العزيز نفسه ابان هذه الفتن التى انطفت نارها سريعا ، حذر من الانسياق لمكائد الاحتلال الذى لم يكن يسره شئ مثل انقسام المصريين الى طوائف متناحرة ، وأنه لا يليق بالمصريين ، أن يمكنوا الدون جورست المندوب البريطانى مما عجز عن تحقيقه سلفه اللورد كرومر ، وقول كهذا لا يصدر عن متعصب ، وانما يصدر عن مسلم صحيح الاسلام ، ومصرى محب لبلده ووطنه بكل طوائفه وعناصره .

وقد فات المؤلف أن فضل مشاركة الأقباط فى الحياة العامة فى مصر يرجع الى الحزب الوطنى ، وأتباعه لا يزالون يعتبرون من مفاخرهم الايمان بوحدة البلاد والدعوة اليها .

وبعد ، فان المصرى ليشعر بالرضا والارتياح حينما يقرأ هذا الكتاب فتكتمل أمامه صورة كفاح وطنى ، متصل الحلقات ، مترامى الآفاق ، كان ينحت الصخر ، ليشق طريقه فى وجه قوى طاغية ، متألبة عليه ، كارهة له ، منها الأجنبى الغربى ، ومنها الأجنبى الشرقى ، ومنها دواع للتخلف موروثة ، ومنها أسباب للتأخر طارئة ، ولكنه استمسك وثابر وصبر ، حتى حرر أرضه من الغاصب الأجنبى ومن الملكية التى تحلت واستحالت فسادا صارخا ، ومن الاستعمار الغربى الثقافى الذى أقام المعاهد ليثبت فى نفوس بنين وبنات مصر ، الكره لثقافتهم ، والاحتقار للغتهم ، والبعد عن دينهم ، والتهافت على ثقافة الدخيل الغاصب والاعجاب بها والاعلاء من شأنها ، ومن الاستعمار الاقتصادى الذى استأثر بموارد بلادنا ، وحرم علينا أن نجدد ونبنى فى مجالات الصناعة والزراعة ، مستشرفا مستقبلا أعظم ، متطلعا الى النهوض برسالة الشرق العربى ، يستأنف بها دوره القديم ، ومكانته السامية ، وسعيه الرائد .

فتحى رضوان

الفصل الأول

بذور القومية المصرية

- مدخل
- الخلفية الجغرافية والتاريخية
- قيام الحركة الوطنية الأولى وفشلها
- ملاحظات عامة

ملحق

فى الخامس من يونيو ١٩٦٧ شنت اسرائيل حربا وقائية (*) على جيرانها العرب ، ردا على اغلاق المصريين لخليج العقبة فى وجه الملاحة الاسرائيلية ، وعلى حملة الدعاية العدائية المتصاعدة فى العالم العربى كله بقيادة القاهرة . وبينما أعلنت القوى الغربية تأييدها لحق اسرائيل فى استخدام خليج العقبة ، حاولت منع الصدام عن طريق الدبلوماسية الهادئة ، ثم امتنعت عن دعم كلا الجانبين عسكريا ، وخلال ساعات كانت الطائرات الاسرائيلية المقاتلة والقاذفة قد دمرت تقريبا سلاح الطيران المصرى القوى ، فى حين كانت القوات البرية تغزو سيناء . ولم ترد الجمهورية العربية المتحدة (المصرية) أن تعلن هزيمتها أمام الاسرائيلين ، فأدعت أن طائرات أمريكية وبريطانية قد اشتركت فى الهجوم ، وقطعت علاقاتها الدبلوماسية بالولايات المتحدة . وهاجمت الجموع الغاضبة القنصليات والمكاتب الأمريكية والبريطانية فى مدن عربية ، وأجبر جميع رعايا الدولتين على الرحيل السريع .

ومنذ نهاية حرب الأيام الستة لم يكفد يخف احساس العرب بالمرارة تجاه الغرب ، ومازال مستقبل النفوذ الغربى فى الشرق الأوسط يحيط به الغموض الشديد ، فان العرب حين تذكروا معاونة انجلترا أو فرنسا فى حملة اسرائيل سنة ١٩٥٦ لم يتراجعوا عن اتهامهم لانجلترا وأمريكا بالتدخل فى الحملة المماثلة سنة ١٩٦٧ ، وتعتقد الحكومات العربية أن التسوية السلمية للصراع مع اسرائيل فكرة غربية تخدم المصالح

(*) هكذا زعمت اسرائيل والواقع أن حروب اسرائيل جميعا كانت حروبا عدوانية

هجومية .

الاستعمارية ، ومن ثم فهي تبدو الآن أبعد مما كانت في أى وقت سابق والاعانات المالية السخية التى تقدمها الدول العربية المصدرة للبترول لمصر هى وحدها التى يمكن أن تنقذها من الانهيار الاقتصادى بعد أن حرمت من كل مصادرها للعملة الصعبة . وقد أصبح من الواضح أن القومية المعادية للغرب تمثل اليوم أهم محرك للسياسة المصرية (*) .

وإذا كان باستطاعة التاريخ أن يضىء الحاضر عن طريق إعادة بناء الماضى ، فانه المؤرخ يستطيع أن يساعد الأجنبى على التوصل لفهم الثلاثين مليون مصرى المعاصرين حين يوضح له كيف ولماذا سيطرت على عقولهم قومية معادية للغرب الى هذا الحد .

لقد ظل الأجانب يحكمون مصر آلاف السنين ، فما الذى جعل قرنا من السيطرة الأوروبية يحدث هذا التأكيد الشامل للذات القومية (**) ؟ ما القومية المصرية ؟ كيف نشأت (***) ؟ وما الوسائل التى أدت الى انتشارها بهذه الصورة الهائلة ؟

ان الاجابة على هذه الأسئلة لاترتبط بمصر وحدها ، ولكنها تشمل كذلك القوميات التى تشبكل الآن المواقف والتصرفات السياسية للشعوب التى كانت مستعمرة فى كل أرجاء المعمورة . وان كان من الحق أن الكفاح المصرى من أجل الكرامة والاستقلال كان نموذجا لكثير من الحركات القومية الأخرى فى افريقيا والشرق الأوسط .

ان القومية قد تكون ايجابية ، تؤكد « بناء الأمة » ، أو خلق نظام

(*) ان هذا الكلام مقلوب تماما ، فالقومية اتجه اصيل لا يقوم اساسا على معاداة الغرب ، انما يقوم اصلا على تحقيق الوحدة وهو اتجاه ايجابى من جهة ، ودائم من جهة اخرى ، فلما قاوم الغرب تحقيق الوحدة طرات معاداة الغرب . ومع ذلك فان قيادات عدد من الدول العربية كانت مرالية تماما للغرب .

(**) المؤلف بهذا التساؤل يكشف جهله بتاريخ مصر القديم فان اقدم القوميات فى العالم هى القومية المصرية ، فقد نشأت حتى قبل توحيد القطرين البحرى والقبلى فى عهد مينا . والنقوش الموجودة على المعابد والهيكل وداخل القبور ، واوراق البردى تثبت كلها ان المصريين كانوا يحسون بوحدتهم بالوطن المصرى وعاداته وتقاليده واديانه قبل ان تولد قوميات اخرى فى الشرق والغرب بآلاف السنين .

(**) ان غرور بعض المفكرين الغربيين يحملهم على تصور ان نفوذهم فى منطقة الشرق العربى ، هو الذى اوجد او خلق شعور العرب بالذات وهم لا يدرون ان هذه المنطقة لفظت على مر الحقب الأجانب الغزاة ، ولعل اكبر مثل يعرفه اهل الغرب هو الحروب الصليبية التى استمرت قرنين ، ثم انحسرت موجتها بفشل كامل .

من القيم يحل محل الولاء القديم للقرية ، أو الاقليم ، أو العقيدة أو القبيلة ، وهو ما يحدث الآن في كل أرجاء آسيا وأفريقيا ، متلما حدث من قبل في أوروبا فيما بين عامي ١٧٨٩ و ١٩١٤ . على أن الجانب السلبي للقومية كثيرا ما يكون أكثر وضوحا ، وهو المتمثل في زيادة مواقف المعارضة للسيطرة الأجنبية ، فقد نشأت القومية بشكل عام كرد فعل مضاد للتهديد الخارجي . ونشيد المارسييليز المثير ألف في الوقت الذي كانت فيه الجيوش الأجنبية تغزو فرنسا للقضاء على الجمهورية . واستمدت القومية الإيطالية وقودها من نيران الكفاح ضد الحكمين الفرنسي والنمساوي . وكذلك القومية المصرية ، عبرت عن نفسها ، أول ما عبرت(*) . سنة ١٨٧٩ ، في شكل معارضة للرقابة المالية الأوروبية وسيطرة الأتراك والجراكسة على المناصب المدنية والعسكرية في مصر . وبعثت من جديد في تسعينيات القرن الماضي كرد فعل مضاد للحماية الانجليزية « المقنعة » ، ثم ازدهرت في أوائل القرن العشرين في حركة شملت الأمة كلها لطرد جيش الاحتلال البريطاني . غير أن رد الفعل لم يكن موجها ضد الحكم الأجنبي وحده – فالمصريون لم يعرفوا الاستقلال خلال ألفى وخمسمائة سنة (**) – بل كان موجها في الوقت نفسه ضد الاضطراب الاجتماعي الناجم عن فرض أفكار ونظم أوروبية ، وبخاصة تلك المستمدة من الثورة الصناعية وديمقراطية القرن التاسع عشر ، على مجتمع اسلامي زراعي محافظ .

وستتصف هذه الدراسة بإيجاز ، في فصلها التمهيدى ، الحركة الوطنية المصرية الأولى ، وتحلل أسبابها ونتائجها ، وجوانب قوتها وضعفها ، وإن كانت بؤرة اهتمامها ستتركز حول الحركة الثانية الممثلة

(*) العجيب أن يقول مؤرخ هذا الكلام ، فمصر عبرت عن قوميتها حينما قاومت الغزو الفرنسي في طول مصر وعرضها حتى أقصى الصعيد ، كما عبرت عن هذه الروح في سنة ١٨٠٣ حينما قضت في رشيد (٢١ مارس من تلك السنة) على غزوة بريطانية بقيادة الجنرال استيوارت ومعاونة الجنرال ويكوب .

(**) هذا خطأ صريح ، فمصر كانت مستقلة تماما لفترات طويلة جدا خلال هذه الحقبة التي يقول المؤلف انها استمرت ١٥٠٠ سنة . فقد نشأت في مصر خلال تلك الفترات دول مصرية مستقلة عن القوى الكبيرة التي كانت موجودة آنذاك ولا ينكر أحد أن آخر دولة مصرية مستقلة من هذا الطراز هي دولة محمد علي التي قامت على جيوش واساطيل كان قوامها جنودا مصريين وبحريين مصريين ، وصنعت اسلحتها وسفنها وذخيرتها في مصر .

فى الحزب الوطنى (١) ، حزب مصطفى كامل (٢) ومحمد فريد . فهذه

(١) تسمية « الحزب الوطنى » باللغة العربية يمكن ترجمتها الى الانجليزية حرفيا « Patorio ic Part » ، (فكلمه وطن فى اللغة العربية الحديثة أصبحت تدل على نفس معنى الكلمة الفرنسية Patrie) او National Party (تستخدم العربية الحديثة كلمة وطنى بمعنى قومى أو أهلى فيقال : الدفاع القومى (national defense) أو «البنك الأهلى national bank» والكلمة الصحيحة التى تقابل فى العربية كلمة «nationalist» هى قومى ، ولئن يبدو أن كلمة وطنى استخدمت بنفس المعنى فى نهاية القرن التاسع عشر وظل هذا المعنى شائعا حتى عهد قريب . وقد اخترت أن أسمى كلا من « الحزب الوطنى الأول » (حزب عربى) وسميه التالى « the National Party » ، لأن هذا الاسم أقرب لوصف طبيعتيهما ومطالبهما . غير أن أيا من الحزبين لم يكن « قوميا National » بمعنى اشتماله على كافة طبقات الأمة المصرية (★) وان حاول كل منهما جذب المصريين الى العمل السياسى دفاعا عن استقلال بلادهم أو لتحقيقه ، وهو من حيث التعريف نشاط قومى . وفى بعض المواضع حيث يخشى من اللبس سأسمى الحزب الأول « الحركة العرابية » . وهناك خلاف آخر حول مدى صحة اعتبار كلا الحزبين « حزبا » وهنا نشير الى مقال هام عن كلمة حزب كتبه د.ب. مكدونالد فى « دائرة المعارف الإسلامية » (ط ١ . لندن بريل ١٩٢٧ ، 322 f.

(D.B. Mac Donal, The Encyclopedia of Islam (1st ed., Leiden Brill, 1927) 322f.

وفد أغرانى صديقى وزميلى نى دراسة القومية المصرية لويس كانتورى Louis Cantori أستاذ مساعد العلوم السياسية بجامعة UCLs بكاليفورنيا ، باستخدام «مصطلح «Watanist» لوصف كل من الحزب وأتباعه ، طالما كان مصطلح Nation-list كثيرا ما يستخدم للدلالة على كل المصريين المعارضين للحكم الأجنبى ، سواء أكانوا من مؤيدى الحزب الوطنى أم من غيرهم ، ورايه مقنع ، وبخاصة بالنسبة للفترة التى تلت سنة ١٩١٩ حينما قوى الوفد قيادة كفاح مصر من أجل الاستقلال ، ولكنى نفرت مع ذلك من نحت كلمة انجديرية مبهمه المعنى بالنسبة لمن لايعرف العربية . وعلى هذا فكلما ظهرت كلمتا nationalist و nationalism فى هذه الدراسة بحروف صغيرة يكون المقصود بها المعنى العام لا الاصطلاحى .

(٢) مصطفى كامل (١٨٧٤ - ١٩٠٨) : الزعيم الوطنى المصرى ، ويجب ألا نخلط بينه وبين مصطفى كمال أتاتورك . وأسماء الشخصيات والأماكن العربية ، والمصطلحات الفنية ، نقلت كلها تقريبا فى هذه الدراسة بصورة حرفية وفق منهج «دائرة المعارف الإسلامية» مع تعديلات طفيفة .

(★) من الأخطاء الشائعة فى كتب الغربيين أن الحزب الوطنى الذى أسسه مصطفى كامل لم يكن يضم جميع طبقات الأمة المصرية مع أن أعضاء اللجنة الادارية الأولى للحزب الوطنى المنتخبة فى ديسمبر سنة ١٩٠٧ قد ضمت عددا من كبار الشخصيات كعمر سلطان باشا ومحمد فريد بك وبعض كبار الموظفين والأعيان كأحمد نافع باشا ، وعددا من المثقفين من أصحاب المهن الحرة كرياضا واصف ، كما ضمت عددا من الموظفين السابقين من فقراء المصريين كشقيق مصطفى كامل : على فهمى كامل . وقد اثبت عدد من كبار كتاب الغرب =

محمد فريد

الحركة هى التى نشرت فكرة القومية وغيرها من الأفكار الليبرالية بين الطبقة المتوسطة الصاعدة فى مصر . وسنوجه اهتماما خاصا لدور الحزب الوطنى فى تطور أيديولوجية الحركات السياسية الشعبية فى مصر الحديثة ، وتنظيمها ، واستراتيجيتها ، وتكتيكاتها .

= أن جريدة « اللواء » كانت صحيفة جميع المصريين ، وإنها كانت تقرأ فى القرى ولنجوع .
ولما حدثت فاجعة دنشواى التى ذهب ضحيتها عدد من الفلاحين الشرفاء ، استطاع الحزب الوطنى أن يكتل الشعور الشعبى تأييدا لهم وعظما عليهم . ولما توفى مصطفى كامل فى فبراير سنة ١٩٠٨ كانت جنازته مظاهرة اشتركت فيها جميع طبقات مصر .

الخلفية الجغرافية والتاريخية

حقيقتان جغرافيتان كان لهما أعمق الأثر في تطور مصر • الأولى موقعها بين البحرين الأبيض والأحمر ، في منتصف الطريق الرئيسي بين أوروبا والشرق الأقصى ، وقد ظلت الاسكندرية والقاهرة والسويس زمنا طويلا مستودعات تجارية رئيسية ، ومراكز ثروة العالم الاسلامي في العصور الوسطى • واذا كانت تلك المدن قد تدهورت بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وازدهاره ، فانها ما لبثت أن استعادت أهميتها بعد افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ • وأصبحت كل دولة تهتم بالسيطرة على هذا الطريق التجارى الحيوى تحرص على أن تحكم مصر ، أو على الأقل تمنع غيرها من حكمها •

والحقيقة الجوهريّة الأخرى تتمثل في أن مصر جزء من الحزام غير المطير الممتد عبر شمال افريقيا ، ولولا نهر النيل لما استطاعت أن تطعم هذا الحشد الكبير من أهلها • والفيضان السنوى للنيل ، الذى ينظمه الانسان فى قنوات ، يقدم المياه والطمى المخصب اللازمين لزراعة طعام يكفى المزيد من السكان • وابتكار الانسان لنظام رى الحياض هو الذى جعل الزراعة ممكنة فى وادى النيل ، وقد تطلب هذا النظام ادارة مركزية قوية تشرف على توزيع المياه والأراضى وانتظام الرى • وهكذا توحدت مصر سياسيا منذ الألف الرابعة قبل الميلاد ، وضرب المثل بسهولة حكمها، وحتى عهد قريب كان باستطاعتها انتاج فائض من المحصول الزراعى يكفى للانفاق على حضارة مادية متقدمة • ومن السهل كذلك أن يقتحم الغزاة مصر من الخارج ، ومن ثم أمكن أن يستغلها الحكام المحليون والأجانب على السواء ، كما حدث بالفعل فى معظم تاريخها •

واذا كانت الحركة القومية ، فى جانب منها ، استجابة لمجموعة من القوى غير المتوازنة أثرت فى المجتمع المصرى ، فمن المناسب أن نتتبع تاريخ مصر عائدتين الى عصر ساد فيه توازن اجتماعى نسبى ، قبل غزو نابليون سنة ١٧٩٨ ، فى نهاية القرن الثامن عشر كان تعداد مصر يتراوح بين مليونين وثلاثة ملايين نسمة ، أى أقل بكثير من تعدادها فى العصور الاسلامية السابقة ، وكان معظم الشعب من المسلمين السنيين ، فى حين لايزيد عدد الأقباط المسيحيين عن الخمس ، وكانت لغتهم الرئيسية هى العربية ، ومعظمهم ينحدر من المصريين القدماء ، مع مزيج عربى يرجع الى الفتح الاسلامى والهجرات البدوية التالية له . وبالإضافة الى ذلك كان هناك عنصر عربى « خالص » من البدو الرحل أو المقيمين . على أن الطبقة الحاكمة لم تكن مصرية ولا عربية (*) ، بل كانت أقلية تنحدر أساسا من سلالات تركية وجركسية .

ومن الناحية النظرية كان يحكم مصر وال محلى يعينه الحاكم العثمانى ويسأل أمامه ، تعاونه طبقة بيروقراطية صغيرة من الأتراك . أما فى الواقع ، فان ذلك الوالى كان يفتقر حتى الى مجرد حامية صغيرة ، وكان أقرب لسجين فى القاهرة ، فى حين كانت القوة الحقيقية فى أيدي طوائف بكوات المماليك المحاربين ، وهم سلالة المماليك الذين حكموا مصر قبل الغزو العثمانى سنة ١٥١٧ . ولا يستطيع الوالى ممارسة نفوذه الا عن طريق اذكاء الخلافات بين المماليك والفوز بتأييد الزعماء المحليين الأقوياء ، وقام العلماء ، أو مشايخ الاسلام ، بدور هام فى الوساطة بين الحكام والمحكومين بالإضافة الى دورهم فى الوعظ ، والتدريس ، والقضاء ، والتشريع وإدارة الأوقاف (١) ، ووظائف الحكومة . وكانوا يتمتعون بمكانة ممتازة لدى الرعية أو طبقات المحكومين ، التى انبثق منها بعض العلماء لا كلهم . وكانت طبقة المحكومين تتكون من التجار والحرفيين فى

(*) ليس فى هذا شئ غريب ، فان العائلات المالكة فى أوروبا الحديثة تنتسب الى أصول عرقية غير أصول الشعب الذى تحكمه ، فالعائلة المالكة الانجليزية هى فى الواقع ألمانية والعائلة المالكة السويدية تنحدر من القائد الفرنسى برنادوت ، والأمراء وأصحاب الاقطاعيات فى كل أوروبا كان أكثرهم من غزاة جاءوا من خارج البلاد . ومع ذلك فان الحكام الذين ينتسبون الى أصول أجنبية هضمتهم مصر ، فتكلموا لغتها ، وتطبعوا بطبيعتها ، واستعانوا لى الحكم بأفراد من صميم أهلها كانوا هم أصحاب المال والعقد ، وان بنا أن الحكم كله لأجانب .

(١) الأوقاف ، جمع وقف ، وهو مؤسسة اسلامية ينفق عليها من ريع عقار مورث فى وصية لا تجيز التصرف فيه .

المدن ، والفلاحين فى الثرى ، والبدو فى الصحراء ، أو على الأقل من يمكن حملهم على دفع الضرائب منهم . وكانت مهمة تلك الطبقة هى انتاج الفائض الاقتصادى اللازم لمعاونة الامبراطورية العثمانية ، وكانت مصر وقتذاك تسهم فى ثروتها بقدر أخذ يتناقص شيئا فشيئا (١) .

وكان ينظم استغلال الطبقة الحاكمة للرعية قانون الالتزام ، أو ضريبة الزراعة ، وهو نظام كان الحكام يجمعون بواسطته أكبر قدر من الضرائب يستطيعون اغتصابه من الشعب ، ليدفعوا قدرا ثابتا للخزينة العثمانية ، ويضعوا الفرق فى جيوبهم . وكثيرا ما كان الملتزم ، أو مؤجر الضريبة ، يصبح — من خلال تراكم الضرائب المتأخرة — مالك الأرض الفعلى ، ولكن دون رغبة أو قدرة على استغلال العقار .

كانت واجبات الحكومة المحلية مقصورة على امداد الخزانة العثمانية بالجزية ، ومواصلة الأشغال العامة ، وصدد غارات البدو . أما معظم الواجبات العامة الأخرى ، كادارة التعليم ، والرعاية الاجتماعية ، والقضاء ، فكانت تتولاها المجالس المالية ، أو الجمعيات الطائفية ، فلكل من المسلمين والمسيحيين الأرثوذكس واليهود مجلسهم الملى ، يرأسها على التوالى : شيخ الاسلام ، والبطريرك ، والحاخام ، وكل منهم مسئول بدوره أمام السلطان . ومع أن مجتمع الأقباط فى مصر كان يخضع نظريا لبطريرك اليونان الأرثوذكس فى القسطنطينية ، فقد كان لهم فى الواقع بطريركهم الخاص بهم المقيم فى القاهرة ، ثم فى الاسكندرية فيما بعد .

(١) أفضل المصادر عن مصر فى القرن الثامن عشر هى :

— هـ. ر. جيب و هارولد باون : المجتمع الإسلامى والغرب ج ١
H.A.R. GIBB and HAROLD BOWEN, Islamic Society and the West, I
London : Oxford University Press, 1950 — 1957);

— والكتب التالية التى ألفها أو أشرف على نشرها ستانفورد ج . شو

وهى :

— « مصر العثمانية فى عصر الثورة الفرنسية »
— Ottoman Egypt in the Eighteenth Century. (Cambridge : Harvard
University Press, 1961).

— « مصر العثمانية فى عصر الثورة الفرنسية »
Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution. (Cambridge, Harvard
University Press, 1964).

— « التنظيم المالى والإدارى والتطور فى مصر العثمانية ١٥١٧ — ١٧٩٨ »
The Financial and Administrative Organization and Development of
Ottoman Egypt 1517-1798 (Princeton, Princeton University Press,
1962).

وكان للاوربيين فى الامبراطورية العثمانية - بما فيها مصر - اعفاءات ومزايا قضائية خاصة بموجب اتفاقيات عرفت بالامتيازات الأجنبية ، كانت تخول لقنصليات بلادهم تطبيق القوانين عليهم .

وكانت المدن الكبرى - كالقاهرة - مقسمة على أساس طائفى عادة الى أحياء سكنية ، يرأس كل منها شيخ ، عمله بوليسى بالدرجة الأولى . وكانت الحياة المدنية والاجتماعية - كالحياة الاقتصادية - تتركز حول النقابات أو الاتحادات المهنية والدينية ، وكثيرا ما ترتبط بالطرق الصوفية ، أو أخوة مذاهب أدل الباطن .

أما سكان الريف فكانوا مكسسين فى القرى تحيط بهم حقولهم المزروعة . وكان محصول الزراعة فى الأغلب الأعم بقدر متطلبات القوات مع فائض هزيل يخصصه المالك ورجال الدين ، مستخدمين نفوذهم باعتبارهم ملتزمين . لقد حول نظام الالتزام الفلاح الى حالة قريبة من العبودية ، ولكنه لم يجعل للملتزم أو الزارع أى مصلحة فى المحافظة على الأرض أو تحسينها ، ومن ثم لا يكاد يبقى مجال للدهشة لهجر كثير من الفلاحين مزارعهم الى القاهرة ، أو ارتدادهم للبداءة ، أو تناقص تعداد السكان .

وعند نهاية القرن الثامن عشر وصل المحصول الزراعى ، وهو قوت مصر الرئيسى ، الى أدنى مستوى بلغه على مر عصور التاريخ ، نتيجة عدة عوامل متداخلة ، من نظام الالتزام ، ومعارك الممالك ، وعجز الولاة العثمانيين . واتخذ سخط الشعب شكل انتفاضات متتالية يقودها أعيان الأقاليم أو نقابات المدن ، فينجح بعضها ، ويفشل البعض الآخر .

ورغم أن تحول التجارة الأوربية الى رأس الرجاء الصالح قد أثر فى حرمان مصر من رخائها السابق ، فمن الصعب تصور حكومة أسوأ من تلك التى ابتلى بها المصريون فى نهاية القرن الثامن عشر .

على أن سوء الحكم الذى عانت منه مصر لم يكن يتعارض بعنف مع نظرة سواد الشعب لمجريات الأمور . فالضرورات الاقتصادية جعلت أهل وادى النيل يفضلون حكومة سيئة على لا حكومة على الإطلاق . فضلا عن ذلك فالديانة السائدة وهى الاسلام السننى (*) ، الذى بدأ بالتسليم

(*) الاسلام لا يدعو فى أى مذهب من مذاهبه ، سنية أو شيعية ، الى الاذعان للحاكم الظالم ، أو قبول الفساد ، أو السكوت عليه . انما وصل الشعب المعزى فى عهد المماليك ، الى تطورات كثيرة متوالية ، وعجز قادته ، وانعدام الزاد الثقافى الذى كان يدعم حرمة المقاومة للحكام الطغاة واتباعهم الفاسدين ، وهو امر يحدث فى مرحلة ما من مراحل حياة الأمم .

بشرعية حكم بنى أمية رغم معارضة أهل التقى ، قد شجع على الرضا التقليدى بالنظم السياسية القائمة ، مهما كانت فاسدة ، وتفضيلها على الثورات وما يترتب عليها من اضطرابات اجتماعية . كان المجتمع المصرى راكدا ، ولكنه مستقر يسيطر الاسلام عليه . ولأن المصريين كانوا فى عزلة عن أوروبا ، فلم يتأثروا بالتغيرات السياسية والاقتصادية التى تمت هناك فى أواخر القرن الثامن عشر . كان أول حدث عنيف الأثر فى تاريخ مصر الحديث هو غزو نابليون سنة ١٧٩٨ ، ولم تبق القوات الفرنسية بمصر الا ثلاث سنوات ، وهى فترة غير كافية لاجداث تغييرات دائمة أو ثورية ، غير أن هذا الاحتلال كان أول تجربة لمصر مع الحكم الأوروبى منذ ما قبل الفتح العربى ، قضت على الاعتقاد الشائع بتفوق المسلمين على الغرب المسيحى ، وأوضحت للقوى الأوربية أهمية مصر الاستراتيجية ، وكانت أهم آثارها الداخلية انقلابا سياسيا واجتماعيا ، أضعف المماليك وزاد من قوة العلماء (رجال الدين) .

وبفضل هذا الانقلاب أصبح الحدث الهام الثانى ممكنا ، وهو ظهور محمد على ، فى البداية أرسلته الحكومة العثمانية على رأس كتيبة ألبانية لاقرار النظام فى مصر ، فاستولى على الحكم عن طريق استخدام كل من القوى الداخلية المتنافسة واحدة أثر الأخرى ، ثم القضاء عليها بعد ذلك . فاعترف به السلطان العثمانى واليا على مصر سنة ١٨٠٥ ، وفى سنة ١٨١١ كان قد قضى على المماليك وعلى كل معارضة من جانب العلماء (١) .

وقد حظى محمد على بشهرة مبالغ فيها بعض الشيء باعتباره مؤسس مصر الحديثة وباعث القومية المصرية ، ولم يكن ذلك بسبب أهدافه وانجازاته الهائلة فحسب . بل لأن سلالاته ظلت تحكم مصر حتى سنة ١٩٥٢ . وقد حاولت بعض الدراسات الحديثة توضيح أن باعته الرئيسى كان المجد الشخصى وأن إصلاحاته الاقتصادية والعسكرية

(١) الروايات الانجليزية المعتمدة لوصول محمد على الى الحكم هى : هنرى دودويل :

« مؤسس مصر الحديثة - دراسة عن محمد على »
Henry Dodwell, «The Founder of Modern Egypt, a Study of Muhammad Ali», Cambridge, Cambridge University Press, 1931.

شفيق غربال « بدايات المسألة المصرية وظهور محمد على »
Shafik Ghorbal, "The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali", London Routledge, 1928.

كان هدفها تقوية نفوذه والقضاء على مراكز القوى المنافسة (١) .

وأيا كان الأمر فالذى لا شك فيه أن الاجراءات التى اتخذها قد أحدثت ثورة فى حياة مصر الاقتصادية والاجتماعية ، وقوت بعض الطبقات الموجودة وقضت على بعضها الآخر . وصاحبت مستحدثات التكنولوجيا الى مصر أفكار سياسية واجتماعية هدمت أسس النظام القديم ، كما أن مغامرات محمد على العسكرية فى الأقطار المجاورة، التى بلغت قممتها فى حربه لسيادته العثمانيين من أجل سوريا ، جعلت مصر مصدر ازعاج لسياسة توازن القوى الأوروبية .

بدأ محمد على اصلاحاته بالقضاء على نظام الالتزام وفرض ملكية الدولة المباشرة لكل الأراضى غير الموقوفة ، وقيد فى الوقت نفسه استخدام الأوقاف ومنع سوء استغلالها . وبدأ يعمل فى تطوير منشآت جديدة للرى ، أهمها القناطر الخيرية وشبكة من الترعى ، تسمح بالانتقال الجزئى من رى الحياض الى الرى الدائم ، ومن ثم الحصول على ثلاثة محاصيل بدلا من واحد ، كما أدخل محاصيل صيفية جديدة كالقطن ، والنييلة ، والدخان ، فجعل المزارع أكثر استجابة لمتطلبات السوق ، وحسن وسائل المواصلات النهرية والبرية ليزيد من حيوية الاقتصاد الجديد المندفع .

كان محمد على أول حاكم غير أوربى يفتن الى أهمية الثورة الصناعية. فحاول انشاء مصانع انتاجية تديرها الدولة ، بالاستعانة بالخبرات والمعدات والمشرفين الأوربيين ، ولاعداد القوى البشرية التى تسير نظامه الجديد أنشأ المدارس ، وبخاصة فى التخصصات الحربية والبحرية ، والطب ، والهندسة ، والترجمة . واستقدم الخبراء والمدرسين الأوربيين ، وأرسل المصريين الى أوربا ، والى فرنسا على وجه الخصوص ، ليدرسوا المواد الحربية والصناعية . وأنشئت فى عهده أول مطبعة عربية فى مصر . وتلاها نشر ترجمات عربية وتركية للمؤلفات التقنية ، وكذلك أول جريدة عربية ، وهى « الوقائع المصرية » الجريدة الرسمية للحكومة (٢) .

(١) راجع بصفة خاصة : هيلين آن ب. ريفلين : « سياسة محمد على الزراعية فى

مصر . » Helen B. Rivlin : « The Agricultural Policy of Muhammad Ali in Egypt », Cambridge University Press, 1961.

(٢) عن التعليم المصرى فى القرن التاسع عشر والموضوعات المشابهة ، انظر :

ج . هيوارث دن : مقدمة لتاريخ التعليم فى مصر لحديثة . »

J. Heyworth-Dunne, « An Introduction to the History of Education in Modern Egypt », London, Luzac, 1938.

هذه الاصلاحات لم تكن موجهة لرفع مستوى معيشة المواطن المصري العادى بقدر ما كانت موجهة لدعم القوة العسكرية للدولة . لقد كون محمد على جيشا قويا لا يعتمد على السيطرة العثمانية ، ولا على طوائف المماليك ، بل لم يعتمد حتى على كتيبته الالبانية . وقد جند الفلاحين المصريين رغم مقاومتهم ، وكون منهم قوة مقاتلة مشرفة ، فوضع بذلك - دون قصد منه - أساس مشاركة أبنائهم فى الحركة الوطنية . وأصبح جيشه المنظم والمزود بالعتاد وفقا للأسس الاوربية ، أداة قوية للفتح والتمدين . ولقد بلغت قوة هذا الجيش درجة استطاع معها أن يسيطر على كل ممتلكات السلطان فى آسيا ، ويهدد استقرار الامبراطورية العثمانية وميزان القوى الأوربي .

واختارت القوى الأوربية - باستثناء فرنسا - الحفاظ على الامبراطورية العثمانية وتوازن القوى بين دول أوربا ، فأجبرت « محمد على » على تقىء مكاسبه السورية ، ثم أصدر السلطان فرمانا منح بموجبه حكم مصر والسودان لمحمد على وورثته من بعده ، مقدما بذلك اعترافا شرعيا باستقلال مصر الذاتى القائم فعلا .

ورغم أن انتصارات مصر العسكرية فى عهد محمد على قد أصبحت فيما بعد مصدر فخار للوطنيين (وسندا لمطالبتهم بالسودان) فلم يكن هو نفسه يتصرف كوطنى مصرى ، فالواقع انه لم يكن يتكلم العربيه الا بصعوبة شديدة وكان هدفه الأساسى هو زيادة قوته الشخصيه . وليس هناك ما يصور صدق هذه الحقيقة أكثر من مصير اصلاحاته بعد صدور فرمان السلطانى الذى فرض تخفيض حجم جيشه الى ٣٨٠٠٠ مقاتل ، فسرعان ما فقد اهتمامه بالمدارس والمصانع ، فاختفى معظمها بعد وقت قصير . وبتطبيق الاتفاقية الانجليزية - التركية الخاصة بالتعريف الجمركية على مصر ، انتهى احتكاره للتجارة ، وأصبح من المستحيل حماية الصناعات المصرية - القاصرة نسبيا - ضد منافساتها الأوربية ، كما لم تعد الأراضى الزراعية حكرا للدولة ، بل تحول جانب كبير منها الى مساحات من الأملاك الحرة ، وفى حالات كثيرة الى ضيعات شاسعة أهديت الى أقارب محمد على والمقربين منه ، أو لكبار الموظفين الاداريين والعسكريين ، مكونة بذلك من جديد طبقه أرستقراطية قوية من ملاك الاراضى .

وقام عباس الاول (١٨٤٩ - ١٨٥٤) أكبر أحفاد محمد على ، باتمام عمل سلفه تقريبا فى تقويض اصلاحاته السابقة . غير أن

« عباس » لم يكن رجعيا خالصا ، اذ في عهده حصلت شركة انجليزية على موافقته على انشاء أول خط حديدى فى مصر بين القاهرة والاسكندرية وقد شهد النصف الاول من القرن التاسع عشر نموا سريعا فى حجم حركة التجارة والمسافرين بين دول أوروبا الصناعية وأسواقها فى آسيا ورغم أن طريق رأس الرجاء الصالح ظل ثلاثة قرون الطريق الرئيسى للتجارة فقد تجدد التفكير فى طريق أسرع وأقل تكلفة عبر البحرين الأبيض والأحمر . وفى منتصف القرن كانت الشهور الأربعة التى يستغرقها هذا الطريق قد انخفضت الى أربعين يوما باستخدام السفن النهرية وعربات المسافرين بين الاسكندرية والسويس (١) . وتنافس الخصمان الرئيسيان على النفوذ فى مصر ، وهما بريطانيا وفرنسا ، على تقديم مشروعات تحقق مزيدا من خفض وقت النقل وتكلفته . وجاء رد عباس ، مخالفا تحيز سلفه لفرنسا ، بالموافقة على خطة بريطانيا بانشاء خط سكة حديد برى ، فى حين أيد خلفه سعيد (١٨٥٤ - ١٨٦٣) المشروع الفرنسى . ومنح الدبلوماسى الفرنسى فرديناند دى ليسبس امتياز شق قناة بحرية تصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر فأنشئت قناة السويس بتكاليف باهظة من أموال الحكومة وأرواح العمال ، لتسهم بدور ضئيل فى تنشيط الاقتصاد المصرى . فرسوم العبور فى القناة حتى حينما آلت الى مصر ، لم تكد تعوض خسارة الدخل الذى كانت تحصل عليه من قبل على التجارة البرية (٢) . وأهم من ذلك فقد حولت القناة مصر الى منطقة استراتيجية لا يمكن أن تسمح أى دولة قوية بوقوعها فى يد أى عدو محتمل .

وباستثناء محمد على نفسه ، لم يؤثر أى عضو من أسرته فى مصر بأعمق مما أثر حفيده اسماعيل الذى خلف سعيدا سنة ١٨٦٣ . فبالإضافة الى متابعته مشروع قناة السويس حتى اتمامه ، أخذ اسماعيل على عاتقه تشييد العديد من المنشآت العامة (٣) ، وأضفى الطابع

(١) ١٠١ كروتشلى « التطور الاقتصادى فى مصر الحديثة »
A. E. Crouchley : « The Economic Development of Modern Egypt », London, Longmans Green, 1928, p. 83.

هـ.ل. هوسكنس : « الطريق البريطانية الى الهند »
H. L. Hoskins : « British Routs to India », London Longmans, 1928, p. 236 f.

(٢) ثيردور رودشتين : « خراب مصر »
Theodore Rothstien : « Egypt's Ruin », London, Field, 1910, p. 43.

(٣) تشييد ٤٣٠ جسرا (كوبرى) ، ٩١٠ أميال من خطوط السكة الحديد ، ٨٤٠٠ ميلا من الترع والقنوات ، ٦٤ مصنعا للسكر . (Ibid, p. 116 f.)

الأوربي على أقسام كبيرة من القاهرة والاسكندرية بتكاليف باهظة .
واسنطاع في البداية تمويل خططه المسرفة عن طريق رفع ضريبة الدخل
بصورة مفاجئة . وكان ذلك ممكنا نتيجة زيادة الحاصلات الزراعية ،
وحجم الصادرات ، وسعر القطن طويل الثيلة . وخلال الحرب الأهلية
الأمريكية حرمت مصانع النسيج في أوروبا من مددها المعتاد من القطن
فدفع منهجو النسيج أسعارا مرتفعة لكل القطن الذي استطاعت مصر
إنتاجه (١) .

ولكى يحصل اسماعيل على موارد إضافية واصل الإجراء الذي
بدأه سعيد باستدانة الأموال من المصارف الأوروبية . وطوال فترة رواج
القطن ظلت ديون الحكومة المصرية في حدود معقولة ، فلما انتهت الحرب
وعادت واردات قطن الجنوب الأمريكي إلى عهدها السابق كان لا بد
أن ينخفض طلب أوروبا للقطن المصري ، ومن ثم هبطت ضريبة الدخل
في مصر ، ووجد اسماعيل نفسه مضطرا إلى البحث عن قروض أكبر
بشروط أسوأ ، لكي يستطيع مواصلة خططه في التوسع الاقتصادي
ودفع أقساط ديونه السابقة . وخلال فترة حكمه التي امتدت ست عشرة
سنة ارتفعت ديون الحكومة المصرية من ثلاثة ملايين جنيه إلى ثلاثة
وتسعين مليونا . (٢)

وسخا اسماعيل بقدر إضافي من إيراد الدولة على شبكة المدارس
المصرية المتزايدة من ابتدائية وثانوية ، وقد أنشئت وفقا للنموذج
الفرنسي في التنظيم والمناهج . وفي عهده بدأت مطبعة الجريدة اليومية
وهي منشأة شبه تعليمية ، في القيام بدورها ، فانتظمت الجريدة
الرسمية « الوقائع المصرية » في الصدور . وأعان اسماعيل أول
جريدة أهلية ، وهي « وادي النيل » التي بدأ صدورها سنة ١٨٦٦ .
وتلتها صحف أخرى أهلية على صلة بالحكومة . وفي البداية كانت
الصحف المستقلة اما بعيدة عن السياسة أو مؤيدة لاسماعيل ، ولكن

(١) ذكر كروتشيل Crouclley, p. 63 ان انتاج سنة ١٨٦٠ كان حوالى ٥٠٠,٠٠٠
قنطار بسعر ١٢ ريالا للقنطار فزاد سنة ١٨٦٥ الى مليونى قنطار بسعر ٤٥ ريالا للقنطار
(القنطار وزن مائة رطل تقريبا ، والريال يساوى دولارا)

(٢) روى دافيد س. لاندز قصة ورطة اسماعيل المالية في كتابه « بنوك وباشوات »
David S. Landes : « Bankers and Pashes », Cambridge, Harvard University
Press, 1958.

والكتاب ترجمه الى العربية د. عبد العظيم انيس ونشرته دار المعارف سنة ١٩٦٦

قرب نهاية حكمه ظهرت عدة صحف ، وسمح لها بالاستمرار ، رغم أنها دأبت على نقد نظام حكمه والدعوة الى آراء وطنية (١) .

ومن الممكن رواية قصة مشابهة عن انجساز آخر من انجازات اسماعيل ، وهو أول مجلس نيابي في مصر . فقد دعاه الى الانعقاد سنة ١٨٦٦ ليحصل منه على تأييد محلي على ضرائب جديدة فرضها تدهور دخل الحكومة نتيجة لانحياز رواج القطن . وكان مقصودا به أن يكون مجلسا استشاريا لا تشريعيًا ، غير أن أعضاءه ، ومعظمهم من أبناء الارستقراطية الريفية ، بدأوا يستشعرون مع الوقت أهميتهم وقدرتهم على المساواة فما جاءت سنة ١٨٧٧ و ١٨٧٨ ، حتى كانوا هم الآخرون . كالصحافة ينقدون بحرية سياسات اسماعيل (٢) .

وكذلك أثرت قوة الاقتباس عن أوروبا في جهاز العدالة في مصر . فبسبب ازدياد عدد الأجانب المقيمين في مصر ، وعدم كفاءة محاكم القنصليات أنشئت المحاكم المختلطة سنة ١٨٧٥ . وترتب على ذلك مباشرة عدم الاهتمام باصلاح نظام القضاء المصري ، وكان لا يزال أقرب المطائفية منه للعلمانية . وعلى المدى البعيد كانت المحاكم المختلطة هي النموذج الذي احتذى في تطوير القضاء المصري ، فكان المحامون هم الذين سيطروا على الجيل الثاني من الوطنيين المصريين . واشتركت المدارس الحكومية مع الصحافة ومجلس الشورى والمحاكم المختلطة في وضع الأسس التي ساعدت على ازدياد الاهتمام الشعبي بالسياسة ، ومن ثم قيام الحركة الوطنية المصرية .

لقد أصبحت مصر دولة قبل أن تصبح أمة (*) . فقد تابع

(١) عن التطور المبكر للصحافة المصرية : انظر : كمال الدين جلال : نشأة الصحافة اليومية ونظرها في مصر

Kamal Eldin Galal : " Entstehung und Entwicklung der Tagespresse in Agypten » , Frankfurt. Main, Verlag Moritz Diesterweg, 1939.

(٢) عن بدايات المؤسسات النيابية في مصر انظر جيكون م. لاندو :

« البرلمانات والأحزاب في مصر »

Jacob M. Landau : «Parliaments and Parties in Egypt», Tel Aviv, Israel Oriental Society, 1953, pp. 7-22.

ومن أجل وجهة نظر مصرية انظر : أحمد عبد الرحيم مصطفى :

« ثورتنا الديمقراطية » ، الهلال ، المجلد ٧٣ ، العدد ٦ ، يونيو ١٩٦٥

(*) المؤلف حريص على أن يكرر هذا الهراء الذي يتحدى كل الحقائق العلمية الثابتة

في كتب أساتذة الأوربيين والأمريكيين الذين يقرون أن مصر هي أقدم الأمم وأقدم الأمميات بالمعايير الحديثة للكلية .

اسماعيل سياسة جده فى التوسع الاقليمى ، وأرسل بعثات عسكريه الى أعالي النيل وعلى امتداد ساحل البحر الأحمر . فتطلب ذلك بالضرورة زيادة فى حجم الجيش ، ترتب عليها قيام طبقة قوية من الضباط ذات مصالح أخذت فى التزايد .

ونتيجة لحرص اسماعيل على مكانته الدولية ، فقد زاد من استقلاله عن استانبول بشراء لقب « الخديو » (١) سنة ١٨٦٦ ، وحق تغيير نظام تولى العرش بحيث يرثه أكبر الأبناء (*) ، ثم حصل على الموافقة العثمانية على التحرر من القيود الموضوعه على زيادة حجم جيشه ، وحقه فى عقد القروض الاجنبية وإبرام الاتفاقيات التجارية فى مقابل زيادة الجزية السنوية .

ولقد احتاجت جهود اسماعيل للارتفاع بمكانته ومكانة بلاده الى إيرادات حكومية تفوق بكثير ما يستطيع اقتصاد مصر الزراعى أن يقدمه . ورغم أن إيرادات الدولة تضاعفت خمس مرات فيما بين ١٨٦١ و ١٨٧٥ ، فقد ظل دين مصر العام للدائنين الأجانب فى زيادة مستمرة ، وأصبحت فوائد الدين تمثل عبئا متزايدا . وبذلت الجهود لابعاد الذئب عن الدار بالالجاج فى الحصول على قروض ممتازة من ملاك الأراضى مقابل الضرائب التى ستستحق عليهم مستقبلا ، وتلا ذلك بيع أسهم مصر فى شركة قناة السويس لبريطانيا نظير أربعة ملايين جنيه .

غير أن ذلك كله لم يكن سوى مسكنات (٢) . وفى النهاية عجز اسماعيل عن دفع فوائد دائنيه الأجانب ، واضطر الى الموافقة سنة ١٨٧٦ على تعيين لجنة ثنائية أنجلو - فرنسية للرقابة المالية للإشراف على جمع إيرادات الدولة وانفاقها . وفى سنة ١٨٧٨ دعمت الرقابة الثنائية بتعيين « وزارة أوربية » رئيسها من أصل أجنبى ، وهو نوبار باشا الأرمنى ، وبين أعضائها انجليزى تولى وزارة المالية ، وفرنسى

(١) الخديو : كلمة فارسية معناها « السيد » .

(٢) اللورد كرومر : « مصر الحديثة »

Earl of Cromer : « Modern Egypt », London Macmillan, 1908, pp. 61-63,

(*) كان نظام العرش قبل ذلك يقضى بأن يرث الحاكم القائم على رأس الدولة ، عند وفاته أو عزله ، أكبر أفراد أسرة محمد على الذكور ، وهو نفس النظام السارى فى تركيا .

لوزارة الاشغال العمومية . وقد وافق اسماعيل على تكوين هذه الوزارة الأوروبية بسبب سوء الأحوال المالية في مصر ، ولكنه لم يستطع قبول اعتداءهم على سلطاته كخديو ، فبدأ يحرص سرا على قيام معارضة محلية لنوبار والوزراء الأوروبيين ، مشيرا نمو الوطنية المصرية ومستغلا لها .

وقيام الحركة الوطنية المصرية يفهم بأكبر قدر من الوضوح من خلال التغيرات التي طرأت على البناء الطبقي في مصر خلال القرن التاسع عشر . ومن المؤكد أن طبقات مصر الاجتماعية والاقتصادية لم تكن قط أقساما مغلقة تمنع أى تسلل . فكثير من الافراد والعائلات يمكن تصنيفها في عدة مجموعات مختلفة في وقت واحد . فقد تميز البناء الطبقي دائما بقدر غير قليل من المرونة . ورغم ذلك فينبغي أن يكون واضحا أن التغيرات السياسية والاقتصادية خلال القرن التاسع عشر قد أسفرت عن اختفاء بعض الطبقات أو تدهورها وصعود بعضها الآخر ، فساعدت الحاجة الى قيام توازن جديد على النمو المتزايد دائما للمشاركة العامة في العمل السياسي .

فخلال الاحتلال الفرنسي ضعف العنصران الأساسيان اللذان تتكون منهما الطبقة الحاكمة ، وهما الموظفون العثمانيون وبكوات المماليك ، ثم قضى عليهما محمد علي بالفعل ، واستوعب البقية الباقية منهما في جهازه البيروقراطي ، أى الطبقة الحاكمة الجديدة ، وكانت تشمل بعض المصريين الأصلاء ، وكثيرا من المسلمين الأجانب : أتراك وألبانيين وسوريين وعرب ومغاربة .

كان المدنيون في عهد محمد علي يديرون الأراضي الزراعية والانتاج الصناعي والتجارة التي احتكرتها الدولة ، وازداد نفوذ العسكريين ومكانتهم الرفيعة ، وكانت الغالبية العظمى من الضباط من الألبان والأتراك والجراكسة ، ولم يسمح بدخول المصريين في هيئة الضباط الا في عهد سعيد ، ثم ما لبثوا أن أبعدوا حين عاد اسماعيل الى تفضيل العناصر الأجنبية . وأصبحت الطبقة الحاكمة الجديدة ، وضباط الجيش بخاصة ، قوة تمدين هامة عن طريق احتكاكهم الوثيق بالتقنية والأفكار الأوروبية .

أما طبقة رجال الدين الاسلامي ، أو العلماء ، فقد ظلت أقدارهم في ازدياد طالما أمكن استخدامهم كقوة مقابلة للمماليك ، ولكن نفوذهم تدهور حين بدأوا يقاومون الاتجاه الى ادخال الأساليب الأوروبية في

التعليم والادارة • أما من استطاع منهم التأقلم بالتغيرات الجارية ، كالشيخ رفاعه رافع الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣) ، فقد قاموا بدور بارز فى الكيان السياسى الجديد ، فى حين انسحبت الغالبية الى نوع من المقاومة الخفية والسلبية السياسية •

وظل نظام النقابات التجارية والحرفية يسيطر على الحياة الاقتصادية فى مدن مصر ، موفرا للتجار والحرفيين الحماية الاقتصادية والرابطة الاجتماعية ، ولكنه مال الى معارضة التجديدات التقنية • وكان نظام محمد على القائم على احتكار الدولة للتجارة والمصانع قد أضعف من نفوذ النقابات وأهمية أعضائها ، كما ساعد على تخريبها بنفس القدر تدفق المنتجات الأوروبية الرخيصة بعد سنة ١٨٤١ ومناوسة التجار السوريين ، والأرمن ، واليونانيين ، واليهود الذين يستخدمون أساليب أحدث وأكثر ، بالاضافة الى تغير أشكال الاستهلاك ، وبخاصة بين أثرياء المصريين والمعلمين منهم • ولم تستطع نقابات الحرفيين التطوير لمواجهة هذه التغيرات ، بل اكتفت بتوجيه اللوم من أجلها لمنافسيهم من الأوروبيين والشرقيين • ولا بد أن تدهور النقابات والجمعيات المستقلة ، كالطرق الصوفية ، قد أدى الى ظهور قدر مخفف من الاضطراب فى مجتمع المدينة شبيه بذلك الذى أثر على البروليتاريا فى أوروبا ، ومن المحتمل أن هذا الاضطراب قد أسفر عن تكوين بعض الحركات السياسية الشعبية (١) •

أما فى الريف فقد ظهرت طبقة ريفية ممتازة من رؤساء القرى أو العمد كنتيجة مباشرة لالغاء محمد على لنظام الالتزام • وقامت تلك الطبقة بدور الوسيط بين البيروقراطية والفلاحين ، وكان نفوذها يزداد كلما احتاجت الحكومة الى معاونة محلية فى الاشراف على استغلال الأراضى ، أو جمع الضرائب ، أو حفظ الأمن ، أو تجنيد الفلاحين فى الأشغال العامة أو الخدمة العسكرية • وفى صعيد مصر كان العمد مسئولين أيضا عن إعادة توزيع الأراضى بعد انحسار فيضان النيل •

وظل العمد أقوياء طوال حكم محمد على ، وحاول سعيد السيطرة عليهم بتعيين أبنائهم ضباطا فى الجيش ، فمهد بذلك - دون أن يدري -

(١) كتب جابريل باير تاريخا للنقابات فى القرن التاسع عشر فى كتابه « النقابات المصرية فى العصر الحديث »

Gabriel Baer : « The Egyptian Guilds in Modern Times », Jerusalem, Israel Oriental Society, 1964,

للحركة الوطنية الأولى • وبلغ نفوذ العمدة قمته في عهد اسماعيل •
ومما هو جدير بالملاحظة أن عدد أعيان القرى أو الاقاليم في المجلس
التشريعي كان يتراوح بين ٥٨ و ٦٤ عضواً من بين ٧٥ هم كل
أعضائه (١) •

والواقع أن الفلاحين هم غالبية أهل مصر • وقد ازداد عددهم من
مليونين سنة ١٧٩٨ الى ستة ملايين سنة ١٨٧٦ • ويرجع جانب كبير
من هذه الزيادة الى الحاجة المتزايدة الى عمل الفلاح في زراعة القطن
وغيره من المحاصيل الجديدة • ومن الصعب القول بأن مستوى معيشتهم
قد تحسن خلال تلك الفترة ، ولكن الذي لا شك فيه أنهم أفادوا من
تحسن النقل والمواصلات ومشروعات الري الجديدة ، وأمنوا على
أنفسهم أكثر من غارات البدو • ومن ناحية أخرى فإن زيادة التخصص
في المحاصيل المبيعة نقداً جعل الفلاحين يعتمدون على أسعار السلعة
المتقلبة في السوق العالمية ، وارتبط الطلب المتغير بالعرض
الثابت •

وكان الفلاحون يجندون بأعداد متزايدة لفترات أطول في
الخدمة العسكرية والأشغال العامة (والخاصة أحياناً) ، وأصبحوا
ضحايا عصابة كبيرة من مفتشي الحكومة ، والعمدة ، والتجار ، ومقرضي
الأموال • وعانوا بالقدر نفسه من طيشهم الاقتصادي ، المتمثل في
الاسراف في الأعياد الدينية وطقوس الحج ، والمبالغة في تقدير قيمة
الأرض باعتبارها مظهراً للشراء ، والميل الى اقتراض مبالغ أكبر من
قدرتهم على السداد • وتدخلت عوامل أخرى لتعوق نمو طبقة الملاك
الفلاحين ، منها تفتيت حيازات الأرض نتيجة لتطبيق قانون الوراثة
الاسلامي (٢) • وبيع الأرض أو رهنها لسداد الديون ، وميل الحكام
— واسماعيل بصفة خاصة — الى مصادرة الأراضي التي تعجبهم •

وفي أواخر ستينيات القرن الماضي وسبعينياته أدى هبوط أسعار
القطن واقتترانه بازدياد أساليب النهب في جمع الضرائب الى مزيد من

(١) كتب جابرييل باير أيضاً دراسة قصيرة أن طبقة العمدة عنوانها « شيخ القرية

في مصر الحديثة » ضمنها كتابه « دراسات في التاريخ والحضارة الاسلامية »
Gabriel Boer : «The Village Sheikh in Modern Egypt», in «Studies in
Islamic History and Civilization» (Uriel Heyd, ed. Jerusalem.
Hebrew University, 1961) pp. 121-153.

(٢) يحدد القرآن الكريم أنصبة متساوية من الثروة للأبناء الذكور ، ونصفها للإناث

بؤس الفلاح وسخطه ، فضبه - بشكل غير علنى فى الأغلب - على اسماعيل وملاك الأراضى ومحصى الضرائب ومقرضى الاموال .

ويبقى الاوربيون الذين توارث المسلمون النظر اليهم بعدوان وشك . فى نهاية القرن الثامن عشر كان عددهم بضع مئات قليلة ، غالبيتهم من تجار المدن ، واقامتهم محصورة فى أحياء بعينها ، ويخضعون لقيود مهينة . ومع بداية القرن التاسع عشر تزايد عددهم ونفوذهم وتحسنت مكانتهم . فقد أثبت الاحتلال الفرنسى واصلاحات محمد على تفوق الغرب فى النواحي العسكرية والتقنية . وأصبح حكام مصر راغبين فى السخاء على الأجانب ليتعلموا أسرار نجاحهم . واستمر عدد الأوربيين فى التزايد من - ٣٠٠٠ سنة ١٨٣٦ الى ٦٨٦٥٣ سنة ١٨٧٨ (١) - نتيجة لتوافر الفرص الاقتصادية أمام الأجانب فى مصر خلال حكم سعيد واسماعيل ، ولحماية الامتيازات الأجنبية التى استثنيت معظم الأوربيين من الخضوع للقانون المصرى ، بل من دفع الضرائب أيضا . فسيطر الأجانب على الشئون المالية الكبيرة (والصغيرة أيضا) وعلى تجارة الجملة الضخمة ، والحرف الدقيقة ، والمهن . وتركز غالبية الأجانب فى الأحياء الجديدة بالقاهرة والاسكندرية ، أو فى المدينتين الجديدتين اللتين أوجدتهما قناة السويس ، وهما بورسعيد والاسماعيلية ولكن حتى سكان القرى الصغيرة فى الدلتا أصبح لديهم بقالون ومرابون من اليونان .

فى الماضى كان الأوربى معزولا مقهورا ، فأصبح الآن قويا يتمتع بمكانة خاصة وينتشر فى كل مكان . يقوم منزله فى أكبر الشوارع ، ويحاول شباب مصر وأثريائها أن يجاروا أساليبه فى الاستهلاك ، وكثيرا ما تتصدر كنيسته الميدان الرئيسى فى المدينة . كان التغير أوضح من ألا يلفت الأنظار .

قيام الحركة الوطنية الأولى وفشلها

ينبغي أن ننظر الى القومية المصرية فى القرن التاسع عشر ، كغيرها من القوميات الحديثة السابقة لها واللاحقة عليها ، باعتبارها ثمرة الادراك الواعى لـ « نحن » المصريين فى مقابل « هم » الأجانب ، الذين يمثلون قوة خارجية أو جماعة أو قوى تمارس أو تهدد بفرض سيطرة سياسية ، أو اقتصادية ، أو ثقافية ، فتعبر القومية عن نفسها بتنمية روح المعارضة المؤدية الى تنظيم المقاومة للقوة الخارجية دفاعا عن المجتمع المحلى ومصالحه وقيمه ، وقد نمت هذه الروح المعارضة فى مصر فى سبعينيات القرن الماضى نتيجة للتغيرات التى سبق تلخيصها ، وكان نموها بين جماعات معينة ضد ثلاثة أعداء مختلفين :

١ - الأوروبيون ، وكانوا من قبل موضع ازدراء فأصبحوا الآن مصدر خوف باعتبارهم حماية دول قوية طامعة ، ويتمتعون بمزايا اقتصادية ومكانة اجتماعية مرموقة .

٢ - النخبة القديمة من الأتراك والجراكسة الذين ميزهم اسماعيل على أهل مصر الأصليين ، وبصفة خاصة فى الجيش .

٣ - الخديو اسماعيل نفسه ، وكان تركيا أكثر منه مصريا ، وقد أثار السخط بسبب تصرفاته الاستبدادية ، وسوء ادارته لمالية الدولة وغير ذلك من الأمور . والواقع أن متاعبه المالية هى التى فتحت الباب للتدخل الأجنبى .

وكان لظهور الوطنية المصرية لأول مرة فى سبعينيات القرن الماضى أسباب عديدة ، أوضحها ازدياد تدخل الأوروبيين فى شئون مصر

الاقتصادية والسياسية ، وتمثل عامل آخر في نمو طبقة ممتازة من المصريين الأصلاء (والمتصرين في حالات كثيرة) تتكون من ملاك الأراضي ، وموظفي الحكومة ، والمهنيين ، ممن تعلموا في أوروبا أو في مدارس مصرية على النسق الغربي (١) . وبالإضافة الى ذلك فان جمال الدين الأفغانى (١٨٣٨ - ١٨٩٧) ، ذلك المصلح الجريء المتجول ، عاش في القاهرة فيما بين عامي ١٨٧١ و ١٨٧٩ ، وعلم فيها بجوار مسجد الأزهر وجامعته ، والتف حوله عدد كبير من التلاميذ ، مالبثوا أن شاركوا في الحركة الوطنية الأولى ، من بينهم شيوخ كمحمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) وعبد الكريم سلمان (١٨٤٩ - ١٩١٨) ، وصحفيون كعبد الله النديم (١٨٤٥ - ١٨٩٦) وأديب اسحاق (١٨٥٦ - ١٨٨٥) ويعقوب صنوع (١٨٣٩ - ١٩١٢) ، وزعيم من أبرز أعضاء المجلس النيابي وهو عبد السلام المويلحي وعلى الرغم من أن الأفغانى لم يكن من دعاة الوطنية فقد أثار في مصر استجابة وطنية بدعوته للإصلاح الداخلي وقيام المسلمين جميعا بالكفاح المسلح ضد خطر الاستعمار الأوربي (٢) .

وتمثل محرك آخر للوطنية في السخط الذي أثارته الأزمة الاقتصادية وكان ذلك السخط محصلة مركبة لسوء المحاصيل (انخفض

(١) لإبراهيم أبو لغد تحليل يثير التأمل عن مقدمات الحركة الوطنية المصرية الأولى، نشره في مجلة « الشرق الأوسط » ، المجلد ٢١ ، العدد ٣ (صيف ١٩٦٧)
Ibrahim Abu Lughd : « The Transformation of the Egyptian Elite », Prelude to the Urooi Revolt» Middle East Journal, XXI 3 (Summer 1967), pp. 325-344.

ويذهب به الى أنه في سبعينيات القرن الماضي كانت قد ظهرت بالفعل قلة ممتازة من العرب بدأت تحل محل الطبقة الحاكمة القديمة التي كانت مكونة من الأتراك والبراكسة .

(٢) عن حياة جمال الدين الأفغانى (١٨٢٩ - ١٨٩٧) وتعاليمه أنظر : إدوارد ج . براون : « الثورة الفارسية ١٩٠٥ - ١٩٠٩ »

Edward G. Prown : « The Persian Revolution of 1905-1909 », Cambridge, Cambridge University Press, 1910.

، نيكى كيدى : « الدين الثورة في ايران : احتجاج الطباق ١٨٩١ - ١٨٩٢ »
Nikki Keddie : « Religion and Rebellion in Iran : The Tobacco Protest of 1891-92 », London, Cass, 1966.

، ايلي قدروى « الأفغانى وعبده : مقال في الشك الدينى والنشاط السياسى فى الاسلام الحديث »

Elie Kedourie : « Afghani and Abduh : an Essay on Religious Unbelief and Political Activism in Modern Islam », London, Cass, 1966.

فيضان النيل سنة ١٨٧٧ بشكل غير عادي) وتزايد عبء الضريبة الثقيلة، التي تحمل نصيبا منها بلا مبرر أفقر المصريين وأكثرهم بؤسا ، وكذلك استمرار تدهور موقف المصريين في التجارة والانتاج الصناعي بالقياس الى منافسة الشرقيين والأوربيين .

وأخيرا ، وجد سخط عسكري متزايد ، وبخاصة سنة ١٨٧٨ ، بعد انتهاء حملة اسماعيل الفاشلة في الحبشة والحرب الروسية التركية . فعانت الروح المعنوية من تلك البطالة المفاجئة التي قضت على كل فرصة للترقية ونيل الاوسمة . وتركزت فرق الجيش بالقاهرة ، وزاد من السخط تخفيض الرواتب ، والتأخر في صرفها بسبب الأزمة المالية التي عانتها الحكومة ، ومحاباة اسماعيل الصارخة للضباط الأتراك والجراكسة .

وكانت قيادة العناصر الساخطة تنتمي لنفس طبقات المجتمع المصري التي أفادت أكثر من غيرها من التغييرات التي حدثت في أوائل القرن التاسع عشر ومنتصفه ، وهم ضباط الجيش المصريون ورؤساء القرى (العمد) وطبقة ملاك الأراضي الجدد . وكونت الجماعات المحرومة ، كتجار المدن وحرفييها ، طلائع الحركة الوطنية لا قياداتها ، اذ ظهر القادة المدنيون بفضل نشاطهم داخل المؤسسات التي كانت تتطلب استجابة حاذقة للتغير السياسي .

من هذه المؤسسات مجلس شورى القوانين الذي أنشأه اسماعيل ، فقد خرج زعماء سياسيين من أمثال : عبد السلام المويلحي وحسن موسى العقاد ومحمد سلطان . في البداية كانت تلك المجموعة من أعيان الأقاليم تخضع لمصالح صانعها ، ثم ما لبثت ، مع تدهور أحوال البلاد الاقتصادية وزيادة نفوذ الرقابة المالية الأجنبية ، أن وضح ميلها للنقد ، ثم أخذت تطالب ، لا الخديو ولا لجنة الرقابة المالية الثنائية التي تمثل المصالح المالية الأوروبية ، بل نفسها بسلطات تنفيذية ، وأكثر من ذلك رفضت في مارس سنة ١٨٧٩ قرارات اسماعيل بحلها ، وأصرت على حقها في مراجعة سياسة الحكومة المالية (١) .

وكانت الصحافة الدورية من بين المؤسسات التي رعت نمو الحركة الوطنية المصرية . ففي أواخر سبعينيات القرن الماضي تزايد عدد الصحف

اليومية الأهلية التي كانت تصدر في مصر بصورة ملحوظة (١) .
وقدم تلاميذ جمال الدين الأفغانى ، كالنديم واسحاق ويعقوب صنوع
(أبو نضارة) ، فى الصحافة المصرية نماذج من الهجو السياسى والتشهير
الوطنى الموجه ضد الخديو ووزرائه والأوربيين الذين تضخم نفوذهم (٢) .

وكان بين الوطنيين كذلك عدد من المعلمين والمثقفين ، كمحمد عبده
وحسين المرصفى (المتوفى سنة ١٨٨٩) ممن ارتبطوا بالمدارس الحديثة
او بالعناصر الاصلاحية فى اطار المدارس التقليدية (٣) . وكان بينهم عديد
من الأطباء (٤) ، ولكن لم يكن بينهم محامون ، لأن الاشتغال بالمحاماة
فى مصر لم يكن قد تجاوز بداية تطوره بعد .

واتخذت التنظيمات السياسية الأولى للمصريين شكل جمعيات
سرية كثيرا ما كانت تحتمى بمجمعات ماسونية . من هذه الجمعيات التى
كونها مدنيون « مصر الفتاة » التى عاشت فترة قصيرة سنة ١٨٧٩ .
وأهم منها جمعية سياسية سرية أعضاؤها من ضباط الجيش ، كونها على

(١) وفقا لمراجعاتى لتاريخ كمال الدين جلال للصحافة المصرية ، « وفهرس
الدوريات العربية التى تقتنيها الدار (دار الكتب المصرية) « لمحمود اسماعيل عبد الله ،
ج٢ (القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٦٣) لم تصدر حتى سنة ١٨٧٦ سوى
جريدة مصرية جديدة واحدة ، وخلال سنة ١٨٧٦ ظهرت جريدتان ، أما فى سنة ١٨٧٧
فقد ظهرت ست جرائد .

(٢) فى الفصل الثانى هامش ص ٧٥ تجد قائمة مراجع مختصرة عن عبد الله النديم
الذى كثيرا ما يطلق عليه لقب « خطيب الثورة » ، وهو يمثل احدى الحلقات القليلة
التي ربطت بين حركة نوابى الوطنية وحركة مصطفى كامل الذى يشبهه كثيرا ، وعن
يعقوب صنوع أو أبو نضارة انظر : ايرين ل. جند زير : « آراء يعقوب صنوع العملية »
Irene L. Gendzier : "The Practical Visions of Ya'qub Sanu", Cambridge
Harvard University Press, 1966.

وكان النديم مسلما واسحق سوريا مسيحيا ، وصنوع يهوديا .

(٣) على كل حال فإن كثيرا من أكبر مثقفي مصر المستنيرين ، كعلي مبارك
(١٨٢٤ - ١٨٩٣) والشيخ محمد العباسى (١٨٢٨ - ١٨٩٧) سيعارضون حركة
الضباط الوطنية ، وحتى محمد عبده كانت له عليها بعض التحفظات . انظر :
« محمد عبده » لعثمان أمين .

Osman Amin : «Muhammad 'Abduh», Charles Wendell, tr. Washington,
American Council of Learned Societies 19٤3, pp. 41-46.

(٤) Landau : pp. 76f. 101-103. وقد وسع هذا الكاتب دراسته فى مقال

« مقدمات لدراسة الجمعيات السرية فى مصر الحديثة » .

«Prolegomena to a study of Secret Societies in Modern Egypt», Middle
Eastern Studies, 1,2, (January 1965), pp. 135-186.

الروبي ، وانضم اليها بعد ذلك أحمد عرابي الذي سيتولى بالفعل قيادة الحركة الوطنية الأولى . وبقيام هذه الجمعية سنة ١٨٧٦ ما لبثت أن أصبحت هي نواة الحزب الوطني سنة ١٨٧٩ .

ففى فبراير من تلك السنة حدث تمرد عسكرى ، لعل جمعية الضباط السرية لم تشترك فيه بشكل مباشر (١) ، ولكنه كان بمثابة الشرارة التى مهدت لظهور الحزب الوطني الأول . ولنتذكر أن الضرورات المالية اضطرت اسماعيل الى تشكيل وزارة أوربية ، كانت لها سيطرة كاملة على مالية مصر . ومع ميوله الاستبدادية فمن الصعب أن نتوقع أن يطول احتمال له لى نفوذ آخر فى حكومته وطنيا كان أم أوربيا ، ومن ثم فقد بدأ يعالج بمهارة ازدياد الشعور الوطنى المعادى للأجانب ، ويتصرف عن طريق معاونه شاهين باشا ، ويحرض بعض الضباط الساخطين ضد وزراء نوبار الأوربيين .

واتخذت الوزارة قرارا فرضته الضرورات المالية ولكنه كان غير موفق من الناحية السياسية ، بحالة عدد كبير من الضباط الى التقاعد بنصف رواتبهم . وعلى أثر هذا القرار نظم لطيف سليم الحجازى مدير الكلية العسكرية ، وهو فى الوقت نفسه صهر شاهين باشا ، مظاهرة من طلبة الكلية ، انضم اليها الضباط القدامى ، واقتحموا وزارة المالية ، وهاجموا نوبار ، مطالبين بعزل وزارته . فأرسل اسماعيل حرسه لتهدة الشغب ، ولكنه ما لبث أن عزل الوزارة .

وترتب على تمرد فبراير ١٨٧٩ زيادة ثقة الضباط المصريين بأنفسهم نتيجة للتشجيع الذى وجدوه من الخديو اسماعيل الذى أسعده أن ينحرف بسهام عداوة ناقدية لتتوجه الى صدور الأجانب . وفى ابريل من العام نفسه أعلنت الجمعية السرية للضباط أنها أصبحت الحزب الوطنى ، وسمح للمدنيين بالانضمام لعضويته ، ونشرت برنامجا يؤكد أهمية الاصلاحات المالية والدستورية ، وقعه ممثلون لمختلف الطبقات ، بما فيها موظفو الحكومة وأعضاء مجلس الشورى ، وكبار رجال الدين ، والأعيان

(١) قرر عرابي وهو يروى الأحداث التى أدت الى ثورة ١٨٨٢/٨١ لويلفريد بلنت الشاعر الانجليزى المتحمس والمدافع عن قضايا المسلمين ، أنه لم يشترك فى تمرد فبراير ١٨٧٩ . (بلنت : « التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى لمصر »

Blunt : « Secret History of the English Occupation of Egypt », New York: Alfred A. Knopf, 1922, p. 368f.).

(والكتاب مترجم الى اللغة العربية)

والتجار (١) . وقدموا برنامجهم الى اسماعيل الذى عبر عن تأييده له ، وعقب عليه بتعيين شريف باشا ، وهو واحد من زعمائهم المعتدلين ، رئيسا لوزارته الجديدة . ووافق على أن تكون الوزارة الجديدة مسئولة أمام مجلس تشريعى ينتخبه الشعب .

ومن النتائج الأخرى الهامة التى تترتبت على تمرد الضباط تزايد قلق الحكومات الأوروبية وحملة الأسهم والأجانب المقيمين فى مصر خشية أن يخدعهم اسماعيل فيزيد من سحق الوطنيين عليهم ليتجنب الضائقة المالية ، ومن ثم يضيع نفوذه تمهيدا للتخلص من دين البلاد . وبناء على مبادرة من ألمانيا احتجت الدول الكبرى على عزل اسماعيل لوزرائه الأوربيين ، ونصحه ممثلا بريطانيا وفرنسا بالتنحى عن العرش . وحاول الخديو التملص منهما بطلب استشارة السلطان عبد الحميد ، ولكن السفراء الأوربيين فى استانبول كانوا قد أشاروا على السلطان سلفا بتنحيته وتولية ابنه توفيق (٢) .

ولاشك أن تولى توفيق العرش قد شجع الوطنيين فى البداية ، لانه كان متأثرا بالأفغانى ، وكان عضوا بالمحفل الماسونى بالاسكندرية . ولكن « توفيق » كان حريصا على ألا يعيد الأخطاء التى أدت لعزل أبيه ، فسرعان ما أدار ظهره للوطنيين ونفى الأفغانى ، وعطل المجلس التشريعى وصادر الصحف الوطنية ، وأنقص حجم الجيش (٣) ، ورفض مشروع الدستور الذى اقترحه شريف ، ثم مالبت أن أقال وزارته ، وعين وزارة أميل للمحافظة برئاسة رياض باشا ، فكان لهذه التغييرات وقع الكوارث على الوطنيين . وخرج كثير من المدنيين من الحزب الذى ارتد كما كان جمعية سرية للضباط . وأكثر من ذلك فقد حاولت الحكومة قمع الروح الوطنية فى الجيش .

(١) لتحليل احصائى لاعدادهم النقريبية انظر

Landau : «Parliaments and Parties», p. 89.

(٢) لمناقشة دوافع القوى الأوروبية انظر : وليم ل. لانجر : « التحالفات والتكتلات

الأوروبية » .

William L. Langer : « European Alliances and Allignments », 2nd ed., New York, Alfred A. Knopf, 1956, pp. 262-262.

(٣) كان على توفيق أن يقلل حجم جيشه العامل من ٤٥٠٠٠ الى ١٨٠٠٠ جندى

تنفيذ لأمران توليته العرش ، وهو اجراء ، من المحتمل أن السفراء الأوربيين قد اقترحوه على السلطان . والواقع أن « توفيق » خفض حجم الجيش الى أقل من هذا العدد ، لأسباب مالية .

وجاءت سنة ١٨٨٠ والوطنيون في حالة شديدة الضعف والتفكك .
وصدر قانون جديد لتصفية الديون واصلاح الضرائب كان له اثره في
تحسن الحالة الاقتصادية واعادة الثقة للأجانب من الدائنين والمستثمرين
المنتظرين . ورغم ذلك فقد واصلت أفكار التحرر والاصلاح انتشارها في
مصر . وكان الشيخ محمد عبده قد حددت اقامته في قريته بعد نفي
الأفغانى ، فأطلق سراحه وعين رئيسا لتحرير « الوقائع المصرية » الجريدة
الرسمية للحكومة ، فسرعان ما حولها الى لسان حال طلاب الاصلاح ،
وضم الى هيئة تحريرها كتابا وطنيين ممتازين ، كإبراهيم الهلباوى
(١٨٥٨ - ١٩٤٠) وسعد زغلول (١٨٥٧ - ١٩٢٧) . وبن البارون
دى رينج قنصل فرنسا العام فى القاهرة يشجع سرا العناصر الساخطة ،
ومن المحتمل أن شريف باشا وملوك الأراضى ذوى الميول الدستورية من
أعضاء المجلس المعطل كانوا يقومون بنفس الدور بهدف اسقاط وزارة
رياض .

وظل ضباط الجيش المصرى غير راضين ، وهم يمثلون أخطر
الطاقات الكامنة . فقد أحيل كثيرون منهم الى الاستبداد بنصف مرتباتهم
فى حين شلت بقيتهم بالبطالة التى فرضت عليهم . واتخذ السخط شكل
معارضة لعثمان رفقى وزير الحربية فى وزارة رياض ، وكان جركسيا
يميل الى محاربة بنى جنسه ويفضلهم على المصريين ، وشجع الضباط
الأمبرالاي على فهمى قائد حرس القصر الخديو ، وكان هو الذى حرض
عرابى ، وقد أصبح زعيم الضباط الوطنيين ، على أن يكتب عريضة
يقدمها لرياض فى فبراير ١٨٨١ ، يطالب فيها بعزل رفقى . واذا بمجلس
الوزراء يقرر تقديم الأيرالايات الموقعين على العريضة للمحاكمة العسكرية،
وأصدر أمره اليهم بالمثل أمام وزير الحربية تمهيدا لحبسهم .
واستشعر الضباط الوطنيين المكيدة ، فأطاعوا الأمر بعد أن اتفقوا مع
كتائبهم على أن تخف لانقاذهم فى حالة القبض عليهم ، وهو ما نفذته
بالفعل .

وبتخلى الحرس عن الخديو توفيق ، أصبح بلا قوة عسكرية يواجه
بها الضباط المتمردين ، فاضطر الى اجبار رياض على أن ينحى رفقى ،
ويضع مكانه العضو الوحيد فى وزارته المتعاطف مع الوطنيين ، وهو
محمود سامى البارودى (١٨٣٩ - ١٩٠٤) . وعلى الفور أقسم الضباط
على الولاء لتوفيق وعادوا الى ثكناتهم ، وان ظل كل من الفريقين يتوجس
من الآخر ولا يثق به . وبدأت الصحف الوطنية تعود للظهور لتحل محل
تلك التى أغلقت سنة ١٨٧٩ .

وهكذا هدأت الأزمة مؤقتا ، وغادر البارون دى رينج مصر ، وأعلن الخديو ثقته بحكومة رياض ، ولكن السخط مالبث أن تزايد حينما أعاد توفيق الى الخدمة العسكرية عددا من الضباط ، كان قد فصلهم لتوجيههم تهما مختلفة للضباط الوطنيين . ولكى يمنع الخديو قيام أى مظاهرة معادية ، حاول تشتيت الوطنيين ، فنقل آلاى المشاة الثالث المتمرد من القاهرة الى الاسكندرية . ورد عرابى على ذلك بخروجه فى ٩ سبتمبر على رأس مظاهرة عسكرية تضم ٢٥٠٠ جندي ، توجهت الى قصر عابدين المقر الرسمى للخديو فى القاهرة ، وواجه توفيق المتظاهرين وطالبهم بتفسير تصرفهم ، فرد عليه عرابى بتقديم ثلاثة مطالب قال ان الجيش سيفرضها « باسم الشعب المصرى » ، وهى : عزل وزارة رياض ، ودعوة مجلس نيابى ينتخبه الشعب وتخول له سلطات تشريعية كاملة ، وزيادة حجم الجيش . فلما وافق توفيق على هذه المطالب ، وعين شريفا مكان رياض ، انسحب الضباط .

وخلال الاثنى عشر شهرا التالية أصبحت السلطة فى أيدي تحالف مرهق بين الضباط الوطنيين بزعامة عرابى ، والمدنيين الدستوريين بقيادة شريف فى البداية ، ولم يقبل شريف رئاسة الوزارة الا بعد أن حصل على تأكيدات من المجلس النيابى القديم والقوى الأوربية بأنه لن يكون قناعا لديكتاتورية عسكرية (١) . ووافق الضباط على تأييد شريف ، بشرط أن يزيد حجم الجيش ويستعيد البارودى وزارة الحربية فى وزارته .

وفى أواخر خريف ذلك العام أجريت انتخابات المجلس التشريعى الجديد . وكان معظم النواب الذين انتخبوا من أعيان الريف (٢) . كسابقهم ، ولكن الأعضاء المعينين الذين اختارهم الخديو كانوا من الوطنيين المدنيين ، من أمثال محمد سلطان ، وعبد الله فكرى ، وأديب اسحاق (٣) .

فى تلك الأثناء كان الاضطراب الوطنى ينتشر ويزداد ضراما . فاذا كان الحزب الوطنى قد نشر برنامجا جديدا ، وجهها للأوربيين تعهد فيه

(١) Cromer, I, p. 187. وقد سارع عرابى باستدعاء المجلس الذى لم يكن قد

اجتمع منذ سنة ١٨٧٩ ، لضمن قبول شريف للوزارة .

(٢) Landau, p. 30.

(٣) Ibid, p. 31f.

باحترام الالتزامات المالية ، والقانون والنظام ، وحقوق الأقليات والجاليات، الأجنبية (١) ، فان الصحف الوطنية كانت فى نفس الوقت تزيد من حدة معاداتها للأوربيين (٢) ، وكان عرابى لا يكف عن الخطابة الحماسية فى تجمعات الجنود فى القاهرة والزقازيق . ورغم التأييد الذى ناله شريف من قناصل أوربا ، فقد كان عاجزا عن منع انتشار الدعايات التى تحت على كراهية الأجانب . ومع تزايد قوة الوطنيين فقد كانوا يعيشون فى فزع مستمر خوفا من انهيار نظامهم بمؤامرة من السراى ، أو من الضباط الأتراك والجراكسة المعزولين . وكان هذا الفزع - أكثر من أى خطة عمل واضحة المعالم - هو الباعث لتطرفهم المتزايد .

ومع ذلك فالواقع أن أحدا ممن يملك الارادة أو الوسائل الكفيلة بالاطاحة بالوطنيين لم يتخذ موقفا حاسما أيضا . وفى أكتوبر سنة ١٨٨١ أرسل السلطان عبد الحميد بعثة الى مصر ، ولكن الواضح أن مبعوثيه لم يستطيعوا أن يقرروا أيهما يمثل تهديدا أكبر للمصالح العثمانية : الوطنية المصرية أم التدخل الأوربى ، فاكتفوا بتشجيع كلا الفريقين ووعد كل منهما بأن يتوقع تأييد السلطان . ورفضت كل من بريطانيا وفرنسا السماح لنظام وطنى متطرف قد يهدد بالامتناع عن سداد دين الحكومة أو تهديد حياة أعضاء الجاليات الأوربية وممتلكاتهم ، ولكن أيا منهما لم تكن راغبة فى التدخل العسكرى ، وبريطانيا بصفة أخص . فحكومة جلادستون لم تصل الى الحكم سنة ١٨٨٠ الا بعد حملة انتخابية معادية للاستعمار ، وبدا من التنافس مع دول القارة سعت الى التعاون معها ، ومن ثم حاولت التقليل من التزاماتها عبر البحار وتجنب كل التزام جديد . وأرادت بصفة خاصة استعادة صداقتها بفرنسا ولكن دون أن تدع مصر تقع تحت سيطرتها . كانت بريطانيا ترجو ألا تنفرد فرنسا بالتدخل ، بل تعتمد على الضغط السياسى المشترك ، وفى حالة الضرورة القصوى على تدخل عسكرى عثمانى (٣) . أما فرنسا فكانت حذرة من حركات المقاومة الاسلامية التى يظاهرها العثمانيون ، خشية أن تمتد الى تونس التى دخلت تحت حمايتها حديثا ، ومن ثم عارضت التدخل

(١) Blunt : «Secret History..» Appendix II pp. 383-385.

(٢) Ibid, p. 125.

(٣) رونالد روبنسن وجون جالفر ، « أفريقيا والفيكتوريون »

Ronald Robinson and John Gallgher: «Africa and Victorians», New York, St Martin's Press, 1961, p. 92f.

التركي في مصر . وفي نهاية سنة ١٨٨١ تولى الحكم ليون جامبتا (*) ، وهو مدافع غيور عن المصالح الفرنسية في مصر ، ف اتخذت فرنسا موقف المعارضة الايجابية تجاه الوطنيين . وعنى أمل ارهاب عرابي أقنع جامبتا لورد جرانفيل وزير الخارجية البريطانية باصدار مذكرة مشتركة تعبر عن القلق بشأن الحالة السياسية في مصر وتهدد بالقيام بعمل عسكري لتأييد الخديو .

وكان الأثر المباشر لتلك المذكرة هو وقوع خلاف بين شريف يؤيده مندوبا الدين الأوربيين ، والمجلس النيابي يؤيده الوطنيون حول حق اقرار ميزانية الحكومة . وفشلت المذكرة في تحقيق هدفها لأن الحكومة البريطانية أعلنت أنها لن تتدخل في مصر . وكان قنصلا بريطانيا وفرنسا قد فضلا حلا وسطا لمشكلة الميزانية ، ولكن بعد نشر المذكرة المشتركة أصر المجلس النيابي على حقه في التصويت على الميزانية . ووافق الخديو توفيق المجرد من كل قوة على مقاومة هذا المطلب . وكان هذا معناه استقالة شريف . فعين «توفيق» محمود سامي البارودي رئيسا للوزارة الجديدة ، وأصبح عرابي وزيرا للحربية .

وبذلك ملك العسكريون الوطنيون زمام السلطة ، وتغلبوا على الدستوريين المعتدلين . فها هو ذا شريف خارج الحكم ، لا يشق بالضباط المصريين ويدعو الى تعيين مندوب عثماني تتبعه حملة عسكرية تكبح جماح الوطنيين (١) . وكان التدخل العثماني مازال الحل المفضل في نظر بريطانيا ، في حين فترت حماسة فرنسا للتدخل في مصر بعد سقوط حكومة جامبتا . أما الحكومة العثمانية فكان موقفها غامضا وكذلك موقف الخديو توفيق الذي كان عاجزا عن معارضة الوطنيين ومن ثم بدا كمن يحرص على تهدئتهم . فبعد قبوله استقالة شريف بقليل صدق توفيق على الدستور الجديد ، وكان قد تقدم بمشروعه الى المجلس النيابي الذي يسيطر عليه الوطنيون . ووجد مندوبا الدين الأوربي والممثلون الدبلوماسيون أنفسهم عاجزين عن التأثير في الحكومة .

(١) Cromer, I, p. 244.

(*) هو سياسي يهودي ، ومن ثم فقد استطاع أن ينسق جهوده مع سياسي يهودي آخر تولى رئاسة الوزارة البريطانية ، أثناء مقدمات احتلال مصر ، وهو المستر دزرائيل الذي اعتنق المسيحية ، وكان صاحب الدور الأكبر في شراء أسهم مصر في قناة السويس من الخديو اسماعيل سنة ١٨٧٥ .

واستولى الضباط المصريون ، بتشجيع المؤيدين من الأتراك والبريطانيين ، على قدر أكبر من السلطة ، وأساءوا فى بعض الأحيان استغلال نفوذهم بترقية بعض المصريين دون اختبار . ورغم ذلك فقد ظلوا يخشون دائما قيام ثورة مضادة . وفى إبريل ١٨٨٢ « اكتشفوا » مؤامرة بين الضباط لقتل عرابي ، فقبض على أربعين ضابطا ، معظمهم من الأتراك والجراكسة ، وقدموا الى محكمة عسكرية ، قررت نفيهم الى السودان ، غير أن الخديو خفف الحكم بتأييد من القوى الأوربية . وفوجئ مجلس الوزراء بتصرف توفيق ، فدعا المجلس النيابي الى اجتماع غير عادي ، ربما للنظر فى تنحية توفيق (١) . غير أن الخديو أقنع محمد سلطان رئيس المجلس بمعارضة وزارة البارودي . ويبدو أن « سلطان » ، وهو مالك أرض حديث الشراء ، قد أشفق من زيادة تطرف الوطنيين ، ولكن بقية النواب ، وهم من ملاك الأراضى أيضا واصلوا تأييدهم للوطنيين ، وسحب البارودي استقالته التى كان قد تقدم بها ، لأنه ليس من المصريين من يستطيع تولى منصب رئيس الوزارة فى مواجهة معارضة الوطنيين .

وخشيت كل الحكومات الاوربية من تهديد الوطنيين لمصالحها ، ولكن أيا منها لم ترد التصرف بمفردها ليقافهم عند حدهم . ان مصر من الناحية القانونية ولاية عثمانية ، ومن ثم فالسلطان هو صاحب الحق فى التدخل . وقبلت بريطانيا وفرنسا هذا المبدأ ، ولكنهما أرسلتا أيضا قوة بحرية مشتركة الى الاسكندرية ، وأنذرا الى القاهرة بطلب استقالة البارودي واحالة زعماء الضباط الوطنيين الى الاستيداع ، فاستقالت الوزارة مرة أخرى ، ولكنها أعيدت بعد أن رفض شريف باشا تشكيل الوزارة .

وبلغ التوتر المتصاعد قمته بانفجار فتنة طائفية فى الاسكندرية فى ١١ يونيو راح ضحيتها خمسون (*) من الاوربيين ومئات من المصريين . وأثارت فتن الاسكندرية فزعا متزايدا بين غير المسلمين وضج فى هجرة ١٤٠٠٠ من مصر خلال ستة أيام ، وفى نداءات تطالب بالتدخل الخارجى للسيطرة على الأمن ، وتعددت الاضطرابات فى

(١) Blunt, p. 204 f., Cromer, I, p. 265.

(*) مر المؤلف على هذه الفتنة دون أن يشير الى مدبرها والواقع انها من تدبير قنصل بريطانيا متآمرا أو متحالفا مع بعض القنصليات الأجنبية الأخرى وزعماء الجاليات الأجنبية .

الريف حيث انتشرت شائعة مؤداها أن انتصار الوطنيين سيترتب عليه الغاء كل الديون .

وسط هذا الجو المتوتر اجتمع سفراء الدول الأوروبية لدى الباب العالي في ٢٣ يونيو للبحث عن صيغة للتدخل العثماني في مصر . ورفضت الحكومة العثمانية ارسال مندوب الى مصر ، وحينما وافقت بعد ذلك كان الوقت قد أصبح متأخرا جدا .

وخوفا من أى تدخل أوروبى بدأ الجيش المصرى يحصن الاسكندرية لمواجهة الأسطول الانجليزى - الفرنسى ، وأذرتة بريطانيا وتركيا بضرورة وقف التحصينات (*) ، فتظاهر بالانصياع ، ثم لم يأبه بانذارهما . فهدد الأدميرال البريطانى بضرب التحصينات اذا استمر العمل فيها . وحينما قوبل هذا التهديد بالتجاهل أمر سفنه بإطلاق مدافعها . ولم يشترك الأسطول الفرنسى ، اذ رأى وزير الخارجية الفرنسية أن إطلاق النار عمل حربى ضد مصر يتطلب موافقة مسبقة من الجمعية الوطنية .

واشتعلت النار في الاسكندرية ، فتجددت الفتن والاضطرابات وانتهى الامر بانسحاب الجيش المصرى الى كفر الدوار بالدلتا . ونزلت قوة بريطانية صغيرة الى المدينة لاعادة النظام ، فأعلن عرابى الحرب على بريطانيا ، ووضع توفيق مصيره بين يدي البريطانيين ، وأصدر أمرا بفصل عرابى . واعلان خيانتة ، ولكن الوطنيين ظلوا مسيطرين على مصر كلها باستثناء الاسكندرية .

وأرسلت بريطانيا حملة عسكرية أكبر احتلت قناة السويس واستولت على الاسماعيلية . واتخذ جيش عرابى خط دفاعه الأخير عند قرية التل الكبير في ١٣ سبتمبر ، ولكن الحملة البريطانية هزمت ، وتابعت مسيرتها لاحتلال القاهرة دون أى مقاومة أخرى .

وهكذا ما ان تدخلت قوة عسكرية خارجية أكبر للقضاء على الحركة الوطنية حتى بدا أنها خبت تماما . وأعيدت للخديو سلطاته، ولكنها حيلة لم تخدع أحدا ، فالواقع أن هذا التدخل جعله قناعا للبريطانيين بدلا من الضباط الوطنيين .

(*) لم يكن انذار بريطانيا وفرنسا لمصر بالتوقف عن ترميم حصون وطوابى الالديعة التى استقر عزم الدولتين على التوصل بها لاعلان الحرب على مصر ، فان تلك الحصون كانت قديمة ومتداعية ، وكان تسليحها ضعيفا الى ابعد حد ، ومن ثم فلم يكن هناك أى خطر على الأسطولين من هذه الترميمات .

وقبض على الزعماء الوطنيين وحوكموا ، وأدينوا بتهمة التمرد ، وحكم على عرابى بالاعدام ، ثم خففت العقوبة بالنفى الى سيلان ومصادرة أملاكه (١) ، ونفى معظم الباقون أو سجنوا . وحل الحزب الوطنى ، وأغلقت الصحف التى كانت تؤيده ، وسرح الجيش المصرى مؤقتا (*) وفصل من لم يقبض عليه من الضباط العرابيين . وأوقف دستور شريف لسنة ١٨٨١ ، وحل المجلس النيابى ، وكانت اجتماعاته مؤجلة منذ مايو ١٨٨٢ . وعاد الفلاحون وأبناء المدن لسلبيتهم السياسية السابقة . وبدأت بالاحتلال البريطانى مرحلة جديدة فى تاريخ مصر الحديث .

ما الأسباب التى دعت بريطانيا للتدخل العسكرى فى الأزمة المصرية رغم ما عرف عن رئيس وزرائها جلاستون من معاداة للاستعمار ؟

لا شك أن اتمام قناة السويس التى سرعان ما أصبحت طريق بريطانيا الرئيسى لامبراطوريتها الهندية قد زاد من أهمية مصر فى نظرها ، وقد تجسدت هذه الأهمية فى شراء دزرائيلى لأسهم مصر فى قناة السويس . أضف الى ذلك أن قيام الحركة الوطنية وقد هدد مصالح دائنى مصر ، ومعظمهم من الفرنسيين ، جعل بريطانيا لا تحتل تصور احتلال فرنسا لمصر كلها عسكريا ، أو لقناة السويس وحدها . وإذا كان لا بد من تدخل أجنبى فيجب أن يكون من جانب تركيا وحدها ولكن السلطان قصر فى اتخاذ أى إجراء ايجابى ، ومن ثم أصبح على بريطانيا أن تشترك مع فرنسا فى قمع الوطنيين ، فلما آثرت فرنسا فى اللحظة الحاسمة الانسحاب من المظاهرة العسكرية المشتركة عند الاسكندرية ، كانت بريطانيا قد تورطت بعمق لم تستطع معه أن تحذو حذو شريكها .

لماذا اذن انتقلت بريطانيا من انزال قوة صغيرة لاعادة الامن الى الاسكندرية الى دفع قوة أكبر للقضاء على عرابى ؟

(١) سمح لعرابى بالعودة الى مصر سنة ١٩٠١ ، ولكنه لم يبق دور فى الحزب الوطنى الزالى . وكذلك صدر العفو عن غالبية العرابيين الآخرين ، ولم يعد سوى سليمان سامى الذى اعتقد أنه المسئول عن اشعال حريق الاسكندرية .

(*) لفظ « مؤقتا » غير صحيح ، فإن بريطانيا لم تسمح بقيام جيش مصرى حقيقى حتى معاهدة سنة ١٩٣٦ .

لقد ثبت أن العامل الحاسم في هذا القرار كان الضعف الداخلي
لحكومة جلادستون في وجه المعارضة المتزايدة من كل جانب بشأن
المسألة الأيرلندية . فللمحافظة على إجماع الآراء داخل مجلس
الوزراء بشأن أيرلندا أيد غالبية الوزراء التدخل في مصر لإعادة سلطات
الخدو إليه والقضاء على عرابى وحماية قناة السويس (١) . ولو لم
تكن ثمة مظلمة وطنية أخرى ضد بريطانيا لكان من المحتمل ألا يتأجج
حقن المصريين حين يعلمون أن مصير بلادهم لأكثر من نصف قرن قد
تقرر لاعتبارات لا صلة لها بالأوضاع في مصر .

(١) Rolinson and Gallagher : p. 123 , وعن الآراء المعاصرة حول أهمية

قناة السويس لبريطانيا انظر : د. ما كينزى والاس : « مصر والمسألة المصرية »

D. Mackenzie Wallace : «Egypt and the Egyptian Question», London,
Macmillan 1882, p. 509-521,

جريفين و. فاريس : « مصر : سياسيا وماليا واستراتيجيا »

Griffin W. Vyse : «Egypt : Political, Financial and Strategical»,
London, W.H. Allen and Co., 1882, pp. 3-12.

ملاحظات عامة

كانت الحركة الوطنية المصرية الاولى التى بلغت ذروتها فى ثورة
عرابى سنة ١٨٨٢/٨١ تضم فى الواقع ثلاثة عناصر ، لكل منها
شخصيته وأهدافه . .

أهمها العنصر العسكرى ، المكون من ضباط الجيش المصريين مع
قليل من المؤيدين المدنيين ، أبرزهم البارودى (١) ، أما غالبيتهم فمن
أبناء عمه القرى أو فلاحين متوسطى الثراء ، ممن كان العمل فى
الجيش يمثل أفضل فرص الترقى أمامهم . وكالغالبية العظمى من الثوار
كانوا ينتمون الى الصفوة الصاعدة التى يضطهدها النظام القائم .
ورغم أن العرابيين كانوا يمثلون فى الأغلب أقلية بين هيئة
الضباط، فقد دانت لهم السيطرة بسبب وحدتهم ، ومناصبهم الرئيسية
وتأييد وحداتهم وكثير من المدنيين لهم ، ولأن معارضيتهم لم يكونوا
يعرفون ماذا يريدون بالضبط . كان المحرك الأول للعرابيين هو
سخطهم على المزايا الهائلة التى يتمتع بها الضباط الاتراك والجراكسة .
وقد أيدوا الدستوريين ضد توفيق لأسباب سياسية (٢) .

(١) الاصبح أن البارودى ، وهو فى الواقع من سلالة ممالك جراكسة ، كان ضابطا
عسكريا شغل مناصبا وزاريا . وكذلك كان شاعرا عربيا ممتازا . عن حياته انظر :
خير الدين الزركلى : « الاعلام » ، مطبعة كوستانتينوماس ، ١٩٥٩/٥٤ ، ج ٨ ، ص ٤٧
(٢) من الطريف أن سارن بين التفسيرين المختلفين للثورة العرابية اللذين قدمهما
كل من دانكوارت روستور وجورج كيرك فى اسميهما فى كتاب « العسكرية فى الشرق
الوسط » ، لناشره سيندى نلتون فيتشر .

Dankwart Rustor and George Kirk in Sudney Nettelton Fisher (ed.) .
«The Military in the Middle East», Calumbus, Ohio State Univer-
sity Press, 1963.

فروستوريكتب فى شيء من السذاجة : « من بين الصفوة الممتازة الصاعدة المتأثرة بالغرب =

أما العنصر العسكرى فقد أصابته هزيمة عرابى بالخزى ،
فكاد يختفى من السياسة المصرية ، بل من الحركة الوطنية حتى
ثورة ١٩٥٢ .

والعنصر الوطنى الثانى هو الدستوريون ، وهم مجموعة صغيرة
من المدنيين المتعلمين تركزوا فى المجالس النيابية المنتخبة وقلة من
مكاتب الصحف . كان بعضهم ، كشرىف باشا ، أرسنقراطيين من أصل
تركى ، فى حين كان آخرون ، كىمحمد سلطان من أبناء الفلاحين محدثى
النراء . وكانت الرابطة المشتركة بينهم هى تحررهم ، وتعلقهم بالحياة
النيابية ، ومعارضتهم لاستبداد الخديو . وقد ناصروا « عرابى »
باعتباره مصلحا متحررا ، ثم انقلب بعضهم عليه خوفا من أن يتحول
الى ديكتاتور عسكرى أو يهدد وضعهم الاقتصادى الممتاز . ولذلك فقد
كان ما أصاب الدستوريين نتيجة هزيمة عرابى أقل قسوة مما أصاب
غيرهم . فقد تولى شريف باشا رئاسة الوزراء فى أوائل الاحتلال
البريطانى . وبعثت بعض أفكارهم عن طريق الحزب الوطنى المدنى ،
حزب مصطفى كامل ومحمد فريد ، ووضعت موضع الاختبار فترة
قصيرة عقب اعلان دستور سنة ١٩٢٣ .

وكان العنصر الثالث فى الثورة العرابية هو حركة الاصلاح
الاسلامى التى أسسها جمال الدين الافغانى خلال اقامته الطويلة فى
مصر . وبعد نفيه سنة ١٨٧٩ أصبح تلميذه المشهور محمد عبده المتحدث
الرئيسى باسم هؤلاء المصلحين . ورغم أن اهتماماتهم كانت أوسع
بكثير من مقاومة الحكم الأجنبى ، أو اقامة حكومة برلمانية ، فقد وحدوا
أهدافهم مع العرابيين . وكان عددهم قليلا كمجموعة ، ولا يتمتعون
بتأييد الجيش ولا الخديو ولا السلطان ولا القوى الاجنبية . وكلما
كان العالم منهم أشد محافظة حظى بتأييد شعبى أكبر . وكانوا

== كان طلبة المدرسة الحربية والضباط من أوائل من اهتموا الى الأفكار الأوربية المتحررة
عن الدستور والقومية . وفى سنة ١٨٨١ قام الضباط المصريون بقيادة الأميرالاي عرابى
بمحاولة القيام بزل اىقلاب عسكرى حديث فى الشرق الأوسط ، وكان هدفه الأول
اخضاع الخديو المبذر للرقابة المالية التى يتولاها مجلس منتخب . . . ويقدم كبرك هذا
التصحيح : « منذ سنة ١٨٨٠ أحس عدد قليل من الأميرالايات والصاغات مصرى الأصل
أن فرص الترقى أهمهم يغلقها الاتراك والجراكسة الذين كانوا يحتكرون وزارة الحربية
والرتب الرفيعة فى الجيش ، فكان الموح الشخصى المحبط لا يقل أهمية عن مثل الاصلاح
فى توجيه أولئك الضباط المصريين للقيام بدور سياسى رئيسى فى تلك الحركة المفككة
التي أسسها توجيهها سنة ١٨٨١ والتي أطلق عليها اسم الأميرالاي أحمد عرابى . »

منقسمين في تأييدهم للوطنيين ، متحدين في معاداتهم للمصلحين
الدستوريين . وبالرغم من نواحي الضعف تلك ، وربما بسببها ،
كانت معاناة المصلحين الاسلاميين من هزيمة عرابي أقل . فقد هادن
محمد عبده البريطانيين ، ورأى أتباعه ، على عكس الوطنيين ، أن من
الممكن تمدين المجتمع المصرى بالتعاون مع قوة خارجية خيرة ، دون
التضحية بمبادئ الاسلام الأساسية . وكان تأثيرهم في تطور مصر
الفكرى أكبر بكثير من تأثير الفريقين الآخرين .

ويمكن ارجاع نجاح الحركة الوطنية الاولى في بداياتها الى
الى الانقسام في صفوف القوى المعادية لها ، والى أن هذه القوى لم تكن
واثقة من أهدافها مثل ثقة الوطنيين . وفي بعض الأحيان كانت تبدو
وكانها تشجع الوطنيين على طلب المزيد ، وكانت تصريحاتهم المهدئة
تنم عن ضعف وتهديداتهم تشي بالخداع . وكان الوطنيون ، بالإضافة
الى ذلك ، يسيطرون على بعض المناصب الحساسة ، كقيادة حرس
قصر عابدين ، وكان باستطاعتهم - على الأقل في مرحلة نجاحهم -
أن يحظروا بتأييد الجماهير المثقلة بالديون . وكانت هزيمتهم الأخيرة
سببها سوء تقديرهم لمدى استعداد بريطانيا للتدخل لمناصرة الخديو
ولمصلحة الجاليات والدائنين الأجانب ، ولاستهانتهم بقوة بريطانيا .
وبالإضافة الى ذلك فقد أغضبوا العديد من مؤيديهم المدنيين باتخاذهم
بعض المواقف المتطرفة أثناء توليهم السلطة . وأخيرا ، فقد كانت
أهدافهم من الكثرة والتنافر بحيث يستحيل تحقيقها بالوسائل المتاحة
لهم -

ولقد تعرضت الحركة الوطنية الاولى للنقد القاسى من جانب
الجيل التالى من الكتاب المصريين ، لميولها الثورية ، ولسوء تقديرها
لقوتها ، ولتنافر أهدافها ، وبشكل أساسى لأنها فشلت في تحقيق
استقلال مصر ، في حين أبدى عدد قليل من الكتاب الأوربيين ، كويلفريد
بلنت ، ومن بعده جورج يونج ، درجات متفاوتة من التعاطف مع عرابي .
أما في مصر فلم يرد اعتبار عرابى بطلا وطنيا أصيلا الا بعد نجاح
انقلاب عسكري آخر في الاطاحة بأسرة محمد على .

وقد ترى النظرة السطحية في هزيمة أنصار عرابي ردة للقومية
المصرية واستقلال البلاد السياسى . وقد يكون من الصعب مع ذلك
أن نفهم كيف استطاعت تلك الحفنة المتنافرة من الرجال قليلي الخبرة

بالسياسة أن تشق لنفسها طريقا آمنا بين الغوغائية والاستسلام
للمصالح الاوربية ، بين التحرر الدستوري والديكتاتورية العسكرية .

غير أننا لو ألقينا نظرة عامة على التاريخ المصرى لبدت لنا الدلالة
الرئيسية للحركة الوطنية الأولى فى أنها تمثل بداية الاتجاه نحو اشتراك
نسبة متزايدة من أبناء الشعب المصرى فى العمل السياسى ، ونحو خلق
احساس واع بالقومية بعد أن كان غافيا أو غير موجود أصلا .

الفصل الثاني

الاحتلال البريطاني والبعث القومي

- الاحتلال
- بداية البعث القومي
- تكوين الائتلاف الوطني
- ابتعاد التيار الوطني عن عابدين

الاحتلال

« ٠٠ ان الانجليزى ، الذى يحتل الكثير من
اجل الاحتفاظ بحبيبته الهند ، سيفرس قدما
ثابتة على ضفاف النيل ، ويحتل مقعد المقيم
على العهد أبدا ٠٠ »

١٠٠ كينجليك فى روايته «يون» (١٨٤٤)

لم تحقق أحداث صيف ١٨٨٢ الا جانبا من نبوءة كينجليك ، لان
كرومر أراد أن يوضح (١) أن الانجليزى ان كان قد وضع قدما فى
مصر فهو لم يغرسها جيدا . وحتى قبل أن تهزم الحملة البريطانية
الوطنيين نفى جلادستون أى نية للبقاء فى مصر . واذا كان موقع مصر
الاستراتيجى عبر طريق بريطانيا الى الهند هو الباعث غير المعلن
للتدخل ، فقد كان الهدف المعلن للحملة هو اعادة النظام الى البلاد .
ولم يكن هناك بين أعضاء الحكومة البريطانية من يتنبأ باحتلال بريطانى
طويل الأمد ، أو أنه سيتطور الى حماية مقنعة لمصر ، وما سترتب
على ذلك من تأثير بالغ على الدبلوماسية الأوربية وتاريخ الشرق الاوسط
فى الحقبة التالية .

(١) Modern Egypt, I, p. 331. من أجل التسهيل على القارئ سنشير دائما الى
ايغلين بارينج Sir Evelyn Baring قنصل بريطانيا العام فى القاهرة منذ سنة
١٨٨٣ الى سنة ١٩٠٧ بلورد كرومر ، بالرغم من أن منحه هذا اللقب لم يتم الا سنة
١٨٩٢ .

كانت إعادة النظام الى مصر فكرة مطاطة . فلو أن الحكومة البريطانية كانت تقصد بهذه العبارة وقف القلاقل وأعمال العنف فقد تحقق ذلك بهزيمة عرابي في التل الكبير ، ولكن عليها أن تنأهب لسحب قواتها . أما اذا كانت تقصد استئصال أسباب الاضطراب فقد كان من واجبها أن تشرع في تنفيذ برنامج اصلاح شامل ، يسانده احتلال عسكري طويل الأمد . وكانت أحوال مصر المالية في سبتمبر ١٨٨٢ أسوأ مما كانت في أى وقت مضى ، فالدين العام الذى خفض ما يقرب من مليون جنيهه بموجب قانون التصفية لسنة ١٨٨٠ ، تضاعف حوالى عشر مرات خلال الثورة (١) . واحتضرت الرقابة المالية الثنائية ألغتها بريطانيا ، مخيبة بذلك آمال فرنسا ، وعينت مستشارا ماليا انجليزيا للحكومة المصرية . ولم يقتصر الامر على الرقابة الثنائية ، بل امتد الضعف الى جميع مراكز القوى المصرية : القصر ، الوزراء ، ومجلس النواب ، والجيش . وأصبح على بريطانيا التى هزمت عرابي أن تملأ الفراغ الذى نجم عن هذا الضعف ، أو تعثر على دولة أخرى ، كتركيا تقوم بهذا الدور . وازداد الموقف السياسى تفاقمًا بثورة المهدي ذات النسق المستقل ضد الحكم المصرى فى السودان (٢) . ولم تكن مصر بعد تسريح جيشها وتطهيره وإعادة تنظيمه ، قادرة على قمع الثورة دون معونة بريطانيا .

وتمشيا مع عدائه المذهبي للاستعمار ظل جلادستون يعد المرة بعد الأخرى بأن الاحتلال مؤقت . وفى يناير سنة ١٨٨٣ وجه وزير خارجيته لورد جرانفيل خطابا دوريا الى بقية الدول الكبرى يقرر فيه أن حكومته سوف تسحب قواتها من مصر بمجرد أن تسمح أحوال البلاد بذلك (٣) . وظل ادوارد ماليت أكبر موظف بريطاني فى مصر الى أن استبدل به ايفلين بارينج (لورد كرومر) فى سبتمبر سنة ١٨٨٣ ، ولم يرسل

(١) « إنجلترا فى مصر » للفيسكونت (الفرد) ملتر

Viscount (Alfred) Milner : « England in Egypt », 13th ed., London, Edward Arnold, 1920, p. 183.

(٢) المهدي : هو - فى فلسفة البعث الاسلامية - من سعييد الاسلام الى نقائه الاول قبل يوم الحساب الأخير . والمهدي السوداني هو محمد أحمد (١٨٣٤ - ١٨٨٥) ادعى اللقب لنفسه سنة ١٨٨١ عند اندلاع ثورته ضد انحلال المسلمين (فى رايه) وفساد الحكم المصرى . وليس لثورة المهدي - فيما أعلم - أى علاقة بثورة عرابي ، وان كان اضطراب الأحوال السياسية فى مصر قد ساعد بلا ريب على نجاح الفتنة السودانية .

(٣) لم يزد عدد القوات البريطانية عن خمسة آلاف جندي ، بما فيهم قوات الحملة التى أرسلت لقمع الفتنة فى السودان .

حاكم أو مندوب سام لتولى السلطة • وكان المقروض أن يسترد السلطان العثماني سيادته ، ويستعيد نائبه الملكي الخديو توفيق سلطاته ، وكان جلادستون يعارض من حيث المبدأ زيادة التزامات بريطانيا عبر البحار • واحتمل مصر فترة طويلة لا بد أن يتكلف الكثير ، ويعطل القوات العسكرية ، ولا شك أنه سيثير عداوة فرنسا ، ومن المحتمل أن يستتير محاولات جديدة ، وبخاصة من جانب روسيا ، لادخال الامبراطورية العثمانية في مناطق النفوذ • فمئذ أربع سنوات لا أكثر اقتحمت ثلاث بوارج بريطانية مضيق الدردنيل وانعقد في برلين مؤتمر للدول الكبرى للمحافظة على الامبراطورية العثمانية وعلى توازن القوى في الشرق الأدنى •

أما كرومر فكان يدرك أكثر من حكومته أن بريطانيا لن تترك مصر بسهولة لان الإصلاح المالي يتطلب برنامجا طويل الامد لتقوية القاعدة الاقتصادية في مصر • فبناء الخزانات والترع واصلاحها وزيادة الاستفادة من مياه النيل ، الى جانب تحرير الفلاحين من نير الكرباج والسخرة والظلم المحلي • • من الممكن أن يزيد الانتاج الزراعي ، وبالتالي الرصيد المالي للحكومة ، ومن ثم يمكن تخفيض معدل الضرائب أو سداد نسبة من الدين العام • وليست تلك بالمهمة اليسيرة حتى ولو اضطلع بها خبير مالي قدير • ورغم معارضة حاملي سندات الدين الأجانب (معظمهم من الفرنسيين) سدد كرومر ومستشاره نسبة كبيرة من الدين ، وجلبوا من الخارج سيلا من القروض الجديدة لتمويل خطط الري الجديدة واستبدال العمالة المأجورة بالسخرة • وظلت الحكومة المصرية عدة سنوات تلهث على شفا الافلاس ، ولكن منذ سنة ١٨٨٩ اعتدلت الميزانية وبدأت مصر تعرف الازدهار (١) •

كانت المشكلة السياسية سنة ١٨٨٢ لا تقل حدة عن المشكلة المالية ، بل ثبت أنها أكثر استعصاء على الحل • فقد أرسلت الحكومة البريطانية - كخطوة أولى - لورد دوفرين سفيرها في استانبول الى مصر لدراسة الموقف السياسي وتقديم توصيات لاعادة النظام العام والأمن وبناء على توصيته حل محل الرقابة الثنائية مستشار مالي

(١) روى كتاب كلايرون قصة « لهاث مصر على شفا الافلاس » ، ولكن أكثرهم اقناعا هو ألفريد ملنر في كتابه « ايجلترا في مصر » الذي ظهرت طبعته الأولى سنة ١٨٩٢ ، وأعيد طبعة عدة مرات وقد ساعد هذا الكتاب على أن تثبت في أذهان الانجليز صورة مصر باعتبارها بلدا يبعث من جديد بفضل مهارة مواطنيهم الانجليز وخبرتهم • وأنا مدين للأستاذ هـ.س. دايتون بهذه الملاحظة التي سأنميها في فصل تال •

انجليزى ، كما أوصى بأن تتطور الحكومة تدريجيا من ممارسة الحديو
لسلطاته من خلال وزرائه الى نظام نيابى . ومن أجل تحقيق هذا الهدف
أوصى بإنشاء مجلس تشريعى مكون من ثلاثين عضوا ، وجمعية عمومية
تضم مجلس الوزراء والمستشارين التشريعيين وستة وأربعين عضوا
من أعيان الاقاليم ، بالإضافة الى مجلس مديرية فى كل اقليم ، على
أن تكون وظيفة هذه التنظيمات النيابية استشارية بالدرجة الاولى ،
ويختار أعضاؤها المنتخبون عن طريق التصويت المقيد غير المباشر ،
فالقصد بها هو تقديم اطار للتطور المقبل نحو نظام دستورى . وخرجت
هذه التنظيمات الى حيز الوجود بموجب القانون التنظيمى لسنة ١٨٨٣
ولكن سلطاتها وطبيعتها تمثيلها للشعب لم يطرأ عليها تغير طوال ربع
قرن . وحين أصبحت الحكومة مهياة لاصلاحها كان رأى العام يقتض
ق. بدأ يتطلع لديمقراطية نيابية كاملة .

ولما كانت الحكومة البريطانية قد أعلنت أن احتلالها لمصر مؤقت
فان لورد دوفرين لم يستطع الدعوة الى وضع الجهاز الادارى للدولة
تحت اشراف أوربى ، وأصبح لا مفر من الاحتفاظ بالنظام القائم فى
أيدي اداريين مصريين مع قدر مناسب من جرعات الاصلاح الضرورية
لا أكثر . ومن ذلك تعيين مستشارين انجليز فى وزارتى المالية والأشغال
العمومية . ولم يتضح الا فيما بعد أن بقية الوزارات تحتاج هى الأخرى
اصلاحا أساسيا بأشراف بريطانى . فأصبح الاتجاه فى السنوات
التالية ، على عكس توصيات لورد دوفرين ، الى زيادة عدد الموظفين الانجليز
فى الحكومة المصرية ، فأصبحوا بذلك هدفا واضحا للسخط الوطنى .

أما الجيش الذى حل بعد هزيمة عرابى فقد أعيد تكوينه تحت
وصاية ضباط بريطانيين . وأرسلت الحكومة المصرية عدة حملات
عسكرية الى السودان لقمع ثورة المهدي ، ولكنها منيت كلها بالهزيمة ،
وأصبح من الواضح أن مصر لا يمكن أن تستعيد سيطرتها على السودان
الا بمعونة بريطانية . ولم يكن اللورد كرومر راغبا فى تقديم هذه
المعونة وكذلك حكومته . غير أن جلادستون أرسل سنة ١٨٨٤ الجنرال
غوردون « الصينى » (١) لاستنقاذ القلعة المصرية الرئيسية فى الخرطوم ،
ولكن غوردون عسكر هناك وأخذ ينظم مقاومة جادة ، فحاصر ثوار المهدي
القلعة ، وتأخرت النجدة العسكرية التى أرسلت الى الخرطوم ، فلم

(١) اشتهر الجنرال « غوردون » فى بلاده بلقب « الصينى » بسبب نجاحه فى
قيادة الحملات البريطانية ضد ثوار الصين بين عامى ١٨٦٠ و ١٨٦٤ .

تصلها الا بعد يومين من استيلاء المهديين على القلعة وقتلهم غوردون .
وتجاهلت الحكومة البريطانية الاصوات الكثيرة المطالبة بالانتقام لمقتل
غوردون وسحبت قواتها الى وادى حلفا التي أصبحت منذ ذلك الحين
الحدود المصرية السودانية .

وهكذا فقدت مصر السودان نهائيا ، بل ان صعيد مصر ظل مهددا
بضع سنوات . وأثار فقد مصر للسودان عند الجيل التالى حقدا مريرا
نحو الاحتلال البريطانى ، أما من وجهة نظر كثير من البريطانيين فقد
كان معناه عدم الجلاء عن مصر قبل السيطرة على السودان وهو ما لم
يتحقق الا سنة ١٨٩٨ .

والخلاصة أن الاحتلال المؤقت لمصر أصبح احتلالا دائما ، رغم أن
بريطانيا ظلت تزعم - لاعتبارات دبلوماسية - أنه مؤقت ، وأخذت تبحث
عن صيغة مناسبة للانسحاب ، غير أن كل خطة كانت تحكم تدبيرها من
خلال المفاوضات مع فرنسا أو الامبراطورية العثمانية كانت تنهار تماما
بسبب معارضة حاملى سندات الدين ، أو الحكومة الفرنسية ، الاعتراف
بحق بريطانيا فى العودة الى احتلال مصر فى حالات الطوارئ (١) .

وكان لاحتلال بريطانيا لمصر أثره فى تعويق سياسة الوفاق مع
فرنسا نحو عشرين عاما ، اذ كانت مصالح فرنسا الاقتصادية والثقافية
فى مصر قد فاقت مصالح بريطانيا ، وكان الفرنسيون يتوقعون أن
تنسحب القوات البريطانية انسحابا تاما وسريعا ، فلما لم يتحقق ذلك
غضبوا واتهموا البريطانيين بالنفاق ، وأصبحت فرنسا هى المعارض
الرئيسى للوجود البريطانى فى مصر ، أكثر حتى من تركيا صاحبة
السيادة الشرعية على مصر . ومن المفارقات الغريبة أن السياسة التى
اتبعتها فرنسا لم توفق الا فى اطالة أمد الاحتلال الانجليزى لمصر .
فقد شرعت فرنسا فى اتباع سياسة « وخز الابر » داخل مصر وخارجها
وتعطيل اصلاحات كرومر المالية ، وتشجيع المعارضة السياسية المحلية
حتى ليرجع لفرنسا الفضل الأكبر فى انبعاث الحركة الوطنية المصرية
فى تسعينيات القرن الماضى . غير أن الواقع أثبت أن هذه السياسة

(١) أشهر تلك المحاولات هى مفاوضات دروموند - وولف سنة ١٨٨٧/٨٥ .

انظر : « المسألة الشرقية ، ١٧٧٤ - ١٩٢٣ » تأليف م.س. أندرسون .
M.S. Anderson : "The Eastern Question, 1774-1923". London, Macmillan, 1966, pp. 248-251, Cromer : «Modern Egypt». II, pp. 372-381.
Hornik : «The Mission of Sir Henry Drumond-Wolff to Constantinople, 1885-1887», English Historical Review, LV, October 1940, pp. 598-623, Langer : «European Alliances», p. 428.

الفرنسية لم تحقق الا عكس ما قصده مخططوها بالضبط . لقد كانت فرنسا أضعف من أن تستطيع طرد البريطانيين بالقوة ، ومناوراتها المضادة الهادفة الى اشاعة الفوضى فى مصر اضطرت البريطانيين الى تأكيد سيطرتهم بحزم أكبر .

وأهم النتائج التى ترتبت على رفض بريطانيا الظاهرى الاقرار بنيتها لاحتلال مصر فترة طويلة أنها لم تستطع وضع خطة اصلاح شامل ومتكامل لبناء مصر السياسى . ولن تتاح لها بعد ذلك أبدا مثل تلك الفرصة السانحة التى أتاحت لها سنة ١٨٨٢ لتقضى على كل ما يعوق استيعاب مصر للشورتين الصناعية والديمقراطية اللتين عرفتتهما أوروبا فى القرن التاسع عشر . فمع النمو الهائل لحركة النقل وشبكة المواصلات العالمية لم يعد من المقبول أن تبقى أى دولة على حالة الفطرة البدائية . وموقع مصر الاستراتيجى بالاضافة الى الصدمات التى أحدثتها اصلاحات محمد على واسماعيل جعلتها شديدة القابلية للتطور وكذلك فمصر التى بعث كرومر الحياة فى أوصال اقتصادها ينبغى ألا تتجاهل أنها لم تحقق أى تقدم نحرى الاكتفاء الذاتى . فقد استوجبت الطبيعة المؤقتة للاحتلال نوعا من الاصلاحات الجزئية والمتدرجة ، قامت بريطانيا بتوجيهها ولكن التنفيذ اضطلعت به نفس الصفوة التركية - المصرية التى قامت بالاصلاحات السابقة . ومع اتساع مجالات الاصلاح انتقل المزيد من السلطات الى المستشارين البريطانيين ولم تحقق مصر أى تقدم نحو الحكم الذاتى .

أما الشئ الذى لم يمسه الاصلاح فهو البيروقراطية العاجزة التى تنفر من اتخاذ أى مبادرة أو تحمل مسئولية اتخاذ القرارات ، ولا تعتبر الوظيفة الحكومية وسيلة لخدمة المصلحة القومية ، بل مصدرا للمناصب المربحة بمرتبات سخية للأغنياء والأقوياء ، وذوى المكانة الاجتماعية . وقد أدى العجز المالى الى اهمال الصحة العامة والتعليم . فمدارس الحكومة غير كافية حجما وعددا ، وكادت سياسة التعليم بمصاريف أن تغلق أبواب المدارس أمام أبناء الفقراء . ووجهت المدارس القائمة اهتمامها للمواد الادبية ، والى أن تصبح مراكز تدريب لتخريج كتبة الحكومة . ولم يدرك البريطانيون والمصريون الا بعد وقت طويل حاجة

مصر الى تعليم فنى وحر فى عصر تزداد فيه أهمية الصناعة (١) .

والواقع أن السياسة البريطانية تعمدت تشبيط قيام صناعة انتاجية فى مصر . ولا شك أن مصر قد أتاحت لها فى الوقت نفسه عرصه كبيرة الى حد بعيد لزراعة القطن طويل التيلة لتصديره ، وهو ما قطن اليه حكام مصر قبل سنة ١٨٨٢ بزمان طويل . غير أن تخصص مصر على هذا النحو قد ربط اقتصادها بأكمله بمدى الطلب العالمى للقطن ، فى الوقت الذى عوق فيه التصنيع بسياسة التعريف الجمركية التى فرضت رسوما باهظة غير اقتصادية على البضائع الهامة المستوردة فى حين كانت الرسوم المفروضة على الاقمشة القطنية أقل من أن تحمى قيام صناعة نسيج وليدة ، فضلا على ذلك فقد أخضعت مصنوعات القطن المحلية لرسوم ضريبية (٢) . وحتى الحرف اليدوية وتجارة التجزئة المحلية سيطر عليها الأجانب فى ظل حماية الامتيازات الأجنبية .

وتحسنت الادارة القانونية نتيجة لتعيين مستشار انجليزى لوزارة العدل سنة ١٨٩٠ ، ولكن ظلت النظم القانونية غير مفهومة لغالبية المصريين ومنفصلة عنهم ، فأدى ذلك الى زيادة معدل الجرائم (٣) (*) وساعد تحويل القضاء المصرى الى النظام الأوروبى وكان قد بدأ بالفعل

(١) عن اصلاح التعليم المصرى فى تلك المرحلة ، راجع الدراسة الشاملة غير المنشورة : « التعليم المصرى فى عهد كرومر - دراسة فى تقابل الشرق والغرب فى ادارة التعليم وسياسته » لدافيد كينسى -

David C. Kinsey : « Egyptian Education under Cromer; a Study in East-West Encounter in Educational Administration and Policy ».
Unpublished ph. D. Dissertation, Harvard University, 1965.

(٢) حددت الرسوم الجمركية والضريبية رسميا بواقع ثمانية فى المائة من القيمة الكلية . (تشارلز عيسى : « مصر فى منتصف القرن - مسح اقتصادى » -
Charles Issawi : « Egypt Mid Century : an Economic Survey », London, Oxford University Press, 1954, p. 37).

(٣) اعترف بهذه الحقيقة حتى مؤيدو الحكم البريطانى مثل ج. الكساندر فى

كتابه « الحقيقة عن مصر »

J. Alexandr: "The Truth about Egypt", London, Cassell, 1911, p. 42f.

(*) يعجب القارىء كيف يؤدى عدم الامام بالقوانين السائدة فى مجتمع ما الى ازدياد الجرائم فى هذا المجتمع اذا كان الحساكم المنفذ لتلك القوانين عادلا ، وادارة الأمن على كفاية تتيح الكشف عن الجرائم بسرعة ، ووضع اليد على الجناة والاقتصاص منهم بما يقضى به الحق . فازدياد الجريمة راجع الى اهمال السلطة البريطانية لمقتضيات الأمن فى الريف ، اكتفاء بتركيز جهد الضباط الانجليز فى الشرطة المصرية فى حماية امن العاصمة والمدن التى يباشر فيها الأجانب نشاطهم .

بإنشاء المحاكم المختلطة سنة ١٨٧٥ ، على ظهور طبقة كبيرة من المحامين من أهل البلاد تولت قيادة النضال من أجل الاستقلال فى بداية القرن العشرين .

وأخيرا لم تتخذ أى خطوات ، طوال بقاء كرومر فى مصر ، لتوسيع فرص المشاركة الشعبية فى اتخاذ القرارات السياسية . وتقدمت طبقة كبيرة من المصريين المتعلمين الواعين باستبعادهم . فعلا من صياغة سياسات حكوماتهم .

ومع ذلك فقد يكون من الاجحاف اعتبار الاحتلال البريطانى مسئولا وحده عن كل هذه النواقص فى الوقت الذى عوق فيه كرومر اضطراره لمهادنة حساسيات المسلمين مع الحرص على تهدئة القوى الأخرى صاحبة الامتيازات ، وفضلا عن ذلك فالأرجح أن الأحرار البريطانيين ، وبخاصة فى العصر الفيكتورى ، كانوا يفضلون التفسير التدريجى على العنف ، ويؤثرون الارتجال على التخطيط الكامل . فمادام الاحتلال مؤقتا ، فان بريطانيا لا تستطيع الا أن تضع خططا قصيرة الأمد وتقوم باصلاحات تدريجية .

وترى النظرة الغربية التقليدية لتاريخ مصر ان الاحتلال الانجليزى كان كريما ونافعا معا ، وان نقاده من المصريين ناكرون للجميل رجعيون ، ومعلوماتهم قاصرة ، أو ممثلون لقوى منافسة . أما المصريون ومؤيدوهم فلا ينكرون تحقيق بعض المكاسب الاقتصادية ولكنهم يذهبون الى أن تقدما أكبر كان سيحقق بدون البريطانيين . والأدلة التى تقدمها هذه الدراسة لتؤيد أيا من الرايين تأييدا كاملا . فإلهم هنا أن انبعث الوطنية المصرية كان رد فعل طبيعى لانجازات نظام كرومر وسلبياته (*) .

(*) ليس هناك شئ أبعد عن الحقيقة من هذا القول ، فالوطنية المصرية ثابت وجودها ، قبل الاحتلال البريطانى ، وهذا ما قرره المؤلف نفسه عندما سرد بايجاز وقائع الثورة العربية . أما انجازات كرومر فقد ساعدت على تقوية الحركة الوطنية بطريق عكسى كعادته للوطنيين والتنضيق على حقوق الشعب الدستورية .

بداية البحث القومى

فى السنوات الأولى للاحتلال البريطانى كانت يؤره المسألة المصرية دبلوماسية لا محلية . فقد جاءت المعارضة الرئيسية للبريطانيين من القوى الأوروبية الأخرى ، أو من رعاياها المقيمين فى مصر ، وحتى الصحف المحلية القليلة المعادية للبريطانيين كان أصحابها من الفرنسيين (١) .
أما الامبراطورية العثمانية فقد تبنت فكرة الجامعة الإسلامية لمواجهة الانقسام الى قوميات داخل الامبراطورية ، وأخذت تحاول بين

(١) وكانت تشمل « البوسفور المصرى » Le Bosphore Egyptien التى تسببت محاولة الحكومة المصرية مصادرتها فى أزمة دبلوماسية . أنظر : « الصحافة فى مصر (١٧٩٩ - ١٩٠٠) مذكرات وذكريات » لجول مونيه
Julis Munier : « La presse en Egypte (1799-1900) notes et souvenirs », Cairo, Institut d'Egypte, 1930.

والمنشورات الرسمية : الآتية :

« وثائق دبلوماسية : ١٨٨٥ » ، « مسألة جريدة البوسفور المصرى » لوزارة الخارجية الفرنسية .

— France, Ministère des Affaires Etrangères, Documents diplomatiques : 1885, « Affaire du Journal Le Bosphore Egyptien », Paris, 1885.

« وزارة الخارجية البريطانية : « وثائق مصر سنة ١٨٨٥ » رقم ١٢ « المراسلات الخاصة بمصادرة جريدة « البوسفور المصرى »

Great Britain, FO, Egypt, 1885. No. 12, « Correspondence » concerning the suppression of the « Bosphore Egyptien », London, HMSO, 1885.

«Parliaments and Parties», p. 104. ويشير لاندو فى كتابه برلمانات وأحزاب .

الى جريدة أخرى كان يملكها فرنسى وهى « الاتحاد المصرى » الذى لا أعلم عنها شيئا . وكان « الأهرام » من الصحف الأخرى المعادية للبريطانيين ، وكان يصدرها شقيقان سوريان هما سليم وبشارة تقلا اللذان تجنسا بالجنسية الفرنسية ليتخلصا من الخضوع لأحكام قانون العقوبات الأهملى .

الحزب الوطنى المصرى - ٦٥

الحين والآخر تأجيج عدااء مصر للحكم الأجنبي ، وشاع الاعتقاد بأن قيادات المندوب السامي العثماني بالقاهرة كانوا يمثلون المركز المحرك لشبكة من العملاء المعادين لبريطانيا (١) .

ومن المحتمل أن القصر كان أقوى مراكز المعارضة للبريطانيين داخل مصر ، غير أن الخديو توفيق وان رفض بين الحين والآخر « الحماية المقنعة » (٢) ، فقد كان شديد الامتنان للبريطانيين لانقاذهم عرشه بدرجة لا تسمح له بمعارضة كرومر علنا . وبعد وفاة توفيق المفاجئة سنة ١٨٩٢ خلفه ابنه عباس حلمي الثاني ، فأصبح القصر لفترة من الزمن المركز الرئيسي للوطنية المصرية .

على انه خلال حكم توفيق لم تعرف سوى حركتين وطنيتين عملتا ضد الحكم البريطاني . الأولى هي « جمعية الانتقام » السرية ، وكان برنامجها الاعداد لتمرّد مسلح لطرد الانجليز واغتيال المصريين الذين خانوا القضية العربية ، وقد اكتشفت هذه الجمعية وقضى عليها سنة ١٨٨٣ ، وسجن زعمائها ، وكان من بينهم سعد زغلول (٣) ★

أما الحركة الوطنية الثانية في تلك الحقبة المظلمة من تاريخ مصر فيحيط بها الغموض حتى ليعتبر قيامها افتراضيا . وكانت تتكون من جماعة نمت حول جريدة « المؤيد » التي أنشأها وقام على تحريرها سنة ١٨٨٩ الشيخ الأزهرى على يوسف (١٨٦٣ - ١٩١٣) ، وهو واحد من رواد الصحافة المصرية الحديثة . وربما كان منشؤها الحقيقي هو رئيس الوزراء رياض باشا الذي كان بحاجة لجريدة تخدم مصالحه ، على نحو ما كانت « المقطم » المنشأة حديثا وقتها تؤيد بريطانيا

(١) « مصر في ظل الاحتلال البريطاني » ، تأليف م. ف. وود .

H. F. Wood : «Egypt under the British», London, Chapman and Hall, 1896. p. 62f. Milner, p. 134.

(٢) « عزل الخديو » لأردن هيولم بيمان الذي عاش في القاهرة من سنة ١٨٧٩

الى ١٨٨٩

Ardern Hulme Beaman : «The Dethronement of the Khedive», London, George Allen and Unwin, 1929, p. 28.

(٣) أحمد شفيق : « مذكراتي في نصف قرن » - القاهرة ، مطبعة مصر ، ١٩٣٤ ،

ج ١ ، ص ٢١٢ ، عباس محمود العقاد : « سعد زغلول ، سيرة وتحية » ، القاهرة ،

مطبعة سجاى ، ١٩٣٦ ، ص ٧٢ ، ويلفريد سكاون بلنت : « غوردون في الخرطوم »

Wilfrid Scawen Blunt : «Gordon at Khartoum» London, Stephen Swift, 1911, pp. 71, 74f, 628.

(★) سعد زغلول لم يكن عضوا في هذه الجمعية ، انما اتهم بناء على بلاغ كاذب من بعض كارهيه ، وقد ثبتت براءته ، وحرص النائب العام البريطاني المشرف على التحقيق على الافراج عنه ، وتم الافراج فعلا بفضل هذا التدخل .

« والأهرام » تؤيد فرنسا (١) وقد كتب أحد المراقبين البريطانيين المعاصرين لتلك المرحلة أن « المؤيد » قد تابعت عن قرب الخط السياسي لرياض باشا ، الذي ظل يؤيد البريطانيين حتى اختلف مع كرومر سنة ١٨٩٠ حول تعيين مستشار قانوني بريطاني ومنذ ذلك الحين غير كل من السيد والجريدة موقفه . (٢) غير أن «توفيق» ظل يعتبر « المؤيد » دائما لسان حال جماعة وطنية سرية تعمل لخلعه ، وكان على وشك إيقافها لولا وفاته (٣) وكان كثير من الشبان المصريين منهم سعد زغلول ومحمد فريد ، يقدمون إعانات مالية « للمؤيد » في أوائل عهدها ليعاونوا على استمرار صدورها . ومع ذلك فلا يوجد دليل محدد يثبت وجود جمعية وطنية من مؤيديها . (٤)

والواقع أن معظم المصريين خلال السنوات العشر الأولى للاحتلال البريطاني استسلموا لتفوق قوة بريطانيا كما استسلموا من قبل لحكم أجانب آخرين قرون عديدة (*) . غير أنه كان مقدرا للحركة الوطنية أن تبعث أخيرا ، ولكن بشكل جديد . فالحق أن وطنية عرابي ، التي

(١) ان اصدار «المقطم» لتواجه «الأهرام» ، ثم المؤيد لتوازن «المقطم» أحد قوانين السياسة الذي يقول بأن لكل فعل رد فعل مساو له كالفيزياء تماما .

(٢) Wood : pp. 154-158.

(٣) عبد اللطيف حمزة : « أدب المقالة الصحفية في مصر » ج ٤ : على يوسف ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٥١ ، ص ١٨٢ ، الياس زاخورا : « مرآة العصر في تاريخ ورسوم أكبر الرجال به مصر » ، القاهرة ، المطبعة العمومية ، ١٨٩٧ ، ص ٥٤٠ . (٤) حمزة ، ص ٤٤ ، مذكرات فريد ، هامش ص ٥٧ ، وكل الاشارات في هذه الدراسة الى مذكرات محمد فريد هي الى المخطوطة الأصلية ، وليس الى الصورة الناقصة التي نشرت بالقاهرة سنة ١٩٦٤ . قدر « زاخورا » زيادة التوزيع اليومي « للمؤيد » على النحو التالي : ديسمبر ١٨٨٩ : ٨٠٠ ، ١٨٩٠ : ١٢٠٠ ، ١٨٩١ - ١٨٩٣ : ٢٠٠٠ ، ١٨٩٤ : ١٨٠٠ ، ١٨٩٥ : ٤٠٠٠ ، ١٨٩٦ : ٦٠٠٠ (مرآة ٠٠ ، ص ٥٤٠) .

(*) أصبح توريد هذه الاكثوبة العلمية ديدن أكثر الأجانب الذين يتصدون لكتابة تاريخ مصر ، متجاهلين تيارات المقاومة الفكرية والمادية ، وأحيانا الانتفضات الثورية ، التي كانت تدل على بقاء روح الصمود والمقاومة للغاصب الأجنبي ، مع حرص المصري في جميع الحقب على خصائصه الروحية ، واستقلاله الفكري ، وطابعه الثقافي . فبقى مؤمنا بآلهته ، مؤديا لها العبادات والطقوس ، شديد الحرص على لغته ، وعلى أساليبه في الفن والعمارة ، وثةاليده في الزراعة والصناعة ، وعاداته العائلية ، وسمات حياته في القرية ، هذا كله فضلا عن قدرة المصريين العجيبة على هضم الغزاة ، وتحويلهم الى أشباه مصريين لغة ومظهرا ، وعقيدة أحيانا ، فالهة المصريين جاوزت البحر الأبيض المتوسط ، وكانت لها في ظل الحكم الاغريقي والروماني مراكز عبادة في الشاطئ الشمالي .

فرس بدورها محمد على واسماعيل دون قصد ، لم تمت . . لقد بدأت كرد فعل لالتحاق مصر بنظام أوربا السياسى والاقتصادى فى القرن التاسع عشر وتأثير ذلك على مجتمعا وثقافتها .

كل ما أحدثه الاحتلال البريطانى أنه أعاد توجيه بؤرتى اهتمام الحركة الوطنية بالنسبة لكل من « نحن » و « هم » . فمصر الآن وقد تحررت بالفعل من السيطرة العثمانية ، أصبحت بوضوح تام هى ثورة الولاء الرئيسى ، وبخاصة بالنسبة للصفوة المتعلمة . وأصبح أهلها ، بصرف النظر عن الجنس أو الديانة ، وبقدر ما يعتبرون أنفسهم مصريين يكونون الـ « نحن » التى ستتبلور حولها الحركة الوطنية . ولم تعد « هم » موزعة بين الأقلية الحاكمة من غير المصريين - الأسرة الحديوية والأتراك والجراكسة الذين كانوا يسيطرون على أرقى المناصب فى الجيش والادارة - والأوربيين والأجانب . فقد أصبحت القوة الحقيقية مركزة الآن فى يد كرومر - يظهره جيش الاحتلال البريطانى ومن ثم فهو الخطر الخارجى الرئيسى الذى سيخذ الوطنيون المصريون ضده .

وبعد اتهام عرابى بالخيانة وتطهير الجيش من أنصاره لن يكون الوطنيون الجدد ضباطا ، ولكن من أبناء الطبقة المصرية المتوسطة حديثة النشأة ، وبصفة خاصة أكثر قطاعاتها وعياوهم الصحفيون والمحامون . وسوف يحتاجون ، فى البداية على الأقل الى تأييد خارجى ، ستقدمه لهم باريس واستانبول ، ثم قصر عابدين ، بعد أن خلف عباس حلمى الثانى أباه سنة ١٨٩٢ . ولن تلبث الحركة أن تخلق زعماءها ، غالبا من بين الشبان الذين لم يعرفوا مد سنة ١٨٨٢ ويأسسها ، وكان أعظمهم جميعا المحامى الشاب مصطفى كامل .

ومصطفى كامل ، كمعظم زعماء مصر الوطنيين ، لم ينشأ فى أعلى درجات السلم الاجتماعى ولا أدناها . فقد كان أبوه على محمد (١٨١٦ - ١٨٨٦) المهندس بالجيش ابن تاجر غلال ناجح ، ينتمى الى سلالته من الفلاحين المصريين الاقحاح (١) ، أراد لابنه على محمد أن يدرس

(١) كتب مصطفى كامل يقول : « أنا فخور بأن أكون ابن ضابط جيش وحفيد فلاح » (على فهمى : « مصطفى كامل فى ٣٤ ربيعا » ، القاهرة ، مطبعة اللواء ، ١٩٠٩ ، ج ٦ ، ص ١٠٦ . ومن الآن فصاعدا سنشير الى هذا الكتاب بذكر اسم مؤلفه وحده والعبارة السابقة منقوشة على جدار متحف مصطفى كامل بالقاهرة . وقد أصبح معه حكام مصر منذ سنة ١٩٥٢ من ضباط الجيش أبناء الفلاحين ، وهما طبقتان لم تنالا الا أقل تقدير من النظام القديم .

علوم الدين ، وهى خطوه الصعود التقليدية بالنسبة للنابهين من ابناء الفلاحين ، ولكن محمد على - بظمئة الملح لمواطنيين مدربين فنيا - رأى غير ذلك ، فدرس الفتى الهندسة فى مدارس الحربية . ورقى فى النهاية الى رتبة يوز باشى اول ، وخدم فى حرس الشرف الخاص بسعيد ، وتزوج ثلاث مرات من بنات ضباط من زملائه أو موظفى حكومة .

وهكذا أصبح على محمد فى طبقة الصفوة البيروقراطية - العسكرية التى كونها محمد على وخلفاؤه ولكن لا شك أن المصرى المسلم المحافظ لم يكن يضع مهندس الجيش فى مكانة أسمى من الشيخ الأزهرى الذى كان من الممكن أن يكونه على محمد . فالواقع أنه كان من أعز آماله أن يدرس ابنه السائنس « مصطفى » فى الأزهر ذات يوم .

وكانت « حفيظة » والدته مصطفى كامل ابنة ضابط بالجيش ومن سلالة النبى ولم تكن الأسرة غنية ولا فقيرة فسكنت فى قسم الخليفة ، وكان وقتذاك من أحياء المسلمين المحترمة بالقاهرة . وأرسل جميع الأبناء الى المدارس ، والتحق أحدهم بمدرسة الطب بالقصر العينى . وحين توفى « على محمد » خلف لابنه الثالث حسين واصف ميراثا وفيرا ليتم تعليم أبناء الأصغر سنا : على فهمى ومصطفى ، وحسن . (١)

وقد أظهر مصطفى فى طفولته أمارات ذكاء مبكر واستعداد للزعامة وحينما بلغ الخامسة أحضر أبوه فقيها (٢) ليعلمه مبادئ القراءة والكتابة بدلا من أن يرسله الى الكتاب ، وفى السنة التالية ألحقه بمدرسة « أم عباس » (٣) الحكومية ذات المكانة الممتازة . وانتقل مصطفى من مدرسة لأخرى ، وواصل دراسته بنجاح . ويروى شقيقه قصة تصور نضج استقلاله السياسى المبكر . فقد زار الخديو مدرسته

(١) لتفصيلات عن تاريخ الأسرة . انظر : على فهمى كامل ، ج ١ ، ص ص ٥٤ - ٦٢ ، هامش ص ٩٣ ، وحسين واصف (المتوفى سنة ١٦٤٠) أصبح موظفا مهما ، وبعد ذلك بقليل وزيرا للأشغال العمومية ، ولم يقم بأى دور ايجابى فى الحزب الوطنى .

(٢) الفقيه فى الأصل هو الخبير فى الفقه ، أو التشريع الاسلامى ، وتستخدم الكلمة فى مصر كثيرا للدلالة على معلم المدرسة الابتدائية المقامة فى المسجد ، أو الكتاب .

(٣) لوصف مدرسة أم عباس التى يمكن مقارنتها من حيث المكانة التعليمية بمدرسة مائتاتن الابتدائية رقم ٦ . انظر : « حيانى » لأحمد أمين ، ط ٣ ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩ ، ص ص ٥١ - ٥٧ .

يوم توزيع الجوائز • وألقى مصطفى خطبة ، فأعجب توفيق ببلاغة الصبي واستدعاه أمامه وسأله عن اسمه ، فحثه أحد أفراد الحرس (*) على أن يجيب • « عبد سموك » فرفض • وبعد انتهاء المقابلة قال مصطفى للضابط :

« لم يكن أبى عبدا ولست عبدا ، ولو أنى أجبت بغير ذلك كما أردت لكنت كاذبا (١) والتحق مصطفى كامل سنة ١٨٨٧ بالمدرسة « التجهيزية » (٢) ، وبدأ يبدى اهتماما ايجابيا بالسياسة وفى سنته الثانية بالمدرسة قاد حملة طلابية لاقتناع وزير المعارف على مبارك (المصلح المشهور فى القرن التاسع عشر) بالغاء قانون لا يسمح بنجاح الطالب الا اذا حصل على مجموع من الدرجات مبالغ فيه (٣) وحظى بعد ذلك برعاية على مبارك الذى منحه مجانية التعليم ودعاه الى منتداه السياسى ، وكان مقرا لاجتماع المصريين الذين لم يهادنوا الحكم البريطانى ومنهم العديد من كبار موظفى الحكومة ، وكان على يوسف من الشبان الذين التقى بهم مصطفى هناك • (٤)

ولم يعتمد مصطفى على اتصالاته الشخصية بالمنتديات الراقية وحدها ، بل أخذ ينمى مواهبه وأنصاره • فأسس وهو طالب بالمدرسة التجهيزية أول تنظيماته ، وهو جمعية الصليبية للخطابة ، وكان يلقي فيها خطابا كل أسبوع • ومع أن جمعية الصليبية لم تكن وطنية بالمعنى الدقيق

(١) على فهمى كامل ، ج ١ ، ص ٩٩ •

(٢) لا ينبغي الخلط بين صفة المدرسة « التجهيزية » والمدرسة « الاعدادية » التى استخدمها المدرسون حديثا للدلالة على المدارس الحكومية التى تتوسط المرحلتين الابتدائية والثانوية • فالمدرسة التى التحق بها مصطفى كامل كانت واحدة من مدرستين ثانويتين حكوميتين بالقاهرة • وكانت تسمى « التجهيزية » بالنسبة للمدارس « العليا » أو المهنية وكان عدد تلاميذها (سنة ١٨٨٩) ٣٧٨ تلميذا ، من بينهم ١٨٠ يتعلمون مجانا • (محمد عبد الكريم : « على مبارك : حياته ومؤثره » ، القاهرة ، مطبعة الرسالة ، د • ت • ص ١٢٤) ، وكان من بين مدرسى مصطفى كامل الدكتور محمود كامل الكفراوى (١٨٥٥ - ١٩٣١) من قدامى العربيين (على فهمى كامل : ج ١ ، ص ١١٢) •

(٣) على فهمى كامل : ج ١ ، ص ١١٧ - ١٢٤ •

(٤) عبد الرحمن الرافى : « مصطفى كامل ، باعث الحركة الوطنية » ، ط ٣ ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٠ ، ص ٢٤ • وعن صالون على مبارك ، انظر أيضا : أحمد امين : « زعماء الإصلاح فى العصر الحديث » ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٨ ، ص ١٥٨ •

(*) كان الذى طلب منه ذلك أحد موظفى المدرسة وليس أحد أفراد الحرس •

للكلمة ، فقد التحق بالاضافة اليها بعدة جمعيات سياسية سرية كونها طلاب المدارس بالقاهرة (١) .

وحين نهى مصطفى دراسته الثانوية سنة ١٩١١ التحق بمدرسة الحقوق الخديوية ، وكانت قبل ذلك مدرسة للغات . ولم تكن مهنة القضاء قد حظيت بعد بكل الاحترام ، غير أن التحاق شاب من بيئة مصطفى المتواضعة نسبيا بهذه المدرسة كان يعتبر خطوة الى أعلى ، (٢) كما أنها كانت - كما كتب مصطفى الى شقيقة في تبرير اختياره لها - « مدرسة فن الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم » . (٣) ولم تكن في مصر مدرسة عليا غيرها يمكن أن تدرب زعيما وطنيا منتظرا تشبع بالفعل بقدر كبير من أيديولوجية القرن التاسع عشر الليبرالية وتأكيدا للحقوق القومية والفردية . فقد كانت مدرسة الحقوق أقرب معهد في مصر لكلية آداب متحررة ، كما كانت تقتدى في تنظيمها ومناهجها بمدارس الحقوق الفرنسية (٤) .

وفي سنته الأولى بمدرسة الحقوق وقع مصطفى تحت تأثير لطيف سليم الحجازي والد فؤاد زميله في الدراسة ، الذي مال به أن يصبح بدوره أحد زعماء الوطنيين . وكان لطيف سليم زعيم تمرد الضباط سنة ١٨٧٩ ، وتقاعد ، وأصبح صاحب ندوة منتظمة التقى فيها مصطفى بكثير من زعماء السياسة والفكر وبعدد ممن سيصبحون فيما بعد من أنصاره (٥) وبالإضافة الى ذلك ظل مصطفى عضوا عاملا في بعض

(١) على فهمي كامل : ج ١ ، هامش ١٢٥

(٢) لمناقشة ضالة شأن المحامين في القرن التاسع عشر ، انظر : « مصر تبحث عن مجتمع سياسي ، لنداف صفران » .

Nadav Safran : « Egypt in Search of Political Community », Harvard University Press, 1961, p. 271.

ونظام التشريع الاسلامي التقليدي لم يكن يعرف المحامين .

(٣) على فهمي كامل : ج ١ ، ص ١٣٧ .

(٤) لمناقشة بواعث طلاب مدرسة الحقوق المصرية ودور مدرسة الحقوق الخديوية فيما بين سنتي ١٨٩٠ و ١٩١٤ انظر الفصل الثالث من هذه الدراسة .

(٥) كانت جماعة لطيف سليم تضم الشيخ علي الليثي (١٨٢١ - ١٨٩٦) واسماعيل صبري (١٨٥٤ - ١٩٢٣) ومحمود سليم واسماعيل الشيمي (الرافعي : « مصطفى كامل » ، ص ٣٣) وعن حياة لطيف سليم انظر : المرجع نفسه ص ٣٦٨ .

جمعيات الطلبة السرية . (١) وبدأ يكتب مقالات الجريدة «الأهرام» (٢) وكانت وفاة الخديو توفيق في يناير ١٨٩٢ وتولية ابنه عباس ذى الثمانى عشرة سنة والارادة القوية ، نقطة تحول فى تاريخ الحركة الوطنية ، فلم يكن تعليمه ولا شخصيته تؤهله للقيام بدور أبيه كقناع حاكم يختفى وراءه البريطانيون ، ولا أى قوة أجنبية أخرى . (٣) فلم يكده يتولى العرش حتى حاولت فرنسا وتركيا اختصار مدى نفوذهما على الخديو فاقترحتا عزل وزراء أبيه ، كما أصدرت الحكومة العثمانية فرمان ولايته منكرة فيه مطالب مصر فى سيناء ، ولكن ضغط بريطانيا الدبلوماسية على استانبول أجبر السلطان على التراجع (٤) .

وقف الخديو فى البداية الى جانب كرومر ضد هذه التهديدات الخارجية ، لكنه سرعان ما دبر حركة التفاف فى محاولة لتأكيد استقلاله السياسى . ووقع أول صدام صريح بين الرجلين فى يناير ١٨٩٣ حينما حاول عباس عزل رئيس وزرائه مصطفى فهمى المؤيد للبريطانيين وتعيين حسين فخري مكانه وهو المعارض للتعاون مع كرومر (٥) وتلت هذه الأزمة الوزارية مباشرة عودة الأحرار البريطانيين الى الحكم ، بعد حملة انتخابية قوية معادية للاستعمار .

(١) على فهمى كامل : ج ١ ، ص ١٤٠ .

(٢) على فهمى كامل : ج ١ ، ص ١٤٣ . لما كانت «الأهرام» تؤيد الفرنسيين ، والى حد ما الأتراك فقد أصبحت ، كالمؤيد ، منبرا مناسباً لمعارضى حكم بريطانيا لمصر .

(٣) تلقى عباس تعليمه الثانوى فى كلية «الترزيانوم» بفيينا ، وهى مدرسة ممتازة المستوى ، أنشئت لتعليم أبناء طبقة نبلاء النمسا والمجر ، وذلك بسبب اعتقاد توفيق أنه من سوء السياسة أن يعلم وريثه فى إنجلترا أو فرنسا ، وهما القوتان اللتان تحرسان أكثر من غيرهما على التدخل فى مصر . وقد وصفت كتب كثيرة شخصية الحاكم الشاب ، ومن أشهرها «عباس الثانى» للورد كرومر .

Lord Cromer : «Abbas II», London, Macmillan, 191٤.

وان كانت رواية فردريك ك. بنفيلد فى كتابه «مصر المعاصرة» أكثر تعاطفا ومعاصرة
Fredric C. Penfield : «Present-Day Egypt», New York Century, 1899, pp. 272-297.

(٤) Cromer : «Modern Egypt», II, pp. 267-269, and «Abbas II» p. 4f.

(٥) كان من بين من أيدوا الخديوى المندوب السامى التركى ، وقنصل فرنسا العام (الذى ما لبث أن تخلى عن تأييده) ورياض باشا ، وللحصول على قائمة أكبر ، انظر : «مذكراتى» لويليفريد س. بلنت .

Wilfrid S. Blunt : «My Diaries» (Single Volume Ed.), London, Martin Secker, 1932, p. 87.

وخشى كرومر على مستقبل نفوذ بريطانيا في مصر ، فسعى للحصول على تأييد حكومته ، ولكن غالبية أعضاء مجلس الوزراء ، وعلى رأسهم جلادستون ، كانوا لا يزالون ملتزمين بالجلء عن مصر فعارضوه . لم يؤيده غير وزير الخارجية لورد روزبيري (وساندته الملكة فيكتوريا) في ضرورة أن تتخذ بريطانيا موقفا حازما في مصر ، فما لبثت أن كتبت له الغلبة ، وأصدر روزبيري تعليماته الى كرومر بتحذير الخديو من تغيير وزرائه دون استشارة بريطانيا .

ولتجنب خطر أى تحرك للوطنية المنبعثة أنزلت كتيبة من المشاة في بور سعيد لتعزيز الحماية البريطانية . وتوصل كرومر وعباس الى حل وسط منعا للخرج ، بإعادة رياض باشا لرئاسة الوزراء مرة أخرى . (١) ولكن الخديو شعر أنه امتهن علنا فبدأ يتحين الفرص للانتقام .

واذا كان وجود جيش الاحتلال البريطاني قد جعل لكرومر اليد العليا غالبا ، فان هذا لا يعنى أن الخديو كان مجردا من كل قوة . فالواقع أنه لا يمكن دراسة عباس ودوره في الحركة الوطنية دون التنبيه الى أن المال كان مصدر قوته . فقد استخدمه في الانفاق على الاشخاص والحركات التي تفيده . وكلما ازداد المال الذي يملكه ازداد تبعها لذلك عدد الأشخاص الذين يمكنه السيطرة عليهم . بدأت ثروته بميراث كبير آل اليه من أبيه ، ومرتب حكومي ضخيم كما كانت له السيطرة على الأوقاف ، واستباح موظفوه اختلاس مبالغ كبيرة لحسابه أو لحسابهم من الأموال المخصصة للأغراض الدينية دون أن يتدخل كرومر ، مشفقا من زيادة عمق المشاعر المعادية لبريطانيا بالتدخل في مسائل اسلامية (٢) ، ولكي يحصل عباس على دخل أكبر أخذ يضارب بالأراضي ، وبدأ ذلك التقليد التعس ، تقليد بيع رتب الدولة وأوسمتها . وحين وجد نفسه عاجزا عن اختيار وزرائه حشد بين موظفي قصره عددا من المستشارين

(١) Cromer; « Abbas II », pp. 20-41. ، « روزبيري » لروبرت رودس جيمس .
Robert James: «Rosebery», London, Weidenfeld and Nicolson, 1963,
pp 279-280.

ووفقا لما جاء في الكتاب الأخير فقد هدد كل من روزبيري وكرومر بالاستقالة مالم يعدل مجلس الوزراء عن موقفه المعادي للاستعمار . وهذه الواقعة تسجل خطوة حاسمة نحو انتصار فكرة الاستعمار داخل حزب الأحرار . ولم يلق الوطنيون المصريون الا عطفا شحيحا من وزارات الأحرار فيما بين عامي ١٩٠٦ و ١٩١٦ .

(٢) « Abbas II » : p. 70f.

المعادين لبريطانيا كلويس روييه ، والدكتور صادق رمضان ، واحمد شفيق ، والشيخ عبد الرحمن أحمد . (١) وتحول كذلك الى المصريين والأوربيين خارج القصر ، من أمثال يوسف صديق ، ومحمود سالم ، وارستيد جافيو (٢) ، وكان يبحث عن الصحفيين والعملاء السياسيين ممن يستطيعون حشد التأييد الداخلى والخارجى . ومن المرجح أنه بدأ بتمويل كبير مستشاريه الشيخ على يوسف الذى جعل « المؤيد » أداة فى يد القصر كما أبدى للسبب نفسه اهتماما بمصطفى كامل .

وخلال عامه الثانى بمدرسة الحقوق الخديوية حقق مصطفى تقدما فى عمله الصحفى ، فتحول من كاتب مقالات متفرقة « بالاهرام » الى اصدار مجلته الشهرية « المدرسة » (٣) ، ولعله من خلال تلك المجازفة وقع تحت تأثير عبد الله النديم صحافى الثورة العربية وخطيبها ، وكان عباس قد سمح له بالعودة من المنفى سنة ١٨٩٢ . وقد أصدر النديم مجلة أسبوعية اسمها « الأستاذ » استمرت من أغسطس ١٨٨٢ حتى يونيو ١٨٨٣ ، ولكن مقالاته الساخرة ضد الانجليز اضطرت كرومر فى النهاية الى طلب ابعاده . والمعتقد أن النديم قابل مصطفى ونصحه باعتباره زعيما وطنيا مأمولا ، بأن يتجنب اعادة أخطاء العربيين ، وهى معارضتهم للخديو واعتمادهم على الجيش أكثر من

(١) لويس روييه مواطن سويسرى اختاره الخديو سكرتيرا خاصا له . دكتور صادق رمضان « ١٨٦٧ - ١٩٤١ » كان طبيب القصر . أحمد شفيق (١٨٦٠ - ١٩٤٠) تعتبر مذكراته مصدرا رئيسيا للسياسة المصرية أثناء حكم عباس ، وقد تولى رئاسة ديوانه العربى والأوروبى سنوات عديدة . الشيخ عبد الرحمن أحمد ، المدرس السابق لعباس ، الحق بحاشيته وأصبح حلقة الاتصال بينه وبين مصطفى كامل . وقد نشر د. محمد أنيس مراسلاتهما فى « صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل » ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٢ .

(٢) يوسف صديق (١٨٦٩ - ١٩٢٨) ابن « المفتش » الذى كان مستشارا للخديو اسماعيل ولقى مصرعه على يديه ، وفى سنة ١٨٩٣ كان الابن قاضيا بالمحكمة المختلطة فى المنصورة . محمود سالم (عرفات) كان هو الآخر قاضيا وثيق الصلة بلطيف سليم وأصدر فيما بعد « عرفات » ، وهى جريدة اسلامية باللغة الفرنسية . ارستيد جافيو ، كان مراسل وكالة « هاناس » للأنباء بمصر ، وهو مؤلف كتاب « انجلترا تخرب مصر » «L'Angleterre ruine l'Egypte» Paris, André, 1895.

(٣) أعاد على فهمى كامل نشر أجزاء من مجلة « المدرسة » فى الجزء الأول من كتابه ص ص ١٨٧ - ٣٢٨ . وكان عدد المشتركين فيها ٢٤٠٠ ، وكانت أول مجلة مدرسية مصرية وفقا لما يذهب اليه عبد اللطيف حمزة : « أدب المقالة الصحفية فى مصر » ، ج ٥ : مصطفى كامل ، القاهرة ، مطبعة الجريدة التجارية المصرية ، ١٩٥٢ ، ص ٤٧

الرأى العام (١) وكان استاذاً مصطفى المبكران - النديم تلخص سليم -
هما كل صلته بالحركة الوطنية الأولى . ونصيحه النديم تلخص الفروق
الأساسية بين مصطفى كامل وعرابي . والواقع أن بعض الصعوبات
التي ستواجه مصطفى كامل فيما بعد كانت نتيجة لمبالغة في الحرص
على اتباع تلك النصيحة .

والمرجح أن أول لقاء بين الخديو ومصطفى تم حين زار الخديو
مدرسة الحقوق في نوفمبر سنة ١٨٩٢ ، فألقى الكاتب الشاب خطبة
ترحيب باسم زملائه الطلبة (٢) ولا بد أن مصطفى استلقت انتباه
الخديو مرة أخرى حين قاد مظاهرة احتجاج من الطلبة في يناير سنة
١٩٨٣ ضد جريدة « المقطم » لتأييدها لكرور خلال الأزمة الوزارية (٣)
ورغم ذلك فليس هناك دليل على أنه بدا يتلقى على الفور اعانات مالية من
الخديو ، وإن كان من المحتمل أن عباساً أنفق على طبع مجلة
« المدرسة » ، أو دفع تكاليف رحلة مصطفى الأولى إلى باريس سنة
١٨٩٣ ليؤدي امتحانه . (٤)

(١) الرفاعي : « مصطفى كامل » ، ص ٣٦ ، جورجى زيدان : « تراجم مشاهير الشرق
في القرن التاسع عشر » ، القاهرة ، مطبعة الهلال ، ١٩٢٢ ، ص ٢٩٥ ، كوك . آدمز :
« الاسلام والتمدن في مصر »

C.C. Adams : « Islam and Modernism in Egypt », London, Oxford Univer-
sity Press, 1933, p. 222

وعن حياة عبد الله النديم ومؤلفاته انظر : ابراهيم عبده : « اعلام الصحافة
العربية » ، القاهرة ، دوت ص ص ١٢٥ - ١٢٩ ، ومقال « عبد الله النديم » لجيلبرت
دلائو بمجلة الدراسات الشرقية

Gilbert Delanoue : « Abd Allah Nadim », Bulletin des Etudes Orientales,
XVIII (1951-62), pp. 75-115

، على الخديدي : « عبد الله النديم - خطيب الوطنية » ، القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد
التقوى ، ١٩٦٢ ، وقد اعتمد فيه على رسالته غير المنشورة للدكتوراه من جامعة لندن ،
محمد أحمد خلف الله : « عبد الله النديم ومذكراته السياسية » ، القاهرة ، مكتبة الانجلو
المصرية ، ١٩٥٦ .

(٢) أحمد شفيق « مذكراتي في نصف قرن » ، ج ٢ ، ص ص : ط ، ٥٠ ،
١٩٠ ، عبد الرحمن الرفاعي : « مصطفى كامل » ، ص ٣٤ ، والعبارة التي نسبها
« بلنت » إلى مصطفى كامل في كتابه « مذكراتي » . (My Diaries : p. 564).
من أنه هو عباس درساً في أوروبا معاً . غير صحيحة .

(٣) أحمد شفيق ، ج ٢ ، ص : ط ، ٦٢ ، على فهمي كامل ، ج ١ ، ص ١٤٥ ،
الرفاعي ، ص ٣٥ .

(٤) اقتنع مصطفى سنة ١٨٩٢ بنصيحة صديقه فؤاد سليم بالالتحاق بمدرسة
الحقوق الفرنسية بالإضافة إلى الحقوق الخديوية . وكانت مدرسة الحقوق الفرنسية =

والثناء وجود مصطفى في باريس قام لطيف سليم واتباعه ببعث
الحزب الوطنى ليقوموا بتنظيم الشعب المصرى ليعمل من أجل استقلاله
عن بريطانيا ، ويعرضوا قضية مصر على الراى العام الاوروبى ،
والفرنسى بصفة أخص . وكان من بين أعضاء الحزب نواب ،
وملاك ، وقضاة ، وكتاب ، وكل مؤيدى عباس ضد كرومر . (١)
وعند عودة مصطفى كامل من باريس انضم بدوره الى الحزب ، ولكن
ربما كان على يوسف اكبر كتاب الصحافة الناطقين بلسانه . وليس
من المعروف هل كانت للحزب ارتباطات مباشرة بالقصر أم لا ، وهل كان
وجوده متصلا أم متقطعا .

= تفرض على طلابها أداء امتحاناتهم فى فرنسا . واعتمادا على رواية محمد حسين هيكى
فى كتابه « تواجهم مصرية وغربية » (القاهرة ، مطبعة مصر ، ١٩٢٩ ، ص ١٤٤) قام
الخديو بدفع نفقات تعليم مصطفى . ولكن ربما كان الأقرب للحقيقة أن أخاه غير الشقيق
حسين واصف الذى رافقه الى باريس سنة ١٨٩٣ هو الذى دفع نفقات الرحلة . وحينما
عاد مصطفى من باريس فى العام التالى من المرجح أن أخاه الآخر غير الشقيق الدكتور
عبد الفتاح فتحى هو الذى قام بالانفاق عليه ، على نحو ما ذكر أحمد رشاد فى كتابه
« مصطفى كامل : حياته وكفاحه » ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٩٥٨ ، ص ٤٩ .
ومن المهم معرفة إذا كان الخديو قد أنفق على مصطفى قبل سنة ١٨٩٥ أم لا لتحديد
مدى معاونة القصر المباشرة فى بعث الحزب الوطنى المصرى .

(١) كان من بين الأعضاء المؤسسين : اسماعيل صبرى (١٨٥٤ - ١٩٢٣) وهو
شاعر مشهور وقاض ، ومحمود سالم ، واسماعيل الشيمى (توفى سنة ١٩١٢) وكافا
قاضيين بالمحكمة المختلطة بالمنصورة ، ومحمود مجدى (١٨٥٨ - ١٩٢٠) القاضى بمحكمة
الامتنان الأهلية ، وحسن عاصم (١٨٥٨ - ١٩٠٧) وكان وقتها رئيس النيابة العامة
بطنطا ، وأصبح فيما بعد كبير تشريفاتيه الخديو ، ومحمود أنيس ومحمود خلوصى من
رجال التعليم ، ومحمد فريد (١٨٦٨ - ١٩١٩) وكيل النائب العام بالقاهرة ، ثم
خليفة مصطفى كامل فى زعامة الحزب الوطنى بعد ذلك . واتصل بالحزب بصفة غير رسمية
أحمد الصوفانى نائب رئيس مجلس النواب ، وابنه عبد اللطيف الذى ظل وطنيا نشطا
حتى وفاته سنة ١٩٢٥ وحسن عبد الرازق نائب المنيا فى مجلس النواب وبعد ذلك
أول رئيس لحزب الأمة .

تكوين الائتلاف الوطنى

منذ سنة ١٨٩٣ بذلت مساع جادة لتكوين اتحاد بين مختلف الأحزاب المعارضة للحكم البريطانى فى مصر وهى : الخديو والمحيطون به ، والمواطنون الفرنسيون الذين يؤثرون سياسة استعمارية صريحة ، والحكومة العثمانية وعملاؤها من دعاة الجامعة الإسلامية ، ثم الوطنيون المصريون . فى البداية قام الخديو بالمبادرة الرئيسية فى هذه المحاولة ، وما لبث مصطفى كامل أن برز كشخصية شعبية بفضل براعته فى الخطابة والكتابة فكانت مهمته الأولى هى كسب تأييد الأوربيين والعثمانيين للخديو ضد كرومر . .

وخلال سنة ١٨٩٣ ازداد توتر العلاقات بين القصر والمعتمد البريطانى ، وانتشر شعور العداء لبريطانيا ، وازداد حدة عقب الأزمة الوزارية . ولاحظ كرومر أن الجميع يكادون يقاطعون الموظفين الانجليز ومؤيديهم من المصريين . (١) وشاع الاعتقاد بأن بريطانيا لن تلبث أن ترحل عن مصر بسبب اصرار جلاستون على معاداة الاستعمار . (٢) فاتخذ المصريون المهتمون بالسياسة جانب الخديو ،

(١) الماكيز زيتلاند : « اللورد كرومر » .
Marquis of Zethand : « Lord Cromer », London Hodder and Stoughton, 1932, p. 205, « Abbas II », pp. 45-49.

(٢) يذكر السيد توماس باركلاي - فى كتابه « ثلاثون سنة ، ذكريات أنجلو -

فرنسية : ١٨٧٩ - ١٩٠٦ » .

Sir Thomas Barclay : «Thirty Years : Anglo French Reminiscences», 1879-1906», Boston, Mifflin, 1914. p. 113 f.

أن السير جون سكوت المستشار القانونى وهو يعرض عليه منصبا بالقضاء المصرى سنة ١٨٩٤ حذره من الاعتماد على ضمانات الملكية العقارية بسبب الجلاء المحتمل عن مصر فى تاريخ غير بعيد .

ان لم يكن عن عقيدة ، فمن باب الفطنة ، وأصبح من الواضح أن أزمة جديدة تتجمع خيوطها . وما لبثت العاصفة ان هبت في « حادثة الحدود » في يناير سنة ١٨٩٤ . فبينما كان الخديو يقوم بجولة تفتيش عسكرية في صعيد مصر وبصحبه وكيل وزارة الحربية ماهر باشا (*) ، اذا به يوجه نقد علنيا للضباط الانجليز . واعتبر الجنرال كتشنر سردار (أو قائد عام) الجيش المصرى تصرف الخديو محاولة واضحة للقضاء على هيبة النظام في القوات المصرية ، فقدم استقالته على الفور . وكان كرومر يتحين العرص منذ مدة طويلة لردع الخديو ، فما كان منه الا أن أيد موقف كتشنر ، واضطر «عباس» الى اصدار أمر ينشر في الجريدة الرسمية بالثناء على الجيش وضباطه الانجليز . وسحب كتشنر استقالته في حين عزل ماهر باشا ومعظم أعضاء وزارة رياض . منذ ذلك الحين أضمر الخديو عباس الحقد لكرومر وكتشنر . (١) .

وعلى الرغم من أن أحدا من مؤرخى سيرة مصطفى كامل لم يذكر انه سنة ١٨٩٤ كان قد أصبح عميلا للقصر (**) ، فان تصرفاته في باريس حين ذهب اليها ليؤدى امتحانات سنته الدراسية الثانية توحي بأنه كان كذلك بالفعل ، اذ ليس من المألوف أن يقيم طالب حقوق في العشرين من عمره مآدب ضخمة في باريس على نحو ما فعل مصطفى

(١) فيليب ماجنوس : « كتشنر : صورة استعماري »

Philip Magnus : « Kitchener : Portrait of an Imperialist » London, John Murray, 1958, pp. 83-89.

(٢) الراقى « مصطفى كامل » ص ص ٣٢١ - ٣٢٣ .

(*) هو محمد ماهر باشا الذى عين بعد هذه الحادثة محافظا للقاهرة ، وهو والد السياسيين المصريين الكبارين على ماهر باشا وأحمد ماهر باشا ، وشقيق الزعيم الوطنى الفد عبد الرحمن فهمى بك الذى قاد ثورة سنة ١٩١٩ أثناء غياب سعد وصحبه فى أوروبا ما بين ابريل سنة ١٩١٩ وابريل سنة ١٩٢١ .

(**) لفند « عمل » غير موفق اطلاقا لأن مصطفى كامل لم يعمل قط لحساب الخديو ، سواء بصفته حاكما رسميا لمصر أو زعيما لحركة معادية للاحتلال البريطانى ، انما كان يعمل دائما بوصفة نداء للخديو ، والخطابات والذكرات التى نشرت اخيرا تثبت كيف كان مصطفى يختلف مع الخديو فى توجيه السياسة الوطنية ، وكيف كان يعرّض على توجيه النصيح ، وأحيانا اللوم ، للخديو . ويمكن الرجوع الى هذه المذكرات والخطابات فيما نشره د. محمد انيس وعبد العزيز دنيا ، وقد اشرت اليها وعلقت عليها طويلا فى كتابى مصطفى كامل الذى نشرته دار المعارف فى سلسلة « اقرا » فى يناير ١٩٧٥ بمناسبة مضى مائة عام على مولد الزعيم .

فى مناسبة عيد جلوس السلطان عبد الحميد على العرش (١) فلعل الخديو ، وكان لا يزال يسعى للفوز بالتأييد العثماني ، هو الذى دفع النفقات .

وقد أصبح مصطفى عميلا ممتازا بسبب انتهازيته (*) وسرعة بديهته . فبينما كان عائدا الى بلاده - بعد أن نال شهادته فى القانون من جامعة تولوز - جرت محادثة فوق ظهر السفينة بينه والأدميرال بارينج - شقيق كرومر - الذى اعترف صراحة أن بريطانيا لن تغادر مصر تنفيذا لوعودها ، أو ارضاء فرنسا . ونشر مصطفى تقريرا عن هذا اللقاء فى جريدة « الأهرام » ، فأثار انتباه الرأى العام للكاتب ولغدر بريطانيا الواضح فى وقت واحد . (٢) ولم يلبث أن كون أثر عودته مع الخديو جمعية سرية جديدة معادية لانجلترا ، ضمت كبار المصريين والأوربيين الملتفين حول القصر ، (٣) ووثقت صلاتها بالقنصل الفرنسى وعدد من الموظفين الفرنسيين بالحكومة المصرية (٤) فمئذ سنة ١٨٨٢ والوطنيون الفرنسيون يعادون بريطانيا بسبب احتلالها لمصر بصورة تكاد تقارب معاداتهم للألمان لحسارتهم الأكراس واللورين سنة ١٨٧١ . فقد أدركوا أن فى استمرار الوجود البريطانى قضاء تدريجيا على المكانة الممتازة التى حققتها فرنسا فى مجال

(١) على فهمى كامل ج ٢ ، ص ص ١٢١ - ١٣٤ .

(٢) مصطفى كامل : « حديث ذو شأن » ، الأهرام ، ٢٨ يناير ١٨٩٥ . ونشر النص على فهمى كامل ، ج ٣ ، ص ص ٢٠ - ٢٨ ، وأحمد شفيق ، ج ٢ ، ص ص ١٩٢ - ١٩٥ ، رشاد ، ص ص ٥٤ - ٥٨ .

(٣) أحمد شفيق ، ج ٢ ، ص ١٩٠ ، حيث ذكر نفسه بين أعضاء الجمعية ، بالإضافة الى روييه واسماعيل انشيمى ، ويوسف صديق ، ومحمود سالم ، وأرستيد جافيو . من المحتمل أن تكون هذه الجمعية هى نفسها « جمعية احياء الوطن » التى أشار اليها على فهمى كامل ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ .

(٤) فى مذكراته التى نشرتها جريدة « المصرى » بعد وفاته ، واستشهد بها محمد أنيس فى « صفحات مطوية » ، ص ١٨ ، يذكر الخديو بين هؤلاء الموظفين مسيو بوترون رئيس اللجنة المختلطة بإدارة الأملاك ، ومسيو برونير رئيس المحكمة المختلطة بالقاهرة ، ومسيو فيكتور بروميت بإدارة السكة الحديد ، كما ذكر أحمد شفيق أيضا المستشارين القانونيين للمعتمد الفرنسى وهما : مسيون آن مارى ، ومسيو جوردان بيتري .

(*) إذا كان المؤلف يعنى بلفظ « انتهازيته » حسن استغلال مصطفى كامل للفرص المتاحة لخدمة قضيته ، وانتهاز الفرص المؤيدة لمصاعبه فنحن نوافق على استعمال هذا اللفظ ، أما إذا كان المقصود بالانتهازية هى انتهاز الفرص التى تخدم الأغراض الشخصية والمنافع الدتية فنحن لا نقره .

الاقتصاد والثقافة في مصر يشق الأنفس . وحاول كثير من السياسيين والمحامين والصحفيين والمدرسين الفرنسيين ابطال هذا الأثر بالعمل من أجل اجلاء البريطانيين عن مصر . وكذلك ينبغي تقدير معارضة فرنسا لحكم بريطانيا لمصر على ضوء كفاحها للتفوق الاستعماري في شمال افريقيا . فقد كان من الواضح أن امبراطورية الخليفة السودانى الذى خلف المهدي لن تعمر طويلا ، وأن كلا من بريطانيا وفرنسا تريد ملء الفراغ الذى سينجم عن سقوطه . فقد كان من المسلم به بشكل عام أن من يستولى على السودان يمكنه السيطرة على مصر . فقد ألقى مهندس فرنسي محاضرة في القاهرة سنة ١٨٩٣ حول إمكان إقامة خزانات في أعالي النيل لتنظيم امداد مصر بالمياه ، وعن الاحتمالات السياسية المترتبة على مثل هذا المشروع وأثارت المحاضرة اهتماما كبيرا في فرنسا ، وحث كثير من الساسة الحكومة الفرنسية على ارسال حملة عسكرية للسيطرة على السودان ، وسد النيل الأعلى والتهديد بحجز نصيب مصر من المياه أو اغراق البلاد بأكملها ما لم تسحب بريطانيا قواتها من مصر أو تقدم امتيازات أخرى لفرنسا . (١)

وقام فرانسواز ديلا نكول أحد زعماء الداعين الى هذه السياسة بمجلس النواب الفرنسى بزيارة لمصر في مارس سنة ١٨٩٥ صحبتها حملة دعاية ضخمة (٢) ولما كان قد ألقى كلمة في الحفل العثماني الذى أقامه مصطفى كامل بباريس سنة ١٨٩٤ ، فقد كان ذلك الوطنى الشاب هو الذى قام باستقباله في الاسكندرية ، وصحبة في كل حفلاته خلال اقامته التى استمرت ثلاثة أسابيع . ورحب الوطنيون وحاشية القصر

(١) وليم ل. لانجر : « دبلوماسية الاستعمار »

William L. Langer : « The Diplomacy of Imperialism », 2nd ed., New York, Alfred A Knopf, 1960, pp. 127-129.

ومما هو جدير بالذكر أن ذلك المهندس هو فيكتور برومبت الذى انضم فيما بعد الى جمعية الخديو السرية .

(٢) جريدة « التيمس » اللندنية أعداد ٢٣ و ٢٥ مارس و ١٥ ابريل ١٨٩٥

« The Times », London, 23 and 25 March and 15 April 1895.

وقد جاء فيما كتبه مراسل الجريدة في باريس في عدد ٢٣ مارس تفسير لعطف ديلا نكول على القضية الوطنية المصرية لا بتطلعات فرنسا الاستعمارية وحدها ، بل كذلك بطموحه الشخصى لأن يصبح وزيرا للمستعمرات ، وهو ما لم يفز به أبدا . وعن فرانسواز ديلا نكول

انظر مقال هـ . تيمرسون في « قاموس التراجم الفرنسى »

H. Temerson in the "Dictionnaire de biographie Française", fasc. 58, Pairs Librairie Letouzey et Ané, 1964, p. 874.

بديلا نكول وكأنه محرر مصر ، ولا يخفى أنه اتفق مع الخديو على التعاون ضد البريطانيين (١) ومن تلك الاتفاقية أن يبعث الخديو مصطفى الى باريس ليساعد على اثارة ضغط فرنسي رسمي على بريطانيا كي تنسحب من مصر . وتنفيذا لذلك سافر مصطفى الى باريس في مايو ١٨٩٥ يحمل معه نداء موجه الى رئيس مجلس النواب يناشد فيه فرنسا أن تحرر مصر من طغيان بريطانيا . (٢) وقام ديلا نكول بدوره بمساعدة مصطفى على الاتصال بالصحف الفرنسية ومقابلة المسؤولين الفرنسيين والحصول على تأييد مراسلي الصحف الألمانية والنمساوية والروسية في باريس لقيام تحالف أوروبي ضد بريطانيا في المسألة المصرية ، وكان على « مصطفى » كذلك أن ينظم صفوف المصريين المقيمين في باريس في شكل حزب سياسي يعمل من أجل تحرير مصر ، وانشاء جريدة للدعاية ولم تنفذ هذه الخطط ، اذ يبدو أن ديلا نكول أحس بالغيرة من مصطفى كامل ، وبدأ يدعى (ولعله كان محقا) أنه أحضره الى باريس ليعمل « سكرتيرا عريباله » ، ومن ثم لم يقدمه لاي من أصدقائه ذوي النفوذ ، وأسوأ من ذلك ما اتضح من أن ديلا نكول عددا مساوية من الأعداء ذوي النفوذ لم ير مصطفى داعيا لمعاداتهم ، (٣) فما لبثا ان تشاجرا ورغم أنهما تصالحا بعد ذلك ، الأمر الذي خفف كثيرا من ضيق حاشية الخديو (٤) ، فقد افترقا مرة أخرى ، واضطر مصطفى كامل الى العمل وحده (٥) ويبدو أن تلك المشاجرة صحبها انقسام بين الأعضاء المصريين والفرنسيين في جمعية الخديو السرية . واعتقد مصطفى أن الأعضاء الفرنسيين بقيادة جافيو ، يحاولون اقناع الخديو عباس باعادته الى مصر ، خاصة بعد أن بدأ يلقي الخطب ، ويدلى

(١) أحمد شفيق ج ١ ، ص ص ١٩٧ ، ١٩٩ .

(٢) على فهمي كامل : ص ٧٥ . وعن تقديم النداء انظر : جريدة « التمس » اللندنية في ٦ ، ٧ ، ٨ يونيو ١٨٩٥ . « The Times » 6, 7. and 8 June 1895 . وتنسب كتابته الى ديلا نكول .

(٣) من مصطفى كامل الى أحمد شفيق . باريس في ٦ يونيو ١٨٩٥ ، في كتاب شفيق : ج ٢ ، ص ٢٠١ من مصطفى كامل الى الشيخ عبد الرحيم أحمد ، باريس في ٨ يونيو ١٨٩٥ ، في كتاب أنيس ، ص ص ٢١ - ٢٩ .

(٤) من الشيخ عبد الرحيم أحمد الى مصطفى كامل ، الاسكندرية في ١٧ يونيو ١٨٩٥ ، في كتاب أنيس : ص ص ٣٠ - ٣٣ ، من مصطفى كامل الى الشيخ عبد الرحيم أحمد ، باريس في ٢٧ يوليو ١٨٩٥ ، كتاب شفيق ج ٢ ، ص ٢٠٣ .

(٥) من مصطفى كامل الى الشيخ عبد الرحيم أحمد ، فيينا في ٣٠ يوليو ١٨٩٥ . كتاب أنيس : ص ص ٤٢ - ٤٥ .

بالأحاديث الصحفية ، ويحرر النشرات وحده . (١) فكتب الى الخديو رأسا في سبتمبر يطلب مبالغ اضافية حتى يستطيع أن يستخدمها في اتصالاته لكسب بعض الصحف الأوروبية القوية لصف القضية المصرية ، وكان يرجو أن ينجح في اقناع المانيا بالانضمام الى فرنسا وروسيا في طلب جلاء البريطانيين عن مصر ، وهو ما تنبأ بإمكان تحقيقه في نهاية سنة ١٨٩٦ . (٢) ولم يقتنع القصر ، فاضطر للعودة الى مصر في يناير ١٨٩٦ بعد أن نفذت أمواله .

على كل حال ، لم تكن رحلته كلها خسائر ، فبعد انفصاله عن ديلاكول استطاع أن يفوز بعطف الكاتبة الفرنسية الشهيرة جوليت آدم وتأييدها . (٣) فنشرت عددا من مقالاته في مجلتها نصف

(١) من مصطفى كامل الى الشيخ عبد الرحيم أحمد ، باريس في ٤ أغسطس ١٨٩٥ في كتاب أنيس : ص ص ٤٦ - ٥١ .

نشرت خطبه مصطفى الاولى بعنوان « مؤتمر عن مصر أقيم في تولوز ، الخميس ٤ يوليو ١٨٩٥ ، بمدرج كلية الآداب » .

« Conférence sur l'Egypte faite à Toulouse, le Jeudi 4 Juillet 1895, à l'Amphithéâtre de la Faculté des Lettres », Toulouse, 1895.

وأعيد نشرها في كتاب « مصريون وانجليز » .

« Egyptiens et anglais », Paris Perrin, 1906, pp. 21-43

وقد سافر مصطفى كامل الى فيينا في أواخر يوليو حيث أجرت حديثا معه جريدة « اكسترا بلاط Extrablatt » ذات النفوذ القوي . وفي أغسطس نشر « الخطر الانجليزي المصري » « Le péril anglo-égyptien » التي ذهب فيها الى أن الجلاء عن مصر يمثل ضرورة لسلام أوروبا .

(٢) من مصطفى كامل الى الخديو عباس ، باريس في ١٩ سبتمبر ١٨٩٥ ، في كتاب أنيس : ص ص ٧٧ - ٨٥ . من بين الصحفيين الذين اتصل بهم مصطفى « نيكولاس فوتوفيتش » ، الكاتب الرسمي للقيصر (موظف أم مراسل ١٩) في باريس ، وشقيقة صاحب جريدة « نوفوستي » « Novosti » الروسية . وبعد ثلاث سنوات نشر « فوتوفيتش » كتابه مصر وأوروبا

« L'Egypte et l'Europe », Paris, Paul Ollendorf, 1898.

الذي يدعو فيه الفرنسيين الى الاهتمام بمصر ويشير الى احدي خطب مصطفى كامل .

(٣) من الواضح أن مصطفى كامل كتب بوحي من نفسه الى مدام آدم يرجو معاونتها في عرض القضية المصرية على الرأي العام الفرنسي . من مصطفى كامل الى جوليت آدم ، تولوز في ١٢ سبتمبر ١٨٩٥ ، في « خطابات مصرية فرنسية »

« Egyptian — French Letters », Cairo, Mustafa Kamel School, 1909, p. 4.

وهذه المجموعة من الرسائل قامت مدام آدم بمراجعتها قبل النشر ، وينبغي استخدامها بحذر . ومام آدم كان لها نشاط ملموس في السياسة الفرنسية خلال نصف قرن ، ومن الصعب أن نصدق أن اشفاقها على مصطفى ومصر كان بلا أي مصلحة . وهذا =

الشهرية قوية النفوذ ، وهي « المجلة الجديدة » La nouvelle revue (١) ، وقدمته لأصدقائها من الأدباء والسياسيين : الروائي بيير لوتى ، ودرومنت رئيس تحرير مجلة « الكلمة الحرة » La Libre parole ، وكان من كبار المعادين للسامية ، وهنرى روشفور مؤسس مجلة « المتشدد » L'intransigence (٢) ورئيس تحريرها . وباستثناء لوتى كانت معاونة أولئك الوطنيين الفرنسيين لمصطفى نتيجة كراهيتهم لبريطانيا أكثر مما هي حباً لمصر ، غير أن تأييدهم فتح أمام الوطنية المصرية صفحات العديد من أكبر صحف باريس .

ورغم أن علاقة مصطفى بمدام آدم نضجت وتحولت الى صداقة حميمة استمرت حتى وفاته ، فلم يكن لهذه السيدة ورفاقها التأثير القوى على السياسة الفرنسية الذى كان المصريون يرجون أن يجدوه عند فرانسوا ديلاكول .

لقد كانت الخلافات الشخصية بين السياسيين الشابين أولهما استعمارى فرنسى والآخر وطنى مصرى ، تجسيدا للتباين بين المطامح السياسية لبلديهما . فعطف فرنسا على مصر كان فى أساسه حرصا على نفوذها فى بلاد أصبحت بريطانيا تهدد فيها مركز فرنسا الممتاز فى الاقتصاد والثقافة . وفرنسا لن تساعد على تحرير مصر من الاحتلال البريطانى الا بمقدار ما يقوى من وضعها الخاص . ولم يكن المصريون المطالبون بالاستقلال على استعداد لاستبدال سيد بآخر ، بل كانوا يريدون معونة الفرنسيين دون قيد يربطهم بفرنسا . (٣)

ومع أن اهتمام فرنسا بالحدود والوطنيين قد فتر تدريجيا ، فان المنافسة الأنجلو - فرسية فى افريقيا قد تأججت منذ استيلاء الجيش المصرى ، بقيادة كتشنر ، على أمبراطورية خليفة المهدي فى

== هو الخطأ الأساسى فى المعلومات التى وردت فى مقال ايل - راشيل آريى « جوليت آدم والقضية المصرية » المنشور بمجلة « الشرق » .
Ella-Rachel Arié : « Juliette Adam et le nationalisme égyptien », Orient, 20 (4ème trimestre, 1961), pp. 117-143.

(١) ظهرت مقالات فى أعداد ١٥ أكتوبر ، ١٥ نوفمبر ، ١٥ ديسمبر سنة ١٨٩٥ ، والاخيرة نص الخطاب الذى ألقاه مصطفى فى الجمعية الجغرافية بعنوان « أطماع انجلترا » .

(٢) رشاد : ص ٢٣ .

(٣) وهو نفس ما اكتشفه الأمريكيون والروس فى علاقاتهم بالدول العربية منذ سنة ١٩٥٥ .

السودان • وبلغت المنافسة قمتها سنة ١٨٩٨ فى قرية « فاشودة » السودانية ، حيث واجه جيش كتشنر ، بعد انتصاره فى أم درمان ، الحملة العسكرية الفرنسية القادمة من غرب إفريقيا بقيادة الكابتن مارشان • ورغم قلة عدد جنوده فقد صمد مارشان فى موقعه ، فى حين ارتفعت حرارة التعصب الوطنى فى بريطانيا وفرنسا • وأثر تيوفيل ديلكاسيه ، وزير خارجية فرنسا ، اتباع سياسة التهدئة ، فوافق على انسحاب مارشان من السودان والاعتراف بالمنطقة التى ينبع منها نهر النيل وأوبانجى وشارى خطا فاصلا بين منطقتى النفوذ البريطانية والفرنسية • ومع ازدياد انشغال فرنسا وبريطانيا بنمو قوة ألمانيا وتأهبها للحرب ، ومع انتقال اهتمام فرنسا من مصر الى مراكش ، أصبحت المسألة لا تعدو مرور بعض الوقت قبل أن تصل الدولتان الكبيرتان الى تفاهم شامل ، حتى يمكن القول بأن الاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ الذى أنهى خلافاتهما الاستعمارية فى إفريقيا قد وقع فى فاشودة (١) •

واستمر مصطفى يقوم كل سنة بعدة جولات فى عواصم أوروبا ، سعيا وراء تأييد رأى العام للقضية المصرية ، ولكنه لم يكد يفوز بعد ذلك أبدا بعون أى حكومة أوروبية • وتعب رسائله الى « مدام آدم » وخطبه ومقالاته بمرارة عن خيبة أمله فى فرنسا (٢) وحين أحزنه ضعف فرنسا فى حادثة فاشودة نشر مقالا فى « المؤيد » أكد فيه أن مصر ، حتى لو تخلت فرنسا عن قضيتها فستظل تبحث عن التأييد عند ألمانيا وتركيا ، (٣) وأرجع الى فاشودة ميل الحديو المتزايد الى مهادنة البريطانيين (٤) • وكان لاتفاق الودى بمثابة الضربة القاضية ، وصفة مصطفى بقوله : « هذا الاتفاق الأنجلو فرنسى المشئوم الذى ستكون له أواخر العواقب على وطننا المسكين وخديونا التعس » ، وأضاف : « اليوم أصبح مواطنى يكرهون فرنسا أكثر من

(١) الدراسة الدبلوماسية المعتمدة هى « مصر وقيام الاتفاق الانجلو - فرنسى سنة ١٩٠٤ » لجوزيف ج. مانيوز

Joseph J. Mathews : « Egypt and the Formation of the Anglo-French Entente of 1904 », Philadelphia, University of Pennsylvania press, 1939.

(٢) وحتى فى سنة ١٨٩٧ حذر من تخلى فرنسا عن تأييد الوطنيين والخديو Letters, pp. 30-36.

(٣) مصطفى كامل « فرحة خبيثة وارهاب » ، « المؤيد » ، ٦ نوفمبر ١٨٩٨ ، وأعاد على فهمى كامل نشره ، ج ٩ ، ص ص ٥٠ - ٥٣ •

(٤) Letters, pp. 64, 66, 74.

انجلترا نفسها . . . ففرنسا هي أول دولة تعترف بالاحتلال (البريطاني) فأى امتهان للمواطنين المصريين والفرنسيين ا « (١) .

وكان من الممكن أن يسعى مصطفى للحصنول على تأييد ألمانيا لو أن اتصالاته الفرنسية لم تكن معادية للألمان بقدر معاداتها للبريطانيين . على أن مثل هذه المحاولة كانت بلا جدوى تقريبا ، لأن سياسة ألمانيا منذ أيام بسمارك كانت تأييد احتلال بريطانيا لمصر مقابل تأييد بريطانيا لمطامع ألمانيا الاستعمارية في بقعة أخرى . فبعد الاتفاقية الأنجلو فرنسية بقليل وافقت ألمانيا أيضا على عدم الاصرار على تحديد موعد لجلاء بريطانيا عن مصر . (٢) والحقيقة أن مصطفى كامل والحديو كانا يتطلعان منذ زمن طويل الى قوة أخرى تساعدتهما ضد بريطانيا ، وهي الامبراطورية العثمانية .

والمصريون يميلون اليوم الى التقليل من شأن دور الجانب المؤيد للاتراك والجامعة الاسلامية في كفاحهم الوطني ضد بريطانيا ، بل ان بعضهم ينتقدون مصطفى كامل لولائه للامبراطورية العثمانية (٣) ، مع أن تبني مصر للقومية العربية التي انبعثت في سوريا كحركة مادية للاتراك تطلب اخفاء خلافتهما السابقة . وبالطبع أشار المدافعون عن الحزب الوطني الى أن السلطان كان صاحب السيادة الشرعية على مصر ، وأن معاونته كانت ضرورية لاجراج حكامها الفعليين من البريطانيين . وبينما لم تفد مصر الا القليل من محاولات مصطفى كامل وخلفائه للفوز بتأييد تركيا ، فقد ربطت جهودهم الحزب الوطني بمصير الامبراطورية العثمانية ، ومن ثم قضى على فاعليته تماما بهزيمة دول المحور في الحرب العالمية الاولى .

وكذلك فقد تضمنت سياسة مصطفى كامل في خطب ود استانبول مخاطرة أخرى ، فسلاطين آل عثمان في سعيهم لمقاومة غزو الدعوة السلافية لامبراطوريتهم متعددة القوميات ، بدأوا منذ الستينات

(١) من مصطفى كامل الى جوليت آدم ، في ١٠ مايو سنة ١٩٠٤ ،
Letters, pp. 134-138.

(٢) عن المفاوضات انظر :

Germany, Auswartiges Amt. "Die Grosse Politik der Europaischer Kall-
nette". Berlin Deutsche Verlagsellschaft For Politik und Gerschte.
1925. pp. XX, 121-165.

(٣) انظر على سبيل المثال : محمد حسين هيكل : « مذكراتي في السياسة المصرية »
القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥١ ، ج ١ ، ص ص ٢٢ - ٢٤ ، هامش ص ٢٦ .

يستغلون فكرة غامضة تاريخيا ، وهى الدعوة للخلافة أو زعامة العالم الاسلامى كله . فترتب على ذلك أن طالب قياصرة الروس منذ سنة ١٧٧٤ بحق حماية المسيحيين الارثوذكس الذين يعيشون داخل الامبراطورية العثمانية ، ومارسوا هذا الحق بالفعل بين الحين والآخر . وقد استخدمت السلطنة الاتراك دعوتهم لزعامة المسلمين بالقدر الذى سمحت به قوتهم للبحث عن أتباع من المسلمين خارج المنطقة الخاضعة لهم فعلا ، كنوع من « الحماية » ضد الغزو الاستعماري الأوربي . وقضى بعض المهيجين السياسيين الموهوبين من دعاة الجامعة الاسلامية ، كجمال الدين الافغانى وعبد الله النديم ، سنواتهم الاخيرة فى استانبول ، وتحول قصر عبد الحميد المعروف باسم « يلدز » الى كعبة لكل المسلمين الساخطين من التتار والتونسيين والهنود . وأصبحت دعوة الجامعة الاسلامية هى الرد العثماني الرسمي على الدعوة السلافية الروسية ، ورسالة فرنسية الحضارية ، والاستعمار البريطاني . ولما كان أكبر عدد من الرعايا المسلمين يتبعون بريطانيا بفضل امبراطوريتها الهندية ، فقد كانت أشد احساسا بخطر الجامعة الاسلامية عليها . ولم يتردد المصريون فى استغلال هذه الحساسية . وهكذا أصبح مصطفى كامل داعية للجامعة الاسلامية يستثير عدوان المصريين المسلمين المحافظين ضد حكم بريطانيون المسيحية .

وكان ارتباط الوطنية المصرية بالجامعة الاسلامية التى رعاها العثمانيون يتطلب تسليما شفويا على الاقل بالقيم الاسلامية التقليدية . وهو ما أخرج الوطنيين الذين يعتمدون على تقبل الحركة الليبرالية الغربية ويدعون الى اصلاح الداخلى . وكان مصطفى كامل وهو حصيلة تعليم مدنى ويحمل درجة علمية فرنسية فى القانون ، يؤمن مخلصا بالديمقراطية البرلمانية ، والحقوق والحريات الفردية ، وحرية الاقتصاد، ورغم ذلك فقد حذق وخلفاؤه من بعده ، العزف على نغمتين فى وقت واحد : الوطنية الليبرالية (أو العلمانية) للاوربيين والمصريين ذوى النزعة الغربية ، والتعصب المتمسك بالقيم الاسلامية لجماهيرهم من العثمانيين والمصريين المحافظين (١) . كانت وطنية مصطفى كامل تتمثل

(١) هذا التارجح الايديولوجى عالج به بتفصيل أكبر فريتز ستبات فى كتابه «الوطنية والاسلام عند مصطفى كامل»

Fritz Steppat : «Nationalism und Islam bei Mustafa Kamil», Leiden, Brill, 1956 —

وكذلك صافران Safran الذى يعتبر مصطفى كامل « وطنيا ليبراليا » دون أن ينتبه ، فيما يبدو ، للنغمة الأخرى التى كان يعزفها فى مخاطبة المشاعر الاسلامية .

أساسا في اخضاع التصور السياسى الاوروبى لحاجة مجتمع ، يسيطر عليه الاسلام الى الحماية فى مواجهة الغرب ونفوذه . فبعد مئات السنين من العداء المستعر بين المسيحية والاسلام ، من الذى يستطيع أن يلوم مسلمى نهاية القرن التاسع عشر اذا قاوموا سيطرة أوروبا بكل وسيلة ممكنة ؟ غير أن ثمن هذه الانتهازية الوطنية فى النهاية سيكون تذبذب أيديولوجية مصر الحديثة بين الليبرالية الغربية والاسلام .

ما النفع الذى عاد على الوطنيين المصريين من تأييدهم للامبراطورية العثمانية ؟ والواقع أن باستطاعتنا أن نتساءل أيضا : وما النفع الذى عاد على مصر من افتتاح بعض زعمائها افتتاحنا أفلاطونيا فى أوائل الاربعينيات بالفاشستية والنازية ؟ أو من صدقتها القوية للاتحاد السوفييتى فى السنوات الأخيرة ؟

ففى نهاية القرن التاسع عشر لم يكن باستطاعة الوطنيين أن يقدموا فى الواقع الا القليل لتركيا فى الوقت الذى كانت بريطانيا فيه لا تزال تعتبر حاميتها من الروس واذا كان مما يرضى غرور السلطان أن يحظى باهتمام الوطنيين أو عباس الذى زار استانبول عدة مرات دون أن ينال أى تأييد فى صراعه ضد كرومر ، فقد كان على السلطان أيضا أن يتدبر أن النتيجة المتوقعة لشن حملة ناجحة ضد البريطانيين فى مصر ستكون استئناف الخديو لسياسة محمد على المعادية للعثمانيين . إذ كانت علاقات الخديو بالسلطان غير ودية عادة (١) ، كما كان كثير من أعضاء حزب « تركيا الفتاة » يلجأون الى مصر (٢) .

وأيا كان الأمر ، فالثابت أن مصطفى كامل ، سواء بايعاز من الخديو أو بوحى من نفسه ، كان يطالب علنا بالتأييد العثمانى . وكان من بين وسائله لذلك اقامة مادب تكريم سنوية لعبد الحميد يدعى فيها اخوانه المسلمين الى الاتحاد لحماية الامبراطورية العثمانية من الاعتداءات الأوروبية وعقد مؤتمرات صحفية ، ونشر مقالات موجهة لأوروبا أو للاستهلاك المحلى ،

(١) «Abbas II» pp. 45-48, Blunt : «My Diaries», pp. 113, 119, 122f. (١)
166f, 207f.

(٢) « تركيا الفتاة : مقدمة لثورة سنة ١٩٠٨ » لارنست رامسور

Ernest Ramsaur : «The young turks : Prelude to the Revolution of 1908»
Princeton, Princeton University Press, 1957, p. 27 n.

(٣) على فهمى كامل : ج ٢ ، ص ص ١٢١ - ١٣٤ ، ج ٣ ، ص ص ١٩٩ - ٢٠٤ .

ص ص ٨٦ - ٩٢ ، ج ٦ ، ص ص ٩٠ - ١٤٠ ، ج ٩ ، ص ص ١٤ - ٢٤ .

يدافع فيها عن السياسات العثمانية (١) ، بالإضافة الى رحلات الى استنبول يصحبها اعلام جيد ، بل ذهب الى حد الزعم لمستمعى خطبه في الاسكندرية أن محمداً علي قد أدرك في أخريات أيامه أنه أخطأ بهجومه على السلطان (٢) . وكثيراً ما حث مواطنيه على التمسك بأسس الاسلام ، فتخليهم عنها هو الذى كلف مصر - فى اعتقاده - استقلالها وأخضعها لأوربا ، فمن واجبهم أن يتخذوا دفاعاً عن الاسلام (٣) . وقد فصل آراءه عن الجامعة الاسلامية فى خمسمائة صفحة عن « تاريخ المسألة الشرقية » ، نشرها سنة ١٨٩٨ (٤) . وبعد أن استقبله السلطان عدة مرات ، أنعم عليه أخيراً برتبة « متماير » ، فقبلها مضطراً خشية أن تكون سبباً فى الطعن فى وطنيته فى مصر ، اذ كان زواج الوطنية المصرية من الجامعة الاسلامية العثمانية زواج مصلحة لا زواج حب . واستانبول الحافلة بالمؤامرات والجواسيس كانت كريمة فى نظره ، أسر لشقيقه على بأنها « وليس فيها شئ محبب ماعداً أنها قارة المسلمين ودار خليفة المؤمنين » (٥) ورغم أن مصطفى واصل تأييده للقضايا التركية والاسلامية (٦) ، ورقاه السلطان لذلك الى رتبة « باشا » سنة ١٩٠٤ ، فليس هناك دليل يؤكد أنه كان يتوقع حقاً أن الامبراطورية العثمانية ستحرر ولايتها المصرية من مغتصبها البريطانيين .

(١) ودعا أيضاً الى التحالف مع فرنسا وروسيا وتركيا ضد بريطانيا .
«Une Alliance qui s'impose : Le Sultan et l'Europe», La Nouvelle Revue,
XCVII, 2 (15 Novembre 1895), pp. 375-383.

(٢) على فهمى كامل ج ٦ ، ص ٤٨ . «Egyptiens et anglais», p. 183
(٣) انظر على سبيل المثال خطبته سنة ١٨٩٨ فى الاحتفال بعيد جلوس السلطان ، ومقاله « أوربا والاسلام » ، « المؤيد » ، ٩ أكتوبر ١٨٩٨ ، فى : على فهمى كامل ، ج ٩ ، ص ٣١ - ٣٣ .

(٤) مصطفى كامل « المسألة الشرقية » ، أعيد طبعه فى كتاب على فهمى كامل ، ج ٧ ، ص ٨ .

(٥) من مصطفى كامل الى على فهمى كامل ، فيينا فى ١٠ يونيو ١٨٩٩ ، فى : على فهمى كامل : ج ٩ ، هامش ص ١٤٠ ، وعبر عن آراء مماثلة لمدام آدم سنة ١٩٠٢ ، Letters, pp. 86-88.

(٦) من أوضح الأمثلة على لك معارضته لفكرة خليفة عربى فقد اعتبرها مؤامرة بريطانية للاسراع بتصفية الامبراطورية العثمانية ، انظر المسألة الشرقية ، على فهمى كامل : ج ٧ ، ص ٢٧ - ٣٠ ، ونص خطبته فى القاهرة فى ديسمبر ١٨٩٩ فى : على فهمى كامل ، ج ٩ ، هامش ص ٢٠١ ، وكذلك «Egyptiens et anglais», p. 246f.

ابتعاد التيار الوطنى عن عابدين

عند تقدير الجهود التى بذلها مصطفى كامل فيما بين عامى ١٨٩٠ و ١٩٠٣ للحصول على تأييد خارجى لاستقلال مصر عن بريطانيا ، ينبغى أن نتذكر أنه كان يتعاون مع الخديو عباس (١) ويتقاضى منه أموالا بصورة منتظمة ، ولم يستطع أن يتخلص من ارتباطه بقصر عابدين الا تدريجيا بعد أن كون لنفسه قاعدة من التأييد المحلى .

وظل التنظيم السياسى للحركة الوطنية يتخذ شكل الجمعية السرية . واذا كان التنظيم الذى أقامه القصر سنة ١٨٩٥ قد انهار نتيجة للانقسام بين المصريين والاوربيين من أعضائه ، فان مصطفى كامل أعاد تشكيله سنة ١٨٩٦ من المصريين وحدهم وعلى رأسهم الخدير كما كان من قبل . وفى نفس الفترة تقريبا تكونت جمعية أخرى ، أنشأها محام وكاتب شاب يدعى أحمد لطفى السيد (١٨٧٢ - ١٩٦٣) ، وقد أصبح فيما بعد احدى الشخصيات المؤثرة فى تطور الفكر المصرى . واستطاع مصطفى كامل اقناع أحمد لطفى السيد بادماج جمعيته ، وكان معظم أعضائها من زملائه بمكتب النائب العام بالقاهرة (٢) ، فى جماعة القصر .

(١) محمود رشيد رضا : « تاريخ الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده » ، القاهرة ، مطبعة المنار ، ١٩٣١ ، ج ١ ، ص ٥٩٣ ، « مذكرات محمد فريد » ، ص ٢ من النسخة المخطوطة .

(٢) كان الأعضاء هم : أحمد طلعت ، ومحمود بدر الدين ، وحמיד رضوان ، وعبد العزيز قسقى (١٨٧٠ - ١٩٥١) ، وكذلك عبد الحليم حلمى ، وعلى بهجت (١٨٥٨ - ١٩٢٤) من مشاهير رجال الدين الاسلامى ، ومحمود عبد اللطيف الصيدلى بطنطا .

وأصبحت الجمعية الموحدة هي الحزب الوطنى ، برئاسة الخديو (١) . وللإفادة من مواهب لطفى الصحفية اقترح عليه عباس أن يرسله الى سويسرا ليحصل على جنسية أجنبية ، ليعود بعد ذلك الى القاهرة ويرأس تحرير صحيفة وطنية ، مستعينا بجنسيته السويسرية فى ضمان حماية تحميه من المحاكمة بموجب قانون العقوبات المصرى . غير أن لطفى السيد وقع أثناء اقامته فى جنيف تحت تأثير الشيخ محمد عبده ، وكان مكروها فى عابدين بسبب رغبته فى التعاون مع البريطانيين . وعاد لطفى السيد الى مصر ليستقيل من الحزب ، ويكتب خطابا الى الخديو يقول فيه انه لا جدوى من البحث عن تأييد خارجى ضد بريطانيا وان مصر لن تحصل على استقلالها الا بجهودها الذاتية ، وان على عباس أن يستغل شرف منصبه ليتزعم جمعية علنية - لاسرية - تعمل على نشر التعليم (٢) . وهى نفس النتيجة التى احتاج مصطفى كامل الى عشر سنوات لينتهى اليها ، ولكن لطفى السيد كان خلال ذلك قد أصبح أكبر مفكر فى حزب منافس .

ومع أن مصطفى كامل كرس الجانب الأكبر من جهاده المبكر للحصول على تأييد أجنبى للخديو ، فانه اهتم فى الوقت نفسه بما قدر له أن يكون أكبر اسهاماته فى خدمة بلاده ، وهو نشر فكرة القومية المصرية بين مختلف طبقات الشعب . فابتداء من سنة ١٨٩٥ أخذ يطوف بالريف المصرى محذرا مواطنيه من خطر احتلال انجليزى طويل (٣) . وعند عودته من أوروبا سنة ١٨٩٦ ألقى أولى خطبه الهامة باللغة العربية أمام جمهور اسكندري ، اختلف فى تقدير عدده بين ٨٠٠ و ٣٠٠٠ مستمع (٤) . واذا صح ما ذهب اليه مصطفى فيما بعد من أن تلك كانت

(١) أحمد لطفى السيد : « قصة حياتى » ، اعداد طاهر الطناحى ، القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٦٢ ، ص ٣٤ - ٣٦ . وكان الأعضاء الرئيسيون هم : مصطفى كامل ، ومحمد فريد (١٨٦٨ - ١٩١٩) ، وسعيد الشيمى (أركان حرب الخديو) ومحمود عثمان (والد أمين عثمان) والدكتور محمود . . . ولبيب محرم (توفى سنة ١٩١٣) وطفى السيد ، ونفس الأسماء ذكرها سلامة موسى فى سيرته الذاتية « تربية سلامة موسى » «The Education of salama Musa» Translated by : L.D. Shuman, Leiden Brill, 1961, p. 29.

(٢) « قصة حياتى » ، ص ٣٩ .

(٣) على فهمى كامل : ج ٣ ، ص ٣٢ .

(٤) المصدر السابق : ج ٤ ، ص ١٣٢ - ١٥٠ ،

«Egyptiens et anglais», pp. 81-99.

أول خطبة سياسية تلقى في مصر منذ سنة ١٨٨٢ (١) ليسهل تقدير مدى الفزع الذي خلفته هزيمة غرابي في نفوس المصريين ومقدار الشجاعة التي تحلى بها مصطفى . وكذلك نشر مصطفى مقالات عديدة في الصحافة المصرية ، وفي عدد ٤ يوليو ١٨٩٦ من « المؤيد » ظهر نموذج جيد لنشره الخطابى فى مقال عن كفاح أمريكا فى سبيل الاستقلال ، وخرج منه يدرس خلاصته أن على المصريين أن يتحدوا فى مطالبتهم بالحرية (٢)

وكانت المحاولات العديدة التي بذلت سنة ١٨٩٦ لاسكات صوت مصطفى كامل دليلا فى نظر الوطنيين على فاعليتهم باعتبارهم خطرا يهدد حكم بريطانيا لمصر . تمثلت أولى هذه المحاولات فى اعتقال كتشنر لشقيقه « على » وتخفيض رتبته ، بدعوى تحريضه لزملائه من الضباط المصريين على التمرد (٣) . (*)

ولكن مصطفى استطاع اطلاق سراح شقيقه بالالتجاء الى الخديو رأسا (٤) . وكتبت مدام آدم فيما بعد أنه لولا اخلاص زملاء « على » له لكان من الممكن أن يعدمه كتشنر (٤) . واذا كان اخلاص زملاء «على» له لم يحظ وقتها باهتمام يذكر ، فان تنكر زملاء مصطفى له وتباعدهم عنه فى فزع فى الوقت الذى كان فيه شقيقه ملطخا بالعار ، لم ينل أى اهتمام بالمرّة (٦) . وما كاد الخديو يحبط هذه المؤامرات التي أوحى الانجليز بتدبيرها ضد مصطفى ، حتى بذلت محاولة أخرى لتجنيده فى

(١) المصدر السابق : ج ٤ ، ص ٩٩ ، كتب على فهمى كامل أيضا أن قيادة بوليس الاسكندرية حاولت منع الاجتماع . (ص ص ١٢٩ - ١٣١) .

(٢) المصدر السابق : ج ٥ ، ص ص ٧٣ - ٨٠ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٣ ص ص ٢١٧ - ٢٢٣ ، مقدمة محمد مسعود لكتاب « مصر والاحتلال الانجليزى » ، القاهرة ، مطبعة الآداب ، ١٨٩٦ ، هامش ص ٦ ، ويقدم Wood, p. 161 f. رواية مناقضة للسابقة . وكانت تلك احدى المناسبات النادرة التي قام فيها الجيش بدور ، ولو تافه ، فى الحركة الوطنية ، خلال الفترة الواقعة بين سنتى ١٨٨٢ و ١٩٥٢

(٤) على فهمى كامل : ج ٥ ، ص ص ٧٣ - ٨٠ .

(٥) «Letters» p. 20

(٦) من مصطفى كامل الى على فهمى كامل ، باريس فى ٧ أغسطس ١٨٩٦ ، (على فهمى كامل : ج ٥ ، ص ٨٤)

(*) التهمة التي نسبت الى « على فهمى كامل » أنه قدم استقالته من خدمة الجيش فى وقت كانت فيه الحكومة تعد له حملة الى دنقلة ، فاعتبر فارا من الخدمة .

الجيش ، ولكن الخبرة القانونية استطاعت أحباطها هي الأخرى (١) . (*)

أما أعنف صدام بين البريطانيين ومعارضيه من الوطنيين المصريين فلم يكن متصلا بمصطفى ولا بشقيقه ، بل بالشيخ على يوسف رئيس تحرير أكثر الصحف المصرية معاداة للبريطانيين . ففي تلك السنة بدأ الزحف على دنقلة ومنعت الحكومة المصرية كل مراسلى الصحف من مصاحبة الحملة العسكرية ، وأنشأت بدلا من ذلك مكتبا بوزارة الحربية لاعداد نشرات اخبارية ، كان يوزعها على جميع الصحف ما عدا « المؤيد » .
وحين اخرج الشيخ على يوسف على هذه التفرقة ، نصح لكى ينال النشرات الاخبارية بالامتناع عن نقد الحملة . ورفض على يوسف قبول هذا الاعتداء على حريته ، ولجأ الى أساليب أخرى ليزود قراءه بأخبار الحملة . وبطريقة ما حصل على نص برقية سرية أرسلها كتشنر الى وزارة الحربية يخبرها فيها أن وباء الكوليرا يفتك بقواته (٢) ، ونشره فى « المؤيد » . واضطر البريطانيون الحكومة المصرية الى اتهام على يوسف بالاشتراك مع عامل بمكتب البرق يدعى توفيق كيرلوس ، مدفوعين فى ذلك الى حد ما بحاجتهم الى فرض تنظيمات تحمى أمنهم ، وفى هذه الحالة بالذات بسبب حساسية كتشنر لنقد صحفى سبق أن اتهمه بالتقدير فى نفقات الخدمات الطبية للحملة (٣) ، بالإضافة الى رغبتهم فى معاقبة صحفى مشاغب ذائع الصيت . ورغم أن مكتب النائب العام عجز عن العثور على أى دليل على أن كيرلوس قد أفشى سر البرقية لعلى يوسف ، فقد أصر البريطانيون على إعادة التحقيق وتقديم الرجلين للمحاكمة . وحكم القضاة المصريون رغم الضغط الذى نسب الى زميلهم الانجليزى ، بعقوبة مخففة على

(١) على فهمى كامل : جل ٥ ، ص ص ١٨٦ - ١٩٤ . وميل المصريين للتهرب من الخدمة العسكرية كان شائعا الى أبعد حد أيام محمد على ، ولم يختف تماما حتى اليوم انظر على سبيل المثال « مصر والانجليز » ، لدوجلاس سلادن Douglas Sladen : « Egypt and the English », London, Hurst and Blackets. 1908, p. 122.

(٢) وفقا لما رواه ماجنوس فى كتابه عن « كتشنر » .
Magnus : « Kitchener », p. 97,
قضى الوباء على حياة ٢٠ جنديا انجليزيا و ٢٦٠ مصرية ، ٦٤٠ من الأفراد الملحقين بخدمة المعسكر .

(*) لا نعلم ان كان للخديو يد فى أحباط هذه المؤامرة التى فشلت لأن شيخ الحارة الذى كلف بإعلان مصطفى بدعوته للتجنيد شهد بأنه لم يعلنه بها لأن مصطفى كان فى أوروبا ، فى حين أن القانون يستلزم اعلان المطلوب تجنيده .

كيرلوس، وبراءة على يوسف استنادا الى عدم كفاية الأدلة . واعتبر البريطانيون هذا الحكم سوء تطبيق للعدالة ، وحاولوا نقل رئيس المحكمة ووكيل النائب العام الى محكمتين بعيدتين عن القاهرة ، فاستقال الأخير ، وهو محمد فريد (١) (*) من منصبه ، احتجاجا على الاعتداء على استقلال القضاء . والواقع أن هذه الحادثة هي التي وضعت على أول طريقه السياسى ، أولا كأخلص تلاميذ مصطفى كامل ، ثم خليفته فى زعامة الحزب الوطنى بعد ذلك (٢) .

وكلما كرس مصطفى المزيّد من موهبته وطاقاته للتأثير على الرأى العام المصرى ازدادت عنايته بتعليم شباب الامة ، وآمن - ككل مصلحي القرن التاسع عشر - أن التقدم الوطنى يعتمد على المواطنين المتعلمين . وكيف يتسنى لمصر أن تحتل مكانها اللائق بين دول العالم المتقدم و٩١٢٪ من رجالها و ٩٩٣٪ من نسائها لا يعرفون القراءة والكتابة ؟ (٣) وكان التعليم عند مصطفى معناه التفقه فى الوطنية ، وبلاذ تتكون من فلاحين جهلاء لا يمكن أن تتحول ، دون مدارس ، الى شعب من الوطنيين .

والواقع أن أكثر ما عوق الوطنيين كان اهمال الحكومة المصرية للتعليم ابان الاحتلال الانجليزى . ففى السنوات الاولى لم ينل التعليم الا اهتماما قليلا بسبب الضرورات المالية وشبح الافلاس المخيم (٤) .

(١) Ibid., p. 95.

(٢) حول قضية البرقيات انظر : عبد الله عنان : « أبعاد القضية الصحفية المصرية - محاكمات «- المؤيد » فى قضية التلغراف ، الكاتب المصرى » ، ١٥ ديسمبر ١٩٤٦ ، ص ص ٤٨٨ - ٤٩٦ ،

Blunt . "My Diaries", pp. 246f., 230f. el-Hakkani : «La vie politique et parlementaire à l'étranger : L'Egypte,» Revue politique et parlementaire. X, 3 (December 1896) 612-686,

، حمزة : « أدب المقالة » ، ج ٤ ، ص ص ١٠٧ - ١١١ ، عبد الرحمن الرافعى . « محمد فريد رمز الاخلاص والتضحية » ط ٢ ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٨ ، ص ص ٢٧ - ٢٩ ، « الشباب » : ٢١ (٢٤ فبراير ١٩٣٦) ، شفيق : ج ٢ ، زاخورا : « مرآة العصر » هامش ص ٥٤١

(٣) استمدت هذه الأرقام من احصاء سنة ١٨٩٧ ، وقد ذكرها كرومر فى تقريره سنة ١٩٠٦ ، ونقلها عنه ألكساندر . Alexander p. 107.

(٤) Cromer, Modern Egypt, II, p. 527f, Milner, p. 372.

(*) سرد الواقعة على هذا النحو خطأ لأن محمد فريد لم يكن له دور فى القضية ، إنما علق على الحكم تعليقا علنيا يدل على عظمه على المتهمين واستنكاره للاتهام .

وكانت النسبة المخصصة للتعليم فى ميزانية الدولة أقل من واحد فى المائة خلال بعض السنوات ، ولم يحدث أبدا أن تجاوزت ثلاثة فى المائة قبل أن تستقل مصر (١) . وبعد سنة ١٨٨٢ أغلقت بعض مدارس الحكومة وخفض حجم بعضها الآخر (٢) وألغى الاعفاء من المصروفات تقريبا . وحرمت الرسوم المرتفعة أطفال الفقراء من الالتحاق بمدارس الحكومة (٣) ، مكونة بذلك حاجزا جديدا فى طريق التغيير الاجتماعى (٤) . وترتب على ذلك أيضا زيادة كبيرة فى عدد التلاميذ الملتحقين بالمدارس الخاصة ، المصرية منها والأجنبية (٥) . وكانت هذه المدارس أقل انضباطا بشكل عام من المدارس الحكومية فى شروط القبول بها ومستواها العلمى ، كما كانت تكاليفها أقل فى معظم الحالات . وكانت أفضل هذه المدارس أجنبية ، ومعظمها تابعة للارسلالات الدينية ، وكثيرا ما كان الآباء المصريون ينفرون من أن يعهدوا بتعليم أبنائهم لمبشرين مسيحيين ، وإن كانت جميع المدارس الأجنبية ، بما فيها العلمانية ، تميل الى تغيير ثقافتهم المصريين (٦) . وكان بوسع المسلمين ارسال أطفالهم الى الكتاتيب المقامة فى المساجد ، ولكن تعليمها كان متخلفا شكلا ومضمونا ، وإلغى قليلة أمام خريجها فى مجتمع بدأ يأخذ بالتطور الأوروبى والتقنى .

(١) Issawi : « Egypt at Mid — Century », p. 50.

(٢) يقول كينسى فى كتابه « التعليم المصرى فى عهد كرومر » Kinsey : « Egyptian Education under Cromer », p. 460.
ان عدد التلاميذ فى مدارس وزارة المعارف انخفض من ٢٩٠٠ سنة ١٨٨٥ الى ١٧٧٩ سنة ١٨٨٧ .

(٣) التلاميذ المعفون من المصاريف هبطت نسبتهم من ٧٣٪ سنة ١٨٨٥ الى ٣٩٪ سنة ١٨٩٠ و ٢٠٪ سنة ١٨٩٥ و ١٠٪ سنة ١٩٠٠ ثم ١٪ سنة ١٩٠٦ (Kinsey, p. 121 and Appendix c/3, p. 544).

(٤) فيما بين عامى ١٩٠١ و ١٩٠٦ كان متوسط رسوم التعليم خمسة جنيهات مصرية فى السنة فى المدارس الابتدائية ، وخمسة عشر جنيها فى المدارس الثانوية (Kinsey, p. 336)

(٥) انظر : kinsey, Appendix F/1 : الذى يوضح تزايد نسبة تلاميذ المدارس غير الحكومية المتقدمين لامتحان الشهادة الابتدائية . وفى سنة ١٨٩٣ دخل الامتحان ٦٩٢ تلميذا من المدارس الحكومية و ١١٥ من غير الحكومية ، نجح منهم ٢٧٦ و ٣٤ تلميذا على التوالى . وفى سنة ١٩١٤ أصبح الرقم ١٥٨٠ من المدارس الحكومية و ٤٥٤٩ من غير الحكومية ، نجح منهم ٨٠٧ و ٢٥٧٩ على التوالى .

(٦) مع ذلك فقد درس بعض الزعماء الوطنيين مثل عمر لطفى وأحمد لطفى ، ومحمد نريد فى مدارس يديرها اخوان العقيدة المسيحية (Frères de la Doctrine Chrestienne) بالقاهرة .

ولم يكن باستطاعة أى من هذه المدارس أن تغرس فى تلاميذها قومية علمانية شأن المدارس العامة فى فرنسا وألمانيا وأمريكا . وكان مسلمو الطبقة المصرية الصاعدة فى المدينة يتطلبون مدارس تحفظ لأطفالهم شخصيتهم القومية والدينية ، وتؤهلهم فى الوقت نفسه لوظيفه حكومية محترمة ، أو على الأقل لتجارة أو حرفة نافعة . ولم يكن هناك نقص فى عدد مدرسى المدارس الابتدائية ذوى الرواتب الضئيلة (١) ، ولكن قليلين منهم تلقوا تدريباً على العلوم الحديثة ومناهج التدريس . ويبدو أن مصطفى كامل كان متنبها لهذه المشكلات منذ بداية جهاده ، فرأى فى انشاء المدارس الخاصة التى يديرها مصريون وسيلة لنشر الأفكار الوطنية . وكانت العقبة الرئيسية هى الحصول على المال اللازم لانشاء هذه المدارس والانفاق عليها . وكان الاسلوب الذى اتبعه هو استمرار جمع التبرعات الاختيارية ، محتذيا فى ذلك النداء الذى نجح فى جمع أموال وفيرة للدولة العثمانية أثناء حربها مع اليونان سنة ١٨٩٧ . ففى يونيو من ذلك العام نفسه وجه مصطفى كامل نداءه الاول للاكتتاب الوطنى من أجل التعليم (٢) . وفى خطبة ألقاها على طلاب المدارس المصرية العالية والثانوية فى ٨ يناير سنة ١٨٩٨ أكد لهم أن أكبر خدمة يمكن أن يؤدوها لمصر هى نشر المعرفة والتعليم . ومما يؤكد اعتناق مصطفى كامل للأفكار الليبرالية تحذيره من الاستسلام للرغبة المصرية فى انتظار عمل الحكومة ، فى حين أن الدول الأوروبية استمدت قوتها من اعتماد معظم أنشطتها التجارية والصناعية والتعليمية على مبادرات الافراد (٣) .

وخلال السنة نفسها أثنى على رسالة نشرتها «المؤيد» لجماعة من الأثرياء المصريين تبرع كل منهم بجنيهين شهريا للانفاق على نظام للتعليم الشعبى يديره الأهالى بأنفسهم (٤) .

(١) فى سنة ١٨٨٦ كان مرتب مدرس المدرسة الابتدائية أقل من جنيه شهريا وفقا لما جاء فى « كينسى » (Kinsey, p. 462) ، وكان دخل المدرس الأزهري أقل من ذلك أيضا .

(٢) « Egyptiens et anglais » : p. 174.

(٣) على فهمى كامل . ج ٦ ، ص ص ١٣٣ - ١٤٩

(٤) المصدر السابق : ج ٩ ، ص ٢٢ ، وانظر أيضا عدة مقالات كتبها مصطفى كامل « للمؤيد » فى أكتوبر سنة ١٨٩٨ ، وأعاد على فهمى كامل نشرها فى ج ٩ ، ص ص ٢٥ - ٣٠ ، ٣٤ - ٣٩ ، ٤٦ - ٤٩

وفى يناير سنة ١٨٩٩ بدأت جهود مصطفى كامل تؤتى ثمارها ، فقد
 خطب فى افتتاح مدرسة ابتدائية لابناء الاسر المعوزة (١) . وبعد ذلك
 بقليل أنشأ اثنان من الوطنيين مدرسة ابتدائية بالقاهرة أطلقا عليها
 اسم مصطفى كامل . وبعد أشهر قليلة طلب منه المؤسسان ، ربما بسبب
 صعوبات مالية ، تولى ادارة المدرسة (٢) . فعهد مصطفى ، الذى كان
 مثقلا بالفعل بمسئوليات عديدة ، بادارة المدرسة الى شقيقه على ،
 وكان قد استقال من وظيفته بالجيش بعد استعادة السودان . ونجحت
 المدرسة ، فبلغ عدد المقيدى بها ٢٦٥ تلميذا عند نهاية سنتها الأولى (٣) ،
 وكان من المقرر أن تقبل المدرسة أبناء الفقراء مجانا بنسبة ثلاثين فى المائة
 من مجموع طلابها (٤) . وكان مصطفى كامل مشغولا لدرجة لم تسمح له
 بالتدريس فى المدرسة ، ولكنه كان يزورها بين الحين والآخر ليختبر
 التلاميذ أو يخطب فيهم فى الحفل السنوى لتوزيع الجوائز . وقد تركت
 المدرسة تأثيرا طيبا فى نفس الكاتب الفرنسى لوى برتراند حين زارها
 سنة ١٩٠٦ (٥) ، رغم أنه من المتشككين عادة فى ادعاءات الشرقيين .
 وكانت لغة التعليم فيها هى العربية على عكس المتبع فى مدارس الحكومة
 حيث كانت الانجليزية هى السائدة ، وان لم يمنع ذلك المدرسة من
 الاستعانة بالأساليب التربوية والتقنيات الأوربية .

ورغم اشتغال مناهج المدرسة على التعليم الدينى ، فقد كان يعبر
 عن ايمان مصطفى كامل بأن الاسلام نظام أخلاقى يكمل القوميه
 ولا يتناقض معها (٦) ، ولم يكن كل طلابها من المسلمين (٧) . ومع أننا
 لا نعرف الكثير عما حققه خريجو مدرسة مصطفى كامل فى الحياة العامة
 بعد ذلك ، فمن الممكن أن نتصور أنها ساعدت على نشر الأفكار الوطنيه
 بين مجموعة من أبناء الطبقة المتوسطة الصاعدة فى مصر آنذاك .

(١) المصدر السابق : ج ٩ ، ص ص ٧٩ - ٨٧

(٢) المصدر السابق : ج ٩ ، ص ١٠٨

(٣) من مصطفى كامل الى جولييت آدم ، القارة فى ٢٤ ديسمبر ١٨٩٩
 (Letters : p. 48).

(٤) على فهمى كامل : ج ٩ ، هامش ص ١١٢ ، والرافعى : « مصطفى كامل » ،
 ص ١٤٠

(٥) Louis Bertrand : « Le Mirage Oriental », Paris, Perrin, 1910,
 pp. 364-370.

(٦) عن دأى مصطفى كامل فى أهمية التعليم الدينى ، انظر : على فهمى كامل :
 ج ٩ ، ص ٧٦ ، ١٠٨

(٧) يذكر برتراند (Bertrand : p. 367) أنه استمع الى محفولات ألقاها طلاب
 أقباط ويهود .

وكثيرا ما أدت الصحف في مصر الحديثة دورا تعليميا يفوق دور المدارس ، وبخاصة كوسيلة لخلق الوعي السياسى بين المتعلمين وغير المتعلمين . وعمر الصحافة المصرية الدورية - باستثناء الجريدة الرسمية - لا يتجاوز قرنا من الزمان ، غير أن عدد الصحف والصحفيين قد ازداد - كما وضح فى الفصل السابق - زيادة كبيرة فيما بين عامى ١٨٦٦ و ١٨٨٢ ، ثم توقف هذا النمو بعد فشل الحركة العربية ، لمصادرة الصحف الوطنية أو توقفها عن الصدور . وخلال العقد الاخير من القرن أخذ عدد الصحف العربية وقرائها وكتابها يتزايد فيما يشبه المتوالية الهندسية متأثرا بنمو الصحافة الاوربية فى مصر (١) .

وكان لنقل المصريين لعادة مقهى الشارع الاوربى أثره فى اكتسابهم عادة قراءة الصحف من الاوربيين فقد علق بعض الكتاب الاوربيين بقدر كبير من المראה على غرس هذه العادة الاوربية التى أدت الى السمر بالأحاديث وقراءة الصحف وعدوها من عوامل نمو الوطنية المصرية (٢) . وفى القاهرة أقبلت الطبقة العليا والمتوسطة على المقاهى المنشأة على الطراز الاوربى قرب قصر عابدين أو حدائق الأزبكية ، وكانت تقدم لهم عادة كميات من الصحف الحديثة ليقرأوها وهم يحتسون فناجين «القهوة» المضبوطة . فاذا لم تفعل فقد كان باستطاعة كل منهم أن يشتري نسخة من البائع المتجول بنصف قرش . ووجدت كذلك فى المدن والقرى مقاهى أقبل عليها الفقراء والأميون ، حيث كان أحد المتعلمين ، لعله الفقيه ، يقرأ الصحف بصوت عال . وترتب على ذلك أن افتتاحيات الصحف كانت

(١) وفقا لما جاء فى كتاب « التعليم العام فى مصر » ليعقوب آرتين باشا

Yacob Artin Pasha : «L'instruction publique en Egypt», Paris, Leroux, 1889, p. 214.

كانت تصدر فى تلك السنة خمس عشرة صحيفة عربية فى مصر مجموع توزيعها ٩٧٧٨٩ نسخة فى الشهر ، من بينها ثلاث صحف يومية هى : «الأهرام» و «المقطم» و «قاهرة حرة» توزع مجتمعة ٢٣٧٧ نسخة يوميا ، وفى سنة ١٨٩٨ كانت تصدر فى القاهرة وحدها خمسون جريدة عربية يومية ، وفى مصر كلها ما يقرب من مائتى دورية . أما بالنسبة للدوريات الاوربية فقد كتب آرتين أنه فى سنة ١٨٨٩ كانت هناك تسع صحف فرنسية ، وواحدة انجليزية ، وأربع ايطالية ، وخمس يونانية ، توزع كل شهر أكثر من ١١٠٠٠٠ نسخة . ولوصف حالة الصحافة عند نهاية القرن انظر :

Martin Hartman : « The Arabic Press of Egypt, » London, Luzac, 1899.

(٢) انظر على سبيل المثال :

— H. Hamilton Fyfe : «The New Spirit in Egypt», Edinburgh, William Blackwood and Sons, 1911, pp. 18-23f. 113 f.

— Sladen : « Egypt and the English », p. 36 f.

يكتب بأسلوب خطابي ، وتعتمد على مخاطبة العاطفة أكثر من العقل .
وساعد انتشار التعليم التدريجي على اتساع سوق الصحافة .

وصحب ازدياد الطلب على الصحف نمو في العوامل المؤثرة في عرضها . فقد انخفضت تكاليف الانتاج مع تطوير آلية الطباعة لاستخدام الحروف العربية ، وتدريب العمال على جمع الحروف وإدارة آلات الطباعة وتوفرت أنواع أرخص من الورق . وساعد انتشار التعليم لا على ازدياد طبقات القراء فحسب ، بل الكتاب المطلوبين أيضا . ومنذ أصبحت الصحافة أداة يستطيع الكاتب أن يوصل بواسطتها أفكاره لجمهور كبير . وجد الشباب النابه فيها وسيلة جذابة للتعبير (ولأول مرة مهنة أيضا) بعد أن كانت مواهبهم قد تركزت في الماضي لتأليف الشعر أو الأبحاث الدينية . ولا شك أن الكتابة الصحفية أسهل ، ومن ثم خلقت أسلوبا جديدا أكثر سهولة في النشر العربي ، ما لبث أن أصبح الطابع المميز للتعبير الأدبي الحديث . ومؤرخو المستقبل الذين سيدرسون تطور الأفكار في مصر منذ حوالي سنة ١٨٩٠ سيضطرون إلى أن يخصصوا الدوريات بوقت لا يقل عن الوقت الذي سيخصصونه للكتب . وقد لاحظ كاتب هذه السطور أن كثيرا من المصريين يقرأون جريدتين أو أكثر يوميا ولكنهم لا يحتفظون بكتب في بيوتهم .

وكان مصطفى كامل واعيا دائما بأهمية الصحف التي مكنته من الوصول إلى عدد أكبر من الناس وفي وقت أقل مما فعلت الخطب أو المدرسة . ولذلك بدأ يصدر مجلة « المدرسة » وهو لا يزال طالبا بمدرسة الحقوق ، كما تتلمذ على عبد الله النديم . وكان الاتصال بالصحف ذا أهمية حيوية في نظره سواء في مصر أو في الخارج . وقد بدأ عمله الصحفي قبل أن يتم عامه الثامن عشر بكتابة مقالات باسماء مستعارة في « الأهرام » ، ولكن معوقات كثيرة كانت تمنع تلك الجريدة من أن تصبح وسيلة فعالة لنشر الوطنية في مصر : فقد كانت تصدر في الاسكندرية (١) ، وكان توزيعها ضئيلا جدا (٢) ، وكان صاحبها سوريا ، وكانت سياستها معادية للبريطانيين بالقدر الذي يتفق مع

(١) لم ينتقل « الأهرام » إلى القاهرة إلا سنة ١٨٩٩

(٢) كان توزيعه سنة ١٩٠٣ يقدر ما بين ١٠٠٠ و ١٥٠٠ نسخة أي ربع توزيع

« المؤيد » وقتذاك .

(Germany, Auswärtiges Amt, Egyptische Press, Jenische to von Bülow, Cairo 18 June 1903, no. 88.

(وثائق وزارة الخارجية الألمانية المصورة بالميكروفيلم رقم UM 38 بجامعة ميتشجان

تأييدها للفرنسيين لا أكثر . لذلك بدأ مصطفى يكتب « للمؤيد »
ويبدو أنه كان هناك نوع من التفاهم على أن يتعاون مع الشيخ على يوسف
في حشد التأييد المحلي عن طريق صفحات الجريدة . غير أن الحسد
مالبت أن ملأ نفس « الشيخ على » نحو مصطفى بعد أن نجح هذا الأخير
في الفوز بشعبية كبيرة بفصاحته ، فبدأ يستبعد مقالاته من جريدته (١) .
وحتى قبل أن يصل الأمر الى هذا الحد كان يريد أن يستأثر بجريدته
لنفسه . ومنذ سنة ١٨٩٧ ، ربما بسبب فشل خطة الخديو في الافادة
من خدمات لطفى السيد ، ومصطفى كامل يحاول اقناع شقيقه بالاستقالة
من الجيش ليصدر جريدة وطنية (٢) . وسنة ١٨٨٩ اشترى مصطفى
آلة طباعة من أوروبا ، وتعاقد مع عدد قليل من المصريين ، وأصدر العدد
الأول من صحيفة « اللواء » في ٢ يناير سنة ١٩٠٠ . ورغم أن توزيعها
ظل متواضعا في سنواتها القليلة الاولى (٣) ، فلم يمض عليها طويل
وقت الا واعترف بها كأقوى لسان معبر عن الوطنيين المصريين .

وأخذ مصطفى كامل يتخلص تدريجيا من القيام بدور الداعية للقصر
ليصبح ممثلا للطبقة المتوسطة المصرية ، فضعفت نتيجة لذلك صلة
الخديو بالحركة الوطنية ، وفقد الأمل في تحقيق مطلبهما المشترك بأن
تنصرهما فرنسا ضد الانجليز في مصر ، وبخاصة بعد حادثة فاشودة
وعجز الأوربيين الواضح عن منع البريطانيين من مواصلة حرب
البوير (٤) . وقد زار الخديو لندن لأول مرة سنة ١٩٠٠ وكن صداقة
مع أمير ويلز الذي أصبح فيما بعد الملك أدوارد السابع (٥) .

ومن ناحية أخرى ازداد اهتمام عباس الثاني بعلاقات مصطفى كامل
بالباب العالي ، وبخاصة بعد أن اشتكى للسلطان سنة ١٩٠١ من ازدياد
نشاط حركة تركيا الفتاة في مصر دون رادع (٦) . فكان فقدانه للثقة سببا

(١) على فهمي كامل : ج ٩ ، ص ص ١٢٦ - ١٢٩ ، هامش ص ١٥٨ ، « مذكرات
محمد فريد » ، ص ٥٧

(٢) على فهمي كامل ج ٦ هامش ص ٦٩ .

(٣) قدر « جنستش Jenisch » توزيعها سنة ١٩٠٣ بعدد يتراوح بين ١٥٠٠
و ٢٠٠٠ نسخة .

(٤) من مصطفى كامل الى جوليت آدم ، في ٢١ يوليو سنة ١٩٠٠ ، في
« Letters » : p. 66.

(٥) Blunt : pp. 142, 576.

(٦) أحمد شفيق ، ج ٢ ، ص ٣٤٨ . لم يكن هناك حب بين الخديو وسيد
الأعلى السلطان عبد الحميد ، ولا بين الوطنيين المصريين وأعضاء حزب تركيا الفتاة ،
على الأقل حتى تولي الأخيرين السلطة

ونتيجة . في الوقت نفسه للتحويل الأيديولوجي لدعاية مصطفى كامل .
فمن قبل كان مصطفى كامل يدافع عن حقوق الخديو باعتباره حاكم مصر
الشرعي ، وكان يناشد الأوروبيين للتدخل فرديا أو جماعيا لوقف انتهاك
بريطانيا لحقوق الخديو (١) ، ويشيّد للمصريين بوطنية الخديو ،
وعطفه على شعبه ، وجهوده في النهوض بالتعليم وبعث الروح الوطنية ،
ويحث مواطنيه على الاتحاد حول شخص حاكمهم لمقاومة العدو
البريطاني (٢) . فلما انشأ « اللواء » اذا به يهاجم لا البريطانيين
وحدهم ، بل كذلك الوزراء المصريين الذين يخضعون لأوامر مستشاريهم
البريطانيين . وهاجم في مقالة نشرها في يناير سنة ١٩٠٠ القيود
الجديدة التي فرضتها الحكومة المصرية على الحج ومما قاله فيها :

« أول مبادئ حكومتنا العادلة هو كراهية المصريين والاستهانة
بمطالبهم » ، « . اذا سألنا لماذا تعتدى الحكومة على الحرية الشخصية
في مسألة الحج ، فيجب أن نرد بشجاعة وبلا تردد بأن حكومتنا العادلة
قررت أن زمن التقوى قد انتهى ، وأن على الحجاج أن يسافروا الى لندن
بدلا من الحجاز » (٣) .

وبعد ذلك بقليل كتب مقالة عنوانها « حقوق الشعب وواجباته »
رد فيها تأخر مصر بالقياس الى أوربا الى أن مواطنيها لم يعرفوا بعد
حقوقهم السياسية ولم يتمتعوا بها ، ومن ثم لم يؤدوا واجباتهم الوطنية .
ولهذا فقد وقعت مصر تحت السيطرة الأجنبية ، وعجز رجالها عن
الحفاظ على ارتباطهم بالشعب ، عماد البلاد ومصدر رخائها . ولو عرف
أفراد الشعب أن حقوقهم وواجباتهم باعتبارهم مواطنين متساوية ، وأدرك
الحكام أن وجودهم رهين بإرادة الشعب وأنه من الممكن عزلهم اذا خانوا
ثقتهم ، لاستعادت مصر مكاناتها اللائقة بين أمم العالم (٤) .

(١) انظر على سبيل المثال مقاله في the Berliner Tageblatt وقد كتبه

في ديسمبر ١٨٩٧ ، وترجمته في كتاب على فهمي كامل : ج ٦ ، ص ١٣٣ - ١٤٩ .

(٢) خطاب مصطفى كامل في عيد جلوس الخديو في ٨ يناير ١٨٩٨ في كتاب

على فهمي كامل ج ٦ ، ص ١٣٣ ، ١٤٩ .

(٣) على فهمي كامل : ج ٩ ص ٢٣٦ - ٢٤٠ ، وانظر : رسالة من مصطفى كامل

الى جوليت آدم في ٢١ نوفمبر ١٩٠٢ ، في p. 95 : « Letters » ويبدو أن الموضوع

كان قاصرا على فرض الحكومة لقيود صحية ومالية على الحجاج المصريين لمنع التسول

وانتشار الأمراض المعدية .

(٤) مصطفى كامل : « حقوق الشعب وواجباته » ، « اللواء » ، ١٠ فبراير ١٩٠٠

في كتاب على فهمي كامل : ج ٩ ، ص ٢٨٨ - ٢٩٢

وفى تلك السنة نفسها سطر مصطفى دعوته الأولى لحكومة ذات نظام نيابى تستند الى دستور مكتوب (١) . ولم يمض وقت طويل الا وتبلورت فى ذهنه فكرة الدستورية ، وكان يقصد بها قيام حكومة دستورية ، وأصبحت احدى النقاط الرئيسية فى برنامجيه ، وهى سياسة كان من الصعب أن تنسجم مع رغبة عباس فى حكم بلاده .

وبينما كان مصطفى كامل يزداد استقلالاً عن القصر ، ويشيد قوته على أساس من التأييد الشعبى ، اكتسب الشيخ على يوسف المزيد من رضى عباس بالتزامه التام بالخط الخديوى . ومن ثم أصبحت « المؤيد » - رغم أنها كانت جريدة محترمة تقرأ فى أرجاء العالم الاسلامى (٢) - ينظر اليها باعتبارها أداة فى يد القصر . لقد استطاع الشيخ على يوسف ذو الأصل المتواضع أن يحتل بذكائه وعمله الشاق مكانة هامة ، وظل أعزب طوال سنوات كفاحه المتصاعد ، وهامو ذا يطمح الآن فى الزواج بابنة الشيخ عبد الخالق السادات ، زعيم السادة الأشراف (سلالة النبى) فى مصر . ولما كان على يوسف لاينتمى الى أسرة متكافئة ، فقد رفض الشيخ السادات اقترانه بابنته ، فخطفها « على » وتزوجها بموافقة الخديو وعقد القران نقيب الأشراف الزعيم المصرى المنافس لسلالة الرسول . فكان ذلك الزواج هو الفضيحة القومية لسنة ١٩٠٤ ، وتحول الى منازعات قضائية طويلة أمام المحكمة الشرعية (٣) . وناصر الخديو صحافيه الأثير ، ولكن غالبية المسلمين انحازوا بقوة للشيخ السادات بسبب منصبه الشريف .

وفى أغسطس من ذلك العام قابل مصطفى كامل الخديو فى باريس واحتج عليه لوقوفه فى وجه رأى العام ، فأجاب عباس بأنه لا يبالى بالرأى العام ، وحتى لو قرر أن يطوف بأرجاء القاهرة مرتدياً قبة (وكان ذلك مساوياً لتبرئه من الاسلام) فهو واثق أن أحداً لن يفتح فمه بكلمة . وخرج مصطفى غاضباً وأقسم ألا تكون له صلة

(١) « الحكرمة والامة فى مصر » . « اللواء » ، أكتوبر ١٩٠٠ ، أعاد نشرها الرافعى : ص ١٦٤ ، انظر ايضا مقالات « اللواء » فى ٢١ مايو ، ١٦ نوفمبر سنة ١٩٠٢ ، ٩ مارس سنة ١٩٠٤

(٢) انظر على سبيل المثال : « تربية سلامة موسى » ، ص ٣٣ ، George Swan : « The Muslim Press in Egypt » The Moslem World, 12 (April 1911), p. 150.

(٣) لردابة اكمل للقضية انظر ، عبد اللطيف حمزة : « على يوسف » ص ص ١١ - ١٢٢ .

بحاكم يسقط الرأى العام (*) من حسابه . وجن عاد الى مصر نشر رسالة فى « الأهرام » و « اللواء » أعلن فيها انفصاله عن القصر . وكان السبب الذى أعلنه هو خشيته من أن استمرار اتصالي الخديو بالوطنيين قد يتيح لكرومر فرصة جديدة لحرمانه من حقوقه ، فى الوقت الذى كانت علاقاته بالبريطانيين أخذة فى التحسن ، ثم وجه بلا مبرر ضربة عنيفة للشيخ على يوسف ، بتحذير الخديو من « المفسدين » (**) الذين ربطوا أنفسهم بالقصر ، والتمس استمرار ولائه للمبادئ الوطنية التى كان عباس أول من نادى بها (١) .

وراء شجارهما حول زواج الشيخ على يوسف كانت تكمن خلافات أعقد بين الخديو ومصطفى كامل . كان عباس يريد أن يحكم مصر دون أن تعوقه تدخلات أجنبية أو محلية ، فى حين توصل مصطفى بالتدريج الى الايمان بأن ارادة الشعب يجب أن تكون صاحبة السيادة المطلقة . وكانت الاتفاقية الانجليزية - الفرنسية التى قوت من احتلال بريطانيا لمصر بمثابة الضربة القاضية لدور مصطفى كامل النافع كداعية فى أوروبا . وباعتناقه لمبادئ الديمقراطية الليبرالية أصبح الآن أقرب أن يكون تهديدا لسلطة الخديو على الشعب المصرى من أن يكون سنداً لها .

أما الخديو فقد تصور آنذاك أن تسليم مصيره للبريطانيين أنفج له من تدبير المؤامرات السرية ضدهم . وهكذا قضى على كل احتمال لقيام حلف معاد لبريطانيا يضم فرنسا ، وربما بعض الدول الأوروبية الكبرى ، والامبراطورية العثمانية ، والقصر ، والوطنيين ، لضعف العناصر المكونة لهذا الحلف ، وتباين أهدافها ، وأصبح على مصطفى كامل وأتباعه أن يواصلوا كفاحهم وحدهم .

(١) « مذكرات محمد فريد » ج ١ ، عبد الرحمن الرافعى : ص ٣٣٩ - ٣٤٠ ،

أحمد شفيق : ج ٢ ، ص ٣٣ م ، ٢ ، هامش ٥٩

(*) ما قاله الخديو فى مقابلة بينه ومصطفى كامل ومحمد فريد والدكتور صادق

رمضان فى إحدى مدن مياه الاستشفاء بفرنسا هو أنه لا يوجد فى مصر رأى عام ، ودلل على ذلك بأنه لو لبس قبعة وسار فى الشوارع ما اعترض أحد على مسلكه .

(**) لا أعلن أن مصطفى كامل قصد بلفظ « المفسدين » الشيخ على يوسف

أساسا ، وإنما قصد بعض أفراد الحاشية وموظفى القصر الخديو .

الفصل الثالث

تكوين الحزب الوطنى

- انسحاب وبعث
- سياسة جورست فى اتجاه الوفاق
- ونشأة الأحزاب المصرية
- وفاة مصطفى كامل

انسحاب وبعث

اعتمدت حركة مصطفى كامل بقوة منذ البداية على تأييد الأجانب .
والوطنية المصرية - في نظر ناقيديها - ليست أكثر من محصلة لمطامع
فرنسا الاستعمارية المحبطة ، وفتن الجامعة الإسلامية العثمانية ،
ورغبة عباس المحبطة في أن يصبح طاغية ، أو مزيجا من هذه القوى
الخارجية (١) . ومثل هذا التفسير قد يصدق على بدايات الحركة ،
فلم يكن من السهل على مصطفى كامل أن يحقق تلك الشهرة المبكرة دون
عون خارجي . ومن ناحية أخرى لم يكن من الممكن أن تقوم حركة معارضة
محلية في مصر للحكم البريطاني ما لم يوجد مصريون عانوا على نحو ما
من وجوده . ولو أن الوطنية المصرية لم تكن أكثر من محصلة معاونات
قوى خارجية ، لكان من المحتم أن تنتهي سنة ١٩٠٤ عقب الاتفاق الودي
بين إنجلترا وفرنسا وانفصال مصطفى كامل عن الخديو . ولكن الحركة
بدلا من ذلك ، وكما سيوضح هذا الفصل ، عاشت ، بل ازدهرت على
نحو لم يتحقق لها منذ سنة ١٨٨٢ ، وطالبت بتأييد الأمة كلها ، ونالت
على الفور .

لقد قضى الاتفاق الودي على آخر أثر لمعارضة فرنسا ، فقوى ذلك
الى أبعد حد مركز بريطانيا في مصر . ورغم أن القوى الأوروبية الأخرى
لم تخطر بشروط الاتفاق ، فقد اتفقت كل منها على حدة مع بريطانيا على
ألا تطالب بفرض زمن محدد لاحتلال مصر . وأزالت هذه الاتفاقيات

(١) انظر على سبيل المثال : Alexander, pp. 29f. 40f .

Lord Lloyd : «Egypt Since Cromer». I. London
Macmillan, 1933, pp. 40-42, Marshall, p. 192 f. Sir George Young,
«Egypt», New York, Scribners, 1927, p. 181.

المختلفة أيضا القيود المفروضة على مصروفات الحكومة المصرية بموجب قانون التصنيف لسنة ١٨٨٠ مراعاة لمصالح حملة السندات الأجانب . وكذلك ضعفت المعارضة الداخلية بتخلي الخديو عن الوطنيين وتشويه سمعة أعداء الانجليز السابقين كرياض باشا وصنيعته السابق الشيخ على يوسف (١) .

لقد ضيقت بريطانيا سنة ١٨٨٢ أئمن فرصة أتاحت لها لاعادة البناء السياسى لمصر ، وكان ذلك بسبب معارضة حكومة جلادستون لاحتلال عسكري طويل الأمد . وفى سنة ١٩٠٤ أفلت كرومر من بين يديه فرصة ممتازة للقيام باصلاحات كان من الممكن أن تساعد على عدم انبعاث الشعور المعادى للبريطانيين ، وتجنب كثير من المرارة التى غلبت على العلاقات الانجليزية المصرية التالية ، حتى جاء وقت سممت فيه كل علاقة العرب بالغرب ، فقد كان ذلك أنسب وقت يمكن أن تثبت فيه بريطانيا حسن نيتها واستعدادها لتدريب المصريين على حكم أنفسهم . وكان باستطاعة كرومر أن يضع فى مراكز المسئولية مزيدا من المصريين ، وبخاصة من الشباب المتأثر بالغرب ، بدلا من المزيد من الانجليز حديشى التخرج من أكسفورد وكامبريدج . فقد كان ذلك كفيلا بازالة سبب من أهم أسباب الشكوى التى جذبت الشباب الى وطنية مصطفى كامل المتشيدة . وكانت الحكمة تقتضى كذلك مكافأة الخديو على هجرته للوطنيين بقدر أكبر من السلطة والمسئولية . ولكن كرومر الذى ظل حتى سنة ١٩١٥ يتذكر بوضوح تفاصيل مشاجراته مع عباس سنة ١٨٩٣ (٢) لم يوافق أبدا على اتخاذ مثل تلك الخطوة ، وهكذا استأنف عباس بعد عامين تأييده للوطنيين .

وكان باستطاعة كرومر أن يمنح الوزراء المصريين قدرا أكبر من السلطة ، ولكن معظمهم كانوا تافهين تعودوا اطاعة « المشورة » البريطانية دون اعتراض (٣) . وكان كرومر قليل الثقة بجدوى الحكم النيابى ، فترتب على ذلك أن ظل المجلس التشريعى ، والجمعية

(١) عبد الرحمن الرافعى : « مصطفى كامل » ، ص ١٧٢ - ١٧٥ ، عبد اللطيف حمزة : « على يوسف » ، ص ١٢٧ وما بعدها .

(٢) Crompton : « Abbas II »

(٣) وعدم أهمية مجلس الوزراء يمكن أن يؤكدتها حقيقة أن عدیدا من الوزراء ظلوا يشغلون مناصبهم من سنة ١٨٩٥ الى ١٩٠٨ (★) .
(★) وفى مقدمة هؤلاء مصطفى فهمى ناظر النظائر أى رئيس الوزراء .

العمومية ، ومجالس المديرية ، بلا سلطة تقريبا ولا تمثل الشعب .
ومما هو جدير بالملاحظة أن كثرة الأحزاب السياسية في مصر فيما بين
عامي ١٩٠٧ و ١٩٠٩ لم تبذل أى محاولة للتنسيق بينها في تقديم
مرشحين لانتخابات هذه الأجهزة .

وبذلت الحكومة المصرية جهدا لعلاج اهمالها السابق للتعليم العام،
فقد ظل التعليم ميزة مقصورة في الأغلب على أبناء الأثرياء ، وأهمـل
التعليم المهني والفني (١) . وقاومت الحكومة قيام طبقة رأسمالية وطنية
فقد كانت الرسوم الجمركية المفروضة على المواد الخام والآلات مرتفعة تكاد
تساوي المفروضة على البضائع الأجنبية . وكانت المنسوجات المصنوعة
محليا تدفع عنها ضريبة انتاج تساوي الرسوم الجمركية المفروضة على
الأقمشة المستوردة ، حتى ليصدق ما شكا منه عبد الناصر كثيرا (٢)
من أن بريطانيا حاولت منع تصنيع مصر حرصا منها على رواج صناعتها
هي . ومع ذلك فالانصاف يقتضي أن نشير الى أن تصنيع مصر لم يكن
ميسورا دون ازالة الامتيازات الأجنبية ، ولم تكن بريطانيا هي التي
حرصت على استمرارها ، بل الدول الكبرى ، والوطنيون أنفسهم (*)

ولا يمكن انكار أن كرومر قد بذل خير سنوات عمره لحياء اقتصاد
مصر ، وأن جهوده قد كللت بالنجاح . فأصبح حجم الائتمان بالبلاد

(١) Rothstein : « Egypt's Ruin », pp. 315-324. وفيه علاج مفيد
لموضوع التعليم في مصر خلال تلك الفترة . ومما هو جدير بالذكر أن مدرسة الزراعة
كانت ترفض سنة ١٩٠٤ المتقدمين المؤهلين اليها لعدم وجود أماكن ، رغم أن علوم الزراعة
لم تكن موضع تقدير غالبا .

(٢) انظر على سبيل المثال حديث عبد الناصر مع دزموند استيوارت سنة ١٩٥٧
في كتابه :

Desmond Stewart : « Young Egypt », London, Allan Wingate, 1958, p. 183.
President Abdel-Nasser's Speeches and Press Interviews », 1959, Cairo,
UAR Information Dept., pp. 184, 431.

(*) ليس هذا صحيحا فان بريطانيا كانت المستفيدة الوحيدة من الحيلولة دون
قيام صناعة مصرية ولا سيما صناعة الغزل والنسيج ، ذلك لأنها كانت تحتكر القطن
المصري زفيق التيلة لغازاتها في لانكشاير وليفربول ، ثم تعيد تصديره منسوجا بأسعار
مرتفعة ، ولم يكن للدول الأخرى نصيب يذكر في هذه التجارة الاحتكارية ، ومن ثم فقد
كانت الدول الكبرى تتمنى أن تسقط هذه الحواجز التي اقامتها بريطانيا لصالحها دونهم .
ومما يؤيد هذه النظرية أن طلعت حرب حينما أراد أن ينشئ صناعة الغزل والنسيج في
مصر ، اضطر أن يدخل في اتفاقية مع بريطانيا تضمن لها استمرار دواج المنسوجات
البريطانية المصنوعة من القطن المصري .

معقولا ، وراجت الاستثمارات الخاصة فى الأراضى والعقارات المصرية ، وارتفع مستوى معيشة الفلاحين ، وهم غالبية أهل مصر ، ولعله بلغ أعلى معدل له حوالى سنة ١٩٠٤ بفضل إلغاء الكرباج والسخرة ، بالإضافة الى جهود مهندسى الرى البريطانيين (١) . (*)

واذا لم يكن قد صحب ذلك احياء سياسى مماثل فمرجع ذلك الى فشل كرومر فى تقدير حرص المصريين الموهوبين المتعلمين على تحقيق ذواتهم فى خدمة بلادهم (٢) . فكان كل شاب مصرى يبدى استعدادا للتعاون مع الانجليز يكافأ بالتدرج فى سلسلة من الوظائف المجردة من كل سلطة ، على رأسها منصب الوزير المفرغ من كل مضمون . لاغرو أن أثر اللامعون من الشباب العمل بالمحاماة أو الصحافة حيث شرعوا يهاجمون الحكومة لأنها غير نيابية ، والبريطانيين لسيطرتهم عليها . فاذا صح أن شغبهم كان خاليا من الاقتراحات البناءة لاصلاح حكومة بلادهم - كما ذهب كرومر - فهل يمكن لومهم طالما لم تنح لهم الفرصة لاكتساب الخبرة اللازمة ؟ وهل يمكن تقديمهم للالتجاء للفتن - وسيلة الضعفاء - وكل أسباب القوة يحتكرها جيش الاحتلال البريطانى ، أو للدعاية الصوفية العنيفة فى وقت انعدمت فيه كل السبل الشرعية الكفيلة بازالة أسباب السخط (٣) ؟

كان فقدان تأييد القصر خسارة مادية ومعنوية للوطنيين ، ولكنه

(١) يقول تشارلز عيسبوى : « وأخيرا فبالنسبة للفلاحين لا شك أن تخفيض الضرائب وتحسين الرى ، والقضاء على السخرة وتقليل عدد المجندين ، قد حسن من وضعهم الى حد بعيد ، رغم أن افلاس الصناعات الفردية قد أدى الى انخفاض الدخل وتضخم المديونية ، فمن المرجح أن وضعهم الاقتصادى فى بداية هذا القرن كان أفضل منه فى أى وقت سابق أو لاحق . »

(Charles Issawi : « Egypt at Mid — Century », p. 46).

(٢) Roger own : «The Influence of Lord Cromer's Indian Experience on British Policy in Egypt». St. Antony's Papers, no. 17. London Oxford University Press, 1965, pp. 113-139.

(٣) Sladen : «Egypt and the English», p. 145 f.

(*) رد مصطفى كامل على هذه الدعوى ، وأثبت أن اقتصاد مصر زاد سوءا فى ظل الاحتلال البريطانى ، وأن ميزانية مصر فى عهد الخديو اسماعيل التى كانت دون ميزانية مصر فى عهد الاحتلال ، استطاعت أن تؤدى خدماتها للشعب المصرى فى مجالات الصحة وإنشاء المرافق من الترع والموانى والنارات والخزانات ومجانبة التعليم ، ومن الطرق والخطوط لتليفونية والبرقية ، أضعاف أضعاف ما قام به الاحتلال الذى حرم الفلاح الفقير نهائيا من التعليم والرعاية الصحية والثقافة .

لم يكن نكبة فحسب بل كان له جانبه الايجابى ، فحين تحرروا من القيود التى فرضتها عليهم علاقاتهم الخديوية ، أصبحوا أحرارا فى طلب التأييد الشعبى باعتبارهم حركة وطنية أصيلة • وما نجحوا فى تحقيقه وما فشلوا فيه يمكن أن يوضح طبيعة حركتهم وابعادها •

ولماذا - مثلا - لم يحاولوا التفاهم مع عرابى ؟ لقد كان مصطفى كامل يحتقره ، وبصفة خاصة بعد عودته من المنفى سنة ١٩٠١ ، وثناؤه فى حديث صحفى مع جريدة « المقطم » على انجازات بريطانيا فى مصر (١) •

ولماذا لم يحاول مصطفى كامل كسب تأييد الفلاحين ؟ (*) ان رخاءهم النسبى وقتذاك كان من الممكن أن يعوق نجاح هذه المحاولة ، ولكن ارتفاع مستوى المعيشة قد ساعد فى عصور وأماكن أخرى على انتشار الأفكار الثورية • من سوء الحظ أن مصطفى كان بعيدا عن جذور الفلاحين بدرجة لم تتح له الاهتمام بهم ، ومن ثم ظل دورهم ثانويا فى الحركة الوطنية حتى سنة ١٩١٩ •

(١) Blunt : « My Diaries », p. 426 نقد مصطفى كامل « عرابى » فى « المسألة الشرقية » الذى أعاد نشره على فهمى كامل : ج ٨ ، ص ٧٠ وما بعدها ، ١٠٧ ، ١١٢ ، ١١٤ وأشار كذلك فى رسالة الى مدام آدم سنة ١٩٠٢ الى « خيانة عرابى المخزية » فى التل الكبير • (Letters, p. 84).

(*) لم يسقط مصطفى كامل من حسابه الفوز بتأييد الفلاحين • وقد تحدث كثيرا عن سوء حال الفلاح وحرمانه من التعليم بعد أن كان متمتعاً بمجانبة هذا التعليم فى عهد الخديو اسماعيل ، وتحدث حديثا مستطابا عن مصطفى بك الشوربجى ومشروعاته الإصلاحية فى قرية « بریم » بمحافظة البحيرة • وقد كان اهتمامه الشديد بضحايا قضية دنشواى وهم فلاحون مجهولون دليلا قاطعا على مدى ارتباطه بالفلاحين وانشغال باله بأمورهم • ولكن الطبيعى أن يبدأ القائد بأكثر الطبقات استجابة لدعوته ، وأكثرها قدرة على العمل السياسى • وكان الشبان المتعلمون فى المدارس وأصحاب المهن من المحامين والأطباء هم أحق الناس بأن يتولوا الكفاح السياسى الى أن تزيد أعداد العمال بازدياد المصانع ، ويتم تنظيمهم ، فى هيئات تمثلهم ونقابات تدافع عنهم ، وكذلك حينما يزداد وعى الفلاحين السياسى وقد كانت حملة مصطفى كامل ضد الحكم الاستعمارى والتنديد بمظالمة بمناسبة حادثة دنشواى ، هزة عنيفة لقطاع الفلاحين من أقصى مصر الى القصاها ، فقد عرفوا مصطفى كامل واحبوه ، وشعروا بأن ضحايا دنشواى ليسوا الا رموزا على الفلاح المصرى ، وانهم ذوو قيمة وشأن • فزاد اهتمامهم بـ مصطفى كامل وأصبحت جريدته تقرأ على (المصاطب) فى القرى ، وكان ذلك كله بداية للوعى السياسى واسقاطا لتهمة أن مصطفى كامل قصر اهتمامه على مثقفى العاصمة •

واذا كان مصطفى كامل قد أشار الى صعوبة حياة الفلاح فقد فعل ذلك وهو يخاطب جمهورا أوروبيا خلال محاولاته لتجريح البريطانيين . ومن اتهاماته لهم عدم وجود وزارة زراعة مصرية ، وقلبة عدد ممثلى الفلاحين ، وعدم الاهتمام باصلاح الطرق وانشاء المدارس الابتدائية فى الريف . (١) كما أرجع ازدياد ديون الفلاح ، لا الى ارهاق التربة بسبب جشع أصحاب الثروات المتزايدة ، بل الى الضرائب المرتفعة ورياءات الحضارة الأوروبية (٢) . ولكنه لم يدع ، ولا أى من المصريين المعاصرين له ، الى توزيع أكثر عدالة للملكية الأرض .

ولم يكده مصطفى كامل يهتم بالوسائل التى يستطيع بها الوطنيون زيادة ثروة مصر ، فاستشعر - بلا حماسة - بالحاجة الى التصنيع ، وأرجع تأخر مصر الى سياسة بريطانيا فى محاربة المنافسة المحلية لصناعاتها (٣) . وكان العلاج فى نظره - متمشيا مع قوميته الليبرالية - يتمثل فى دعوة كبار الأثرياء للتبرع بالأموال لانشاء المصانع بهدف تحرير البلاد من الاعتماد على المنتجات الأجنبية (٤) ، ولم يبد أى رغبة فى تدخل الدولة فى المشروعات الصناعية ، وكذلك لم يهتم مصطفى بالحالة الواقعية للقوى العاملة المصرية ، وكانت ضئيلة أيامه . فالوطنيون لم يخطبوا ود البروليتاريا الا فى مرحلة تالية (٥) . (*)

(١) وردت هذه الاتهامات فى مقال كتبه للمجلة الزراعية الإيطالية الصادرة فى ابريل ١٨٩٨ . والترجمة العربية فى : على فهمى كامل : ج ٦ ، ص ص ٢٠٥ - ٢١٥ . ووزارة الزراعة المصرية لم تنشأ الا سنة ١٩١٣ .

(٢) على فهمى كامل : ج ٥ ، ص ص ٢٣٢ - ٢٣٩ .

(٣) المصدر السابق : ص ٢٣٩ .

(٤) وجه مثل هذه الدعوة فى مادته التى اقامها سنة ١٨٩٨ لتكريم السلطان عبد الحميد .

انظر على فهمى كامل : ج ٩ ، ص ٢٢ .

(٥) عن الوطنيين والعمال انظر : الفصل الرابع من هذه الدراسة .

(*) هذا اتهام آخر ظالم لمصطفى كامل ، فقد كتب وهو بعد تلميذ بمدرسة الحقوق فى مجلته النفثية الشهرية « المدرسة » التى أصدرها سنة ١٨٩٣ مقالا قال فيه : ان الصناعة لها فى الوجود فضل ظاهر ومجد واضح لا ينكره الا جاهل ، ثم قال ان الصناع الذين هم رافعو لواء الصناعة جديرون بالاحترام ، حقيقون بالتبجيل والاعتبار ، ثم انتهى الى القول بأن عظمة الأمم وتقدمها تقاس بمقدار ما يظفر به العمال من الرعاية والتقدير من قومه . ثم كتب مقالا فى جريدة « اللواء » فى ٢٥ من اكتوبر سنة ١٩٠٠ أى فى السنة الأولى من سنى هذه الجريدة دعا فيه الى ايجاد روح الصناعة ونشر المدارس الصناعية .

أما ما قام به الوطنيون فعلا ، فهو توجيه نداءاتهم ، ككثيرين من أمثالهم في أقطار أخرى ، الى طلبية المدارس الثانوية والعالية ، فهم الذين يكسبون أكثر ويخسرون أقل من تغيير الوضع القائم . وكان الجيل الجديد من طلبية مصر لا يزال ضئيل العدد ، غالبية من الطبقة العليا أو الوسطى ، المتأثرة بالأفكار الأوروبية عن الليبرالية والقومية ، وتعتبر رخاء مصر أمرا مسلما به . لم يعرفوا شيئا عن فساد حكم اسماعيل وان ظلت ذكرى هزيمة عرابي تلهب صدورهم . وكان مصطفى كامل شخصية مندفعة فصيحة ، لا يزال في ميعة الصنبا ، استهواؤه لمن يصغرونه أقوى ما يكون . وكان الطلاب ينفرون بطبعهم من صلف مدرسيهم الانجليز وقسوتهم الغالبة ، (١) وكانوا يعتبرون التعليم وسيلة للحصول على الوظائف العامة ، وان كان عدد الوظائف الحكومية المحترمة المسموح لهم بشغلها قليلا . وشيئا فشيئا احتلها الانجليز (٢) . وحتى لو لم يكن لدى الجيل الجديد من الطلاب ما يشكو منه لبحث عن أسباب للثورة . فاذا كان النشاط السياسي للطلاب المصريين احدى ظواهر القرن العشرين ، فمقاومة الشباب للسلطة غير محدودة بزمن (٣) .

وكانت جاذبية مصطفى أقوى ما تكون بين طلاب مدرسة الحقوق الخديوية لأنهم أكثر اهتماما بالسياسة من غيرهم . وكانت دراستهم التي تحتذى المناهج الفرنسية ، تشمل علم السياسة والاقتصاد . كانوا يدرسون القانون غالبا لا للاشتغال بالمحاماة بل ليؤهلوا أنفسهم لشغل المناصب الحكومية العليا ، أو ليحترفوا السياسة . وأيّا كان الأمر فقد تميزت مدرسة الحقوق بين المدارس العليا بتخريجها عددا كبيرا ممن لم يلتحقوا بخدمة الحكومة ، وكانت تميل بهم الى عدم الاعتماد على الرضا الرسمي ، كما كان طلاب الحقوق أفصح من سواهم ، لا لأن البلغاء كانوا ينجذبون الى الحرفة فحسب ، بل لأن منهج دراستهم كان يشمل تدريبا

(١) Humphery Bowman : «Middle East Window», London, Longman's Green and Co., 1942, p. 39 f.

، سلامة موسى ص ٢٨

(٢) يقرر روز شتاين أن عدد الموظفين الأجانب في الحكومة المصرية ارتفع فيما بين عامي ١٨٩٦ و ١٩٠٦ ، من ٦٩٠ الى ١٢٥٢ ، في حين زاد عدد الموظفين المصريين من ٨٤٤٤ الى ١٢٢٠٧ . وكان الأجانب ، وغالبيتهم من الانجليز ، يشغلون نسبة أكبر من المناصب الرئيسية .

(٣) انظر : أحمد لطفى السيد (« قصة حياتي » : ص ٢٣ وما بعدها) الذي يقدم نموذجا مصرية في وصفه لجماعات الفتوات في القاهرة في أواخر القرن التاسع عشر

على الخطابة من خلال دراستهم للأدب العربى (١) . (*)

وظل البروفسير ادوارد لامبير الفرنسى يدير مدرسة الحقوق الخديوية حتى سنة ١٩٠٧ وكان بين هيئة تدريسها عدد من الأساتذة الفرنسيين الممتازين ، ولأنهم ممن أقاموا بمصر فترات طويلة فلا بد أنهم كانوا ساخطين بصفة خاصة لانكماش نفوذ فرنسا الثقافى فى مصر نتيجة للوجود البريطانى فيها . وكان طلاب الحقوق أقرب لتمثيل الصفوة المصرية ، فأبأؤهم لابد على قدر من الثراء ليستطيعوا دفع المصروفات السنوية وكانت ضعف مصاريف كل من مدرستى الطب والهندسة (٢) . وكذلك لابد أن يكون هؤلاء الآباء على قدر من الاعجاب بمزايا التعليم الغربى والا لأرسلوا أبناءهم الى الأزهر (٣) . ورغم ذلك كله فعدد الملتحقين بمدرسة الحقوق الخديوية كان أكبر بكثير من عدد الملتحقين بالمدارس المهنية الأخرى (٤) وكذلك نظيرتها الفرنسية كان عدد طلابها سنة ١٩٠٥ مائتى طالب . سبعين بالمائة منهم مصريين (٥) .

كان مقر مدرسة الحقوق الخديوية فى مواجهة قصر عابدين ، على

- (١) أحمد لطفى السيد : ص ٢٥ ، اسماعيل صدقى : « مذكراتى » ، القاهرة .
دار الهلال ، ١٩٥٠ ، ص ٧ (Rothstein; p. 324 f.)
- (٢) أى ٣٠ جنيها مصريا مقابل ١٥ جنيها مصريا للطب والهندسة ، فى حين كانت مدرسة المعلمين مجانا (Kinsey, p. 333). وقد التحق ابراهيم عبد القادر المازنى (١٨٨٩ - ١٩٤٩) كاتب مصر الساخر المشهور ، بمدرسة المعلمين لانه كان أفقر من أن يلتحق بمدرسة الحقوق الخديوية .
- (٣) كما حدث لأحمد أمين : « حياتى » ، ص ٥٧ .
- (٤) كان بها سنة ١٩٠٥ : ٢٧٣ طالبا مقابل ٥٧ فى الهندسة ، ١١٦ فى الطب والصيدلة ، ٢١٠ بدار العلوم (المدرسة الخاصة باعداد مدرسى اللغة العربية) ، ٦٩ بمدرسة المعلمين الخديويين . (kinsey, Appendix D/1. p. 549).
- (٥) Fernand Faure : « L'école française de droit du Caire », Revue Politique et Parlementaire, LXXXIII, June 1915, p. 392.
- (*) من اتهامات كتاب الغرب السمجة للشباب المصرى أن انخيازهم للحركة الوطنية وانتماؤهم لمصطفى كامل راجع الى أن الانجليز كانوا يحتلون المناصب العليا فى مصر ويسدون طريق التقدم فى وجههم ، فى حين أن عددا ضخما من الشباب الذى تعلم فى المدارس العليا اتجه الى الوظائف الحرة كالمحاماة والطب والصحافة والتجارة هذا فضلا عن أن الشبان الذين تخرجوا من المدارس العليا الفنية كالهندسة مثلا كانوا يصلون الى أعلى الوظائف بلا عناء ، وكانت الوظائف الكبرى كالمديرين والمحافظين ورؤساء المصالح هى من نصيب المصريين ، فلم تكن هناك أزمة وظائف كبيرة يعانى منها الشبان المصريون ، بحيث لا يجدون لها حلا الا فى الحركة الوطنية ان الشبان المصريين أيدوا مصطفى كامل حبا فى وطنهم لابعثنا عن وظيفة كبيرة أو صغيرة .

مرمى حجر من معظم وزارات الحكومة ومقر جريدة « اللواء » ، فكانت بذلك في موقع مناسب تماما للقيام بالمظاهرات السياسية . ولهذا ما لبثت الحكومة أن نقلتها الى العباسية (١) .

وواصلت مدرسة مصطفى كامل نموها ، وبدأ مصطفى يدعو الى انشاء جامعة وطنية ، ويعتقد بعض الكتاب أنه كان أول من دعا الى انشائها ، (٢) كما أيد تأسيس « نادى المدارس العليا » وهو جمعية تضم طلبة كل المدارس المهنية وخريجيه ، واختير للنادى مقر فخم وسسط القاهرة وأهداه محمد فريد مكتبته (٣) ، ووضع له برنامج ضخم يضم محاضرين من الخارج في موضوعات اجتماعية وأدبية . ورغم أن النادى لم يرتبط رسميا بالحزب الوطنى ، فقد كان معظم المشرفين عليه وأعضائه من الوطنيين ، بحيث يمكن اعتباره تنظيما تابعا للحزب .

واذا كان مصطفى كامل قد فقد الأمل في تأييد الحكومة الفرنسية ، فإنه لم يتخل نهائيا عن الاهتمام بعلاقات مصر الخارجية ، وهلل ، ككثير من الزعماء الآسيويين ، لانتصار اليابان على روسيا ، باعتباره دليلا على إمكان هزيمة مد التوسع الأوربى .

ونشط مصطفى كامل دعوته للاتحاد الاسلامى ، فأصدر ملحقا شهريا « للواء » أسماه « العالم الاسلامى » ، وحرص على علاقاته العثمانية (٤) ، وفي الوقت نفسه وجه نداء لألمانيا لتقوم بالدور الذى

(١) Alexander, p. 197. والعباسية من ضواحي القاهرة .

(٢) انظر على سبيل المثال :

Christian Phelps Harris : « Nationalism and Revolution in Egypt », The Hague : Mauton, 1964, p. 69, Alexander : p. 203.

من مصطفى كامل الى جوليت آدم ، القاهرة فى ١٣ يناير ١٩٠٥ (Letters : p. 170) وفيه ينسب فكرة انشاء الجامعة الى نفسه ، وانظر أيضا :

Kinsey : p. 51 « Egyptian Enigma », p. 91. J.E. Marshall وهو قاضى انجليزى

(٣) « مذكرات محمد فريد » ، ص ٤١ . وكان مقر نادى المدارس العليا شارع قصر النيل بوسط القاهرة ، وقد وصفه عبد الرحمن الرافعى فى « مذكراتى : ١٨٨٩ - ١٩٥١ » ، دار الهلال ، ١٩٥٢ ، ص ١٠ وما بعدها .

(٤) كتب لويد (Lloyd : I, p. 42) أن « اللواء » هاجم سنة ١٩٠٥ سياسة الدول الأوربية الكبرى فى الضغط على السلطان لاجراء اصلاحات ادارية فى مكدونيا .

تخلت عنه فرنسا ، وهو دور المعارض الرئيسى للوجود البريطانى
فى مصر (١) .

وبالاضافة الى ذلك لم يكف عن السعى للحصول على تأييد
الأحرار من البريطانيين والفرنسيين ، فزار لندن لأول مرة سنة ١٩٠٤ ،
ونشر بعد ذلك مجموعة من خطبه فى باريس (٢) .

على أنه بالمقارنة بالمرحلة الأولى من عمله السياسى نجد أن مصطفى
قد ركز نشاطه بعد سنة ١٩٠٤ داخل البلاد أساسا . فمع ازدياد شكه
فى احتمال تدخل أوربى لتحرير مصر ، بدأ يتجه الآن الى مواطنيه وأبناء
دينه . وبعد سنتين مرتا فى خمول ، استطاع مصطفى بسياسته فى
الاثارة الداخلية ، ونتيجة لبعض الأحداث الرئيسية ، أن يسترد سنة
١٩٠٦ مكانته ، بل يزيد نفوذه وأهميته .

فقد وقعت سنة ١٩٠٦ ثلاثة أحداث أسهمت فى بعث الشعور
الوطنى فى مصر وهى : اضراب طلبة الحقوق ، ومشكلة طابة ، وحادثة
دنشواى ، فدفع كل منها مزيدا من المصريين الى الاشتغال بالسياسة ،
وبخاصة فى الكفاح ضد الحكم البريطانى .

كان اضراب طلبة الحقوق فى فبراير سنة ١٩٠٦ أول حركة
احتجاج ناجحة قام بها الطلاب فى مصر الحديثة . وكان سببه المباشر
مجموعة جديدة من القواعد فرضتها وزارة المعارف العمومية بايعاز من
دوجلاس دانلوب سكرتيرها العام المكروه ، وكانت احدى هذه القواعد
تنص على فصل الطالب الراسب بأى سنة دراسية بمدرسة الحقوق
وحرمانه من إعادة قيده (٣) . وصوت الطلاب فى اجتماع عام على
الامتناع عن الدراسة حتى يستجاب لشكواهم . وشجع مصطفى كامل
تصرفهم فى عموده بجريدة « اللواء » ، وينسب اليه أحيانا دعوتهم الى

(١) زار مصطفى كامل برلين فى اكتوبر سنة ١٩٠٥ ، ونشر مقالا فى «Berliner
Tageblatt» يناشد فيه الشعب الألمانى أن يتبنى قضية حرية مصر .
من مصطفى كامل الى جولييت آدم فى ٢١ ، ٣١ اكتوبر ، ١٧ نوفمبر سنة ١٩٠٥
France, Ministère des Affaires Etrangères : (Letters : pp. 220-226)
«Egypte : Politique extérieure-relations avec l'Allemagne», p. 122f.,
Raymond Le Comte to Rouvier, Berlin, 25 October, 1905, no. 300.

(٢) « Egyptians et anglais », published by Perrin in 1906, (٢)

وكتب بلنت (My Diaries, p. 587) ان توزيعه كان سيئا .

(٣) محمد حسين ميكل : « مذكرات » ، ج ١ ص ٢٥

الاضراب (١) . وحرصا من كرومر ودانلوب على المحافظة على النظام طالبوا بفرض القواعد الجديدة بالقوة وفصل الطلاب المضربين ، ولكن بعض كبار الموظفين الآخرين كانوا كثر تعاطفا ، منهم لامبير مدير مدرسة الحقوق ، الذى سرعان ما سيفصل ويستبدل به انجليزيا أقل كفاءة ، وقد وصف لامبير قواعد دانلوب « بسياسة وخز الابر العنيفة واضطهاد دنىء » لا يلائم الا تلاميذ المدارس الابتدائية (٢) ووافق شكوى ما كيلوريث المستشار القضائى البريطانى على التحقيق فى شكوى الطلبة ، فأنهوا اضرابهم (٣) .

والدلالة بعيدة المدى لهذا الحادث ذات شقين : فقد كانت استهلاكا لعادة اضراب الطلاب المصريين (التى ستمارس فيما بعد بصورة تشمل النظام التعليمى) ، وقرنت نشاطهم ومصالحهم بالسياسة الوطنية . وكان للنزاع التركى المصرى حول الحدود ، أو ما عرف بحادثة طابة ، أثره فى تأجيج الوطنية . فقد نشب النزاع حول ملكية شبه جزيرة سيناء لأسباب معقدة ، غير أن انذارا بريطانيا للبواب العالى (٤)

Landau, p. 123 f.

(١)

Juliette Adam : « L'Angleterre en Egypte », Paris, Imprimerie de Centre, 1922, p. 114.

(٢)

(٣) عبد الرحمن : « مصطفى كامل » ، ص ١٩٥

(٤) رعم أن بريطانيا هى التى كانت تحكم مصر فعلا ، فقد كانت مصر من الناحية القانونية ولاية عثمانية ، يحدد السلطان حدودها فى فرمان التولية الذى يصدره لكل خديو يتولى العرش . وقد صيخ فرمان تولية عباس سنة ١٨٩٢ بحيث يقطع من أملاكه جزءا من شبه جزيرة سيناء . ولم تقبل الحكومة العثمانية العودة الى الحدود السابقة الممتدة من العريش حتى رأس خليج العقبة الا بعد ضغط من السفير البريطانى . ورغم ذلك فقد اعتقد بعض الكبار كبلنت (Blunt : « My Diaries » pp. 853-856) أن سيناء كانت دائما خاضعة للسيطرة التركية . وأرسلت الحكومة المصرية سنة ١٩٠٥ موطفا انجليزيا الى سيناء ، ثم عينته بعد ذلك قائدا ومفتشا لشبه الجزيرة مع حامية مصرية صغيرة عند « السبل » . وشكت الحكومة العثمانية فى أنه يحرض البدو على التدخل فى انشاء سكة حديد الحجاز بامتدادها المحدد الى العقبة وما سيترب عليه من انشاء سلسلة من نقط الحدود فى جنوب فلسطين فشرعت تركيا تكون حامية فى « طابة » ، وهى قرية على خليج العقبة تقع فى الجانب المصرى من حدود سنة ١٨٩٢ .

وفى يناير ١٩٠٦ شكوا السلطان الى السفير البريطانى من أن القوات المصرية بقيادة ضباط بريطانيين تعسكر بالقرب من العقبة معلنة عزمها على اقامة نقط حراسة هناك . فى مواقع أخرى داخل المنطقة التركية وطالب بانسحابها . وواصلت القوات التركية احتلال مواقع أخرى غربى خط حدود سنة ١٨٩٢ . وفى ٣١ مارس طلب مختار باشا =

حسبه أخيرا لمصلحة مصر . وقد ألهمت حادثة « طابة » المشاعر الشعبية في مصر ، لا ضد تركيا كما هو متوقع ، بل ضد بريطانيا لتعاملها مع مصر وكأنها من مستعمراتها ولاستنهايتها بالسيادة العثمانية (١) . وبعض الصحف التي يملكها مصريون ، « كالمؤيد » و « اللواء » ، وكانت دعوتهما الى الوحدة الاسلامية آخذة في التصاعد ، دافعت بحماسة عن طلب العثمانيين ضم كل سيناء أو بعضها الى تركيا .

وأقل ما يقال عن هذا الموقف أنه غريب من الوطنيين المصريين الذين رفض أسلافهم السيادة العثمانية ، وسيعتنق خلفاؤهم نظرة المشرق العربي المعادية للعثمانيين ، غير أن الوطنيين خلال معارضتهم للوجود البريطاني الأقوى ، كان عليهم أن يفوزوا بتأييد ساداتهم العثمانيين الاقرب

= المندوب السامي التركي بالقاهرة رسميا اعتبار قرية «طابة» داخل المنطقة العثمانية وأصر على أن تمتد الحدود المصرية من رفح الى السويس الى العقبة . واستشهد الخديو بفرمان سنة ١٨٩٢ رطالب بلجنة تحكيم . وكان كرومر مشغولا بازدياد الاثارة التي تقوم بها الجامعة الاسلامية في مصر ، فاعتبر طلب مختار باشا محاولة لحدود تركيا وسكة حديدية الاستراتيجية الى قناة السويس . واخذت وزارة الخارجية بهذا التفسير للأحداث ، وفي ٢ مايو سلم السفير البريطاني اذارا مدته عشرة أيام الى الباب العالي يطلب منه جلاء القوات التركية من «طابة» وبقيّة النقط الأخرى غربى حدود سنة ١٨٩٢ . وللساندة الانذار أرسل الأسطول البريطاني في البحر المتوسط الى ميناء « بيريه » . وانتهى الأمر باستسلام السلطان ، بناء على نصيحة بقية السفراء الأوربيين ووافق على تكوين لجنة تحكيم مشتركة حددت خط الحدود بين تركيا ومصر بنفس الخط المحدد سنة ١٨٩٢ تقريبا . ولزيد من المعلومات أنظر : « الكتاب الأزرق » الذي نشرته وزارة الخارجية بعد حادثة

« طابة » Great Britain FO, Egypt, No. 2 (1906), « Correspondence Respecting the Turco — Egyptian Frontier », ed. 3006, bound in Parliament "Accounts and Papers," CXXXCII, pp. 645-68. Sir A. W. Ward and G. P. Gooch : «The Cambridge History of Foreign Policy, 1783-1919», New York Macmillan, 1923. III, p. 380. Grey Fallodon (Sir Edward Grey), «Twenty-five years, 1892-1916», New Haven, Frederick A. Stocks, 1925, pp. 119-123, G. P. Gooch and Harold Temperley: «British Documents on the Origins of the War. V : the Near East», London, HMSO, 1928, pp. 189-195.

وليس هناك مجموعة مماثلة من وثائق الجانب العثماني ، ولكن أنظر : Blunt : « My Diaries » pp. 547 f, 522-556, 558, 853-858.

وبالطبع لم يكن لبريطانيا أي حق شرعي في الدفاع عن موقف مصر ، ولكن فشلها في القيام بهذه المهمة كان سيجعل لتركيا السيطرة على جزء من سيناء وقناة السويس . وهذا الخلاف الذي قلما يذكره تاريخ الدبلوماسية الأوربية اكتسب الآن أهمية جديدة بعد أحداث سنة ١٩٦٧ .

(١) عبد الرحمن الرافعي : « مصطفى كامل » ، ص ١٩٥ وما بعدها .

للشرعية والاضعف . والاستجابة الشعبية لاثارتهم تشير الى أن التمسك المشترك بالاسلام كان لا يزال يربط كثيرا من المصريين باستانبول ، فى حين كان البريطانيون ، بتجربتهم مع الملايين من رعاياهم المسلمين فى الهند وتمردهم الكامن ، شديدا الحساسية تجاه دعوة الجامعة الاسلامية التى يقوم بها السلطان - الخليفة العثمانى - وتقام من أجله .

ورغم أن كرومر قد قرر أنه كان من الصعب فى بعض الاحيان « التعرف على الجامعة الاسلامية تحت رداء الوطنية » فقد برر تسويته السهلة بين الجامعة الاسلامية والوطنية المصرية بالاستشهاد برسالة تلقتها الوكالة البريطانية فى قمة حادثة « طابة » ، قال فيها كاتبها المجهول :

« باعتبارنا رجالا فنحن لا نحب العثمانيين . ولكنهم اخوتنا باعتبارنا مسلمين . والخليفة ظل الله على الأرض ، وعلى كل مسلم أن يسارع الى تلبية ندائه حتى لو افترس الذئب طفله وهو يؤدى طلب سيده . ان نداءه هو نداء الايمان . وانى وكثيرين غيرى نتمنى أن يظل السلام سائدا ، ولكن ثقب أن الحرب اذا قامت فكل من لديه سيف سيمتشقه ، وكل من لديه عصا سيضرب بها ، وستصرخ النساء من فوق البيوت : « لينصر الله الاسلام » . هل تقول : « ان المصريين أقل وفاء من الكلب الذى يذكر اليد التى أطعمته ، وانه أحق مجنون ذاك الذى يهدم فوق أم رأسه سقف بيته المصنوع من فروع الأشجار » . قد يكون ذلك صحيحا من وجهة النظر الدنيوية ، ولكن حينما يتعرض الاسلام للمخطر فان كل مسلم يتخلى عن مطالب هذه الدنيا ولا يتطلع الا للدفاع عن الدين حتى ولو ضحى بحياته . » (١)

ان البريطانيين منذ احتلوا مصر سنة ١٨٨٢ وهم يدركون بوضوح تام أن وضع قواتهم ليس له أى سند قانونى ، ورغم ذلك فقد استطاعوا طوال ربع قرن أن ينظروا الى المسألة المصرية باعتبارها مشكلة دولية لا محلية ، وحين وفقوا سنة ١٩٠٤ فى القضاء على معارضة فرنسا وبقيّة

(١) من كرومر الى جرای فى ٢١ مايو ١٩٠٦ .
Great Britain, FO, Egypt no. 2 (1906), p. 35 f.
وملاحظة كرومر المشار اليها جاءت فى تقريره النهائى (Alexander, p. 76)

القوى الأوروبية اعتقدوا أن كل متابعيهم في حكم مصر قد انتهت (١) .
وإذا صح أن هناك « صورة » بريطانية لمصر فهي صورة بلاد أنفدها حكم
كرومر من الأجانب الجشعين والأرستقراطيين الأتراك العاجزين .

فمن الطبيعي أن بريطانيا قد تتوقع معارضة الطبقة الحاكمة
المعزولة ، أما الغالبية العظمى من المصريين الذين تحرروا من الاستبداد
والاستغلال فمن المفروض أن تشعر بالامتنان . وقد ثبت فساد هذا
الصور لأول مرة بالتأييد الكبير الذي حظيت به حملة الصحافة على
السياسة البريطانية في حادثة « طابة » ، وهي سياسة كان من الواضح
أنها تخدم مصالح مصر الإقليمية ، وإن حققت في الوقت نفسه مصالح
بريطانيا الاستراتيجية . وإذا كانت هذه السياسة المؤيدة لمصر قد أثارت
معارضة داخلية ، مع احتمالات لمضاعفات معادية لمصالحها الدبلوماسية
والاستعمارية في أماكن أخرى ، فإن موقف بريطانيا المعتمد أخلاقيا على
امتنان المصريين الموهوم ، لم يكن مأمونا كما بدا (٢) .

وبعد أن أتيح لبريطانيا هذا الإدراك المفاجيء لوضعها المقلقل في
مصر يصبح من الصعب فهم تورطها السريع في حادثة دنشواي ، التي
كان لها أكبر الأثر في ازدياد قوة مصطفى كامل في الداخل والخارج
على السواء . وقعت تلك الحادثة نتيجة سوء تفاهم متبادل أسفر عن
وقوع تحرش بين عدد من الضباط البريطانيين كانوا في رحلة لصيد
الحمام وأهل قرية من قرى الدلتا تسمى « دنشواي » . وأثناء الشجار
اشتعلت النار بمخزن حبوب القرية ، وقتل فلاح وجرحت امرأة ، وهرب
الضباط من المشهد فزعين . وحينما وصلت النجدة وجدت أحدهم ميتا ،

(١) ادعى البريطانيون أن الفرنسيين الذين كانوا يحركون الوطنيين ، وأنهم
كانوا يفتقرون إلى التأييد الشعبي . انظر على سبيل المثال : FJ78 ، من كرومر
إلى ساليسبوري ، القاهرة في ٢٦ مايو ١٩٠٠ ، ويضم تقرير هاري بويل عن مشاعر
المسلمين : Harry Boyle's «Report on Moslem feelings».

(٢) لدراسة تطور نظرة بريطانيا لمصر انظر :
H. S. Deighton : « The Impact of Egypt : on Britain » : a Study of Public
Opinion» in P. M. Holt (ed.) : « Political and Social Change in Modern
Egypt » London, Oxford University Press, 1968.

وقد كتب « ديتون » أن بريطانيا بعد صدور كتاب اللورد ميلنر « إنجليترا في مصر » سنة
١٨٩٢ بدأت تعتبر نفسها محسنة إلى الفلاح المصري المضهد دون أن تنشد مصلحة
لنفسها . وحتى في سنة ١٩٣٤ كتب لورد لويد : « منذ سنة ١٨٨٩ حتى سنة ١٩٢٢ . .
كان اهتمامنا الأكبر مرجها لتوفير إدارة انسانية مستقرة لشئون الشعب المصري » .
(Egypt since Cromer, II, p. 354.)

لنتيجة تأثيره بضربة شمس على الارجح أكثر من تأثيره بالجراح التي عثر على آثارها بجمجمته .

عند وقوع الحادث اتفق المصريون والانجليز على أن الفلاحين ينبغي ألا يتركوا دون عقاب . ولكن أسلوب هذا العقاب هو الذي حول الحادثه الى عمل من أعمال القسوة والوحشية ، وأضاف زادا وفييرا لأجهزة الدعاية المعادية لبريطانيا ظلت تفيد منه سنوات عديدة تالية . واستجابت الصحافة الانجليزية التي تصدر في مصر استجابة محمومة لأخبار هجوم أهل القرية على ضباط في زيهم الرسمي ، واعتبرتها مكيدة مدبرة ضد الاحتلال وثمره شهور طويلة من الاتارة لحساب الجامعة الاسلامية . وقضى على تسعة وخمسين من أبناء قرية دنشواي وحوكموا بسرعة أمام محكمة خاصة مكونة من ثلاثة قضاة بريطانيين من المصريين (١) . وسنتي المحامون ، وكان من بينهم لطفي السيد أقروا بذنب الفلاحين ، وركزوا دفاعهم على نفى تهمة القتل مع سبق الاصرار (٢) . غير أن المحكمة رفضت التماسهم استخدام الرأفة ، وحكمت على أربعة بالاعدام شنقا ، وعلى اثني عشر بالاشغال الشاقة لمدة مختلفة وعلى ثمانية بالجلد ، وهي عقوبة زعم البريطانيون أنهم قضوا عليها ، ولكن ها هي ذي محكمتهم الخاصة تبعثها (٣) ونفذت أحكام الشنق واجلد علنا بدنشواي في ٢٨ يونيو سنة ١٩٠٦ ، أي بعد خمسة عشر يوما لا غير من وقوع الجريمة الأصلية .

ولم تحاول حكومة الأحرار البريطانية ، ولا كرومر وكان يعطلة في بلاده ، تأجيل الاعدام ، رغم أنهما وجدا الاحكام قاسية . فقد كان الا حساس العام أن المصريين سيعتبرون تدخل بريطانيا لانقاذ الفلاحين المدانين دليلا على ضعفها فيثيرون المزيد من المظاهرات والاضطرابات (٤) .

(١) أنشئت سنة ١٨٩٥ محكمة اصة بناء على طلب كرومر لمحكمة مصريين اتهموا بمهاجمة جنود بريطانيين بزيهم الرسمي . وحدد قانون انشاء المحكمة القضاة الخمسة . وكانت احكام المحكمة غير قابلة للاستئناف وواجبة التنفيذ فور صدورها . كان الهدف من انشاء تلك المحكمة ايقاف الهجمات على جيش الاحتلال ، وكانت قد تعددت قبل سنة ١٨٩٥ ، ونجحت في ذلك فلم يقع أى هجوم بعدها حتى سنة ١٩٠٦ .

(٢) FO, Egypt, no. 4 (1906), «Further Paper Respecting the Attack on British Officers at Denshawai» ed. 3091, bound in Parliament, Accounts and papers, CXXXVII, pp. 73-76.

(٣) FO, Egypt, no. 3 «Correspondence Respecting the Attack on British Officers at Denshawai,» ed, 3086.

من قندلاى الى جرائ ، القاهرة في ٤ يوليو ١٩٠٦ .

(٤) Grey, «Twenty-Five Years», p. 134.

كان الهدف من تنفيذ أحكام الاعدام فى دنشواى بسرعة وعلنا هو ارباب دعاة الجامعة الاسلامية واخصائهم ، وكأنها ارهاص مبكر بالدبايات فى بودابست والغارات الجوية على هانوى . أما ما حدث فعلا فهو أن تنفيذ أحكام الاعدام فى دنشواى قدم البشاعة اللازمة لاثارة حركة المقاومة للحكم البريطانى لمصر ، فحقق بذلك للحركة الوطنية أكثر مما استطاع مصطفى كامل تحقيقه خلال اثنتى عشرة سنة بالخطابة الحماسية فى كل مكان . وأحدثت رواية مصطفى كامل الاليمة للحادث فى جريدة « الفيجارو » بعنوان : « الى الامة الانجليزية والعالم المتمدنين » (١) تغيرا عنيفا واسع النطاق بين أبناء أوربا المهيثين لسوء الظن بحكم بريطانيا لمصر . كما تسبب تنفيذ أحكام الاعدام فى اثارة عداة كثيرين من المصريين كانوا قد تقبلوا الحكم البريطانى ، وهم : الفلاحون ، أو على الأقل من وصلتهم دعاية الوطنيين منهم ، والأقباط ، وكانوا حتى ذلك الحين متشككين فى دعوة مصطفى كامل للجامعة الاسلامية واخلاصه للمصالح العثمانية (٢) ، نل كذلك أيضا المسلمون ذوو العقليات الحافظة الذين لم يسبق لهم الاقتناع بأولئك « الافندية » الداعين الى الوطنية على الطريقة الأوربية (٣) .

وكما أثار العنف رد فعل غاضب فى مجتمع ضحايه ، أثار احساسا بالاثم بين المتحررين من مواطنى مقترفى هذا العنف . فسرعان ما أمسك البريطانيون المعادون للاستعمار بحادث دنشواى وكأنه عصا أخذوا يهونون بها فوق كرومر . فها هو ذا ويلفريد بلنت ، الذى سبق أن ناصر عرابى ، يستقبل مصطفى كامل لأول مرة ، ويكتب نشرة عنيفة بعنوان « بشاعات العدالة فى ظل الحكم البريطانى لمصر » ، ثم يكتب مع بعض أصدقائه بأكثر من مائتى جنيه لاصدار كتاب عن دنشواى . ووجدت آراؤه تأييدا لدى كتاب من أمثال جورج برنارد شو الذى وصف حادث دنشواى فى مقدمة مسرحيته « جزيرة جون بول الأخرى » ، كما تردد صداها فى مجلس العموم على ألسنة الوطنيين الايرلنديين والجناح المتطرف من حزب الأحرار . وتعرض سير ادوارد جراى وزير الخارجية

(١) ظهر نص المقال فى ١١ يوليو سنة ١٩٠٦ ، وأعيد نشره فى :
"L'Angleterre en Egypte," pp. 151-159.

(٢) سلامة موسى ، ص ٢٩ ، ٣١ وما بعدها . وكان أشهر الأقباط فى الحزب الوطنى محاميان مشهوران هما : مرقص حنا (١٨٧٢ - ١٩٣٤) وويصا واصف (المتوفى سنة ١٩٣١) وقد التحقا بحزب الوفد فيما بعد .

(٣) أحمد أمين ، « هياتى » ص ص ٨٧ - ٩١ .

لاستجابات عدائية عديدة حول الحكم البريطاني لمصر (١) . وكون جماعة من المتطرفين برئاسة جون م . روبرتسون « اللجنة المصرية لاستطلاع الاحوال في تلك البلاد » .

وكان حزب الاحرار لم يكده يعود الى الحكم بعد نحو عشر سنوات من الفراغ السياسى ، وكان بعض أعضائه مقتنعين بضرورة احداث تغييرات فى سياسة بريطانيا فى الداخل والخارج ، بما فى ذلك مصر . فساعدت دنشواى على وضع هؤلاء الرجال فى المقدمة . وبعد أن كان زعماء الاحرار يؤيدون بقوة سياسة الحكومة فى مصر بدأوا يترددون . وها هو ذا مصطفى كامل الذى أصبح مشهورا فجأة بعد حملته فى فرنسا على الحكم البريطانى لمصر يزور لندن فى يوليو سنة ١٩٠٦ ، ويتمكن من مقابلة رئيس الوزراء سير هنرى كامبل - بانرمان .

ويبدو أن رئيس الوزراء - وفقا لرواية مصطفى - قد عبر عن أسفه لحدث دنشواى ، وطلب مشورته بشأن قيام وزارة مصرية وطنية ، كما أكد له أن مصر ستستقل بمجسرد أن تصبح مؤهلة لاقامة حكم ذاتى برلمانى (٢) . وكانت تلك أول مرة منذ مقترحات لورد دوفرين ، تفكر فيها الحكومة البريطانية جديا فى اعداد مصر لقدر أكبر من الحكم الذاتى .

الى أى مدى كان على الاحرار أن يمشوا فى التكفير عن دنشواى ؟ فى البداية كانوا يرجون أن تهدأ ثائرة الوطنيين بانشاء وزارة مستقلة للتعليم ، تولاها سعد زغلول ، ذلك القاضى القدير الذى انقضت سنوات شبابه الثورى منذ زمن بعيد ، وأصبح الآن يتمتع برضى كل من الوطنيين وكرومر ، وان لم يرض الخديو عنه (٣) . غير أن المصريين

(١) بصفة خاصة من العضو الأيرلندى جون ديون
Hansard, 4th Series, House
of Commons, CLVII, 1366f, CLIX, 361, 956; III 11133 - 1135;
1411 - 1414.

(٢) « L'Angleterre en Egypte », pp. 172 - 174 . ورغم ذلك فيبدو أنه من غير اللائق أن يتجاهل رئيس الوزراء البريطانى ممثله فى القاهرة باستقبال زعيم وطنى . ولما كان هذا اللقاء لم يذكر فى أى مصدر آخر فمن المحتمل أن تكون القصة كلها محض خيال .

(٣) عن رأى الوطنيين فى سعد زغلول انظر : Blunt « My Diaries », p. 577
عبد الرحمن الرفعى : ص ٤٠٤ ، وعن رأى كرومر انظر : FO 800 (Yrey Papers),
vol. 45 ، من كرومر الى جراى ، القاهرة فى ٢٦ أكتوبر ١٩٠٦ . وكذلك خص كرومر
«سعدا» بالثناء فى الحضية التى ألقاها فى حفل توديعه ، وتلبأ بأنه «سيحق تقدما كبيرا» =

اعتبروا تعيين سعد زغلول مجرد بشير باصلاحات تالية ، وربما انهاء الاحتلال البريطاني فقفز كثيرون ممن لا شأن لهم الى عربة الوطنيين ، ليتأكدوا من وجودهم في الجانب الرابع . وتطلبت سياسة التهذية الجديدة تنازلات أكبر . وحتى الخديو حينما بدأ يتقرب من الوطنيين كان كرومر هو كبش الفداء .

وفي خريف سنة ١٩٠٦ أنهى عباس خلافاته مع الوطنيين على أمل أن يستطيع الانتقام من كرومر ، ولكي يكون في الجانب الرابع في حالة رحيل البريطانيين ، وليبعد الوطنيين عن الاتجاه العربي (أي المعادي للخديو) . أما بالنسبة للوطنيين فقد كانت رعاية القصر لهم مثلاً يحتذيه الوزراء ، وكبار موظفي الحكومة والأعيان ، كما توفر لهم الدعم المالي اللازم لاتساع نشاطهم السياسي والصحفي ، وبصفة خاصة اصدار طبعتين انجليزية وفرنسية من « اللواء » ، وكان مصطفى قد أعلن بالفعل أن هذه هي وسيلته لتغيير الرأي العام الأوروبي (١) .

وكان طبيب القصر الدكتور صادق رمضان صديق مصطفى هو وسيط الصلح (٢) . والتقى الخديو بمصطفى سرا في مسجد قريب من قصره الصيفي ، واتفق معه ومع كبار أنصاره على فتح باب الحزب الرطني (الذي بدأ منذ عشر سنوات كجمعية سرية برئاسة عباس) للعضوية العامة ، وتكوين مؤسسة رأسمالها ٢٠.٠٠٠ جنيه للانفاق على صنف الحزب اليومية : « اللواء » العربية «The Egyptian Standard» الانجليزية ، «L'Etendard Egyptien» الفرنسية ، على أن يقدم الجانب الأكبر من هذا المبلغ الخديو ، والأمراء والأعيان الأثرياء بوحى منه (٣) . وطوال العام التالي ظل الخديو على اتصاله السري بالوطنيين ، ولكن موقفه العام

= وقد فعل . وكان الخديو يكره سعدا لأنه زوج كريمة رئيس وزرائه مصطفى فهمي الناصر للبريطانيين وفي الوقت نفسه صنيعته في السياسة . انظر أيضا : أحمد شفيق : ج ٢ ، مجلد ٢ ، ص ١٠٢ .

(١) Louis Bouvat : «La presse égyptienne», Revue de Monde Musulman, I, 2, December 1906, p. 280, citing al-Liwa, 5; 23; and 30 August 1906

(٢) مذكرات محمد فريد ، ص ١ ، أحمد شفيق : ج ٢ ، مجلد ٢ ، ص ص ١٠١-١٠٣

(٣) مذكرات محمد فريد : ص ٢ ، أحمد شفيق : ج ٢ ، مجلد ٢ ، ص ١٠٣ ،

وكان من بين المكتتبين الأميران جميل طوسون وأحمد مدحت يكن من الأسرة الخديوية ، وعمر سلطان (المتوفى سنة ١٩١٧) ، ومحمد فريد الذي دفع ٥٠٠ جنيه ، ومصطفى كامل الذي دفع ألف جنيه ، لعل الخديو هو الذي أمده بها .

كان محيرا • ففي حديث أجرته معه جريدة «Le Temps» الفرنسية تبني أهداف الوطنيين ، ولكنه غضب حين استشهد مصطفى به (١) • وأتبع ذلك ، ربما استجابة لضغط بريطاني (٢) بالأدلاء بحديث مناقض لادوارد ديسي محرر « الديلي تلجراف » «The Daily Telegraph» إنجليزية ، أنني فيه على الحكم البريطاني (٣) • فلم يكن من السهل أبدا على حاكم مصرى أن يشق لنفسه طريقا آمنا بين الوطنية والواقعية •

وأضعف حادث دنشواى مركز كرومر باعتباره قنصلا عاما ، فقد تلتها هجمات على سياسته فى الصحافة الأوربية الحرة وفى مجلس العموم ، وترددت شائعات عن تغيير قادم فى سياسة حكومته فى مصر ، كما أزعجته كثيرا المعارضة المحلية ونموها ورعاية الخديو السافرة للوطنيين (٤) ، وقد تمثلت فى تعمد التغييب لأول مرة خلال ثلاث سنوات عن حضور الاستعراض السنوى للقوات البريطانية فى القاهرة (٥) • وقد عبرت الجمعية العمومية فى جلسة فبراير سنة ١٩٠٧ عن الروح الجديدة للمعارضة الداخلية لكرومر حين قررت قيام دستور ، والإفراج عن مسجونى دنشواى ، وانهاء تراخيص الشركات الأجنبية (٦) • وبدأت المدارس المصرية الثانوية والعالية تتظاهر مطالبة بجلاء القوات البريطانية وتكوين حكومة برلمانية (٧) •

وتحطمت صحة كرومر ، وتخلي عنه معظم من ناصروه من قبل ، فاذا به يعلن فى إبريل اعتزاله ويوصى - بضيق على الأرجح (٨) - بأن يخلفه الدون جورست ، وكانت له خبرة إدارية كبيرة فى مصر وعلاقات شخصية حميمة بالخديو والعديد من رعاياه • وكان المفروض أنه ، على عكس كرومر ، يؤيد السياسة البريطانية لتحرير مصر ، ولهذا فقد

(١) Alexander, p. 106 أحمد شفيق : ج ٢ ، مجلد ٢ ، ص ١١٣ وما بعدها •

(٢) Blunt, « My Diaries » : p.581

(٣) Alexander, p. 107 أحمد شفيق ، ج ٢ ، مجلد ٢ ص ١١٥ وما بعدها •

(٤) FO 800/45 من كرومر الى جراى ، القاهرة فى ١ و ٧ ديسمبر ١٩٠٦ ،

٢١ مارس ١٩٠٧ ، أحمد شفيق : ج ٢ ، مجلد ٢ ، ص ١٠٣ ، ١٠٦ ،
«The Times», London, 27 November 1906.

(٥) عبد الرحمن الرفعى : ص ١٨٢ وما بعدها ، Blunt : p. 577

(٦) Alexander : p. 91

(٧) Ibid., p. 56

(٨) Clara Boyle : «A Servant of the Empire», London, Methuen, 1938, p. 103, Blunt, P 501f.

رضى به حتى بلنت والوطنيون (١) .

وألقى كرومر خطبة الوداع بدار الأوبرا بالقاهرة فى مايو ١٩٠٧ ،
حذر فيها الخديو من التواطؤ مع أعداء بريطانيا ، وزعم أن جوهر
سياسته مستمر ، ثم وجه عدة لكلمات أخيرة للوطنية المصرية : « وانى
لأدعو أن تلقى كل هذه الحركة المثيرة المصطنعة التى تطالب بتطور سريع
فى المؤسسات النيابية المعاملة التى تستحقها ، واسمحوا لى أياها السادة أن
أضيفت بأنها لا تساوى الا أقل القليل » (٢)

وفى اليوم التالى اتخذ كرومر طريقه نحو محطة القاهرة وسط
شوارع صامتة تحيط بها القوات البريطانية ، ولم ير مصر بعد ذلك أبداً .

(١) Blunt : pp. 566 - 578

(٢) Alexander : p. 97f.

سياسة جورست فى اتجاه الوفاق ونشأة الأحزاب المصرية

لم يواصل « سير الدون جورست » المندوب البريطانى الجديد سياسة كرومر ، بل شرع يطبق برنامجا ، أقرته حكومة بلاده ، ان لم تكن هى التى وضعت ، يهدف الى تحقيق الحكم الذاتى فعلا . غير أن بريطانيا لم تر تسليم زمام السلطة لمصطفى كامل . فاذا كان عنف كرومر ودنشواى قد وحد بين القصر وكل درجات الرأى المحلى المستنير فى تحالف وطنى غير طبيعى ، فان جورست كان يهدف بتصرفات أرق ، وسياسة الوفاق بصفة خاصة ، الى ضم الخديو الى جانبه ، فاستطاع بذلك أن يفرق بين تلك الفئات المتنافرة ، وكانت قد بدأت تتخذ شكل أحزاب سياسية .

واذا كان جورست لم يوجد تلك الخلافات فى كيان السياسة المصرية ، فانه من ناحية أخرى لم يقف فى طريق نموها . لقد تنبه البريطانيون الى أن المصريين ليسوا جميعا اما خديويين واما وطنيين . وبأمل تكوين جماعة توازن هاتين المجموعتين شجع كرومر حركة معتدلة مكونة من أنصار المرحوم محمد عبده المصلح الاسلامى العظيم . وخلال تنفيذه لتلك السياسة رشح كرومر سعد زغلول وزيرا للمعارف ، وكان لايزال معتدلا وقتها .

هل شجع كرومر أولئك المعتدلين على تكوين حزب الأمة ؟ هذه مسألة مازالت قابلة للجدل ، اذ نفاها المشاركون فى حزب الأمة ، فى حين قبلها معظم الكتاب الآخرين (١) . وكغيره من التجمعات

(١) انظر على سبيل المثال Adam, p. 192f; Lloyd; I; p. 50 ، أحمد شفيق .

ج ٢ ، مجلد ٢ ، ص ١١٩

السياسية المصرية في الفترة السابقة على الحرب العالمية الأولى بدأ حزب الأمة بجريدة • فموقف المشرفين على تحرير « اللواء » و « المؤيد » في مناصرة الأتراك أثناء حادثة « طابة » (١) أزعج مجموعة من الأثرياء المصريين المتعلمين ، فقرروا إصدار صحيفة معتدلة اتجاهاها مصرى خالص وأسموها « الجريدة » (٢) • واختاروا لرئاسة تحريرها أحمد لطفى السيد ، وكان قد اختير من قبل متحدثا باسم الخديو والوطنيين •

بدأ صدور « الجريدة » في مارس ١٩٠٧ ، واختطت الجريدة اليومية الجديدة سياسة مصرية خالصة ، بعيدة عن الاتجاه العثماني والجامعة الإسلامية اللذين كان يروج لهما الوطنيون ، فاعتبرها هؤلاء معادية للأتراك مؤيدة للبريطانيين (٣) • والواقع أن « الجريدة » لم تؤيد البريطانيين بصورة مطلقة ، كل ما في الأمر أنها أكدت الرأي القائل بأن مصر ينبغي أن تنال استقلالها تدريجيا حين تصبح قادرة على تولي الحكم الذاتي ، ولتحقيق هذه الغاية طالبت بالتوسع في التعليم على كل المستويات ، وعلى رأسها جامعة أهلية •

ورغم أن مصطفى كامل اعتبر هذه الحركة الجديدة انقساما ، فان خلافاتها الحقيقية مع الوطنيين كانت مركزة حول الوسائل أكثر من الأهداف • وكان المبدأ الرئيسي للجريدة هو معارضة السلطة المطلقة للخديو ، لا الوطنية المصرية • وكان لطفى يؤمن بليبرالية القرن التاسع عشر أكثر من مصطفى نفسه ، ويدافع عن الحرية الشخصية ضد تسلط الحكومة (٤) ، ويرى أن الحكومة النيابية تمثل الضمان ضد كل أشكال استبداد السلطة ، وليست مجرد وسيلة للقضاء على نفوذ بريطانيا في مصر • ومع أن لطفى كان يأخذ على مصطفى تطرفه

(١) أحمد لطفى السيد : « قصة حياتي » ، ص ٤٣ وما بعدها ، محمد حسين هيكل « مذكرات » ، ج ١ ، ص ٢٦ وما بعدها •

(٢) « قصة حياتي » : ص ٤٦ وما بعدها ، وكان رئيس شركة « الجريدة » محمود سليمان ، ونائبه حسن عبد الرازق أحد ملاك الأراضي بالمنيا ، وكان صديقا حميما لأحمد عبده ومن زملاء مصطفى كامل المبكرين ، ومن حملة أسسهما : فتحي زغلول (شقيق سعد) ، وأحمد عفيفي ، وعبد الخالق ثروت •

(٣) لنماذج تمثل آراء لطفى السيد في الجامعة الإسلامية انظر :

J. M. Ahmed : « The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism » , London; Oxford University Press; 1960; pp. 61-69.

Albert Hourani : « Arabic Thought in the Liberal Age » , London, (٤) Oxford University Press, 1962, p. 173f.

واستعداده للاستعانة بأى عون خارجي لتحرير مصر ، فقد كان معجبا
بغيرته الوطنية ودعوته الى الوحدة القومية (١) . وبعد وفاة مصطفى
المفاجئة سنة ١٩٠٨ ، كان لطفى أول من اقترح الاكتتاب قوميا لاقامة
تمثال للزعيم الوطنى (٢) .

وأخذت حملات الدعاية الصاخبة الصادرة من « اللواء »
و « المؤيد » تزيد من قلق المعتدلين الذين أيدوا « الجريدة » ، وخشى من
يشغلون مناصب حكومية منهم ، وعلى رأسهم سعد زغلول ، أن يكون
الخديو يدبر تنحيتهم ارضاء للوطنيين (٣) . ولم يلبث البريطانيون
أنفسهم أن انضموا الى خصومهم فى تجريح المعتدلين . فقد أغضبهم
كرومر فى تقريره عن سنة ١٩٠٦ ثم فى خطبة وداعه بعد ذلك ، حين
تساءل عن مدى استعداد مصر لحكم نفسها ، وان وجه الجانب الاكبر من
هجومه الى الوطنيين الأكثر تطرفا (٤) .

وقد شك المعتدلون فى جورست منذ تولى القنصلية بسبب
سياسته فى ترضية الخديو بهدف عزله عن الوطنيين . وأحس أنصار
« الجريدة » أن ارضاء حاكم مستبد مكبوت كعباس لايتفق مع ما تدعيه
بريطانيا من اعداد المصريين لحكم أنفسهم .

ويبدو أن الاحساس بالحاجة الى قيام تنظيم أكثر تماسكا فى
مواجهة البريطانيين والقصر والوطنيين هو الذى دعا أولئك المعتدلين الى
تكوين حزب الأمة فى سبتمبر سنة ١٩٠٧ . وتبنوا برنامجا يدعو الى
تعميم التعليم الابتدائى المجانى وجعله اجباريا ، وزيادة سلطات المجالس
التشريعية والاقليمية للاعداد التدريجى لمجلس تشريعى منتخب ، وبذل
الجهود لتقدم الزراعة والتجارة والصناعة . وأكد حزب الأمة ايمانه
بالحرية ، ولكنه لم يطالب - كالوطنيين - بالجلاء الفورى للقوات
البريطانية من مصر ، أو بحكومة دستورية تقوم فجأة دون تمهيد .
كان معظم زعمائه من ملاك الاراضى ، من بينهم عدد من الشخصيات
الهامة فى تاريخ مصر الحديث مثل حسن عبد الرازق (والد كاتبين
مشهورين) ، ومحمود سليمان (والد أحد رؤساء الوزراء) ،

(١) « قصة حياتى » ، ص ٩٧ وما بعدها .

(٢) محمد حسين هيكل : ج ١ ، ص ٣٣ وما بعدها .

(٣) FO 800/45 من كرومر الى جراى ، القاهرة فى ٣٠ مارس ١٩٠٧

(٤) Ahmed, p. 71f. ، وان كانت تواريخه غير دقيقة .

وعلي شعراوي ، وأحمد فتحي زغلول ، وسينوت حنا ، وعبد الخالق ثروت ، وطلعت حرب الذي سيصبح فيما بعد « رائد استقلال مصر الاقتصادي » . أما سعد زغلول « رائد استقلال مصر السياسي » فالمرجح أنه كان عضوا سريا (١) . (*) وكان كثيرون من ملاك الأراضي في مصر يخشون أن يتحول تطرف الحزب الوطني السياسي بما يتمتع به من شعبية كبيرة الى تطرف اقتصادي واجتماعي ، وهو ما لم يتحقق في حياة مصطفى كامل ، ولعل معارضتهم للسراي كانت ترجع الى منافستهم الاقتصادية للخديو أكبر ملاك الأرض في مصر .

وإذا كان حزب الأمة لم يول الخديو ثقته الكاملة ، فمن الصحيح أيضا أن الخديو والمحيطين به لم يكونوا يولون ثقتهم الكاملة لجماعات لا يستطيعون السيطرة عليها . فرغم معاونته المالية للطبعتين الانجليزية والفرنسية من « اللواء » كان عباس يخشى شعبية الوطنيين . فاذا كانت غالبية المصريين قد أصبحوا ساخطين على الأوضاع القائمة ، فثمت خطر دائم من أن ينقلب « الرأي العام » الذي يزعم مصطفى أنه يعبر عنه ضد الخديو نفسه ، كما حدث في الحركة الوطنية الأولى بزعامة عرابي . وقد استغل هذا الخوف كل من كرومر وجورست ، وحقق الأخير نجاحا أكبر بسياسته القائمة على الوفاق .

ولذلك بدأ الخديو يكون اتباعه الخاصين معتمدا في ذلك على المحيطين به ، واتصالاته الأجنبية ، وبعض الصحفيين المخلصين ، من أهمهم حافظ عوض ، وهو كاتب شاب موهوب آثر أن يستلهم وحي السراي بدلا من مصطفى كامل (٢) . وكان عوض - لا مصطفى - هو

(١) أحمد شفيق : ح ٢ ، مجلد ، ص ١٢٩

(٢) أحمد حافظ عوض (١٨٧٧ - ١٩٠٥) ، بدأحياته السياسية بالاشتراك مع مصطفى كامل في مظاهرة لتأييد الخديو سنة ١٨٩٨ . وأصبح بعد ذلك رئيس تحرير «الموسوعة» مجلة محمد فريد نصف الشهرية ، وتوثقت علاقاته السياسية بالشيخ علي يوسف رئيس تحرير « المؤيد » جريدة الخديو اليومية . ونشر عوض مذكراته بجريدته اليومية « كوكب الشرق » في يوليو ١٩٢٧ .

(*) من الطريف الذي يستوقف النظر أن الأستاذ محمد كامل سليم سكرتير سعد زغلول أبان إقامته في أوروبا على رأس أعضاء الوفد عقب الإفراج عنه من مألظة ، قد أثبت على لسان سعد هجوما على زملائه أعضاء الوفد ، وكان يصفهم بأنهم جميعا أعضاء سابقون في حزب الأمة ، باعتبار أن هذا الوصف منقصة لهم ودليل على ضعف وطنيتهم ومسالمتهم للانجليز ، فهل يمكن أن يتفق ذلك مع عضوية سعد نفسه في هذا الحزب ، أم أن تقلبات السياسة تجبر الإنسان أن يغير أفكاره كما يغير ملبسه ، وينسى ما كان يرتديه أمس .

الذى مثل الخديو فى استقبال جون م . روبرتسون رئيس اللجنة المصرية فى مجلس العموم البريطانى التى تكونت عقب حادثة دنشواى ، حينما قدم الى مصر سنة ١٩٠٧ على رأس بعثة استطلاع . وفى ذاك الصيف سافر عوض الى لندن على نفقة الخديو ، وبينما كان يؤيد الوطنيين (١) علنا اذا به يخفف من مطالبتهم بالجلء الناجز للقوات البريطانية من مصر (٢) . وثار مصطفى كامل لما اعتبره خداعا من جانب الخديو (٣) . وما اعتقده الوطنيون عن أن « عباس » يستخدم « عوض » ليقلل من شأن « مصطفى » فى أوربا ، يبدو أنه كان صحيحا . فالخديو لم يكن يثق فى أى مصرى يتحول الى شخصية عامة مستقلة عنه ، ولعله شك أيضا فى أن وطنية مصطفى العنيدة من الممكن أن تكسب تأييدا أوربيا كبيرا . وقد وصف عوض نفسه مصطفى بأنه قدير وشريف ووطنى ، ولكنه فى الوقت نفسه مغرور لا يحتمل المنافسة ، ويصر على أن يعتبر الزعيم الوطنى الأوحده (٤) . وكانت استجابة مصطفى الغاضبة لتحدى عوض أشبه باستجابة العاشق الغيور ، فلم يحتمل مطالبة رجل غيره أن يتحدث باسم مصر .

وبتشجيع من لجنة التحقيق فى مصر (٥) ، وربما من جورست أيضا (٦) ، مضت حاشية الخديو . تكون جماعتها السياسية الخاصة : « حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية » . واذا كان الخديو لم يبتز كل علاقاته بمصطفى ، فقد حظيت هذه الجماعة الجديدة بتشجيع الخديو (٧) ، وهى التى انتوت خوض الصراع مع كل من حزب الأمة

(١) Blunt : p. 592, Alexander : p. 126

(٢) من مصطفى كامل الى صادق رمضان . نيوهاوزن (سويسرا) فى ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ . وأنا مدين بالشكر للنقيب بالاستيداع جعفر صادق رمضان من مصر الجديدة لسماعه لى بالافادة من مراسلات جده وغيرها من الأوراق .

(٣) التقى ب . ل . موسلى B. L. Mosely وهو قاض انجليزى بالمحاكم الأهليه بمصطفى كامل عقب مادية أقامها عوض ببافيس فى يوليو ١٩٠٧ ، وكان مصطفى غاضبا لأنه لم يستشر قبل إقامة المادية ، وحذر موسلى قائلا انه يستطيع بكلمة واحدة هدم كل ما حققه عوض . (Alexander, p. 116)

(٤) Blunt, p. 592

(٥) أحمد شفيق : ج ٢ ، مجلد ٢ ، ص ١٣٠ .

(٥) Adam : "L'Angleterre en Egypte", p. 1889. : ينقل نص رسالة من

مصطفى بتاريخ ٥ يونيو ١٩٠٧ .

(٧) أحمد شفيق : ج ٢ ، مجلد ٢ ، ص ١٢٨ .

الحزب الوطنى المصرى - ١٢٩

والوطنيين . وكان رئيسها والناطق بلسانها هو الشيخ علي يوسف ، وكان معظم أعضائها القليلين من موظفي السراى والحكومة . ونشرت الجماعة برنامجا لا يكاد يختلف عن برنامج الوطنيين الا فى تأكيده لسلطة الخديو ، ورغم ذلك فقد هاجمه الوطنيون بعنف . وسرعان ما انهار « حزب الاصلاح على المبادئ الدستورية » ، وتحول الى عرض يضطلع ببطولته ويخرجه ممثل فرد ، هو علي يوسف ، ولم يعد دستوريا ولا مشغولا بالاصلاح أكثر من الخديو نفسه (١) .

وفى سنة ١٩٠٧ كان الحزب الوطنى ، على عكس بقية الانقسامات السياسية ، قد عاش بالفعل وجودا متصلا (٢) لأكثر من عشر سنوات ، كان فى معظمها جمعية سرية يقودها الخديو . فمنذ سنة ١٩٠٠ ومصطفى يدعو الى قيام حزب منظم ، مفتوح للعضوية العامة ، يعمل من أجل استقلال مصر (٣) ، ولكن ذلك لم يتحقق ، ربما بسبب معارضة الخديو .

ومع البعث الوطنى أثر حادثتى « طابة » و « دنشواى » شعر مصطفى أن الوقت قد حان أخيرا ، فاستخدم سيطرته على الرأى العام المصرى (وكان يؤمن به ايمانا قريبا من التصوف) ليقتراح تحويل الجمعية السرية الى حركة احتجاج تستند الى قاعدة عريضة تقضى على سلطة الحكومة فى مصر ، وتثبت للبريطانيين اعتناق غالبية المصريين للمبادئ الوطنية ، ومن ثم تقنعهم بالانسحاب . أما الخديو فكان يريد أن يظل الحزب الوطنى جمعية سرية خاضعة لسيطرته ، خوفا من تضخمها وتحولها الى ثورة شعبية كما حدث عام ١٨٨٢/٨١ . وخلال لقاءاته السرية مع الوطنيين سنة ١٩٠٦ وافق على فتح باب الحزب للعضوية العلنية ، ولكن بشرط أن يعاد تشكيله ، اذا اقتضت الضرورة فى شكل جمعية سرية تضم أخلص الوطنيين وحدهم (٤) .

وما يدل على رغبة مصطفى فى العمل على نطاق أوسع أنه لم

(١) Alexander : p. 128f ، أحمد شفيق : ج ٢ ، مجلد ٢ ، ص ١٢٨

وما بعدها

(٢) اشارات المصريين والأجانب الى اتباع مصطفى « بالحزب الوطنى » ترجع الى سنة ١٨٩٦ على أقل تقدير . (عبد الرحمن الرافعى : ص ٢٥٥) .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٥٥ وما بعدها ، حيث يستشهد « باللواء » فى ٢ يوليو ١٩٠٠ .

(٤) مذكرات محمد فريد - ص ١ .

يسارع بتنظيم الحزب الوطنى فى مصر ، بل جعل الأولوية المطلقة للعمل فى الخارج ، لعزل كرومر أولا ، ثم لاقناع البريطانيين بمغادرة مصر . ولتحقيق هاتين الغايتين أصدر صحيفتيه الانجليزية والفرنسية . غير أنه فى سنة ١٩٠٧ اضطرته صحته المتدهورة الى تدبر الحاجة الى تنظيم مستمر يمكن أن يواصل عمله فى حالة وفاته ، كما وجد نفسه مضطرا الى القيام بعمل لمواجهة قيام حزب الأمة بأعضائه ذوى المكانة وبرنامجهم المعتدل ، وسياسة جورست القائمة على الوفاق التى جذبت الخديو بهيда عن الوطنيين ، وما اعتبره تأمرا من جانب السراى حين استخدمت حافظ عوض للتقليل من نفوذه فى أوروبا .

وعند عودته من حملته الأوروبية ، التى سيتضح فيما بعد أنها الأخيرة ، خطب مصطفى فى حشد هائل بالاسكندرية فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ ، وأعلن قيام الحزب الوطنى ، وأن هدفه الرئيسى هو تحقيق جلاء القوات البريطانية عن مصر ، وأن الحزب سيعتمد فى عمله على الاقناع لا الثورة ولا التعصب ، ولا القوى الأجنبية ، وقال :

« اننا نعلن للملا كلة أن الحزب الوطنى مستقل عن كل الدول والحكومات ، والملوك ، والأمراء » (١) ، وسجل أن « الامم لا تنهض الا بنفسها ولا تسترد استقلالها الا بمجهوداتها » ، ودعا مستمعيه الى ضم الصفوف والعمل بجد وهمة « . . لتثبتوا للأعداء والأصدقاء أننا أحق الامم بالدستور والاستقلال » (٢)

وبعد خطبته اضطر مصطفى الى اختصار نشاطه بسبب اشتداد المرض عليه ، ولكن أتباعه بدءوا يعدون لاول جمعية عمومية (مؤتمر) للحزب الوطنى . وعقد هذا الاجتماع فى ٢٧ ديسمبر بمقر جريدة « اللواء » ، وحضره أكثر من ألف مصرى ، معظمهم - وليسوا جميعا - من المهنيين من أبناء المدينة ، وانتخبوا مصطفى كامل رئيسا للحزب مدى الحياة . وناقشوا اللوائح الداخلية وأقروها ، واختاروا من بينهم ثلاثين ليقوموا بعمل اللجنة الادارية (٣) . ويبدو أن الحزب الوطنى احتذى

(١) عبد الرحمن الرافعى : ص ٤٩٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٦٧ ، ٤٩٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٦٠ وما بعدها ، وقليلون من أعضاء الحزب هم الذين

قاموا بأدوار بارزة فى نشاط الحزب الصحفى والسياسى ، وبعضهم الآخر يكادون يكونون غير معروفين بحيث لا يسعنى الا أن أتصور أنهم كانوا المولدين الرئيسيين ، أو شخصيات اجتماعية بارزة ترى أن المشاركة فى السياسة العملية أمر لا يليق بكرامتهم .

فى تكوينه - لا فى عمله - نموذج بعض الاحزاب ذات الشعبية الكبيرة فى الجمهورية الفرنسية الثالثة . فقد كان لجميع أعضائه حق حضور الجمعية العمومية السنوية بالقاهرة ، وهم الذين ينتخبون الرئيس واللجنة الادارية ، ويصوتون على ميزانية الحزب ونشاطه ، ويناقشون الاقتراحات المفيدة للبلاد . أما اللجنة الادارية فتعمل كمجلس للمديرين ، تجتمع مرة كل شهر على الأقل ، وتنتخب بقية ادارى الحزب ، كما تختار من بين أعضائها اللجنة التنفيذية التى تجتمع مرة كل أسبوع على الأقل لتنفيذ قرارات اللجنة الادارية .

الى أى حد كان الحزب الوطنى استجابة لرغبات أعضائه ؟ لقد ظل أكثر من عشر سنوات جمعية سرية قبل أن يظهر الى الوجود فجأة كاتحاد عام ضخيم ، لذلك فلم يكن مما يدعو للدهشة أن يكون أسلوب عمله التطبيقى أقل ديمقراطية من أسلوبه النظرى . فقد شغل أصدقاء مصطفى المقربون معظم المناصب الادارية : محمد فريد - الوكيل الاول ، فؤاد سليم - السكرتير ، عمر سلطان - أمين الصندوق . وفى البداية كانت اللجان المختلفة تعمل بعناية تامة ، وتنشر تقاريرها فى « اللواء » . ويبدو من هذه التقارير أن الأعضاء لم يكونوا يناقشون شؤون الحزب وحدها ، بل كذلك موضوعات أكثر عمومية ، كالتعليم والمؤسسات النيابية (١) . ولكن قيادة الحزب اضطرت فيما بعد ، بالرغم من مطالبتها بحكومة برلمانية ، الى استخدام اجراءات أبعد ما تكون عن الديمقراطية لتستطيع مواجهة الانقسامات الداخلية والمعارضة الخارجية ، وبصفة خاصة بعد وفاة مصطفى كامل وتباعد الخديو . ولم يتقدم الحزب الوطنى بمرشحين لعضوية الاجهزة النيابية القائمة ، ولكنه ظل بعض الوقت يزود الشباب المصرى من الطبقتين العليا والوسطى بالتدريب الأساسى فى فنون التوعية والادارة والجدل ، وغير ذلك من أشكال المشاركة فى العمل السياسى .

(١) أنظر على سبيل المثال : « اللواء » فى ٤ يناير و ٩ فبراير سنة ١٩٠٨

وفاة مصطفى كامل

كان الحزب الوطني لا يزال فى مرحلة الطفولة حين تلقى الصدمة التى كادت تودى به ، والتى لا شك عوقت تقدمه . فبعد أن ظل زعيمه يعانى من سل الأمعاء عدة سنوات توفى فى ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ . كان مصطفى يتجاهل أوامر الأطباء ويواصل حملاته الخطابية فى أوروبا خلال عامى ١٩٠٦ و ١٩٠٧ ، فكان كمن يحرق نفسه شهيدا على مذبح الوطنية المصرية . (١) بعض الكتاب يعتقدون أن البريطانيين سمموه (٢) ولكن هذا غير معقول . ورغم أن المصريين يميلون الى رد كل وفاة مفاجئة الى عملية تسميم (٣) ، فمن الصعب أن نصدق أن أنصار مصطفى كامل قد عجزوا عن اذاعة خبر مثل هذا العمل الشائن ، لو أنهم اعتقدوا بصدقه ، ليحدثوا به أثرا أقوى من دنشواى ذاتها فى حشد الامة كلها وراءهم .

(١) قد تغرى وفاة مصطفى كامل بتفسيرها سيكولوجيا ، فكارل ميننجر يقول فى كتابه « الانسان ضد نفسه » : « ان السل ليس فى نهاية الأمر سوى وسيلة كريهة يدمر بها الانسان نفسه ببطء ومساوية ، وفى أغلب الأحوال ، مع قدر معقول من الراحة ، والغذاء الجيد ، والهدوء والسكينة ، ودموع العطف من الجميع . وكذلك فغالبا ما يصاب به الذين تبدو حاجتهم الى الحب ملحة » .

Karl Menninger : «A Man against Himself», New York, Harcourt, Barèe, and Co. 1938, p. 395

وقدم طاهر الطنحاحى وصفا متخيلا لوفاة مصطفى كامل فى مقال « غروب » : « الهلال » ، مجلد ١٠٦ ، عدد ٢ ، فبراير ١٩٤٨ ، ص ص ٦٩ - ٧٦ .

(٢) Adam : p. 182 ، محمد على غريب : « محمد فريد ، الفدائي الأول » ، القاهرة ، المكتبة العلمية ، ١٩٥٨ ، ص ١٠ .

(٣) فى العصر الحديث اعتقد شعبيا - لا رسميا - أن الحديو توفيق وحسن صبرى توفيا مسمومين .

George Kirk : «The Middle East in the War», London, Oxford University Press, 1952, p. 196n.

أحدثت وفاة مصطفى كامل تأثيرا رهيبا في نفوس المصريين من جميع الطبقات . وكانت جنازته مناسبة للتعبير عن حزن عام لم تعرف مصر له نظيرا في تاريخها الحديث . فسارت خلف نعشه الآلاف المؤلفة (١) ، وأرسلوا الخطابات والبرقيات لشقيقه على (٢) . وتنافس كبار شعراء العصر في رثاء مصطفى . وحتى الكثيرون من معارضيه ، كلطفى السيد وقاسم أمين ، حزنوا لوفاته . وكان سعد زغلول من القليلين الذين لم يحزنوا لانه سيرث بصفة نهائية مكانة مصطفى كزعيم مصر الوطنى (٣) أما من وجهة نظر البريطانيين فقد كانت مظاهرات الحزن التى شملت المحامين والصحفيين والموظفين وتلاميذ المدارس (الذين تركوا مدارسهم دون اذن للسير فى موكب الجنازة) دليلا لا يدحض على شعبيه الحزب الوطنى (٤) رغم ما لاحظته جورست من أن الفلاحين الذين اشتركوا فيها كانوا قلة ضئيلة . (٥)

ومنذ سنة ١٩٠٨ لم يسمح الشعب المصرى لذكرى مصطفى كامل أن تذبل أو تتلوث . وأصبحت حياته موضوعا لعدد من الكتب والمقالات والقصائد والمسرحيات ، بل لفيلم سينمائى أيضا . وجرى اكتتاب عام للانفاق على صنع تمثال له ، نحتته مثال فرنسى مشهور . وضع أولا فى المدرسة التى تحمل اسمه ثم نقل بعد ذلك الى أحد الميادين الرئيسية بالقاهرة . وفى سنة ١٩٥٣ نقل جثمانه الى ضريح خاص ، أضافت اليه الحكومة فيما بعد متحفا يضم مخلفات جهاده ، وزين بنقوش حائطية

(١) تراوحت تقديرات عدد من اشتركوا فيها فعلا بين ١٠٠٠٠ (Zylfe : p. 164) و ٦٠٠٠٠ و Blunt : p. 60 و ٧٠٠٠٠ (Gervais-Courtellemont in Le Figaro, 12 February 1908) و ٢٥٠٠٠٠ (عبد الرحمن الرافعى ، ص ٢٦٩ وما بعدها) و ٥٠٠٠٠٠ (من على فهمى كامل الى جولييت آدم ، القاهرة فى ٢٧ فبراير ١٩٠٨ فى Letters : p. 312)
(٢) فى حالة يقظة غير متوقعة لموهبة احصائية نادرة قرر « على » أنه تلقى ١٣٣٣٤ برقية تعزية و ٨٤٣٠ رسالة . (المصدر السابق)

(٣) مصطفى أمين : ما هو سبب الخلاف بين سعد ومصطفى كامل ؟ ، « الأخبار » ، ١٦ سبتمبر ١٩٦٤ . ويزعم مصطفى أمين أن الخديو هو الذى زرع بذور الخصومة المتبادلة بينهما ، ولكن الأرجح أن سعدا قد أسخطه هجوم مصطفى على عرابى ، وعلى تصرفاته وهو وزير للمعارف . وينقل رشيد رضا عن سعد اعتقاده أن مصطفى كان مجنونا . (« تاريخ الأستاذ الامام » : ج ١ ، ص ٥٩٣)

(٤) FO/633/14 ، من جورست الى كرومر ، القاهرة فى اول مارس سنة ١٩٠٨ .

(٥) FO/371/449 ، من جورست الى جراى ، القاهرة فى ١٦ فبراير سنة ١٩٠٨ . وانظر أيضا Zylfe : p. 146

ومختارات من خطبة • وقرر كل من نجيب وعبد الناصر أن قراءة كتابات مصطفى كامل قد أثرت بعمق في آرائهما السياسية (١) •

لماذا حزن مثل هذا العدد الكبير من المصريين على مصطفى كامل وقدسوا ذكره ، لم يشذ حتى من لم يعتنقوا آراءه ؟ • مع انه لم يكن لديه الا القليل ليقدمه من أجل أيديولوجية متكاملة أو برنامج للإصلاح الاجتماعي والاقتصادي • ولم يذكر الفلاح المصري في مبادئ الحزب الوطني العشرة التي أعلنت سنة ١٩٠٧ ، رغم أن أربعة أخماس أهل مصر كانوا من الفلاحين • وكانت وطنيته عاطفية في الأغلب ، ويتضح ذلك من عبارته التي يستشهد بها أكثر من سواها :

« بلادي ، بلادي ! لك حبي وفؤادي ، لك حياتي ووجودي ، لك دمي ونفسي ، لك عقلي ولساني ، لك لبي وجناني ! فأنت أنت الحياة ، ولا حياة الا بك يا مصر ! » (٢) •

ان المصريين الذين تتميز ثقافتهم بالطابع الشفاهي قد يتقبلون هذه الانفجارية الوطنية العاطفية دون أن يتساءلوا عن معناها ، ولكن لا بد أن بعضهم قد تساءل لماذا اعتبر مصطفى الاسلام سنداً للشخصية الوطنية أكثر منه أسلوباً شاملاً للحياة (٣) • فإذا كان تصويره للدين تصوراً وطنياً ليبرالياً ينتمي الى القرن التاسع عشر ، فقد كان باستطاعته أن يتخلى تماماً عن ليبراليته ، كما فعل سنة ١٩٠١ ، حين هاجم قاسم أمين ، معتمداً على الضجة الشعبية التي أثارها دعوته لتحرير المرأة • (٤) ورأى نقاده أيضاً أنه خلط بين قومية مصر الإقليمية ، وهي فكرة غريبة بالنسبة لمواطنيه المسلمين وأن كانت مقبولة لدى العاطفين الاوربيين ، وبين فكرة الجامعة الاسلامية التي كان يعتنقها السلطان عبد الحميد أما مؤيدوه فقد ذهبوا الى أن تبنيه للدعوة العثمانية و الجامعة الاسلامية لم يكن الا مناورة دفاعية ، لان بريطانيا هي التي كانت تحتل مصر لا تركيا • وأيا كان الامر فقرب نهاية حياته بدأ يتخلى عن الاعتماد على القوى الخارجية ويميل الى الاعتماد على النفس ووطنيا ، فكان في ذلك قاعدة أكثر ثباتاً للحركة الوطنية •

(١) Mohammed Naguib : « Egypt's Destiny », Garden City, N. Y. Doubleday, 1955, Steward : Young Egypt, p. 184.

(٢) عبد الرحمن الرافعي : ص ٤١٦

(٣) هذه المشكلة ناقشها بتوسع « ستبات » Steppat :

كما تعرض لها كل من « أحمد » ، و « حوراني » ، و « سفيراز » Islam bei Mustafa Kamil

(٤) محمد حسين هيكل : ج ١ ، ص ٢٧ Ahmed, p. 47

أما فيما يتعلق بالوسائل التي تحقق الاستقلال ، فقد آثر مصطفى الاقناع على الثورة والعنف ، فقد كان يبغضه بحكم تكوينه المزاجي والجسماني وخبرته القانونية وذكرى فشل عرابي فيه . وقد تجنب بشكل عام الهجوم الشخصي على الافراد ، وهي سياسة عجز خلفاؤه عن مواصلةاها . كانت خصومته مع الاحتلال الانجليزى لمصر لا مع أشخاص ولو أن بريطانيا أرادت أن تلتقى بمصطفى فى منتصف الطريق وأعدت المصريين فعلا للحكم الذاتى ، لكان من المحتمل أن تحافظ الحركة الوطنية على طابعها التطورى ، ولما قامت ثورتا ١٩١٩ و ١٩٥٢ ، ولما اتخذ موقف مصر من الغرب طابع العدوان .

على أنه لا ينبغي المبالغة فى تقدير دور مصطفى كامل فى تاريخ مصر الحديث . فقد كانت أهم انجازاته تنظيم الحزب الوطنى حركة علنية معارضة للاحتلال البريطانى ، فى وقت لم يكن فيه المصريون يتوقعون أى عون أجنبى . وحتى هذا العمل كان على خلفائه أن يتموه . ومع أن شخصيته كان لها تأثير عميق على بعض الاجانب (١) وغالبية المصريين ، فقد كانت تفتقر - فيما يبدو - الى العمق والاصرار . ولعل سياسته كانت انتهازية (*) ، ولكننا لا نستطيع أن نتصور أنه كان بوسعه أن يحقق كل ما حققه عن طريق آخر . لقد بدأ نشاطه بلا ثروة موروثة ، ولا سند من أسرة أرستقراطية ، ولا منصب حكومى هام . كان مجاميا وصحافيا فى وقت لم تكن فيه مائتان المهنتان موضع تقدير فى مصر . ولولا علاقاته التى نماحها بمهارة ، وموهبته فى التعبير عن نفسه

(١) انظر على سبيل المثال :

Henry Nevinnson : « More Changes, More Chances », London, Nisbet and Co., 1925, p. 178, Bertrand : p. 190

(*) ان رأى المؤلف فى مصطفى كامل بعامة رأى ينقصه الانصاف ، وهذا هو المنظر من مؤلف ينتمى الى الغرب الذى يشهر - ضمن موروثاته الفكرية الجديدة - عداء متصلا لكل ما هو عربى وديسم ، ومنتم الى الشرق بصلة ، فهو يرمى مصطفى بأنه كان ينقصه الاصرار ، فى حين أن أعظم صفات مصطفى هى الاصرار الذى كان فى رأى بعض خصومه عنادا لا يطاق . فقد وضع امامه هدفا لم يغيره قط . أما اتهام مصطفى بالانتهازية فيبدو لونا من التجديف فلم يعدل مصطفى خصومه أو اصدقاءه تحقيقا لصلحة عابرة ، أو منفعة خاصة .

(أو الدعاية لنفسه كما قد يذهب أعداؤه) ومشاسجرات كرومر مع
الخديو ، لما استطاع مصطفى كامل أن يبعث الوطنية المصرية في الوقت
المناسب ليستغل صدى حادث دنشواي ويخلق حركة شملت الأمة كلها .
كانت أعظم خدمة أداها مصطفى لبلاده هي بعث ايمان أبناء الشعب
المصري بأنفسهم كأمة ، وكان هذا الايمان قد اختفى مع فشل الحركة
العراقية ، وهو نفس الايمان الذي سيحقق ثمرة أنضج في ثورة
سنة ١٩١٩ .

الفصل الرابع مقدم الحزب الوطنى

- الصراع على الزعامة
- الخديو والدستور
- الشيخ جاويش والأقباط
- نمو الحزب الوطنى

الصراع على الزعامة

اعتبرت وفاة مصطفى كامل منذ زمن بعيد - وبحق - أكبر كارثة لحقت بالحزب الوطني (١) . ولا يعنى هذا أن الحزب اختفى ، فقد استمر بقيادة خلفائه عدة سنوات ، كسب خلالها الانصار وكان له أثره فى السياسة المصرية ، غير أن الانقسامات الداخلية ما لبثت أن أضعفت فعاليتها . فبعد مصطفى كامل لم توجد شخصية مهيمنة ولا اجماع فى الراى بين الأعضاء على تحديد سياسة الحزب وأهدافه . لقد نشأ الحزب وكأنه امتداد لشخصية مصطفى كامل ، واستطاعت مواهبه فى الخطابة والكتابة ، وبصفة خاصة قدرته على التعبير عن آمال الطبقة المتوسطة فى مصر وآلامها ، أن تفوز بغالبية قوية بين المصريين المستنيرين سياسيا حوالى سنة ١٩٠٨ . وكان داخل الحزب شخصية قوية مهيمنة بدرجة حولت زملاءه الوطنيين أتباعا مخلصين لقيادة بدورهم . أما أولئك الذين استطاعوا بفضل شخصيتهم أو مكانتهم ، أن يكون لهم نفوذ خاص فقد انفصلوا عنه أما بسبب خلافات مبدئية أو شخصية . فالواقم يشهد أن زعماء الحزبين المنافسين قد سبق لهم التعاون معه ، وهم حسن عبدالرازق والشيخ على يوسف وتابعاهما الصحفيان لطفى السيد وحافظ عوض . كيف يمكن اختيار خلف يقوم بدور مصطفى كامل ؟ ان هذه المشكلة كثيرا ما برزت فى مجرى السياسة المصرية . فسعد زغلول بشخصيته الطاغية أبعدت كثيرين من مؤيدى الوفد الأقوياء فيما بين ثورة ١٩١٩ ومئة وفاته ، وكان خليفته مصطفى النحاس أضعف من كثيرين منهم ،

(١) انظر على سبيل المثال

Hourani : « Arabic Thought », p. 208, Alexander, p. 24, Lloyd; I; p.78

حتى لقد تحدى زعامته غير قليل من أعضاء الحزب نفسه . ولو لم يعدل عبد الناصر عن استقالته في يونيو ١٩٦٧ لكان من المرجح أن تحدث أزمة سياسية خطيرة ، ولكن بدلا من ذلك اذا بعبد الحكيم عامر ، أكبر معاونيه ونائبيه المشهور يفقد منصبه ، ثم ينتحر خوفا من السجن .

وحيثما توفي مصطفى كامل لم يكن أحد من الوطنيين مهيبا بوضوح أو مقررًا أن يخلفه . فادعى اثنان الحق في خلافته : على فهمي كامل شقيق مصطفى الأكبر ومحمد فريد أخلص رفاقه . واعتقد البعض أن مصطفى أشار بأن يتولى محمد فريد رئاسة الحزب الوطني في حين يدير « على » صحف الحزب (١) . ولكن ليس هناك دليل معاصر على أن مصطفى قد أدلى بمثل هذه الوصية . لذلك كان لا بد أن ينتخب أعضاء الحزب فريدا في جلسة خاصة ، عن طريق التصويت السري على الأرجح . إذ كان من الضروري الحفاظ على المظهر الخارجي لوحدة الحزب لضمان استمراره . غير أن مذكرات فريد تشير إلى أنه حدث خلف الكواليس صراع فعلى على السلطة ، كان من أطرافه «على» ، و «الحديو» من وراء ستار (٢) .

كانت مطالبة « على » بقيادة الحزب الوطني تستند إلى حق الوراثة جزئيا لا غير ، فرغم أن المصريين والأجانب الذين التقى بهم كاتب هذه السطور يميلون إلى رفض « على » ويعتبرونه سياسيا ومفكرا تافها ، فلا شك أنه كان على أقل تقدير يشارك شقيقه بعض مواهبه ، فقد كان كاتبًا غزيرا للمقالات كما ترجم بعض الكتب ، والسيرة التي كتبها لمصطفى بمثابة كنز من المعلومات عن المرحلة المبكرة من حياته ، وكان خطيبا متدققا (وأحيانا مملا) . (٣) وكان قد عمل - كأبيه - ضابطا بالجيش المصري ، وخفضت رتبته بسبب شغبه الوطني . (٤) وبعد استعادة

(١) من على فهمي كامل إلى جولييت آدم ، ٢٧ فبراير ١٩٠٨ (Letters : p.316)

(٢) هنا موضع يتطلب الحذر . فقد كتب فريد مذكراته بعد أن غادر مصر سنة

١٩١٢ . وفيها تصوير جانب من سوء علاقته بعلي فهمي كامل خلال السنوات الأربع التي تزعم فيها الحزب بالفاخرة . ولا يوجد مصدر مقابل يصور وجهة نظر « على » . وقد أكد لي شقيقه الأصغر حسن حسنى كامل ، في مقابلة معه سنة ١٩٦٣ ، أن « على » لم يعارض أبدا تولى فريد زعامة الحزب . ومن المؤسف أن أوراق « على » فقدت فيما يبدو .

(٣) في الاجيشان جازيت The Egyptian Gazette ، ١٦ مارس ١٩١٩ ، تعليق

طريف على إحدى خطب « على » ، أهم نقطة فيه أن « على » قد خدرته شهرة أخيه ، فأصبح اذا وقف على قدسه خطيبا لم يستطع الجلوس بعد ذلك .

(٤) انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب .

السودان استقال من وظيفته وعمل مديرا لمدرسة شقيقة . (١) وعند وفاة مصطفى كان « على » عضوا باللجنتين الادارية والتنفيذية للحزب الوطنى (٢) . (*)

واذا صح أن موقف « على » فى الصراع على زعامة الحزب الوطنى شبيه بموقف سميه فى المنافسة الاسطورية على الخلافة عقب وفاة النبى محمد ، فان موقف « فريد » فى هذه الحالة يصبح شبيها بموقف أبى بكر الصديق . ففريد كان أحد العمدة المالية التى قام عليها الحزب الوطنى . والواقع أنه الزعيم الوحيد المعروف فى الحركة الوطنية المصرية الذى لم يكن ابنا أو حفيدا لفلاح ، أو ابنا من أبناء الطبقة المتوسطة الصاعدة فى مصر ، بل كان سليل أسرة تركية أرستقراطية وثيقة الصلة بالطبقة المصرية الحاكمة . فأبوه أحمد باشا (١٨٣٦ - ١٩٠١) شغل فى الحكومة عدیدا من المناصب الهامة ، من أهمها ناظر الدائرة

(١) على فهمى كامل : ج ٩ ، ص ٩٥ ، ١٦٣ .

(٢) للمزيد من التفاصيل عن حياة « على » انظر : الزركلى ج ٥ ، ص ١٢٦ وما بعدها ، مجاهد : ج ١ ، ص ١٥٣ وما بعدها ، بالإضافة الى بعض الفصول التى كتبها فى سيرة شقيقه مصطفى . وقد صدرت عنه عدة مجلدات تذكارية أهمها اثنان : « ذكرى فريد الوطنية على فهمى كامل » للسيدة ليبة أحمد ، القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٩٢٧ ، « الوطنية فى شخص على فهمى كامل بك » لمؤلف مجهول ، القاهرة ، مطبعة النهضة ، ١٩٣٣ .

(*) الحق أن الحزب الوطنى أثبت عقب وفاة مصطفى كامل المفاجئة ، أنه كان على قدر عظيم من وحدة الكلمة والانضباط الحزبى الرائع ، فان اختيار خليفة لمصطفى كامل ، كان خليقا بأن تظهر له آثار بالغة السوء لوجود قوى شديدة الكراهية للحزب الوطنى ، عظيمة الخوف من استمراره ووحدته ونموه ، وهى الخديو والانجليز والطبقات الغنية التى يمثلها حزب الأمة . ولا شك أن هذه الجهات جميعا بذلت أقصى ما تملك لتحدث فتنة فى الحزب . تزدى الى تصدعه وتفرق كلمته وانشقاقه وقيام أكثر من حزب ولكن الذى حدث أقل بكثير من أن يستحق الوقوف أمامه وتسميته « بالصراع » . فلا أقل من أن يوجد اثنان يتنافسان على زعامة الحزب ، فإذا كان أحد هذين المتنافسين بالصدفة هو شقيق الزعيم ، وكان هذا الشقيق صاحب دور مذكور فى حياة الحزب ونشاطه ، واودى بسبب عقيدته وإيمانه بالحزب ، فان ترشيح نفسه لا يعنى فى قليل أو كثير أن الحرب تفرقت كلمته بعد وفاة الزعيم الأول . والثابت أن محمد فريد انتخب فى أول جلسة عقب وفاة مصطفى ، وأن على فهمى كامل أيدى آخر الأمر وبقي معه ، مؤيدا له ، حتى توفى محمد فريد . ولم تترك هذه الانتخابات جروحا فوق جسم الحزب ولا فى علاقات أعضائه . وإذا قورن ما حدث عقب وفاة مصطفى ، بما حدث فى كثير من الحركات ، كالحركة الشيوعية عقب وفاة لينين . لاعتبر الحزب الوطنى مثلا أعلى فى حسن التنظيم والولاء للحزب .

السنية (١) وكان أحمد فريد سياسيا أيضا فهو الذى أقنع رياض باشا بقبول رئاسة الوزراء لانتهاء الأزمة الوزارية سنة ١٨٩٣ (٢) ، وعبر بعد ذلك عن نزعتة الوطنية بتقديم استقالته احتجاجا على بيع جزء من أملاك الدائرة لشركة أجنبية (٣) . واقترب بابتنة قاضى البحار (٤) وأحد أعيان القاهرة ، وأنجب منها ولدين (٥) ، كان أكبرهما هو محمد فريد الذى تعلم فى مدارس الحكومة ، وكلية الفرير (٦) ، ومدرسة اللغات والادارية التى أصبحت فيما بعد مدرسة الحقوق الخديوية ، وبعد أن تخرج سنة ١٨٨٧ (٧) ظل يرتقى درجات الوظائف الادارية حتى وصل سنة ١٨٩٥ الى منصب وكيل النائب العام بمحكمة استئناف القاهرة (٨) . وكانت تلك وظيفة هامة بالقياس الى شاب فى السابعة والعشرين من عمره ، ونقطة انطلاق محتملة لمنصب حكومى رفيع .

-
- (١) عبد الرحمن الرافعى : « محمد فريد » ، ص ١٤٧ ، والدائرة السنية هى الاراضى التى يملكها الخديو ، وكانت مساحتها عدة آلاف من الأفدنة ، وكانت مرهونة لصالح حملة أسهم سين سنة ١٨٧٧ (Milner : p. 57f)
- (٢) صبرى أبو المجد : « محمد فريد مؤرخا ، مصر فى أعقاب الثورة العربية » ، « الهلال » ، مجلد ١٥٣ ، العدد ٣ ، مارس ١٩٦٥ ، ص ١٨ .
- (٣) صبرى أبو المجد : « محمد فريد مؤرخا » ، « الهلال » ، المجلد ١٥٣ ، العدد ١ ، يناير ١٩٦٥ ، ص ٢٧ .
- (٤) قاضى البحار هو قاضى السويس الذى يقدر الكميات التى سيعاد شحنها برا الى القاهرة .
- Stanford I. Shaw : « The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517 - 1798 » , p. 104
- ويعتقد « شو » أن قاضى البحار كان مقره القاهرة ولا ينهب الى السويس الا عند وصول البضائع . وفى القرن التاسع عشر كان المنصب قد أصبح شرفيا تقريبا .
- (٥) أصبح ابراهيم فريد الابن الآخر قاضيا بالمحاكم الأهلية ، ولم يثم باى دور فى الحركة الوطنية

- (٦) فرج سليمان فؤاد : « ذكرى فقيد الوطن وزعيم النهضة المصرية المرحوم محمد فريد بك رئيس الحزب الوطنى » ، القاهرة ، د.ت. ، ص ١
- «The Champion of Egyptian Independence» in «The African Times and Orient Review», N. S., 1, 18, (21 July 1914) p. 411.
- (٧) عبد الرحمن الرافعى ، ص ١٨ . وكثير من زملائه بالمدرسة أصبحوا فيما بعد رفاقا فى العمل السياسى ، كشقيق اسماعيل صدقى الأكبر : عزت شكرى الذى أصبح رئيس نادى المدارس العليا ، وعمر لطفى (١٨٦٧ - ١٩١١) مؤسس ذلك النادى ورائد الحركة التعاونية فى مصر .

- (٨) المصدر السابق : ص ٢١ .

ولكن محمد فريد ، ككثير من الوطنيين الذين تلوهم في البلاد المستعمرة ، رفض السير في الطريق المؤدية الى احدى الوزارات الهامة .
والى جوار دوره العلنى كموظف عمومى بدأت تصبح له حياته الخاصة ككثير وطنى . وقبل أن تصبح الصحافة محترمة كتب عدة مقالات لمجلة الشيوخ على يوسف الاولى ، وهى « الآداب » ، وكان يكتفى بتوقيعها بالحروف الاولى من اسمه ، لان والده حذره من الاساءة لسمعة الاسرة بالكتابة فى الصحف أو المشاركة فى السياسة (١) ، ثم أسهم فى تمويل « المؤيد » فى فترات ضيقها المالى الاولى ، وأيد معارضة رياض باشا لتعيين أول مستشار قضائى بريطانى سنة ١٨٩٠ ، وعلق فى مفكرته على عدم جدوى تأييد فرنسا فى هذه المسألة :

« لا توجد حكومة تعمل الا لزيادة نفوذها ، بصرف النظر عن مصلحة البلاد صاحبة المشكلة . وسيظل هذا الوضع قائما فى مصر الى أن يظهر رجال يقدرون حقاً قيمة وطنهم ويدافعون عن مصالحه بالوسائل السلمية – أو بغير ذلك من الوسائل اذا اقتضت الضرورة – ولن يتحقق هذا الا مع انتشار التعليم » (٢) .

وسنة ١٨٩٢ قابل مصطفى كامل لأول مرة ، وكان وقتها لا يزال أميل للتفاؤل باحتمال فوز مصر بالحرية عن طريق التدخل الاجنبى ، فبدأت رفقة حياتهما فى جمعية لطيف سليم السرية (٣) .

وكانت قضية البرقيات سنة ١٨٩٦ هى التى أقصت « فريد » عن العمل الحكومى ذى المستقبل المرموق ، ووضعته على أول الطريق الذى قاده الى زعامة الحزب الوطنى . وهذه القضية – كما وضحنا من قبل – اتهم فيها على يوسف بالحصول – بطرق غير مشروعة – على نص برقية مرسلة من كتشنر الى وزارة الحربية المصرية ونشرها فى « المؤيد » ، وكان البريطانيون حريصين على ادانته ، ولكن القضاة المصريين براءوا على يوسف ، وعبر « فريد » وكيل النيابة عن تأييده صراحة لحكم البراءة بقاعة المحكمة (٤) . فحاول البريطانيون نقله الى خارج القاهرة عقاباً له على تصرفه « الوقح » . فما كان منه الا أن قدم استقالته ، ومضى

(١) مذكرات محمد فريد : ص ٥٧ .

(٢) « الهلال » ، يناير ١٩٦٥ ، ص ٣٠ .

(٣) عبد الرحمن الراعى : ص ٣٢ ، على فهمى كامل ، ج ٢ ، ص ص ٥٥ – ٥٧ .

(٤) عبد الرحمن الراعى : ص ص ٢٧ – ٢٩ – وأنظر أيضاً الفصل الثانى فى هذا

الكتاب .

— لخيبة أمل أبيه — (١) يفتتح مكتبا للمحاماة ، حقق فيه نجاحا كبيرا ، (٢) ودرب عددا غير قليل من المحامين أصبحوا من أنصاره فيما بعد (٣) .

ولم يكن محمد فريد مجرد تابع لمصطفى كامل رغم أن الكتاب الغربيين يتجاهلون هذه الحقيقة عادة . فقد أصدر ، معتمدا على الثروة الكبيرة التي ورثها عن أبيه ، مجلة عربية أدبية وعلمية أسماها « الموسوعة » . (٤) وكان يكتب فيها مقالات عن شئون العالم المعاصر ، مع التعريض المستمر بالاستعمار (٥) ، كما ألف عدة كتب ، وطوف بأوروبا وشمال إفريقيا (٦) ، وأشرف على تربية أسرة كبيرة

(١) لم تكن ممارسة المحاماة الأهلية عملا يحظى باحترام الطبقة الراقية من المصريين المسلمين في القرن التاسع عشر . وقد روى لطفى السيد فيما بعد (« قصة حياتي » : ص ٣٧ وما بعدها) أن أحمد فريد شكك وهو ينتخب باكيا لمحمد عبده :

— هل يصح يا سيدى الأستاذ أن يهزئنى محمد فريد فى آخر الزمن ويفتح دكان أفوكاتو (مكتب محام) ؟

وكان على « محمد عبده » أن يؤكد للارستقراطى المنزعج أن المحاماة ليست مهنة مخلة بالشرف .

(٢) جاء فى مدثرات محمد فريد (ص ٦٥) أن الأميرة الشرية اللعوب نازلى كانت من بين موكليه . ويكتب عبد الرحمن الرافعي (ص ٣٠) أن « فريد » لم يكن يقبل قضية الا اذا شعر أن الحق فى جانب صاحبها ، حتى لقد رفض قضية إحدى أميرات الأسرة الحديوية لأنها كانت قائمة على الخداع . وهذا دليل على سمو مبادئه من ناحية أو على نجاح مكتبة من ناحية أخرى .

(٣) منهم على سبيل المثال : أحمد وفيق (المتوفى سنة ١٩٣٨) ومحمد زكى على .

(٤) ربما صدرت « الموسوعة » كمقابل مصرى اسلامى للمجلتين اللتين كان يصدرهما ويسيطر عليهما السوريون رحما « الهلال » و « المقتطف » . وكان من أشهر كتابها مصطفى كامل ، ومحمد عبده ، وقاسم أمين ، ومصطفى عبد الرازق ، ولطفى السيد .

(٥) من أمثلة ذلك مقال : « كيف فقدت جزيرة كوبا استقلالها » .

(٦) أصبحت هذه الرسائل موضوعا لسلسلة من الحكايات بعنوان « من مصر الى مصر »

ظل فريد ينشرها سنويا فيما بين عامى ١٩٠١ و ١٩٠٤ ويوزعها على أصدقائه دون مقابل . وكتاب « أسبانيا كما رآها الرحالة المسلمون من سنة ١٦١٠ الى ١٩٣٠ » :

Henri Pérès : « L'Espagne vue par les voyageurs musulmans de 1610 à 1930 », Paris, Librairie d'Amerique et d'Orient, 1937.

يحوى نقدا طريفا لما رواه محمد فريد عن رحلته الأسبانية سنة ١٩٠١ ، يتضح منه أن هدف فريد الرئيسى كان أن يوضح لقرائه الى أى حد تدهورت مدن الأندلس بعد

العدد (١) ولم يتفوق أحد عليه في دعم مصطفى كامل أدبيا وماديا (٢).٠٠ ورغم ذلك فلم يبرز فريد كواحد من زعماء الوطنيين الا حين تولى ادارة صحف الحزب الوطنى أثناء حملة مصطفى الأخيرة فى أوربا . (٣) وكان خطيبا متوسط القدرة ، لم يتح له القاء أى خطبة قبل سنة ١٩٠٨ . وكانت اللجنة الادارية قد انتخبته وكيلا لها سنة ١٩٠٧ ، وتولى رئاسة آخر جلساتها أثناء مرض مصطفى الأخير ، ومن ثم بدا أنه خليفته الطبيعى .

ورغم ذلك لم تمر خلافته لمصطفى كامل دون أحداث . فقد أراد الخديو عباس - وفقا لما جاء فى مذكرات فريد - زعيما وطنيا لا يعارضه حتى فى تنازلاته الكثيرة المتزايدة للمندوب البريطانى الجديد: سيرالدون جورست . وأرسل الخديو عدة مندوبين الى الاجتماع الرسمى الذى تلا جنازة مصطفى كامل ليقترحوا مرشحين يخلفونه . وسرعان ما برز على فهمى كامل باعتباره الشخصية الرئيسية فى خطة عباس لمنع انتخاب فريد . ويزعم فريد فى مذكراته أن « على » طبع منشورات ذكر فيها اسمه مقترنا بوصف رئيس الحزب الوطنى ووزعها على الأعضاء الذين حضروا الاجتماع غير العادى للجمعية العمومية ، كما عهد الى بعض مؤيديه بالوقوف عند المدخل ونبه عليهم بأن يسمحوا لعدد من غير الأعضاء بالدخول

= انتهاء الحكم الاسلامى . ولا شك أن ملاحظات فريد عن سوء أحوال مرفق السكة الحديد وتعصب الفلاحين الاسبان كانت ممتعة لكل من ألف أمثال هذه الأوصاف لمصر من جانب الرحالة الأوربيين .

(١) اقترن فريد سنة ١٨٨٨ باحدى بنات عمه ، وأنجبا أربع بنات وولدين . وتقوى أحد الأبناء فى صغولته فى حين أنهى الآخر وهو عبد الخالق فريد ، خدمته مؤخرا كرئيس لمحكمة أسبوط العليا ، وأنا شديد الامتنان له لكل ما قدمه من عون لتسهيل بحثى أثناء اعدادى لهذه الدراسة .

(٢) فى خطابات مصطفى كامل الى فريد كثير من الاشارات لمسائل مالية . من أمثلة ذلك ما كتبه مصطفى من باريس فى ٢٢ يوليو ١٨٩٨ يطلب فيه من فريد أن يرسل له بالبرق ثلاثين جنيها لينشر خطبه باللغة الفرنسية ، وبعد أسبوعين كتب اليه مرة أخرى يطلب عشرين جنيها ينفق منها على رحلته الى ألمانيا ، أمثال هذه المعونات كانت مهمة بالنسبة لمصطفى لأنها قللت من اعتماده على الخديو . وقد نشر عبد الرحمن الرافعى (« مصطفى كامل » ص ٣٣٧) نص الرسالة الأخيرة وهى حافلة بالتفاصيل الدقيقة . وانظر أيضا : « الفلوس فى حياة مصطفى كامل ومحمد فريد والخديو عباس » لصبرى أبو المجد ، « المصور » ، العدد ٢٠٧٨ ، ٧ أغسطس ١٩٦٤ ، ص ص ٣٣ - ٣٦ . وقد شك كرومر فى أن « فريد » كان الوسيط المالى بين الخديو ومصطفى كامل - من كرومر الى جرائى ، القاهرة فى ٢١ مارس ١٩٠٧ ، أحمد شفيق : ج ٢ ، مجلد ٢ . ص ١٠٣ ، ١٠٦ .

(٣) مذكرات محمد فريد : ص ٢ .

ليصوتوا الى جانبه • ولكن ما ان تحول المد - رغم ذلك - لمصلحة فريد حتى حول « على » خطته وألقى خطبة في تأييد ترشيحه • (١) وكان فريد قد انتخب بالاجماع لمدة ثلاث سنوات ، على أن يحل « على » مكانه في وكالة الحزب ، كما عهد الى « على » برئاسة تحرير « اللواء » في حين أصبح « فريد » مديرا لمؤسسة « ليتندار » • (٢)

وسواء أصبح أن الخديو عارض في تولى فريد زعامة الحزب الوطنى أم لم يصح ، وأن على فهمى قد طمع فى منصب أخيه المحتضر أم لم يطمع ، فالمهم من الناحية التاريخية فى الحالتين أن « فريد » اعتقد أن « على » ضده وأن الخديو أوحى بطريقة ما ، أو شجع على معارضته • وهذه الشكوك جعلت « فريد » يعمل على التقليل من نفوذ « على » على الوطنيين ومن ثم زاد من اعتماده على الشيخ جاويش • المسرف فى عدائه للمسيحيين (✱) رغم مواهبه ، وهو الذى خلف « على » فى رئاسة تحرير « اللواء » فى مايو سنة ١٩٠٨ ، فسرعان ما صبغ الحزب الوطنى بلون فاقح من التعصب الاسلامى ، وهو ما جاهد مصطفى كامل كثيرا لتجنبه •

أصابته وفاة مصطفى كامل الحزب الوطنى بضربة قاصمة ، فقد كان الحزب التجسيد التنظيمى لشخصيته ، وأفكاره ، ومواهبه الادارية ومن ثم كان من الصعب على أى شخص يخلفه أن يشرع فى تنفيذ أى سياسة أو برنامج جديد دون أن تتصدع الحركة • لقد عوق طغيان شخصية مصطفى كامل ظهور زعماء آخرين داخل الحزب • وكان محمد فريد شريفا ووطنيا ، ولكنه كان يفتقر الى الجاذبية الشخصية التى تميز بها سلفه • فقد كان بمظهره الناضج ومنظاره السميك وتكوينه الممتلئ أبعد ما يكون عن مظهر الزعيم الوطنى ، فكيف يتسنى له النهوض بدور مصطفى كامل فى استثارة آمال شباب مصر ؟

غير أن أسوأ ما منيت به الوطنية المصرية أن « فريد » استهل زعامته وهو يشك فى أن بعض أنصاره يتآمرون مع الخديو ضده ، فترتب على ذلك أن الوحدة شبه الكاملة التى ظهر بها السياسيون المصريون فى جنازة

(١) مذكرات محمد فريد : ص ٣ وما بعدها •

(٢) عبد الرحمن الراعى : ص ٤٥ وما بعدها •

(✱) ليس صحيحا أن الشيخ عبد العزيز جاويش كان مسرفا فى عدائه للمسيحيين ، فقد اختاره بعض المستشرقين من اساتذة جامعة « أوكسفورد » لتدريس اللغة العربية بها ، ولو علموا منه اتجاهها معاديا للمسيحية لما خصوه بهذا الاختيار •

مصطفى كامل ما لبثت أن تحطمت • وقد يكون صحيحا ما يميل المصريون الى تصديقه (١) ، من أن « عباس » وجورست قد ساعدا على توسيم شقة الخلاف (وكذلك كتشنر الذي سيقوم بدور المطرقة في الوقت المناسب) ، ولكن يظل مع ذلك الضعف الرئيسى الذى أصاب الحزب الوطنى مرجعه الى العلاقات الشخصية بين خلفاء مصطفى كامل •

(١) من الأمثلة الجيدة لهذا التفسير ما جاء فى « الأخبار » ، ٨ يونيو ١٩٦٤ تعليقا على اكتشاف مذكرات محمد فريد ، وكانت تنشر وقتذاك على صفحات الجريدة •

الخديو والدستور

فى يوم انتخابه رئيسا للحزب الوطنى ، تلقى محمد فريد مكالمة من القصر تدعوه لمقابلة الخديو . وأخفى عباس ما لعله شعر به من خيبة أمل ورحب بفريد بحرارة وهنأه قائلا :

« حقا انه لمن النافع جدا أن يكون على رأس الحركة الوطنية شخص منلك ، لأنك لا تحتاج الى المال ولا تطمع فيه ، كما أنك تنتمى لأسرة أخلصت فى خدمة البلاد . وقد عرف أبوك بأخلاقه الفاضلة وأمانته وإخلاصه . ولن يستطيع البريطانيون أن يتهموك بأنك تسعى وراء الشهرة ، أو المال ، أو المنصب الحكومى . » (١) ثم عرض الخديو مزيدا من العون المالى للنسختين الانجليزية والفرنسية من « اللواء » ، ولكن « فريد » رفض العرض . وكتب بعد ذلك :

« رفضت (عرضه) لكى لا أصبح مجرد أسير له ، ليس على الا أن أطيع كل أوامره . وترتب على هذه المقابلة أن الخديو أدرك أنني لست واحدا من أولئك الذين يمكن أن يطيعوا أوامره بلا تفكير ، وهكذا بدأ التآمر ضدى ، فى حين كان يتظاهر بالود نحوى . » (٢) لماذا رفض « فريد » عون الخديو ، فعجل بذلك بوقوع الانفصام الثانى بين القصر والحزب الوطنى ؟

لقد عرف فريد من تجارب مصطفى كامل المبكرة أن عباسا كان يستخدم المال للسيطرة على الرجال والحركات السياسية ، والآن وقد

(١) مذكرات محمد فريد : ص ٣ ، أحمد شفيق : ج ٢ ، مجلد ٢ ، ص ١٤٥

(٢) مذكرات محمد فريد ، ص ٣ وما بعدها ، عبد الرحمن الرافعى ، ص ٦٤

ذهب مصطفى فمن الممكن أن يحاول الخديو اجبار الوطنيين على التخفيف من مبادئهم الدستورية أو مطالبتهم بالاستقلال الناجز . ففضل فريد أن ينفق ارثه على الحزب الوطني على أن يصبح دمية في يد القصر .

ولا يعنى هذا أن « فريد » و « عباس » كانا على طرفي نقيض ، بل كان التقارب كبيرا بين شخصيتيهما ، وخلفيتهما الطبقية ، وحتى رغبتهما في الاستقلال الذاتى لمصر . أما أهم اختلاف بينهما ، على الأقل سنة ١٩٠٨ ، فقد تمثل فى أن « فريد » كان يعتقد أن تحرير مصر يجب أن يتقدم على أى هدف آخر ، وهى أيضا عقيدة سلفه الشهير ، وإن تميز فريد عنه باستقلال مالى أتاح له أن يعول الحزب الوطنى ، بعض الوقت على الأقل ، وقد حماه ذلك من الرضوخ لآى ضغط خارجى .

لقد استطاع الخديو خلال فترة حكمه التى استمرت ست عشرة سنة ، أن يضاعف ثروته دون أن يفقد كل رصيده الشعبى . ولكنه لم يعد فى موقف يسمح له بقيادة حركة معادية للبريطانيين كما فعل سنة ١٨٩٥ . فقد حل محل كرومر أكبر خصومه ، وهو جورست الأكثر حنكة وصاحب خبرة سنوات طويلة من العمل فى مصر . واستغل جورست صداقته القديمة المتينة بعباس فى اغرائه بانهاء علاقاته بالوطنيين حتى قبل أن يتسوفى مصطفى كامل . وكان الخديو كلما ازداد اقتربا من البريطانيين تضاعفت شكوك الوطنيين فيه ، غير أنه وجد العوض فى حريته المتزايدة (بموافقة جورست وإن لم يكن بتشجيعه) فى التصرف فى أراضى الحكومة واحتكار الاوقاف التى وضعت تحت اشرافه ، وفى بيع الرتب والأوسمة . وشيئا فشيئا أصبح الحزب الوطنى يمثل فى نظره تهديدا لمكانته السياسية ومصالحة المادية . وكما فعل ابن أخيه بعد أربعين عاما ، ضحى عباس بشعبيته السابقة التى قامت على اقترانه الفاشل بالأهداف الوطنية على مذبح المال ، وربما مذبح الحب أيضا .

كانت شخصية سيراندون جورست - وما زالت - موضع خلاف . فقد رفضه كثير من البريطانيين العاملين فى خدمة الحكومة المصرية لمحاولته تنفيذ سياسة حكومة الاحرار واعداد مصر سياسيا للاستقلال الذاتى ، ورأوا فى جهوده لوضع مسئوليات أكبر فى أيدي المصريين تهديدا لانجازاتهم ، ونفوذهم ، وربما وظائفهم أيضا . وبدا أن صداقة جورست للخديو ستنتقل مركز النفوذ السياسى من قصر الدوبارة (مقر المندوب السامى) الى عابدين مرة أخرى . وصدم اهماله للمظاهر والطقوس كثيرا من الانجليز الذين قارنوا بين كرومر بقبعته العالية وعربته الفارهة وجورست الذى كان يفضل ارتداء قبعة من القماش ويمتطى دراجة

بخارية • كيف يمكن أن ينظر المصريون الى رجل كهذا باعتباره تجسيدا للوجود البريطاني ؟ واعتبر رفضه اتخاذ اجراءات حازمة لقمع الاثارة الوطنية ضعفا • أما ما فشل نقاده في رؤيته فهو نجاحه في اقناع الخديو بالتخلي عن تحالفه غير الطبيعي مع الوطنيين، فأضعف بذلك الحزب الوطني بطريق غير مباشر حين حرمه من عدد من أثري مؤيديه وأقواهم نفوذا • لذلك فليس من الانصاف رفض جورست واعتباره فاشلا ، كما فعل معاصروه وواحد من المؤرخين على الأقل (١) •

أما الخطأ في سياسة جورست ، فهو أنه حين كسب الخديو الى جانبه خسر تعاون حزب الامة المعتدل الذي كان له أنصاره من بين الوزراء ، وأعضاء المجلس التشريعي ، والجمعية العمومية والهيئة القضائية • وترتب على فقد تأييد هذه المجموعة الصغيرة ذات النفوذ القوي مع ذلك ، المكونة من أثرياء المصريين ، الميل الى الاصلاح التدريجي ، اضعاف سياسة جورست في نقل مركز السلطة (وكان من الممكن نبدتها لأسباب أخرى) ، وكذلك تبديد كثير من النوايا الحسنة ، التي كانت لا تزال موجودة بالرغم من دنشوى ، بين الانجليز والمصريين ، ولذلك فقد انبثقت معظم قيادات ثورة ١٩١٩ من بين صفوف حزب الامة •

أما الزعيم الجديد للحزب الوطني فقد وجه جل اهتمامه للمحافظة على حيوية الحركة ، ثم بعد ذلك تحويل ذلك الشعور العام بالحزن على فقد الزعيم المحبوب الى ولاء دائم للمبادئ التي نادى بها • وكان من الطبيعي أن يوجه الوطنيون جانبا كبيرا من وقتهم وجهودهم لتخليد البطل الراحل ، ولكن كان عليهم في الوقت نفسه أن يشبتوا للعالم أن حركتهم كانت أكبر من مجرد امتداد لشخصية مصطفى كامل • استهل فريد رئاسته للحزب بارسال برقية الى سير ادوارد جراي (وزير خارجيه بريطانيا) يعلن فيها انتخابه واصراره على المضي في طريق سلفه حتى تقى بريطانيا بوعودها بالجلء عن مصر ، (٢) كما أرسل برقيتين الى الخديو ووزير الحقانية يطالبهما بإلغاء المحكمة المخصصة التي حاكمت أبناء قرية دنشواي (٣) • وفي أوائل مارس افتتح الحزب الوطني ناديه

Ahmed, p. 76

(١)

(٢) FO 371/440 من محمد فريد الى سير ادوارد جراي ، القاهرة في ٤ فبراير

١٩٠٨ ، عبد الرحمن الرافعي : ص ٤٥

(٣) المصدر السابق : ص ٤٧ ، « اللواء » ، ٢٥ فبراير ص ٤٥

الذى يقع فى أحد شوارع القاهرة الرئيسية (١) .

وجه فريد الدفعة الأولى من نشاطه السياسى لاقتناع الخديو بإعادة دستور سنة ١٨٨١ الذى ألغى بعد هزيمة عرابى . وكان دستور مصر القائم ، أو القانون التأسيسى لسنة ١٨٨٣ يسمح بقيام عدة مجالس شبه نيابية ، ولكن بلا سلطة تشريع وطنية حقيقية . ومع أن القانون التأسيسى قصد به أن يكون أساسا انتقاليا لقيام نظام نيابى ، فانه ظل ربع قرن دون أى تعديل . وكجزء فى برنامج الإصلاح اقترح جورست زيادة صلاحيات مجالس المديريات ، مستندا الى النظرية القائلة بأن تطوير المؤسسات الديمقراطية ينبغى أن يبدأ على المستوى الاقليمى . واعتبر الوطنيون خطة جورست حيلة المقصود بها صرف اهتمام الرأى العام عن هدفه فى قيام نظام برلمانى وطنى . ولم يطالب الوطنيون وحدهم بل ومعهم كل الأحزاب التى تكونت سنة ١٩٠٧ ، بمجلس تشريعى ينتخب انتخابا شعبيا ، اذ كانت غالبية المصريين المستنيرين سياسيا تعتقد أن الديمقراطية البرلمانية هى أساس قوة أوربا ، كما كان الوطنيون يتصورون أن من مزايا قيام برلمان أنه سيمكن ممثلى الشعب من استخلاص السلطة من أيدي الوزراء المصريين الخاضعين لسيطرة البريطانيين . وحتى الجمعية العمومية المجردة من كل سلطة تقريبا أصدرت فى مارس ١٩٠٧ قرارا تطالب فيه بالدستور ، فلم يرد عليها الوزراء المصريون الا بعد أحد عشر شهرا قائلين :

« ترى الحكومة أن الوقت لم يأت بعد لتشكيل مجلس النواب . . ولكنها تشتغل الآن فى توسيع اختصاص مجالس المديريات » (١)

وكرد فعل لهذا الرد الذى اعتبره الوطنيون « اهانة للامة » ، بدأوا بحركة جمع للتوقيعات على عريضة الى الخديو تطلب إعادة الحكومة النيابية . ونجحت حملتهم فى أن تصبح موضوعا للنقاش فى مجلس العموم البريطانى ، حيث صرح جراى بأن الخديو لا يستطيع أن يمنح

(١) لعل الذى أوحى بفكرة النادى هو حزب على يوسف المسمى « حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية » الذى ذكره الكساندر (Alexander : p. 28) . وكان يسمح بالالتحاق بنادى الحزب الوطنى للأعضاء الذين يدفعون اشتراكا قدره ثمانية جنيهات بالنسبة للمقيمين بالناهرة ، وأربعة لغيرهم ، وفقا لما نشر « باللواء » فى ٢٥ فبراير ١٩٠٨ ، وأصبح النادى المكان الثابت لاجتماعات اللجان الفرعية وبقية أعمال الحزب الروتينى .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : ص ٥٧ .

Hansard, 4th series, House of Commons, CLXXXV11

شعب مصر دستورا أو مجلسا نيابيا دون استشارة الحكومة البريطانية (١) . واحتج محمد فريد على هذا التصريح ببرقية أرسلها الى وزارة الخارجية البريطانية ، وبمقالات نشرها « اللواء » طالب فيها باستقالة الوزراء المصريين ، لأن هذا أفضل من قبولهم سلب بريطانيا لحقوقهم في تقرير المستقبل الدستوري لبلادهم . ان الخديو ، حاكم البلاد الشرعى ، هو الذى يملك وحده أن يمنح الدستور ، وفريد يرجو أن يستجيب سموه ، رغم سياسة الوفاق ، لمطالبة الشعب بالدستور .

وفى أول خطبه الهامة ، وقد ألقاها فى ابريل ، أعاد فريد تحديد موقف حزبه :

« أننا لا نطلب الدستور من إنجلترا ، بل نطلبه من حاكم البلاد الشرعى . . . اذا كان لا يستطيع منحنا مجلسا نيابيا الا بعد استشارة بريطانيا ، وكان قبولها شرطا واجبا ، فنحن نعلن جهارا بأننا نفضل عدم الحصول على الدستور مؤقتا على أن نأخذه بهزم الصيفة التى يكون من ورائها القضاء المبرم على استقلال البلاد . »

وواصل فريد إبراز الهوة الآخذة فى الاتساع بين الحكومة والشعب . ناقدا الخديو لعلاقاته الوثيقة بجورست ، والوزراء لخضوعهم ، داعيا المصريين الى الاتحاد فى تأييد حملة الوطنيين من أجل الدستور (٢) . وفى مايو كان ٤٥٠٠٠ مصرى قد وقعوا بأسمائهم أو طبعوا أختامهم على العريضة (٣) ، وباستثناء موكب جنازة مصطفى كامل ، فقد كانت تلك الاستجابة لدعوة فريد أقوى شهادة حتى وقتذاك على زيادة شعبية الحركة الوطنية فى مصر .

غير أن « فريد » مهما حاول التنديد بتلك الحقيقة ، فقد كان يعلم مع ذلك أن القدرة على تغيير نظام الحكومة فى مصر كانت فى يد البريطانيين لا المصريين . وكان يريد إثارة الجماهير لاقتناع الحكام اذا استطاع ، ولكن دون أن يطيح بهم . من هنا كانت باريس ولندن هما المسرح الرئيسى لحملات الوطنيين من أجل استقلال مصر . ورغم أنه منذ

(١) عبد الرحمن الرافعى : ص ٥٢ وما بعدها ، « اللواء » ، ٥ و ٨ و ١١ ابريل

١٩٠٨

(٢) النص الذى وصفه الكساندر (Alexander : p. 148) والذى دعا فيه الوطنيين الى تجنب استخدام القوة لا يكاد يشبه ما قاله فريد فعلا كما أورده عبد الرحمن الرافعى : ص ٥٤ وما بعدها ، و « اللواء » ، ١٨ ابريل ١٩٠٨ .

(٣) « اللواء » ، ٢ مايو ١٩٠٨ ، الواقع أن مجموعهم بلغ ٧٥٠٠٠ .

الاتفاق الودى لم تطلب أى دولة أوروبية بشكل جدى جلاء بريطانيا عن مصر ، فقد ظل الوطنيون يؤملون أن يستطيع الرأى العام الحر ان يدفع حكومة أوروبية أو أكثر الى تأييدهم . وبالنسبة لحزب يدير شئونه محامون كانت دعوات الشرعية أهم من حقائق القوة ، والعبارات محكمة الصياغة (بلغة ممتازة لا تكاد تفترق عن فرنسية الباريسيين) أكثر اقناعا من التهديد بالثورة أو العنف (*) . وكما وفق مصطفى كامل ، من وجهة نظر الوطنيين ، بخطبه فى لندن ومقالاته فى باريس ، الى اسقاط كرومر ، أصبح من واجب فريد الآن أن يسافر الى أوروبا ليواصل حملته من أجل الدستور وانسحاب القوات البريطانية من مصر .

وفى أوائل مايو أبحر « فريد » الى فرنسا ، حيث التقى بجولييت آدم ، وبير لوتى ، ويوجين كالميت (رئيس تحرير « الفيجارو ») وغيرهم من المعجيين بسلفه . وفى انجلترا أجرى معه رئيس تحرير « المانشستر جارديان » نى لندن حديثا حقق دعاية طيبة لبرنامج الوطنيين (١) . وكذلك قابل « فريد » جون روبرتسون رئيس اللجنة البرلمانية للمسألة المصرية الذى كشف عن عدم فهمه لطبيعة الوطنية المصرية حين دعا الحزب الى التنازل عن مطلبه بجلاء القوات البريطانية فى مقابل الحصول على الدستور . ورفض فريد نصيحته التى وصفها فيما بعد بأنها حيلة للنيل من شعبية الحزب تمهيدا لتحويله الى أداة فى أيدي البريطانيين كحزب الأمة (٢) . وكان أعضاء البرلمان من الايرلنديين أكثر تعاطفا من الانجليز المتطرفين . فحاول جون ردموند الزعيم الوطنى الايرلندى اقناع سير ادوارد جراى بمقابلة فريد ، ولكنه لم يوفق اذ أجاب وزير الخارجية بأنه سيق له أن رفض مقابلة مصطفى كامل ولا يرى سببا يدعو لمقابلة خليفته (٣) . والواقع أنه حتى وفد المصريين المعتدلين الذى هاجمته الصحافة الوطنية لاقتصار مطالبه على الاصلاحات الداخلية فشل فى الفوز بالعطف الرسمى فى لندن (٤) . فقبل سنة ١٩١٩ كان من النادر

(١) Alexander : p. 161

(٢) مذكرات محمد فريد : ص ٥

(٣) Bunt : « My Diaries » : p. 617

(٤) Alexander 168. لان يرأس تلك البعثة من المستشارين التشريعيين اسماعيل

أباطة (عضو حزب الأمة الذى أصبح فيما بعد وطنيا) وكاتب- تقيم من الوطنيين : محمود سليم وعبد اللطيف الصوفانى . وقد اعتبر فريد وفد أباطة مؤامرة دبرتها السراى = (*) لم يغفل الحزب الوطنى ، وعلى الأخص محمد فريد ، الوسائل الثورية تهاما ، اذ الثابت تاريخيا أن الحزب الوطنى لم يكن منقطع الصلة بالشباب الذين استعملوا السلاح ضد الانجليز وأعوانهم .

آن يتعامل أى مسئول بريطانى رسمى فى لندن أو القاهرة علنا مع أحد الوطنيين .

لماذا تحولت وزارة الاحرار التى كانت متحمسة لحرية مصر شيئا فشيئا الى سياسة دعم الاحتلال البريطانى ؟

أولا ، وقبل كل شئ ، كان ازدياد قوة المنافسة البحرية مع ألمانيا يضغط فى نظر بريطانيا من قيمة القوة الاستراتيجية التى يحققها لها وجودها فى مصر ، وكان احساس « الاحرار » بالاثم من حادث دنشواى قد تلاشى مع مرور الوقت ، وبصفة خاصة بعد أن أفرج عن بقية المسجونين بقرار خديوى صدق عليه جورست ، كما كان من الواضح أن بضعه املاحات مهدئة لن توقف تصاعد الحركة الوطنية . ومن الناحية الداخلية كانت الأغلبية القوية التى تمتع بها « الاحرار » فى مجلس العموم ذات يوم آخذة فى الانكماش نتيجة لفشلهم فى عدة انتخابات تكميلية . وأخيرا فان وفاة رئيس الوزراء سير هنرى كامبل سنة ١٩٠٨ ، وكان على قدر من التطرف ، جعلت الثلاثى الاستعماري المكون من اسكويث ، وجراى وهالدين ، يسيطر على مجلس الوزراء . فأصبح التعبير عن العطف الأفلاطوني على الوطنية المصرية أمرا لا غبار عليه ، ولكن بشرط ألا يصل بالوطنيين الى تقديم مطالب محرجة « للأحرار » .

وأكدت زيارة الخديو للندن ذاك الصيف ، وكانت الأولى بعد حادث دنشواى ، مقدار البغض المتزايد بين السراى والوطنيين . غير أن حادثا غير متوقع بعث دفعة جديدة فى قضية الدستوريين وحول اهتمامهم من « عابدين » الى « يلدز » ، وهو ثورة أعضاء « تركيا الفتاة » التى أجبرت السلطان عبد الحميد على إعادة الدستور العثماني بعد ايقافه الطويل . ورغم أن الوطنيين كانوا بشكل عام يؤيدون السلطان ويهاجمون « جمعية الاتحاد والترقى » (تركيا الفتاة) ، فسرعان ما داروا على أعقابهم بعد الانقلاب (١) . فمن الطبيعي أن يبتهجوا ، وان تشككوا فى البداية (٢) ،

= للتقليل من نفوذه ، وهاجمها فى خطبته بالاسكندرية فى ١٥ أغسطس ١٩٠٨ ، ومثله فعل « اللواء » فى ٩ أغسطس ١٩٠٨ . أما أعضاء الحزب فقد انقسموا فيما بينهم بشأنها ، وأرسل بعضهم خطابات تأييد للبعثة الى « اللواء » واهم ما فى الامر أن بعثة اباطة لم تحقق شيئا .

(١) FO 371/449 ، من رونالد جراهام الى جراى ، الاسكندرية فى ١٢ أغسطس

١٩٠٨ .

(٢) سيد سلى : « السابحون فى الخبايا » ، « اللواء » ، ٢٢ يوليو ١٩٠٨ ، وهو ينقد رسالة بعث بها رفيق العظم ونشرت فى عدد ١٩ يوليو ، وتتضمن وصف الانقلاب المقدوني الذى ساعد على قديح شرارة انقلاب جماعة الاتحاد والترقى بعد ذلك سنة ١٩٢٣

لإعادة الدستور العثماني ، الذين رجوا أن يشد أزر حملتهم ، بل لقد ذهب بعضهم الى حد المطالبة بأن يكون لمصر ممثلين في البرلمان العثماني باعتبارها إحدى ولايات الامبراطورية وان تميزت بوضع خاص (١) . أما حماسة الوطنيين التي عبرت عنها احتفالاتهم في طول البلاد وعرضها بعيد جلوس السلطان ، فلا شك أن مصدر قوتها هو احساسهم نحو الجامعة الاسلامية (٢) . وأيا كان الأمر فقد كان لا بد من مرور بعض الوقت قبل أن يستطيع زعماء تركيا الفتاة الاهتمام بقضية الوطنيين .

ماذا كان تأثير الانقلاب على الخديو عباس ؟ ان اقامته الطويلة باستامبول (عقب زيارته للندن) بعثت الآمال في أنه نصح بتطبيق الدستور العثماني في مصر (٣) . ولكنه ما ان عاد الى مصر في أواخر سبتمبر حتى فوض أحمد شوقي (٤) المتحدث باسمه ليدلي بتصريح الى « المؤيد » بأنه لا يمكنه ، رغم عطف الدستوريين ، أن يقوم بأي تغيير جذري في حكومة مصر دون موافقة بريطانيا .

واذا كان الوطنيون قد ألفوا صدور مثل هذه التصريحات من البريطانيين الرسميين ، فقد أذهلهم أن يسمعوها من الناطق باسم الخديو خاصة وهو الشاعر الذي لم يمض على رثائه لمصطفى كامل أكثر من سبعة أشهر . ورد فريد بمقال في « اللواء » اتهم فيه عباسا بأنه أيد الوطنيين

(١) « اللواء » ، ٤ أغسطس ١٩٠٨ ، والمعتقد أن مصدر هذا الاقتراح هو الشيخ على يوسف .

(٢) وفقا لما جاء في « اللواء » ، في ٣ و ٤ سبتمبر ١٩٠٨ ، أقيمت الاحتفالات بالاسكندرية ، واسوان ، واسيوط ، وأبو كبير ، وبنها ، ودمايط ، والقناطر الخيرية ، ومحافظة الغربية . والحبانية ، وكفر الزيات ، وكوم الشيخ ، والمنصورة ، والمنيا ، ومنيا القمح ، وبور سعيد ، وقسم السيلة زينب بالقاهرة . ولا أذكر مناسبة أخرى في التاريخ الحديث شارك فيها مثل هذا العدد الكبير من المصريين في مظاهرات سياسية لتكريم حاكم غير مصري . وكما حدث في بقية الامبراطورية ، نسب الناس الى السلطان عبد الحميد فضل إعادة دستور سنة ١٨٧٦ ، مع أن الحقيقة أن تركيا الفتاة هي التي أجبرته على اعادته .

(٣) Alexander : 179.

(٤) كان شوقي الشاعر المشهور شديد التعصب للخديو في آرائه السياسية . وكثيرا ما لقب « بأمير الشعراء » ، وكان الأنسب أن يسمى « شاعر الأمراء »

ليتخلص من كرومر ، ثم غير سياسته بعد أن حل جورست مكانه (١) .
وصدم تعريض فريد الجريء الخديويين ، بل كثيرا من الوطنيين المعتدلين ،
ولكنه مضى في الاستبوغ التالي يكتب هجوما أعنف (٢) . وهكذا تمت
القطيعة بين عباس وفريد .

عاد الخديو الى القاهرة في أول نوفمبر ، فحيته مظاهرات وطنية
تطالب بالدستور ، فتجاهلها ، وتعهد - لأول مرة منذ دنشواي - أن
يحضر استعراض الجيش البريطاني في مناسبة عيد ميلاد الملك (٣) ،
ثم توج سياسة الوفاق بتعيين بطرس غالى رئيسا للوزراء مكان مصطفى
فهمى المريض وكان يكرهه ، فى حين كان بطرس مكروها من الوطنيين ،
لا لأنه مسيحي فحسب (*) ، بل لأنه كان يجاهر بتعاونه مع البريطانيين
وهو الذى وقع اتفاقية الحكم الثنائي للسودان ، ورأس محكمة دنشواي ،
وعلى الفور بدأ الوطنيون اطلاق نيرانهم ، وان ظل موقفهم العام أقرب
لخيبة الأمر الحذرة . (٤) فلا شك أن مصطفى فهمى ظل رئيسا للوزراء
عدة سنوات متعاوننا مع البريطانيين ، غير أن الوطنيين كانوا يعتقدون أن
كرومر هو الذى فرضه على الخديو ، أما بطرس فقد اختاره عباس بمحض

(١) محمد فريد : « ماذا يقولون ؟ » ، « اللواء » ، ٢٨ سبتمبر ١٩٠٨ ، وله
ترجمة بجزئية فى FO 371/452 ، من جراهام الى جرين ، القاهرة فى ٣ أكتوبر
١٩٠٨ ، رقم ٩٩ .
(٢) « اللواء » ، ٤ أكتوبر ١٩٠٨ .

(٣) Alexander : p. 190f. ، عبد الرحمن الرافعى : ص ٧٧ - ٧٩ .

(٤) كتب فريد : « نحن لا نبدى رأيا فى سعادة الرئيس الجديد ، بل نجتهد فى
نسيان ماضيه ، ونأمل أن يمحو بخدماته الجديدة ما نقش فى الأذهان من تأثير أعماله
الماضية ، ونحكم على أعماله فى مركزه الجديد . » ، « اللواء » ، ١٤ نوفمبر ، عبد الرحمن
الرافعى : ص ٨١ .

(٥) لم يكره المصريون بطرس غالى لمسيحيته قط ، أو على الأصح لقباطيته ،
ولم يحدث أن كره المصريون رجلا عاما أو سياسيا ذا شأن لأنه قبطي ، وإنما كرهوا
السياسة المسلمين والمسيحيين على السواء اذا سايروا السياسة البريطانية وأذعنوا للمندوب
البريطاني ، وقد أطلق الشبان الوطنيون الرصاص على وزير قبطي واحد هو يوسف وهبه
باشا ، وعلى أكثر من عشرة وزراء مسلمين يحملون اسم محمد مثل محمد توفيق نسيم ،
ومحمد سعيد باشا ، ومحمد شفيق باشا ، فضلا عن اسماعيل سرى باشا ، كما شرعوا
فى قتل ابراهيم فتحي باشا خلال الحرب العالمية الاولى ، والسلطان حسين كامل .

رغبته • (١) لذلك فقد أصبح من الواضح أن الخديو قد قطع كل صلة له
بالحركة الوطنية •

(١) كثير من المصريين وبعض الأوربيين يتهمون جورست خطأ بأحداث انقسام في
الحركة الوطنية بتعيينه قبطيا رئيسا للوزراء ، انظر على سبيل : : Max Montesole
«The British in Egypt», "Tontnightly Review," XCIV, 3 (September
1910), p .410 F.
فالواقع أن الخديو هو الذي عين بطرس غالى ، ويكتب أحمد شفيق في مذكراته (ج ٢ ،
مجلد ٢ ، ص ١٥٩ وما بعدها) أن جورست حاول اقناع الخديو بعدم اختيار بطرس
غالى على أساس أن ديانتة القبطية ستثير ضده الغالبية المسلمة في مصر ، ولكن «عباس»
أصر على تعيينه • وتؤكد ذلك المراسلات الدبلوماسية البريطانية انظر FO 371/452
من جورست الى جراى ، القاهرة في ١٠ نوفمبر ١٩٠٨ ، برقية رقم ٦١

الشيخ جوايش والأقباط

أدى النفور بين الخديو والوطنيين الناتج عن مهادنة جورست لعباس وانفصال فريد عنه ، الى أن انسحب من الحزب كثير من المصريين الذين تنتهى وطنيتهم عند أبواب السراى • (١) فساعد ذلك الحزب على التخلص من المحافظين الذين كانوا يثقلون حركته ، ومن ثم خلق فى آفاق جديدة من النضال • وظهر داخل الحركة أفراد قرنوا - فيما يبدو - بين الثورة والتعصب الاسلامى •

وهذا النضال المتصاعد لم يكن ببساطة نتيجة لسياسة جورست كما أكد بعض النقاد البريطانيين المعاصرين ، ولا لقلة خبرة فريد وتذبذبه (٢) ، ولكنه كان نتيجة للتنافس بين الأحزاب المصرية وصحفها على الفوز بتأييد الراى العام ، وللصراعات الطائفية التى نشبت بين الوطنيين عقب وفاة مصطفى كامل •

رغم أن الصراع على زعامة الحزب كان قد حسم لمصلحة فريد ، فقد عهد بإدارة « اللواء » الى على فهمى كامل • وحين نتذكر أهمية « اللواء » بالنسبة للحزب الوطنى تبدو هذه التسوية اجراء لايساعد كثيرا على الاستقرار • وسرعان ما تعرضت كل صحف الحزب لمشكلات التمويل وتصرفات هيئة تحريرها ، فاستقال أحمد حلمى (١٨٧٥ - ١٩٣٦) أقدر محررى « اللواء » فى ابريل ١٩٠٨ ، ربما لانه لم ينصب رئيسا

(١) من امثال مؤسس حزب « النبلاء » المنشق ، وهم حسن حلمى وثابت فرج الجرجاوى ، Alexander : p. 184f., Landau : p. 144.

(٢) Ahmed : p. 77f., Marlowe : p. 201

لتحريرها (١) ، ونشر مقالا في صحيفة منافسة ينقد فيه سياسة الحزب بعد وفاة مصطفى كامل ، ويعلن اختلاف الزعماء الوطنيين مع « اللواء » (٢) ، ثم ما لبث أن بدأ يصدر جريدة « القطر المصري » ، فاذا بها أقوى في حملاتها الوطنية من « اللواء » نفسه ، كما كانت تهاجمه بين الحين والآخر .

وأتاحت المشكلات المالية التي خلفها مصطفى كامل الفرصة لفريد كى يحكم سيطرته على « اللواء » . ولما كان مصطفى قد توفي و « اللواء » مثقلة بالديون ، فقد وضعت (كمثيلتيها الاوربيتين منذ نشأتها) تحت اشراف شركة رأسمالها ٤٠٠٠ ر. ٤ جنيه . اشترى ثلاثة من الوطنيين (عمر سلطان ومحمد شريف وفريد) نصف الأسهم ، وخصص الباقي لأشقاء وشقيقات مصطفى كامل الباقين على قيد الحياة . غير أن « فريد » و « عمر لطفي » جلبا مساهمين اضافيين فسيطرا بذلك على مجلس الادارة أيضا (٣) ، ثم بدأ ابعاد على فهمى كامل بالتدريج عن الادارة الفعلية « للواء » . وقبل أن تمضى سنتان كان ورثة مصطفى كامل يقاضون شركة « اللواء » وينجحون في حرمان الحزب من لسانه المعبر (٤) .

وردا على هجمات « القطر المصري » و « المؤيد » قرر محمد فريد تقوية « اللواء » بتعيين رئيس تحرير جديد بدلا من أحمد حلمى وينافس الشيخ على يوسف فى شعبيته ، واحتار مفتشا مصريا بالتعليم الابتدائى من أصل مغربى ، وهو الشيخ عبد العزيز جاويش (١٨٧٦ - ١٩٢٩) الكاتب الخبير فى الشئون الاسلامية والتربوية (٥) ، وكان يحظى منذ

(١) أحمد أحمد بدوى : « أحمد حلمى » ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر بالقجالة ، ١٩٥٧ ، ص ٥٦

(٢) « اللواء » ، ٧ ابريل ١٩٠٨ ،
Sladen : "Egypt and The English", pp. 147-149;

(٣) مذكرات محمد فريد ص ١٠ .

(٤) انظر فيما بعد الفصل السادس .

(٥) الشيخ عبد العزيز جاويش (١٨٧٦ - ١٩٢٩) أو شاويش (كما ينطق بالعربية) أبوه تونسى وأمّه تركية ، نشأ بالحنى المغربى بالاسكندرية . وبعد أن درس بالأزهر ودار العلوم من فترة قصيرة مدرسا للغة العربية بمدرسة الزراعة ، ثم أرسلته نظارة المعارف العمومية للدراسة بكلية « بارو رود » لاعداد المدرسين بلندن . على الرغم من أنه وصل الى لندن وهو لا يعرف غير العربية ، فقد استطاع اتقان اللغة الانجليزية بدرجة جعلته يعين عند عودته الى القاهرة سنة ١٩٠١ مفتشا لتعليم اللغة الانجليزية (بالاضافة الى بعض المواد الأخرى) بالمدارس الحكومية . ونشر سنة ١٩٠٣ كتابين عن مناهج التعليم : « غنية المؤدبين فى الطرق الحديثة للتربية والتعليم » و « مرشد المترجم » . وعاد الى =

سنوات باعجاب مصطفى كامل وفريد باعتباره من ألمح منتقدي الحكم البريطاني ، حتى لقد عرضا عليه من قبل رئاسة تحرير «اللواء» ، ولكنهما لم يستطيعا قبول طلبه عقدا مدته خمس سنوات (١) . أما في ابريل ١٩٠٨ فقد كان فريد مستعدا لقبول هذا الشرط خلال بحثه عن التأييد ضد انشقاق على فهمي كامل عليه . ويقال ان « جاويش » كان حاقدا على سعد زغلول لانه تخطاه وقدم عليه أحد أقربائه في ادارة مدرسة القضاء الشرعي الجديدة ، (٢) فما كان منه الا أن قبل عرض « فريد » واستقال من وزارة المعارف . وقد وضع لفتش انجليزى من زملائه أنه لا يكن له أى عداة شخصى ولكنه مصر مع ذلك على مهاجمة الحكم البريطانى لتنال مصر استقلالها (٣) .

ولم يكن جاويش بحاجة الى وقت طويل لاثبات وجهة نظره ، فبعد مقال افتتاحى عاطفى على النعمة ، وهب فيه حياته وقلمه لقضية تحرير مصر ، (٤) نشر عدة مقالات فى الهجوم على سعد زغلول (٥) ، ومقالين فى وصف فتنة « الكاملين » بالسودان ، (٦) ختمهما بوصف للمحاكمة ، والأحكام التى صدرت ، وتنفيذ أحكام الاعدام فى الزعماء . وفى هذا

= انجلترا سنة ١٩٠٣ ليعمل مدرسا للغة العربية باكسفورد . وخلال السنوات الثلاث التى قضاها هناك كتب أشهر مؤلفاته : « الاسلام دين الفطرة » الذى تبلور فى ذهنه خلال محاولاته لتصحيح المفاهيم الخاطئة عن الاسلام لدى تلاميذه . وسنة ١٩٠٦ قبل وظيفة مفتش التعليم الابتدائى ، وظل محتفظا بها حتى عين رئيسا لتحرير « اللواء » . وأهم السير التى كتبت عنه هى :

أنور الجندى : « عبد العزيز جاويش » ، سلسلة اعلام العرب ، رقم ٤٤ ، القاهرة وزارة الثقافة والارشاد القومى ، ١٩٦٥ ، حسن الشيخة : « عبد العزيز جاويش » ، القاهرة ، الموسوعة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٦١ ، عبد المنعم خفاجى : « قصص من التاريخ » ، القاهرة ، مطبعة المنيرة ، ١٩٥٤ ، وانظر أيضا مقدمة ناصر جاويش لكتاب ابيه « الاسلام دين الفطرة » ، طبعة دار الهلال .

(١) مذكرات محمد فريد : ص ٤٥ وما بعدها ، وفريد لم ينصفه تماما ، اذ لم يكن من المعقول أن يتوقع من رجل بلا موارد أن يجازف بدخول أسرته الثابت ويغامر بقبول مثل هذه الوظيفة .

(٢) عباس محمود العقاد : « سعد زغلول » ، ص ١٣٣ وان كان من الضرورى تحذير القارئ من أن العقاد لم يستثمر أى قدر من الحب لجاويش .

(٣) Bowman : « Middle East Window » , p. 76f.

(٤) « اللواء » ، ٢ مايو ١٩٠٨ ، عبد الرحمن الرافعى : ص ٥٥ وما بعدها

(٥) « اللواء » ، ٩ و ١٠ و ١١ و ٢٥ مايو ١٩٠٨

(٦) « اللواء » ، ٥ و ١٢ مايو ١٩٠٨

المقال الاخير المعنون « دنشواى أخرى فى السودان » قرر أن السلطات البريطانية لكى تنتقم لحياة ضابطين ، أحدهما انجليزى ، ذبحت أثناء الفتنه ، وأعدمت سبعين فلاحا سودانيا ، وسجنت ثلاثين ، وعلق جاويش قائلا :

« لا شك أن الثورة ذنب عظيم ، ولكن العقوبة المقابلة رهيبه ، وهى لا تليق بأى أمة متمدينة الا أن تكون أكثر توحشا من قبيلة متوحشة . . فلا شئ يثير الانجليز أكثر من تهجم بعض مستعمراتهم عليهم ، لأنهم يعتقدون أنهم السادة وأهل البلاد عبيد لهم . وقطرة دم انجليزى تساوى فى نظرهم أكثر من أنهر الدم التى نسيل من الخاضعين لحكمهم » (١) .

واضح أن أحدا لم يلتفت الى أن أحد الضابطين القتيلى كان مصريا وأن الفلاحين المذبذبين سودانيون ، فقد كان الجميع مشغولين بالبحث عن عمل بشع جديد لالهاب الرأى العام المصرى ضد الاحتلال البريطانى . وفى مثل هذه الاحوال لا تهم جنسية الضحية ، ففى العام التالى ستمجد « اللواء » طالبا هنديا شنق لانه قتل موظفا بريطانيا .

وأذاعت وزارة الحربية بيانا يقول ان محكمة « الكاملين » حكمت بالاعدام على اثنى عشر فقط لا سبعين وأن السجناء ثمانية لا غير . ورد جاويش فى اليوم التالى بأن الحكومة لم تكن لتنشر الأحكام لولا مقاله وأبدى شكه فى صدق وزير الحربية بالنسبة « لكمية احتقار الانجليز لحياة الآخرين والتفصيلات المخففة التى أذاعتها الحكومة المصرية وقت حادث دنشواى . » (٢) ففى سنة ١٩٠٦ قررت الحكومة المصرية ومستشاروها البريطانيون أن حادث دنشواى فتنة فلاحين مدبرة ، أثارها مهيجو الجامعة الاسلامية ضد ضباط بريطانيين فى زيهم الرسمى . ترى هل كان الوطنيون محقين - على ضوء هذه التجربة - فى التكهن بوقوع شرور أكبر قياسا على شرور أقل ؟ وهل تذكرت الحكومات العربية انكار بريطانيا وفرنسا فى البداية لدورهما فى دعم الحملة الاسرائيلية على سيناء ١٩٥٦ ، حينما ادعوا اشتراك بريطانيا وأمريكا فى حرب يونيو ١٩٦٧ ؟ لا شك أن الخداع السياسى يعدى .

(١) « اللواء » : ٢٨ مايو ١٩٠٨ ، والفقرة الواردة نقلا عن الترجمة الانجليزية المضمنة محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/447 ، من جراهام الى جراى ، الاسكندرية فى ٨ أغسطس ١٩٠٨ ، رقم ٨٢ .

(٢) « اللواء » ، ٣١ مايو ١٩٠٨ .

وسرعان ما قدم الشيخ جاويش للمحاكمة بتهمة نشر أنباء كاذبة والتشهير بوزير الحربية . ويوضح سير المحاكمة مدى ضعف سيطرة البريطانيين على القضاء المصرى ، ومن ثم اضطرارهم فيما بعد الى اللجوء الى الاجراءات التعسفية ضد الوطنيين . فكثيرا ما كانت جموع الوطنيين المحيطين بقاعة المحكمة يقاطعون بضجيجهم اجراءات المحاكمة . فحكم القاضى - ربما بتأثير الخوف - ببراءة جاويش من التهمة الاولى ، وبتغريمه مبلغا صغيرا لتهمة التشهير (١) . واحتفل الوطنيون بانتصارهم فجزوا عربة الشيخ حتى بيته ، وقد أحاط بهم حشد من الشارع قلب بعض الموائد الموضوعه خارج مقهى ايطالى ، وتحرش بعدد قليل من المارة الأوربيين .

واستأنف الحكم كل من الدفاع والادعاء ، وفي النهاية برى جاويش من التهمتين ، على أساس أنه لم يكن يعرف أن الأخبار كاذبة ، وبالتالي لم يتضمن نقده للحكومة سوء نية . (٢) وبدأت البراءة نصرا للوطنيين شجعهم على المزيد من العنف . غير أن السلطات البريطانية التى أزعجها خضوع القضاء المصرى للرعاع بهذه الصورة الواضحة (*) بدأت تفكر فى وسيلة تكبح بها جماح الصحافة الوطنية (٣) .

ولم يفق « جاويش » مصطفى كامل و « فريد » فى ازعاج السلطات البريطانية والمصرية فحسب ، ولكنه استطاع أيضا أن يبعد الأقباط عن الحزب الوطنى (**). وكان مصطفى كامل قد جاهد فى سنواته الاخيرة

(١) 8371/447 ، من جراهام الى جراى ، رقم ٨٢ .

(٢) FO 371/451 ، من جراهام الى جراى فى ٤ أكتوبر ١٩٠٨ ، رقم ١١ .

(٣) انظر الفصل الخامس فيما بعد .

(*) يقرر المؤلف ان حكم براءة الشيخ جاويش كان بسبب خوف القضاة من غضب الجماهير ، وهو تقرير لا يقوم على سند فهو قول بغير دليل . والمؤلف لم يقرأ اسباب الحكم ولا ملف الدعوى ليتبين مدى سلامة الحكم وعدالته حتى يسمح لنفسه بأن يتهم القضاة بما اتهمهم به .

(**) ان القول بأن الشيخ جاويش نجح فى ابعاد الأقباط عن الحزب الوطنى هو قول يلقى على عواذنه فان الشيخ جاويش لم يفلد شيئا ليزعج اخوانه الأقباط ، سواء اكانوا أعضاء فى الحزب او مواطنين عاديين . ولكن الذين اثاروا هذه الفتنة هم لانجليز ، ونجحوا - لفترة جد قصيرة - فى احداث شعور بأن انقسامها ما وقع بين الأقباط والمسلمين وهذه كانت امنيته منذ وضعت جيوش الاحتلال اقدامها على أرض مصر فان المستعمرين سواء اكانوا بريطانيين او فرنسيين او هولنديين ، فى مصر او الهند او الهند الصينية او الجزائر ، يحبون أن يلعبوا على وتر العصبية الطائفية ، وان =

لخلق مجتمع مشترك من المسلمين والأقباط يقوم على الشعور المصرى

= يبعثوا الحانا مشيرة لشاعر الأغلبية ، لتتقلب على الأقلية وتصف بها ، ولكن ضيع على الانجليز المحتلين هذه الاحلام القبيحة امران :

اولا : طبيعة الشعب المصرى الوادعة المسالمة الكارهة للعنف .

ثانيا : متانة العلاقة بين الأقباط والمسلمين على مدى العقب والدهور ، فالطائفتان تعيشان فى القرى ، والمدن ، دون أن يحس احدهما بأن الآخر من طائفة غير طائفه يلبسون نفس الملبس ويتكلمون نفس اللغة ، بنفس اللهجة ، ويمارسون نفس العادات . وقد حدث هذا الوثاق النادر طريل العود فى فترات ساد فيها الجهل ، وفشت الخرافات ، وضعف الفهم الدينى الصحيح عند الطائفتين .

اما الشيخ عبد العزيز جاويش فرجل بحكم ثقافته وعلاقته الطويلة العملية والثقافية بالانجليز ببلادهم وبمصر ، وبحكم مزاجه وسماحته ، أبعد الناس عن أن يكون داعى الفتنة . فقد وقع عليه الاختيار ليتلقى العلم ، بعد أن أتم دراسته العليا فى دار العلوم ، فى جامعة (برو رود) بلندن . وهى جامعة خاصة بالتربية والمربين ، ثم ما لبث حتى ولج عليه اختيار جامعة (أكسفورد) ليكون مدرسا لـ لغة العربية فيها لطلاب الجامعة الراغبين فى التزود بمهرزة لغة القرآن وآدابها . ررجل يختلط بالانجليز المسيحيين ، ويعمل معهم ، ويتبادل وياهم الراى لا يمكن أن يكون رجلا متعصبا عصبية الجاهل المتطرف بغير علم أو فهم

ومقدمات فتنة سنة ١٩٠٨ تدل على أن الشيخ عبد العزيز جاويش لم يسع اليها ، ولم يندخ فى نازها ، فقد بدأت بمفالات نشرها جندى ابراهيم صاحب جريدة « الوطن » شككا فيها من سوء معاملة الأقباط ومن مظالم تقع عليهم ، ثم ينشئ بعد ذلك اخنوخ فانوس « جمعية اصلاح القبطى » لنفس الغرض ، فيتصدى له المحامى الكبير الأستاذ ويصا واصف ويهاجم مساعيه ، فتزد عليه جريدة « الوطن » وتسميه « يهوذا الاسخريوطى » . و « اللواء » طوال هذه الحملات صامت ، والشيخ جاويش لا يشارك فيها بحرف ، حتى كان عدد « اللواء » الصادر فى ٤ من يونية سنة ١٩٠٨ فيتذر بمقال منه مواظنيه من مكائد ودسائس « السير جورست » ويتناول فى هذا الصدد : « ها هو ذا السير جورست يريد أن يقدم لنومه قبل سفره الى لندره ما يشبه مهارته ، حتى اذا خط بها الرجال قال : هانذا قد نلت ما لم ينله سلفى ، ونجحت فيما فشل فيه استاذى . اذ حاول اللورد كرومر مرارا التفريق بين عنصرى الأمة ، وطعن المسلمين بالأقباط ، والأقباط بالمسلمين ، فلم ينجح ولم يفلح ولكنى تكنت باشارة صغيرة منى الى فريق من صغار الموظفين ان اوجد الفرقه التى كان اللورد يجد وراءها ولا يصل » .

وحسب الدرىء ان يقرأ هذه العبارات فى مقال ٤ من يونية ليدرك تماما :

اولا : ان الشيخ جاويش يحذر من فتنة الدين بين طائفتى الأقباط والمسلمين ،

ثانيا : أنه يعتبر محاولة الخصومة والعداوة بين الأقباط والمسلمين مكيدة استعمارية .

ان وقعت فهى لصائح الاستعمار وضد خير الوطن .

ثالثا : انه ينوه بأن المصريين مسلمين وأقباط ، نبحجوا بفضل وحدتهم أن يسدوا

=

على الاستعمار سبيل مكائده ودسائسه .

القومى ، وكانت كلمة السر بين أنصاره هى أنهم « مصريون قبل كل شىء » ، فاتضح فيما بعد أن روابط هذا المجتمع كانت واهية الى أبعد حد . فحينما نشر جورست فى مايو ١٩٠٨ تقريره الاول بوصفه مندوبا بريطانيا وذكر فيه أرقاما تشير الى أن نسبة الاقباط بين موظفى الحكومة أكبر من نسبتهم بين المصريين ، فى حين كان تمثيلهم فى الجيش والوظائف الاقليمية ضئيلا ، بدأ كل من المسلمين والأقباط يطالبون بزيادة تمثيلهم فى القطاعات التى أحسوا أنهم مبعدون عنها . وضخمت صحافة القاهرة الخلاف بمعارك طائفية ، حتى غضب الشيخ جاويش لافتتاحية معادية للمسلمين نشرتها جريدة « الوطن » القبطية ، فرد عليها قائلا :

= فهل يجوز بعد ذلك أن يتهم رجل هذه هى عقيدته ، وهذا هو ادراكه السياسى بأنه أشعل الفتنة الطائفية ونفر الاقباط من الحزب الوطنى .

ولكن المكيدة كانت قد أحكمت خيوطها ، ولذلك بدأ كاتب يدعى فؤاد كامل فى الكتابة فى جريدة « الوطن » سلسلة من المقالات ملاحا طعنا فى المسلمين ، فلم يحرك الشيخ جاويش ساكنا فلما تجاوز (فؤاد كامل) هذا كل حد ، وبدأ يهاجم الاسلام بقوله : « ان الاعتزاز بالقوة ، والاستسجتهار بالضعيف هما الحجران اللذان بنى عليهما ما يسهونه نجد الاسلام » .

وهذا قول جارح خال من كل لياقة ومجاملة ، فضلا عن مخالفته للتاريخ ولا درج المستشرقون من خصوم الاسلام على الاقرار به نلاسلام من حسن علاقته بغير المسلمين فى ظل جميع ممالك المسلمين فى الشرق والغرب . وكان لابد أن يرد على هذا الاجترار الكاذب ، وقد يلتبس للشيخ جاويش العذر ، ان هو استعمل نبرة عالية فى رده ، فهذا هو شأن المجادلات فى الصحف السيارة .

الا أن هذه العاصفة الصغيرة لم تكن سوى سحابة صيف ، اذ سرعان ما هدأت ، فلما احتفل الحزب الوطنى برأس السنة الهجرية حضر الى مكان الاحتفال كل من الأستاذين مرقس حنا وديصا واصف ، وخطبا فى الاجتماع بما راب الصدع ، وجمع الشمل . وقال الشيخ جنويش فى ختام الاحتفال : « رب ضلالة نافعة ، فلقد كان نتيجة تباعد الطرفين زمنا أن محض الله المخلصين للجمع بينهما ، فالطرفان لم يخلقا الا ليتحدا » .

هذا هو قول الحق فى شأن ما دعى به الشيخ عبد العزيز جاويش ظلما من انه فرق بين المسلمين والأقباط عامدا ، ونفر أبناء الصليب من أبناء الهلال ، فهذا عمل لم يخلق له هذا العالم السويح المؤمن بهصر كلها ، الأباطا ومسلمين . وهذا ما قاله بالضبط وهو يؤين محمد ثريد عندما مات فى برلين سنة ١٩١٩ . ولا رشح الشيخ جاويش نفسه لاحدى دوائر مدينة الاسكندرية كتب جندى ابراهيم صاحب جريدة «الوطن» مقالا طويلا حارا فى ٢١ من ديسمبر سنة ١٩٢٣ مؤيدا له وداعيا لانتخابه ، فسقطت تهمة التعصب عنه تماما .

« لقد كان الاسلام هو الذى خلاصكم ، أيها الأغبياء ،
من سيطرة اليونانيين بعد قرون طويلة من العبودية ،
كنتم خلالها تسخرون كالدواب ، وتهانون ، وتركلون .
وبعد أن رحل اليونانيون ألقيتم بأنفسكم بين أيدي
الاسلام ، فحفظ أرواحكم ، وحمى نساءكم وأطفالكم .
ولو كان الاسلام ديانة من النوع الذى تصفونه به ،
لكنتم قد سحقتم وذريت بقاياكم أدراج الرياح لتتطهر
التربة المصرية من أجسادكم . كان الاسلام جديرا بأن
يقطع ألسنتكم من جذورها حتى لا تتكلموا ، وببتر
أصابعكم حتى لا تكتبوا . ولكنكم قبلتم سيادة الاسلام
فحماكم . . . لقد قضيتم ثلاثة عشر قرنا فى بلاد مسلمة
حيث سمنت وتضخمت ثرواتكم وممتلكاتكم . ولو أنكم
عشتم ربع هذا الزمن لا أكثر مع الانجليز لاصبحتم مثل
الهنود الحمر فى أمريكا . . . ولو كنتم تابعين للملك
ليوبولد لجدل من شعورك حبالا وصنع من جلودكم
أحذية ، ولانهالت الهراوات على أجسادكم . . . لقد
عشنا طويلا فى هذه البلاد وفقا لشرائع الاسلام ، اخوة
فى الوطنية . وجيرانا تتبادلون الزيارات والنصائح
فما سبب هذا التغير فى موقفكم الآن ؟ لعلمكم وقد رأيتم
أن رجال الاحتلال يعتنقون نفس ديانتكم فكركم أن
تبيعوهم بلادكم وضماؤكم لتبتروا كل علاقة لكم بنا بعد
كل هذه القرون ؟ فمثل هذا يفعل الخونة
والمارقون . . » (١)

أثار المقال عاصفة من الاحتجاج من المسلمين والأقباط على السواء ،
ولم يقتنع غالبية الأقباط بتوضيح جاويش بأنه لم يهاجم المسيحية بل
جريدة « الوطن » وحدها لهجومها العنيف على المسلمين . (٢) وأيا كان
الدافع لكتابة المقال فقد كان كارثة على كاتبه الذى اكتسب شهرة لا تمحى
كهجاء سليط ومتعصب دينى ، حتى لقد طغت هذه الشهرة على صفاته
الأكثر ايجابية ، بل اتضح فيما بعد أن المقال كان كارثة أكبر على الوطنيين

(١) عبد العزيز جاريش : « الاسلام غريب فى بلاده » ، « اللواء » ، ١٧ يونيو

١٩٠٨

Alfred Cunningham : «Today in Egypt» London, Hurst and Blackett,
1912, pp. 245-249, Alexander : p. 164.

Alexander : p. 164

(٢)

فقد اجتمعت اللجنة المركزية وأصدرت بيانا ينكر وجود أى انقسام بين طوائف الأمة ، وأن أى رأى قد يثير مثل هذا الانقسام لا يعبر الا عن كاتبه لا عن الحزب الوطنى الذى يهيب بجميع المصريين ، من مسلمين ومسيحيين ويهود ، أن يتحدوا فى العمل من أجل حرية بلادهم (١) ، ورغم ذلك فإن كثيرا من الأقباط قرروا أن يخففوا من حماسهم للوطنية المصرية ، وبدأ الحزب يتحول تدريجيا الى كيان اسلامى خالص . أما أولئك المصريون الذين اعتقدوا أن الحركة الوطنية يجب أن تشمل جميع الطوائف فقد تحولوا الى أحزاب أخرى أو هجروا الأحزاب كلها (٢) .

ورغم تنصل الوطنيين فلعل مقال جاويش لم يكن مجرد تعبير عن رأيه الشخصى .

فالمصريون قلما يعترفون للأجانب بوجود حالة شك متبادل بين المسلمين والأقباط ، ولكن لا يطيل أجنبي المقام بمصر دون أن يسمع شككاوى الأقباط من تعصب المسلمين وتحيزهم ، أو همسات المسلمين حول «حق» الأقباط أو عدم ولائهم المزعوم للمصالح الوطنية . وقد شككا عدد من المسلمين لكاتب هذه السطور من تفضيل المؤسسات والمدارس الاجنبية والسفارات للأقباط بشكل واضح (٣) .

ان الأقباط ، باعتبارهم جماعة طائفية تعيش فى بلاد ظلت حتى القرن التاسع عشر تتحدد فيها الحقوق السياسية والمكانة الاجتماعية على أساس الانتماء الدينى ، كونوا لأنفسهم نمطا سلوكيا يضمن استمرار حياتهم ، ويحتكر خلال ذلك عدة حرف ومهن ، كمسك الحسابات . والتغيرات العنيفة التى أحدثها حكم محمد على والاحتلال البريطانى مكنت عددا من الأقباط من تحسين وضعهم الاقتصادى والاجتماعى . فقد قضى محمد على على كثير من القيود المفروضة على الأقباط ، فوصل بعضهم خلال حكم خلفائه الى مناصب كبيرة ، بل مناصب عسكرية أيضا . وكان من الطبيعى أن تجتذب المدارس التبشيرية أعدادا من الأقباط تفوق المسلمين ، فتزودوا بتعليم غربى وسيطروا على اللغات الاوربية مما قوى

(١) «اللواء» ، ٢٠ يونيو ١٩٠٨ ، وادل فريد بتصريح مماثل فى حديث مع مجلة : «Pall Mall Gazette»

(٢) انظر على سبيل المثال : «قريبة سلامة موسى» .

Edward Wakin : «A Lonely Minority : the Modern Story

of Egypt's Copts», New York William Morrow; 1964. (٣)

وهو يقدم تقريرا كاشفا عن أحوال القبط الحالية ، ولم يخل من بعض المبالغات . والمؤلف صحافى أمريكى من أصل لبنانى مسيحى .

مكانتهم في بلاد تتعرض لصدمة الاحتكاك بأوروبا . وازدادت تطلعاتهم بانكاس الحركة العرابية ذات الاتجاهات الخفية المعادية للمسيحيين ومجىء الاحتلال البريطاني . ويرجع انضمام بعض الاقباط الى الوطنيين الى خيبة أملهم في كرومر ، الذي لم يظهر أى تمييز رسمى للاقباط (اذا كان قد ميز طائفة فهم السوريون) . ومع ذلك فكثير من المسلمين ، وقد أذهلتهم متطلبات مجتمع ازداد أخذه بالتقنية الحديثة ، شعروا أنهم منبوذون ومحرومون من كثير من الفرص بالقياس الى الأقليات التى كانت أقدر منهم على التأقلم . وهذا الشعور هو الذى أججه جاويش ، فقد زاد مقاله من شعبيته ، ولم يقللها بين المسلمين من أبناء الطبقة المتوسطة الدنيا التى تفتقد الأمان الاقتصادى والاجتماعى ، وهو نفس العامل الذى ضخم فيما بعد عدد المنضمين للاخوان المسلمين . ومن سوء حظ الوطنيين أن هذه الطبقة لم يكن أى من المسئولين البريطانيين على استعداد لتسليمها بمقاليد الحكم ، كما أنها كانت قادرة على ملء الشوارع ، لا خزائن الحزب الوطنى .

ولم يكن كل الوطنيين يقرون الاتجاه الذى اتخذته « اللواء » بأشراف جاويش . واتخذت مجموعة من الرافضين مقرا لها فى لجنه السيدة زينب الفرعية التى عرفت بتشدها . (١) وفى أوائل نوفمبر ١٩٠٨ قام محررو « اللواء » وعماله بالاضراب بمساندة على فهمى كامل والخديو ، أو هذا ما اعتقده محمد فريد . وبينما كان الطلاب المتطوعون يقومون بطبع أعداد هزيلة من « اللواء » على مطابع « الجريدة » (٢) نصح رئيس لجنة السيدة زينب الفرعية فريدا بقبول مطالب العمال وأيده على فهمى كامل وعدد من الأعضاء . وبعد مناقشات حادة قرر فريد فصل المضربين وتعيين مجموعة جديدة . وعلى الفور قام يوسف المويلحي (الذى اعتبره فريد عميلا للبوليس السرى) بتعيين المجموعة القديمة ليصدر من مقر لجنة السيدة زينب الفرعية جريدة منافسة أسماها « مصر الفتاة » (٣) وخلال السنوات الثلاث التالية نافست « مصر الفتاة » جريدة الحزب

(١) مذكرات محمد فريد : ص ١٠ وما بعدها ، وكان رئيس اللجنة هو محمد العفيفى .
والسيدة زينب حى سكنى وتجارى فى جنوب وسط القاهرة ، أبناؤه من الطبقة المتوسطة الدنيا .

(٢) قد يبدو ذلك مثيرا للدهشة لأن الجريدة كانت لسان حال حزب الأمة ، غير أن فريدا ولطفى السيد كانا صديقين شخصيين يتفقان فى معارضتهما للخديو .

(٣) مذكرات محمد فريد ، ص ١ وما بعدها ، Alexander : p. 196
عبد الرحمن الراعى : ص ٧٧ ، « اللواء » ، ٣ و ٤ نوفمبر ١٩٠٨

الوطني لدى نفس القراء . وكانت الخلافات بين الجريدتين لا تكاد تبين ورغم ذلك فان الجريدة الجديدة لم تكد تنجح في تهدئة عنف « اللواء » .

واذا كان توزيع « اللواء » لم يتأثر بسبب حدته المتزايدة في وجه المنافسة ، فان زميلتيه الاوربيتين أصبحتا على شفا الافلاس . فكان العاملون فيهما يتقاضون مرتباتهم متأخرة وأحيانا لا يتقاضسونها (١) . اذ أن قليلا من المصريين هم الذين يقرأون الصحف ولا يستطيعون - فيما يبدو - التأثير في الرأي العام الاوربي (٢) . وكان محررو «الاستاندارد» عدة شبان من الوطنيين الايرلنديين ، (٣) وروسي اشتراكي مطرود من بلاده هو تيودور روذشتاين ، (٤) وقد بدأت تصدر أسبوعية منذ ابريل ثم ما لبثت أن اختفت تدريجيا من الوجود . وكان الوطنيون يقرأون الفرنسية ويكتبونها أفضل من الانجليزية ، ولكن «ليتاند» كانت تمثل نزيها مكلفا لموارد الحزب . وحينما رفض عمر سلطان صاحب أكبر عدد من أسهم الشركة الموحدة « للواء » و « ليتندر » مواصلة الاتفاق على الأخيرة اضطر فريد الى ايقاف صدور الجريدة اليومية الفرنسية (٥) .

(١) نكمل مراسلات محمد فريد المحفوظة خطابات من رئيس تحرير الجريدتين ، شارل سوفاج وويليام مالوني ، يشكران فيها من تأخير صرف المرتبات ، كما كتب تيودور روذشتاين مراسل لندن الى على فهمي كامل سنة ١٩٠٩ يهدد بمقاضاة الحزب الوطني اذا لم يدفع له مائة جنيه مصري مقابل خدماته .

(٢) كان كثير من المستركين من الأتراك والجراسكس Alexander : p. 39
(٣) خلف فردريك ريان ذو النشاط المعروف في جمعية « سين فين » ويليام مالوني في رئاسة تحرير « ذى اجيبشيان ستاندارد » FO 371/448 من دينجهولي الى جراي ، دابلن كاسل في ٢١ يناير ١٩٠٨ . وقد عمل ريان بعد ذلك مع بلنت في كتابه عن مصر ، وتوفي فجأة وهو يزوره في ابريل ١٩١٣
Blunt « My Diaries » , p. 82f.

(٤) روذ شتاين Rothstein (١٨٧١ - ١٩٥٣) ألف فيما بعد « خراب مصر Egypt's Ruin » وهو تفنيد لزعم كرومر أنه بعث حياة مصر اقتصاديا . وبعد ثورة البلاشفة عاد الى روسيا واصبح السفير السوفيتي في ايران . وعن حياته مؤرخا ودبلوماسيا وعالم اجتماعيا انظر الموسوعة السوفيتية الكبيرة : Rothstein, Fyodor Aronovich, « Bol' shaya Sovietskaya Entsiklopedya, » XXXVII,p. 262

(٥) مذكرات محمد فريد : ص ١١ وما بعدها . وقد لاقى قرار فريد بايقاف الجريدتين معارضة شديدة داخل الحزب .

وفشلت كل محاولات بعث « ليتندر » . ومنذ ذلك الحين اتبع الوطنيون سياسة اعانة العديد من الصحف الاوربية المستقلة التي كانت تصدر في مصر . فلم يكن من السهل على الوطنيين الاختيار بين اكتساب الاصدقاء في الخارج والتأثير على الشعب في الداخل ، فاضطرتهم الصعوبات الماليه وقتذاك الى اختيار الطريق الأخير (١) .

(١) France, Ministere des Affaires Etrangères, Egypte : Presse, IV, 5; 12

نمو الحزب الوطنى

· رغم أن السنة الأولى للوجود الرسمى للحزب قد أضرت بها الخلافات والانقسامات وفصم الروابط مع القصر وأنصاره ، ونشوب المعارك الطائفية فى الصحافة ، فقد استمر الحزب الوطنى يكتسب المزيد من الأعضاء المصريين ، ومن الممكن قياس ذلك بالنظر الى تضاعف عدد لجان الحزب الوطنى فى القاهرة ، والاسكندرية ، والاقاليم ، والمدن الرئيسية فى أوروبا .

ولقد قيل الكثير عن أن مؤيدى الحزب الوطنى كانوا محصورين فى الطبقة المثقفة فى القاهرة والاسكندرية . (١) غير أن الوطنيين حاولوا مد نفوذهم الى الأقاليم والفوز بتأييد عمال القاهرة . لكن الغالبية العظمى من أهل مصر كانوا فلاحين ، وتحويلهم الى وطنيين ليس بالمهمة السهلة . فكان فريد يحث تلاميذه - وبعضهم من أبناء ملاك الأراضى - على قضاء عطلاتهم الصيفية فى تلقين الفلاحين الوطنية ، (٢) كما كانت هناك وسيلة اتصال أفضل تتمثل فى مشتركى الاقاليم فى الصحف الوطنية ، وكانوا أحيانا يقرأون صحفهم بصوت عال للفلاحين الأميين فى مقاهى القرى ، وكذلك شيوخ الريف وفقهائه الذين تأثروا بالمبادئ الوطنية ، ربما مصطبغة بوجهة نظر اسلامية ، فى القاهرة وطنطا والاسكندرية ، بالإضافة الى بعض الفئات دائمة التنقل بين القاهرة والاقاليم ، كالتجار ، والاطباء ، والمحامين وملاك الاراضى (٣) .

(١) Landau : p. 135

(٢) Revue of Monde Musulman, V, 6 (June 1908), p. 367.

(٣) على سبيل المثال : د. ناصر فريد فى طنطا ، والمحاميان عبد الرحمن الرافعى فى الزقازيق ، ومصطفى الشوربجى فى طنطا ، ومالك الأراضى عبد الله طلعت فى أبو كبير .

واذا كان مدى تغلغل الوطنيين فى المناطق الريفية أقرب للتخمين عادة ، فان تجسيد وجود الحزب من خلال لجانه الفرعية يمكن أن يشير - على الأقل - الى مواطن قوته النسبية ، فنجد أكبر تركيز لهذه اللجان خارج القاهرة فى الدلتا ، وبشكل عام فى المدن متوسطة الحجم ، فقد أنشئت فيها عشر لجان على الأقل سنة ١٩٠٨ ، وست أخرى سنة ١٩٠٩ . وثمة مدن أخرى احتفلت بعيد جلوس السلطان عبد الحميد (١) ، أو أرسلت برقيات احتجاج الى جرائ على استمرار الاحتلال البريطانى (٢) .

ورغم أن المتعلمين من أبناء الطبقة المتوسطة المصرية كانوا يسيطرون على هذه اللجان الفرعية فقد كانوا حريصين على الوصول الى العمال والفلاحين بإنشاء مدارس العمال الليلية ، ونقابات العمال ، والجمعيات التعاونية الاستهلاكية . ومن الجدير بالملاحظة أنه بينما لا تكاد تظهر فى خطب مصطفى وكتابه أى إشارة الى أحوال العمال والفلاحين المصريين مع أنه حفيد فلاح ، نجد مزيدا من الاهتمام بمشكلات مصر الاقتصادية والاجتماعية فى خطب وكتابات فريد مع أنه سليل أرستقراطية تركية . وفى حديث نشرته جريدة « ديلى نيوز » اللندنية فى يوليو سنة ١٩٠٨ أفاض فريد فى وصف فشل الحكومة فى تنظيم أحوال العمل فى مصانع السجائر ومحاليج القطن رغم المقالات العديدة التى نشرتها الصحافة الوطنية (٣) .

ولما كانت معظم المشروعات الصناعية القليلة فى مصر يملكها أجنبى فقد كانت الفرصة متاحة للوطنيين للتعاون مع العمال متى استطاعوا إيجاد سبل للاتصال بهم . وتمثل الجهد الأكبر فى إنشاء المدارس الليلية للعمال ، التى افتتحت أولاها لجنة بولاق الفرعية فى نوفمبر سنة ١٩٠٨ . وكان منهج الدراسة يشمل بالإضافة الى القراءة والكتابة ، الدين (وكان يدرسه الشيخ جاويش) ، والقانون ، والصحة ، والشئون

(١) انظر هامش (٢) ص ١٥٧ فى هذا الكتاب .

(٢) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/452 ، من ف.١٠ كامبل الى رونالد جراهام ، لندن فى ١٨ سبتمبر ١٩٠٨ ، ويضم برقيات من لجان الوطنيين الفرعية فى جرجا ، أبو كبير ، كفر الدوار المنصورة ، بولاق ، قسم الخليفة ، طنطا المنيا ، الزقازيق ، بنى سويف ، بنها ، العباسية ، السيدة زينب ، ببا ، ناهيا ، والدرب الأحمر .

(٣) عبد الرحمن الرافعى : ص ٩٠ .

الاجتماعية ، والحساب ، والعلوم ، والجغرافيا ، والأخلاق . (١) وكان كثير من الزعماء الوطنيين يحاضرون فى بولاق . وأنشئت مدارس مماثلة فى مواقع أخرى بالقاهرة والاسكندرية وبعض لجان الحزب الفرعية الأخرى ونادى المدارس العليا وكان تابعا للحزب الوطنى تقريبا ، وباسهام الأثرياء من الأفراد (٢) . كانت الدراسة مجانية ، وعدد التلاميذ حوالى ١٢٠ فى كل فترة دراسية . وحتى جورست نفسها تنبه الى امكان استخدام هذه المدارس مراكز لنشر الدعوة الوطنية (٣) .

وكانت الخطوة التالية هى انشاء نقابات عمالية . وكانت قوة العمال المصريين، الذين وصل عددهم سنة ١٩٠٧ (٤) الى حوالى ٢٨٠٠٠٠ تكاد تكون بلا أى تنظيم بعد اختفاء النقابات التقليدية فى القرن التاسع عشر (٥) . حقا كان معظم العمال من الحرفيين الذين يشتغلون فى محلات صغيرة ، أو من الفلاحين الموسمين ، غير أنه فى بعض الصناعات الأكبر ، كصناعة السجائر ، والنقل ، والتعدين بدأت تتكون نقابات عمالية ، أنشأها العمال اليونانيون والايطاليون المهاجرون . وما لبث المصريون أن استجابوا بتكوين نقابات خاصة بهم ، ومنذ سنة ١٨٩٩ حدثت بعض الاضرابات العارضة ، لم يحقق أى منها نجاحا ملفتا (٦) . فقد كان معظم العمال المصريين غير منظمين وعاجزين أمام تقلبات سوق العمل .

وفى سنة ١٩٠٩ أنشأ اثنان من زعماء الوطنيين ، وهما على ثروت ود . محبوب ثابت ، نقابة لعمال المصانع اليدوية فى بولاق ، كما أنشئت عدة نواد للعمال فى قسمى الصليبية والخليفة بالقاهرة ، ووصلت العضوية فيها الى بضعة آلاف . وفى سنة ١٩١١ كان عدد النقابات قد أصبح

(١) « اللواء » ، ٢ نوفمبر ١٩٠٨ ، وكان من بين المدرسين الآخرين عمر لطفى واحمد لطفى وأمين الرافعى . وبولاق حتى سكنى من أحياء الطبقة الدنيا فى القاهرة .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : ص ٩٠ ، « اللواء » ١٢ ابريل و ١٥ و ٢١ نوفمبر و ٢ ديسمبر ١٩٠٨ و ٩ و ٢٣ مارس و ٦ ابريل و ١٩ يونيو و ٢٨ أكتوبر ١٩٠٩ .

(٣) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/892 من جورست جراى ، القاهرة ، ٦ ماير ١٩١٠ رقم ٥٧ .

(٤) Issawi : « Egypt at Midcentury » , p. 37

(٥) Baer : « Egyptian Guilds in Modern Times » , reviewed by Afaf Loutfi El-Sayed in « Middle Eastern Studies » , II, 3 (April 1966), pp. 272-276

(٦) Issawi : p. 172f. Walter Z. Laquer : « Communism and Nationalism in the Middle East » , New York, Praeger, 1956, p. 35.

احدى عشرة ، مجموع أعضائها ستة آلاف ، بما فيهم الأجانب (١) .
وأيد فريد بقوة حركة نقابات العمال وأول جمعيات تعاونية استهلاكية
أنشأها عمر لطفى فى القاهرة والاسماعيلية سنة ١٩١٠ ، وشجع
الوطنيون اضراب عمال السكة الحديد سنة ١٩١٠ ، وربما أيضا اضراب
عمال الترام فى يوليو ١٩١١ ، فقد تولى أحمد لطفى وكيل الحزب مهمة
الدفاع عن المضربين (٢) .

وفى عصر التنظيمات الشعبية الضخمة ، حينما أصبح باستطاعة
جهاز كالاتحاد الاشتراكى الذى أنشأه عبد الناصر أن يضم خمسة ملايين
عضو (٣) ، تبدو التنظيمات العمالية التى رعاها الوطنيون شديدة
الضآلة فعلا ، كما كانت قصيرة العمر ، ولم توفق - فيما يبدو - الى تحقيق
أية مكاسب اقتصادية لأعضائها . ومع ذلك فقد كانت وسيلة ناجحة
لتزويد بعض أعضاء الطبقة العاملة المصرية بموقف وطنى . فقد كان حزب
مصطفى كامل الوطنى فى حقيقته مجموعة من المعجبين ، غالبيتهم من
طبقات المهنيين وملاك الأراضى ، وكانت أهم ثمرة له نادى المدارس العليا
الذى واصل نضاله بتوجيه عمر لطفى ، ولكن قيادة فريد للوطنية المصرية
سجلت بدء انتقالها من الصفوة الممتازة الى حركة جماهيرية عريضة ، وهى
عملية تطويرية مازالت مستمرة الى اليوم .

(١) عبد الرحمن الرافعى : ص ٩٠ وما بعدها ، محمد فهم أمين ، « تاريخ الحركة
العمالية النقابية » ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٦١ ، ص ١٤ - ١٧ .
(٢) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية Fo371/1115 من تشيخام الى ماليت .
الرمز فى ٣ يوليو ١٩١١ ، خاص .

(٣)
U. S. Army Handbook for the United Arab Republic (Egypt), Washing-
G. P. O., 1964, p. 198.

الفصل الخامس

الحزب الوطنى فى أوج قوته

- ازدياد عنف الوطنيين
- قانون المطبوعات
- الوطنيون المصريون و « تركيا الفتاة »
- الشباب المصرى فى أوروبا
- الخلاف حول قناة السويس وعواقبه

أزدياد عنف الوطنيين

لو أن هناك وقتاً بين سنتي ١٨٨٢ و ١٩١٩ كان من الممكن أن تنشب فيه ثورة لكان سنة ١٩٠٩ أو أوائل سنة ١٩١٠ ، فالحزب الوطني - وقد نجا من الاختفاء بعد وفاة مؤسسه - أخذ يكتسب الأنصار ويفرض مطالبه بشجاعة متزايدة ، في الوقت الذي أخذت فيه السياسة البريطانية تتأرجح بين التسامح والقمع . ورغم أن محمد فريد لم يكن صالحاً - فيما يبدو - بحكم تكوينه الطبقي ومزاجه وخبراته ، لقيادة حركة ثورية ، فقد وجد تيار الأحداث يدفعه إلى اتخاذ موقف متطرف متصاعد . فالحزب الوطني أصبح الآن يهاجم ، عن طريق الخطب والمقالات ومظاهرات الشوارع - لا الانجليز وحدهم - بل كذلك السراي ومؤيديها ، والحكومة المصرية بشكل عام ، ووزارة بطرس غالي بصفة خاصة . وإذا كان زعماء الحزب قد ظلوا يستبعدون الثورة فإن هجومهم الشفوي كان يهدد بتحريض أتباعهم على أعمال العنف ، بل لقد ساعدوا فعلاً على قيام المظاهرات في شوارع القاهرة سنة ١٩٠٩ ، وعلى أول اغتيال سياسي في تاريخ مصر الحديث سنة ١٩١٠ . غير أن الثورة لم تقم .

لقد شاع بين الوطنيين وأنصارهم قدر متزايد من التفاؤل قرب نهاية سنة ١٩٠٨ (١) . والواقع أن آمالهم ظلت تتصاعد باستمرار منذ ظهورهم أمام الرأي العام عقب تنفيذ أحكام دنشواي . وزاد من قوتهم عزل كرومر ، وماتلاه من إعلان سياسة حكومة الأحرار في اعداد مصر للحكم الذاتي . وإذا كانت الأزمة المالية خلال عامي ١٩٠٧ و ١٩٠٨ قد أضعفت

Blunt : «My Diaries», p. 641.

(١)

الموقف المالى للحزب (١) ، فلا شك أنها زادت فى الوقت نفسه عدد المصريين المتدمرين زيادة كبيرة . وفسر الوطنيون انقلاب « تركيا الفتاة » فى يوليو سنة ١٩٠٨ باعتباره نصرا للمبادئ الدستورية التى يعتنقونها بدورهم ، بالرغم من أن زعماء « تركيا الفتاة » لم يبدوا اهتماما سريعا بمصر . وكانت زيادة أعضاء الحزب الوطنى سببا ونتيجة فى الوقت نفسه لهذا التفاؤل (٢) .

ولم يكن ازدياد عنف هجمات الوطنيين راجعا الى تفاؤلهم وحده ، بل كذلك الى منافستهم للأحزاب والطوائف المصرية الأخرى ، واتساع هوة الخلاف مع الخديو ، بالإضافة الى التنافس بين الصحف الوطنية . ووجد هذا العنف التعبير عنه فى المدارس ، والشوارع ، والصحافة .

وكان طلبة المدارس الحكومية العليا يتصدرون مسيرة الحركة الوطنية ، وهامهم يقومون الآن بالاضرابات والمظاهرات . وفى نوفمبر ١٩٠٨ امتنع معظم طلبة مدرسة الهندسة عن الدراسة بتشجيع من جريدة « اللواء » ، احتجاجا على طول ساعات دراستهم . وفى نفس الوقت تقريبا انتهز طلاب مدرسة الحقوق الخديوية فرصة موقعهم القريب من السراى للتظاهر احتجاجا على حضور الخديو الاستعراض العسكرى البريطانى بميدان عابدين . ولتجنب تكرار مثل هذه الأحداث نقلت وزارة المعارف المدرسة الى العباسية (٣) . وفى أواخر ديسمبر قام ما يقرب من أربعة آلاف وطنى ، معظمهم من الطلبة ، بمسيرة من حدائق الأزبكية الى مكاتب تحرير « المؤيد » احتجاجا على تصاعد سياسة على يوسف فى تأييد البريطانيين ، مما اضطر البوليس الى تفريقهم (٤) .

(١) كتب فريد فى مذكراته أن مصطفى كامل وشقيقه خسرا مبالغ كبيرة فى مضاربات البورصة . وقد صدم هذا الكشف الرأى العام المصرى عند نشر المذكرات سنة ١٩٦٤ ، مما يدل على مدى تغير القيم الفكرية فى مصر . ويقول فايف فى كتابه « الروح الجديدة فى مصر » ان أزمة سنة ١٩٠٧ قللت من اعتماد الأثرياء المصريين والأتراك لمؤازرة الحزب

الحزب Fyfe : « The New Spirit in Egypt », p. 160.

(٢) المعلومات التى يمكن الحصول عليها عن عضوية الحزب الوطنى قليلة جدا بحيث يصبح أى تقرير عن مقدار نموها تخمينى الى حد بعيد . وكان « اللواء » ينشر أحيانا تقريرا عن عدد الأعضاء الجدد ، فيذكر مثلا فى عدد ٤ يناير ١٩٠٨ أن اللجنة الادارية للحزب تلقت خلال الايام الخمسة السابقة ٢٧٥ طلبا للعضوية ، وأنها قبلت ٧٢ عضوا خلال شهر فبراير ، ٨١ فى مارس ١٩٠٨ .

(٣) Alexander : p. 196f.

(٤) Ibid. p. 199f. ومن سخریات تاريخ مصر السياسى أن « المؤيد » الذى كان ذات يوم أكبر معبر عن الوطنية المصرية أصبح الآن الهدف الرئيسى لسخط الوطنيين .

وبلغت موجة السخط الوطنى الجديد قمته فى يناير حينما خرج ٥٥٠٠ من طلاب السنتين الثالثة والرابعة بالأزهر فى اضراب ، أيدهم فيه « اللواء » بحماسة . (١) وهذا الاضراب يسجل انتقال اشتغال الطلبة المصريين بالسياسة الى مرحلة جديدة ، اذ كان معظم الأزهرين ينتمون الى الطبقة الدنيا ، فساعد ذلك على عزلهم عن الحزب الوطنى الذى كانت تسيطر عليه طبقة المهنيين بالمدينة . ولكن حينما بدأ الحزب يمد دعوته الى بيئات أوسع ، كان الأزهر بصفة خاصة مجالا خصباً لدعايته ، فهو بمثابة الجهاز العصبى لشبكة العلماء المسلمين فى مصر .

وكان سبب اضراب الأزهر محاولة حمقاء لاصلاح المناهج قام بها مديره الشيخ حسونة النواوى ، (٢) ولكنه نسبها الى الحكومة . فكتب الطلاب عريضة بشكاواهم شكلت لجنة لبحثها ، ولكن الاضراب لم ينته . وأصر المجلس الأعلى للأزهر على فصل الطلبة المضربين ، فى حين استقال الشيخ حسونة احتجاجاً . فعينوا بدلاً منه مدير ديوان الأوقاف خليل حمادة ، وهو أحد المقربين للقصر (٣) ، فأضفى ذلك على الاضراب الذى يؤيده الوطنيون دلالة سياسية جديدة . ودفع الانفعال عدة مئات من الطلاب المضربين الى اقتحام الأزهر والتحرش ببعض الطلاب المستمرين فى الدراسة . فكان لابد من استدعاء البوليس لتفريق المتشاجرين وإعادة النظام . واتهم الوطنيون بعد ذلك خليل حمادة بالقبض على بعض

(١) كان مجموع المقيدين بالأزهر وقتذاك حوالى ١٩٠٠٠ (Alexander : p. 223).

(٢) الشيخ حسونة النواوى (١٨٣٩ - ١٩٢٤) كان شخصية محترمة فى عصره ، وهو جد أمين عام الجامعة العربية الأسبق : عبد الخالق حسونة . وقد بذلت محاولات عديدة لاصلاح مناهج الدراسة بالأزهر ، ظلت تتعثر حتى عهد قريب بسبب معارضة شيوخ الأزهر الذين كان من مصلحتهم استمرار الوضع على ما هو عليه ، وهى حالة ليست غريبة على بعض كليات الجامعات الأمريكية . ورغم توفر حسن النية فى اصلاحات سنة ١٩٠٩ ، فقد كانت تتطلب جهداً كبيراً من الطلاب الذين كانوا وقتها على وشك التخرج وفقاً للنظم القائمة . ومن الظلم اتهام الوطنيين بالخضوع لاهواء المسلمين الرجعيين لا أكثر كما فعل كل من « الكساندر » (Alexander : pp. 221-227) و « الاجيبشيان »

جازيت « The Egyptian Gazette », 23 January 1909

(٣) ديوان الأوقاف هو المجلس الذى يدير الهيئات الدينية ، وقد ظل تحت الاشراف المباشر للقصر حتى سنة ١٩١٣ حينما أنشئت وزارة مستقلة للأوقاف لتجند من اختلاسات الخديو ، وكان للقصر - فيما يبدو - يد فى ادارة الأزهر أيضاً ، وكان عباس يتمتع بشعبية بين علمائه لحرصه على الاحتفاظ بكرامة المعهد (Beaman : 89) . ولذلك فقد كان تأييد الوطنيين للمضربين تحدياً لسيطرة الخديو على أحد المعاهد العلمية الرئيسية .

المتظاهرين والاعتداء عليهم بالضرب (١) ، غير أن مكتب المدعى العام
حفظ الاتهامات •

وأثار الحادث تعليقات عديدة في الصحافة العربية ، حركت عطف
الرأى العام الاسلامى على الطلاب • وكان لابد من تأجيل الاصلاحات
المقترحة الى أجل غير مسمى • وصدر عفو عام عن جميع الطلاب المضربين ،
وأصبح الشيخ حسونة بطلا وطنيا (٢) • وكان ذلك دليلا على انتصار
الوطنيين على القصر • وسرعان ما امتدت عدوى اضطرابات الطلاب الى
المعاهد الدينية فى طنطا ودسوق ودمياط (٣) • وازداد ارتباط علماء
المسلمين فى مصر كلها بالحركة الوطنية •

(١) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/661 ، من جورست الى
جراى ، القاهرة فى ٢٠ فبراير ١٩٠٩ ، رقم ١٧
(٢) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/661 ، من جورست الى
جراى ، القاهرة فى ١٢ مارس ١٩٠٩ ، رقم ٢٢

(٣) Alexander : p. 227

قانون المطبوعات

من الموضوعات التي اختلف حولها الاستعماريون والليبراليون في أوائل القرن العشرين ، هل اتباع سياسة التسامح مع الآراء المخالفة في الشعوب المحتلة يشجع المعارضة الوطنية أم يكون بمثابة صمام أمان ضد قيام حركات سرية وثورية ؟ .

وبشكل عام كانت سياسة بريطانيا في مصر تميل الى التسامح مع الصحافة المعارضة الا اذا خرقت هجماتها القوانين المحلية . ومع ذلك فلم يكن باستطاعة الحكومة المصرية السيطرة على الصحف العديدة التي يملكها كلها ، أو يشارك في ملكيتها ، أجنب تحميم الامتيازات الأجنبية . وبعد تبرئة « جاويش » من تهمة التشهير في حادث « الكاملين » ، لاحظ البريطانيون عدم كفاية الرقابة الحكومية على الصحافة الأهلية أيضا ، اذ بدا قرار المحكمة وكأنه انتصار للوطنيين شجع « اللواء » و « القطر المصري » على رفع صوتيهما أكثر بالتنديد بالاحتلال البريطاني ، والخديو ، ووزرائه .

ولم يستطع البريطانيون الوقوف صامتين يتفرجون على الصحف الوطنية وهي ترهب المصريين الذين يشغلون مناصب هامة ، وتجبرهم على الانضمام للحركة المعادية للاحتلال ، فأرسل « جورست » في سبتمبر ١٩٠٨ تقريرا الى وزارة الخارجية يوصي فيه ببعث قانون المطبوعات المصرية لسنة ١٨٨١ ، وكان « كرومر » قد سمح بتجاهله . وكان القانون ينص على ايقاف أو مصادرة أى صحيفة تنشر أخبارا تسيء الى الأخلاق ، أو الدين ، أو النظام العام ، يقوم بذلك وزير الداخلية أو مجلس الوزراء ، بعد توجيه اذارين ،

كما كان يتيح للحكومة المصرية ضبط تجاوزات الصحافة دون الرجوع الى القضاء ، الذى كان « جورست » يعتقد أنه خاضع للضغط السياسى . (١) وفى ديسمبر صرح « جرای » لجورست بصفة شخصية بأن بريطانيا لن تعترض على احياء الحكومة المصرية لقانون المطبوعات . (٢) وفى ٢٥ مارس سنة ١٩٠٩ (وكان تأخير الأشهر الثلاثة بناء على طلب بطرس غالى) صوت مجلس الوزراء المصرى رسميا على اعادة القانون .

وكانت أخبار البعث الوشيك للقانون قد انتشرت قبل ذلك ببضعة أيام ، (٣) فهاجمه « اللواء » و « مصر الفتاة » فعلا . أما استجابة جاويش للقانون الجديد فكادت تكون دعوة ساقرة للتمرد : « أيها القلم : فلتكن كما يريدونك (يقصد البريطانيين أو الحكومة المصرية) اما نائما أو ميتا الى الأبد . ولكن ستترك وراءك عيونا يقظة لاتنام وأيدي لا يمكن تقييدها . » (٤) وانهمرت على اللواء رسائل وبرقيات عديدة تدافع عن حرية الصحافة وأرسلت اللجنة الادارية للحزب الوطنى رسائل احتجاج الى الخديو ، ورئيس الوزراء ، ووزير الداخلية ، وأبرقت الى الصدر الأعظم والمتحدث باسم مجلس النواب العثمانى (٥) ، وفى ٢٦ مارس بدأت مظاهرات الشوارع وأخذت تزداد قوة ، حتى بلغت قممتها فى أول ابريل بتجمع هائل بدأ من حدائق الجزيرة واتخذ طريقه عبر كوبرى قصر النيل الى أحياء وسط

(١) « الصحافة فى مصر » FO 371/451 (١) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية لجورست ، القاهرة فى ١٦ سبتمبر ١٩٠٨ .

(٢) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/451 ، من جورست الى مالىه ، القاهرة فى ١١ ديسمبر ١٩٠٨ .

(٣) ظهرت مقالات عن مشروع قانون المطبوعات فى عدد « اللواء » و « الاجبيشيان جازيت » الصادرين فى ٢٣ مارس ، وفى صحف أخرى . وكتب (ج . الكساندر » فيما بعد أن « الأجانب المقيمين فى مصر ظنوا فى البداية أن شائعة قانون المطبوعات ليست أكثر من خبر لا أساس له من الصحة نشره المهيجون السياسيون المجردون من الأخلاق . » ودهشوا الى أبعد حد حينما ظهرت صحته . ولا شك أن اتساع الهوية الاجتماعية بين المصريين المثقفين ثقافة غربية والمجتمع الأوروبى وتبادل الشك بينهما كان من العوامل التى ساعدت على نمو الوطنية المصرية .

(٤) عبد العزيز جاويش : « أيها القلم » ، « اللواء » ، ٢٦ مارس ١٩٠٩ ، نقلا عن Alexander, p. 234 ، الجندى : ص ٩١ وما بعدها .

(٥) Alexander, p. 234 ، عبد الرحمن الرافعى : ص ١٠١ .

القاهرة • وأشعلت خطب أحمد حلمي (١) حماسة الجماهير حتى بلغت ذروتها ، فما أن وصلت الى ميدان الأوبرا ، مركز الحي الاوربي بالقاهرة حتى أفلت زمامها ، فألحقت خسائر كبيرة ببعض المحلات المشهورة مثل (نيوبار) قبل أن يفرقها البوليس بخراطيم المياه (٢) وحوكم أحمد حلمي بسبب دوره في المظاهرات وحكم عليه بالسجن ستة أشهر لاهانة الوزراء واثارة الاضطرابات العامة (٣) كما حكم عليه أيضا بالأشغال الشاقة لمدة سنة لتشهيره بالحدود في إحدى مقالاته « بالقطر المصري » (٤) ولم تحدث مظاهرات أخرى ضد قانون المطبوعات وأوقفت الحكومة « القطر المصري » ولكنها لم تتخذ أى اجراء عاجل ضد صحف المعارضة الأخرى :

وتأخر صدور قانون المطبوعات ، لالتساهل البريطانيين ، ولكن لأن كلا من فرنسا وألمانيا والولايات المتحدة رفضت قبول شرط تطبيقه على رعاياها في مصر • ويعتبر هذا نموذجا ممتازا لدور الامتيازات الأجنبية وكيف أنها كثيرا ما تعارضت مع سيطرة البريطانيين على مصر • وسرعان ما اكتشف الوطنيون هذا العيب في القانون فأسرعوا الى حماية صحفهم بتعيين مديرين صوريين لها من الأجانب • وهكذا أصبح الدكتور منصور رفعت الذى ادعى الجنسية الأمريكية ، مديرا سياسيا « للواء » ، غير أن الحكومة العثمانية والقنصلية الأمريكية بالقاهرة لم تعترف بادعائه حينما تلقت « اللواء » بعد ذلك انذارها الأول (٥) • وبيعت « مصر الفتاة »

(١) نقلت « الاجيبيان جازيت » فى عدد ١٢ ابريل قول حلمي « لقد انتهكت حرمة الاسلام ، واعتدى على طلاب الدين • من الذى يستطيع أن يصادر حريتك وانتم شعب يقدم ندمه بالملايين ؟ ان عددهم (أى الوزراء) لا يزيد على خمسة أشخاص ، فهل ستخضعون لهم وتطيعون أوامرههم وهم يحاربون الاسلام بالحيل والمكائد ؟ »

(٢) لوصف مظاهرات الاحتجاج على قانون المطبوعات انظر :

Alexander : p. 236

عبد الرحمن الرافعي : ص ٣ وما بعدها ، Rothstein «Egypt's Ruin», p. 349. وأي صحيفة مصرية فيما بين ١ و ٣ ابريل ١٩٠٩ وكان الهجوم على « نيوبار » فى نظر كثيرين من مسلمى الطبقة المتوسطة رمزا للاعتراض على النفوذ الغربى ، وهو بمثابة ارهاص لحريق القاهرة فى يناير ١٩٥٢ •

(٣) أحمد بدوى : ص ١٠٤ وما بعدها

(٤) أحمد حلمي : « مصر للمصريين » ، « القطر المصري » ، ٨ يناير ١٩٠٩ ، نقل عن بدوى : ص ٨٩ - ٩٢ ، وقد صودرت « الجريدة الأسبوعية » أيضا •

(٥) Alexander : p. 256 كان د • منصور رفعت شقيق كل من ابراهيم حالك واسماعيل لبيب وعبد الله طلعت ، وكلهم كانوا من الوطنيين البارزين ، وكان أبوه =

٥
بيعا صوريا لطابعها الألماني ، فحمى ذلك أكبر منافس « للواء » بضعة أشهر . اذ بينما كان جورست ووزارة الخارجية البريطانية يسعيان عبثا للحصول على موافقة ألمانيا على قانون المطبوعات ، ظلت « مصر الفتاة » ، والعلم الألماني يرفرف فوق مكاتبها ، تهاجم بحرية كلا من كرومر ، وجورست ، وبطرس غالى ، وجيش الاحتلال البريطانى (١) . وأخيرا تلقى القنصل الألماني أوامر من برلين بعدم الاعتراف بالبيع الصورى لجريدة « مصر الفتاة » ، فنصحت وزارة الداخلية بهدوء « المالك » بمغادرة مصر .

هل كانت الحكومة الألمانية ، كما شك جورست وان لم يستطع أن يثبت (٢) ، تتلأ فى هذه المسألة لأنها كانت تؤيد الوطنيين سرا ؟ ان وثائق وزارة الخارجية البريطانية لا تؤكد شكوك جورست ، وكل ما تصوره هو اهتمام معاصريه الزائد بالتسابق البحرى بين انجلترا وألمانيا وما صحبه من منافسات استعمارية . والحقيقة أن ألمانيا ، بعد أن اعترفت سنة ١٩٠٤ بالاحتلال البريطانى لمصر ، تباطأت فى تقدير قيمة التعاون مع الوطنيين ذوى الميول الفرنسية القوية .

وشجع تأخير صدور قانون المطبوعات الوطنيين ، فأرجعوا ذلك مغالطين عن عمد الى مظاهراتهم وبرقيات احتجاجهم . واستأنفت « مصر الفتاة » « واللواء » منافستهما فى الفوز برضى العامة عن طريق الهجمات المثيرة ، التى بلغت قممتها فى ٢٨ يونيو ، حين نشرت الجريدتان مقالات عنيفة فى ذكرى تنفيذ أحكام الاعدام فى دنشواى . وكما يحدث كثيرا فى

٦ ضابطا تركيا خدم فى عهد محمد على ، وعند إحالته الى المعاش منح اقطاعية فى ابي كبير وكان منصور رنعت هو الأخ الوحيد الذى مارس مهنة ، اذ درس الطب بالكلية البروتستانتية (الجامعة الأمريكية ببيروت الآن) ، ثم بكلية طب جامعة جيفرسون بفيلاديلفيا ، ومن هنا كان ادعاؤه الجنسية الأمريكية . وأصبح بعد ذلك من كبار دعاة الوطنيين فى جنيف وبرلين ، ولكن قواء العقلية بدأت تختل ، حتى قضى على حياته فى لينين سنة ١٩٢٥ .

(١) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/660 من جورست الى جراى ، القاهرة فى ١٧ ابريل ١٩٠٩ ، رقم ٤٢ ، من جورست الى مالى ، القاهرة فى ١٧ ابريل ١٩٠٩ ، خاص ، من جورست الى جراى ، الرمل فى ٢٠ يونيو ١٩٠٩
رقم ٧١ Alexander : p. 258 f.

(٢) محفوظات وزارة الخارجية FO 371/660 من جورست الى مالى ، القاهرة فى ١٧ ابريل ١٩٠٩ خاص .

كتابات الوطنيين ، وجه أسمى النقد للمعاونين المصريين ، وبصفة خاصة لبطرس غالى ، وأحمد فتحى زغلول القاضيين المصريين فى محكمة دنشواى المخصصة ، وكانا لايزالان يشغلان منصبين حكوميين رفيعين . وكذلك هاجم جاويش فى مقاله الذى أقرته اللجنة التنفيذية للحزب الوطنى (١) - كما اتضح فيما بعد - أحد محامى الدفاع ، وهو محمود يوسف ، وحينما اتخذ محمود يوسف إجراءات مقاضاة الشيخ مطالباً بتعويض قدره ١٠٠٠٠ جنيه ، أيدت الحكومة المصرية الدعوى ، وأضافت إليها تهمة التشهير الجنائى ببطرس غالى وأحمد فتحى زغلول . وحوكم جاويش ، وأدين فى التهمتين ، وغرم مبالغ رمزية (٢) . وكما حدث فى محاكمة سنة ١٩٠٨ استأنف الحكم كل من جاويش والادعاء ، ولكن المحكمة العليا شددت الحكم هذه المرة ، وحكمت على جاويش بالسجن ثلاثة أشهر ، وأقنعه أصدقائه بعدم الهرب من مصر (٣) ، فأصبح ثانى صحفى وطنى يسجن سنة ١٩٠٩ ، فزاد ذلك من مجد الوطنية المصرية ، التى لم ينل زعماءها المسئولين أى أذى لرفض جورست لسياسة العنف .

وبدا وكأن تشدد السياسة البريطانية بدأ يصد المد الثورى . وحاول الوطنيون تنظيم مظاهرة احتجاج ضخمة فى حدائق الأزبكية ، ولكن « تصادف » أن وزارة الداخلية أخطرت الصحف أن مندوبين من الأزهر والمعاهد الأخرى سيكونون هناك لتسجيل أسماء الطلاب المشتركين فى المظاهرة (٤) . ولذلك استدعى وزير الداخلية « محمود حسيب » ،

(١) Alexander ; p. 259 ويؤكد محمد فريد فى مذكراته (ص ١٩١) أن كل ما كان

يكتبه جاويش كان لا بد أن يقره الحزب قبل النشر .

(٣) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/664 من جراهام الى جراى .

الرمل فى ٨ أغسطس ١٩٠٩ ، رقم ٩٤ .

(٣) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/664 ، من جراهام الى

جراى . الرمل فى ٣٠ أغسطس ١٩٠٩ ، رقم ١٠٣ . وفى خطاب الى لويس مالىه كتب فى اليوم نفسه وضع جراهام : « لقد أصبت بشئ من خيبة الأمل لأن الشيخ لم يفر كما كان معتزماً ، وقد قدمت له كل التسهيلات التى أرادها ، ولكن أصدقائه أقنعوه بأن الفرار معناه القضاء على مستقبله السياسى فى هذه البلاد ، وأن عليه أن يتدبر الأمر جيداً . وبصراحة فإن وجوده فى السجن هنا يمثل عبئاً ثقيلاً أن لم يكن أسوأ . وقد ظهر قدر من العطف الأفلاطونى على الشيخ ، وبصفة خاصة فى الصحف الأوربية المحلية . واعتبر كبش الفداء لحزبه ، وحقيقة أن سفر زعيمه محمد فريد فى رحلة الى أوربا لم يزد من شعبيته ، ولكن العطف على الضحية ليس من طبائع المصريين بحال . »

(٤) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/454 من جراهام الى مالىه

الرمل فى ٣٠ أغسطس ١٩٠٩ ، خاص .

وكان قد عين حديثا « مشرفا » على الحزب و« اللواء » ، وانهذره بأن الحكومة مصرة على سحق المظاهرة . ولما كانت « اللواء » قد تلقت منذ فترة وجيزة انذارها الأول وفقا لقانون المطبوعات بسبب مقال مجده وطنيا هندية أعدم لقتله موظفا بريطانيا كبيرا ، (١) فقد تعهد محمود حسيب بأن تكون المظاهرة سلمية بشرط ألا تتدخل الحكومة بالقوة . وقاد حسيب مظاهرة الاحتجاجين بنفسه ، ولم تقع أى حوادث (٢) . ووجه العطف المنتشر على جاويز إلى الدعوة للإكتتاب فى وسام ذهبى ، قدم للشيوخ عند إطلاق سراحه من السجن .

وفى منتصف سنة ١٩٠٩ بدأ وكان هناك دفعة لتحويل نشاط الوطنيين من الكفاح المحلى إلى الدعاية فى الخارج ، كما كان الحال أيام مصطفى كامل .

(١) « اليوم يقتل دمينغرا » ، « اللواء » ، ١٧ أغسطس ١٩٠٩ ، ولترجمة المقال انظر : Alexander, p. 234 . ومما هو جدير بالذكر أن بطرس غالى أراد مقاضاة « اللواء » على مقال آخر ، وهو رسالة كتبها طالب من أسيوط ، ولكن وونالد جراهام اقنعه بالا يفعل ، لأن ذلك سيوحى برغبة فى الانتقام من « اللواء » بوحى من البريطانيين .

وحين اغتال احد الوصيين بطرس غالى بعد ستة أشهر ، ندم كثير من البريطانيين لأنهم لم يأخذوا تلك الهجمات الصحفية بعقد أكبر .

(٢) « اللواء » ٣٠ أغسطس ١٩٠٩ ، من محمود حسيب إلى فريد ، القاهرة فى ٣ سبتمبر ١٩٠٩ .

الوطنيون المصريون و « تركيا الفتاة »

على قدر ما كان الوطنيون يتطلعون الى تأييد استانبول ضد البريطانيين فانهم لم يفيدوا فورا من انقلاب سنة ١٩٠٨ الذى وصل بحزب تركيا الفتاة الى الحكم . فولاء الوطنيين السابق للسلطان عبد الحميد أبعدهم عن حكم تركيا الجدد . وكان جانب من هذا الولاء يرجع الى افتتاح مصطفى كامل بالجامعة الاسلامية ، والى قرار حكيم بعدم مقاومة أكثر من طامع أجنبى فى وقت واحد . وقد رفض الوطنيون المصريون اتهامهم بأنهم يؤيدون الأتراك دون تبصر . فلا شك أن مصر كانت من الوجهة الشرعية جزءا من الامبراطورية العثمانية ، وكانت الأسرة الخديوية وغالبية الطبقة العليا تتحدث باللغة التركية ، وان كانت الحركة الوطنية الاولى بدأت تمردا ضد امتياز طبقة الأتراك والجراكسة . ومهما كان الأمر ، فبريطانيا - لاتركيا - هى التى سيطرت على مصر منذ سنة ١٨٨٢ ، ومن ثم رأى حزب مصطفى كامل الوطنى فى الاولى عدوا ، وفى الاخيرة حليفا ، ولو بصفة مؤقتة .

وحين نتأمل المشهد الدبلوماسى الأوسع نجد أن بريطانيا قد بدأت تتخلى شيئا فشيئا عن دورها السابق فى حماية تماسك الولايات العثمانية . فاحتلال بريطانيا لمصر ، ثم تأييدها الأرمن سنة ١٨٩٦ ، والاتفاق الودى مع فرنسا سنة ١٩٠٤ ، وحادثة طابة سنة ١٩٠٦ ، وتسوية الخلافات الاستعمارية مع روسيا سنة ١٩٠٧ (مع ما ترتب على ذلك من احتمال تقسيم الدولتين الكبيرتين لتركيا الى منطقتى نفوذ كما فعلتا بايران من قبل) . كل ذلك أسهم فى تدهور النفوذ البريطانى لدى الباب العالى . وكانت الصحافة البريطانية تسمى « عبد الحميد » « عبد اللعين » و « السلطان الأحمر » ، مضطهد الأقليات المسيحية البائسة ، ومدبر مؤامرات الجامعة الاسلامية (وكان دوره فيها يهدد ، بصورة مبالغ فيها

بلا شك ، سيطرة بريطانيا على الملايين من رعاياها من المسلمين الهنود ،
لاغراية اذن اذا اعتبر الوطنيون المصريون عدو عدوهم صديقا لهم ،
وأعداءه المحليين في تركيا الفتاة ، أو جمعية الاتحاد والترقي ، أعداء لهم
أيضا . وكذلك لم يكن من قبيل المصادفات أن جمعية الاتحاد والترقي
حينما اضطرت السلطان الى إعادة الدستور التركي بعد طول إيقاعه ،
أن تبحث عن التأييد الدبلوماسي عند بريطانيا (١) .

ولذلك فلم يبد أعضاء تركيا الفتاة أى حرص على مساعدة الوطنيين
المصريين في بداية الأمر . فأور بك ، بطل انقلاب سنة ١٩٠٨ وفيما بعد
مصمم تحالف تركيا مع ألمانيا أثناء الحرب ، ألقى في سبتمبر ١٩٠٨
خطابا أثنى فيه على منجزات بريطانيا في مصر وأنكر أى علاقة بالوطنيين .
وذهب على فهمي كامل الى استانبول بعد شهر من الانقلاب ، ولكنه فشل
في الحصول على أى تأييد لأهداف حزبه (٢) واعتقد الوطنيون أن السلطان
سينصح الخديو ، وكان يصطاف بقصره المطل على البوسفور ، بأن يمنع
البلاد دستورا عند عودته الى مصر . والواقع أن السلطان في أحد لقاءاته
بالخديو حرص على أن يترك لتقديره - اذا شاء - أن يستجيب لمطالب
الوطنيين . أما التأييد الذي ناله الوطنيون فقد كان من مختار باشا (٣)
المنسوب السامي العثماني بالقاهرة الذي سرعان ما عزل من منصبه ، ومن
أحمد رضا الذي نصح فريدا بالألا يكثر بادعاءات الصحافة بأن جمعية
الاتحاد والترقي لا تهتم بالمسألة المصرية (٤) . والواقع أن رضا الذي تزعم
أعضاء تركيا الفتاة في المنفى خلال أقصى سنيهم ، لم يكن له نفوذ يذكر على
الرجال الذين استولوا على السلطة سنة ١٩٠٨ . فمحمد فريد لم يكن
موفقا بشكل عام في اختيار الأصدقاء في تعامله مع الأتراك وغيرهم من
الأجانب .

(١) نوقشت هذه المسألة بالتفصيل أكبر في :

Alan Cunningham : «The Wrong Horse ? — a Study
of Anglo — Turkish Relations before World War I »,
in Albert Hourani, ed. : « Middle Eastern Affairs », no. 4, London;
Oxford University Press, 1965, pp. 56 - 76, Langer : « The Diplomacy
of Imperialism », pp. 161 - 163, 197 - 201, Sir John A. R. Marriott :
«The Eastern Question» 4th ed., London, Oxford University Press,
1940, pp. 393f., 407, 434; Romsaur : « The Young Turks », p. 141

(٢) محفوظات وزارة الخارجية FO 371/449 من لوثر الى جراي ، ثرايا في
٢٨ أغسطس ١٩٠٨ ، رقم ٥٢٢ ، من جراهام الى جراي ، القاهرة
في ٢٧ سبتمبر ١٩٠٨ ، رقم ٩٥ .

(٣) Alexander : p. 179

(٤) من رضا الى فريد ، باريس في ١٠ سبتمبر ١٩٠٨ .

ولما كان الوطنيون قد فقدوا فعلا تأييد كل من فرنسا والخديو ، فقد أرادوا المحافظة على علاقتهم بالحكومة العثمانية ، مركز القوة الوحيد الباقي الذي كانت له مصلحة في معارضة استمرار الاحتلال البريطاني لمصر . وفي أوائل سنة ١٩٠٩ بدأت آمال الوطنيين تنتعش ، وتحقق لهم نصر صغير تمثل في تعيين الباب العالي مندوبا ساميا جديدا في مصر متجاهلا بذلك معارضة الخديو وجورست (١) . وكذلك فقد كتب الصدر الأعظم الى الخديو ، ربما بتحريض من الوطنيين ، يطلب تفسيراً للاتفاقية التي أقيم بموجبها حكم ثنائي انجليزى - مصرى في السودان ، وكان مرور عشر سنوات عليها في ١٩ يناير ١٩٠٩ مناسبة لاحتجاجات عديدة قام بها الوطنيون . واستطاع السفير البريطاني اقناع الصدر الأعظم بعدم اثاره المسألة علنا (٢) .

وتحولت استانبول سنة ١٩٠٩ الى كعبة بالنسبة لسلسلة من الحجاج الوطنيين الذين قصدوها للحصول على تصريحات بتأييد الحكام العثمانيين الجدد لهم . وكانت الصحافة الوطنية تتلقف كل اشارة تأييد رسمى وتضخمها ، وتقلل من شأن معارضيتها ، فتصبح موضوعا لمقابلات بين السفير البريطاني والباب العالي .

قام الشيخ جاويش برحلته الأولى الى تركيا في يناير ، واضطر السفير لوثر الى الاتصال بوزير التعليم العام للتحرى عن صحة ما أشيع عن تعيين الشيخ فى تلك الوزارة (٣) . وفى ابريل سافر فريد بنفسه الى استانبول حيث شاهد الثورة المضادة الفاشلة التى دبرها عبد الحميد

(١) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/659 من جورست الى جراى القاهرة فى ١٢ فبراير ١٩٠٩ ، برقية رقم ٧ ، من لوثر الى جراى ، استانبول فى ٤ ابريل ١٩٠٩ ، برقية رقم ١٠٣ ، من جورست الى جراى ، القاهرة فى ٨ ابريل ١٩٠٩ ، برقية رقم ١٤ . وكان البريطانيون يشكون من زمن طويل من أن دار المندوب العثمانى تحولت الى وكر لمؤامرات الجامعة الاسلامية ، وكان ذلك اثر مفاوضات بعثة دروموند - وولف الفاشلة ١٨٨٧/٨٥ التى لم تسفر الا عن تأكيد السيادة العثمانية على مصر .

(٢) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/660 من جورست الى جراى ، فى ٧ فبراير ١٩٠٩ برقية رقم ٥ ، من لوثر الى جراى ، استانبول ، ٩ فبراير ١٩٠٩ ، برقية رقم ٥٥ .

(٣) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/659 من لوثر الى جراى ، استانبول ، ٨ فبراير ١٩٠٩ ، رقم ٤٤ .

ضد جماعة الاتحاد والترقى وانتهت بعزلة . (١) وقد أتاح له وجوده هناك سرعة الانتقال الى الجانب المنتصر : فقد حضر صلاة الجمعة مع السلطان عبد الحميد قبل الانقلاب ، ثم حضرها بعد ذلك مع خليفته محمد الخامس (٢) .

وفى يونيو أستقبل السلطان الجديد وفدا صغيرا من الوطنيين برئاسة الدكتور عثمان غالب (١٨٤٥ - ١٩٢٠) ، ولكن يبدو أنه لم يلتزم بشيء فى تصريحاته أمامهم . (٣) وفى يوليو قام فريد برحلة أخرى الى استانبول على رأس وفد وطنى كبير هذه المرة (٤) ، لحضور الاحتفال الرسمى بالذكرى الأولى لاعادة الدستور العثمانى . وقد انزعج الخديو كثيرا ، وكان هو الآخر فى استانبول وقتذاك ، لدعوة وفد الوطنيين لحضور المأدبة الرسمية التى أقامتها جمعية الاتحاد والترقى بقصر يلدز ، المقر الرسمى للسلطان . وشكا كل من عباس والسفير البريطانى للباب العالي هذا التكريم الذى ناله الوطنيون ، فسادا بذلك على منع وفد فريد من الفوز بمقابلة السلطان .

وعند مغادرة فريد لاستانبول أرسل برقية شكر للصدر الأعظم ، رد عليها بخطاب ودى لم يلتزم فيه بشيء ، فنشره فريد فى « اللواء » (٥) هذا التصرف العادى فيما يبدو دفع بطرس غالى الى الكتابة للخديو فى استانبول محتجا (٦) . وكلف « جراى » لوثر بأن يشير على الصدر الأعظم بأن الخديو يعتبر استقبال السلطان لوفد « غالب » وعلاقات جمعية الاتحاد والترقى بالوطنيين تصرفات غير ودية ، وينذره بأن تركيا اذا حاولت

(١) أرسل فريد مشاهداته عن الانقلاب وما تلاه الى « اللواء » ، فكانت باعتراف « الاجيشيان جازيت » و « الوطن » افضل ما نشر عن الموضوع فى الصحف المصرية Alexander : pp. 245 - 247 ومذكرات محمد فريد : ص ٦ وما بعدها .

(٢) مذكرات محمد فريد : ص ٦

(٣) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/663 من لوثر الى جراى ، ٢٩ يونيو ١٩٠٩ ، رقم ٥٠٦ .

(٤) كان من المشتركين فى الوفد ثلاثة من أعضاء اللجنة الادارية للحزب الوطنى ، بالاضافة الى عدد قليل من شباب الوطنيين ، كان الوردانى احدهم ، وهو الذى اغتال فيما بعد رئيس الوزراء بطرس غالى . ومثل حزب الأمة بعضو فى الوفد ، فقد كانت العلاقات الودية سائدة بين الحزبين فى تلك المرحلة .

(٥) مذكرات محمد فريد : ص ٧ وما بعدها . « اللواء » ، ١٥ أغسطس ١٩٠٩ .

(٦) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/662 من جراهم الى جراى ، الرمل فى ٢١ أغسطس ١٩٠٩ ، رقم ٩٩ .

اثارة المسألة المصرية فان بريطانيا قد تعيد النظر فى موقفها الودى نحو تركيا (١) . وكان الصدر الأعظم قد تلقى بالفعل اعتراض الخديو على تشجيعه للوطنيين وعدم لياقة استقبال السلطان لوفود مصرية دون موافقة نائب السلطان فى مصر (٢) . فأصدر الصدر الأعظم تعليماته للمندوب السامى العثمانى فى مصر بعدم تشجيع الوطنيين (٣) ، ثم صرح بعد ذلك لمراسل جريدة « الثان » الفرنسية بأن حكومته ليس لها ، ولا تريد أن يكون لها ، أى علاقة بالحزب الوطنى المصرى (٤) .

وأثار هذا التصريح ثائرة الوطنيين ، لأنه ضيع هباء كل جهودهم لمحاولة اثبات أنهم يستندون الى تأييد صاحب السيادة الشرعية على مصر . ورد فريد ، وتصادف أن كان فى باريس فى جريدة « لينوفل » بأن الصدر الأعظم قد أكد لوفده أن الحكومة العثمانية لا يمكن أن تنسى مصر أبدا ، ولكن ضعفها الحالى يمنعها من القيام بأى عمل ايجابى (٥) .

وأيا كان الأمر فان الوطنيين لم يحاولوا الافادة سياسيا مرة أخرى من علاقاتهم بالعثمانيين الا بعد مرور سنوات عديدة .

-
- (١) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية
لندن فى ٢١ سبتمبر ١٩٠٩ ، رقم ٢٩٠ .
FO 371/662 من لوتر الى جراى .
- (٢) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية
ثيرابيا فى ٧ سبتمبر ١٩٠٩ ، رقم ٧٢٠ .
FO 371/662 من لوتر الى جراى .
- (٣) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية
ثيرابيا فى ١٨ سبتمبر ١٩٠٩ ، رقم ٧٦٣ .
FO 371/661 من لوتر الى جراى .
- (٤) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية
القاهرة فى ٩ اكتوبر ١٩٠٩ ، رقم ١٢٣ « Le Temps » فى ٥ اكتوبر ١٩٠٩ .
FO 371/662 من جراهم الى جراى .
- (٥) Rothstein : p. 364f. Alexander : p. 282f.

الشباب المصرى فى أوربا

منذ سنة ١٩٠٤ لم تناصر أى دولة أوربية قضية استقلال مصر عن الحكم البريطانى ، غير أن الوطنيين لم يفقدوا الأمل أبدا فى أن حملة دعاية منظمة من الممكن أن تميل بالرأى العام الحر الى جانبهم ، ومن ثم تغير احدى الحكومات الأوربية خطتها . وكان حزب تركيا الفتاة قد نجح فى الاستئثار بقلوب الأحرار فى أوربا بحرمانه « السلطان الأحمر » من سلطته أولا ، ثم من عرشه بعد ذلك ، وبعث الدستور العثمانى ، والاعتراف بحقوق الأقليات الدينية والقومية داخل الامبراطورية ، فلماذا لا يفوز « شباب مصر » أيضا ، وهم لا يرون أنفسهم أقل تقدما من الأتراك بعطف الأوربيين وتأيدهم ؟

وضع الاطار التنظيمى لهذه الحملة الدعائية فى منتصف سنة ١٩٠٨ . فقد كان عدد المصريين الذين يدرسون بالخارج آخذا فى التزايد ، وبصفة خاصة فى المدارس والجامعات البريطانية والفرنسية والسويسرية . وفى أى مدينة يزيد فيها عدد الطلاب المصريين عن اثنى عشر كانوا يتجهون عادة الى تكوين نادىهم الاجتماعى ، وكان يصطبغ غالبا بصبغة سياسية . وفى سنة ١٩٠٨ كانت جمعيات الطلاب الكبيرة فى كل من لندن وباريس وليون تنظيمات تابعة للحزب الوطنى فى حقيقتها (١) .

(١) تضم أوراق فريد الخاصة بخطابات عديدة من المسئولين فى الجمعية المصرية بلندن . وقد خرجت جماعة من الوطنيين الذين كانوا يدرسون بلندن من الجمعية فترة قصيرة خلال سنة ١٩٠٨ ، وكونوا جمعية شباب مصر على النحو الذى أوضحه مؤسسها ابراهيم رمزى (١٨٨٤ - ١٩٤٩) فى رسالة الى « اللواء » فى ١١ ابريل ١٩٠٨ . ورأس فريد الاجتماع الاول لجمعية باريس التى انتخبت د. عثمان غالب (١٨٤٥ - ١٩٢٠) رئيسا فعليا ، وكان مديرا لمدرسة الطب بالقاهرة قبل أن ينفى نفسه مختارا . وعن جمعية باريس انظر : « Revue du Monde Musulman », V, 8 (August, 1908), p. 709f.

وكانت جنيف بمثابة المركز الرئيسى غير الرسمى للتوجيه السياسى للطلاب المصريين بالخارج . وفى سبتمبر ١٩٠٨ نظم محمد فهمى المدرس بكلية الحقوق بجامعة جنيف مؤتمرا « لشباب مصر » ، فكون المشتركون فيه ، ومعظمهم من الطلاب ، لجنة دائمة لتنظيم مؤتمرات سنوية لشباب مصر ، ولأن فهمى لم يكن عضوا فى الحزب الوطنى ، فان مؤتمره الاول لم ينل الا تأييدا ضئيلا من الحزب (١) ولكن اللجنة الدائمة شرعت على الفور فى القيام بحملة دعائية للاجتماع المزمع عقده سنة ١٩٠٩ . وقام أحد الأعضاء ، وهو على الشمسى ، بنشر مقالات فى مختلف الصحف الأوروبية يعلن فيها عن المؤتمر ، كما زار نوادى المصريين الأخرى ، وكتب الى فريد كثيرا يلتمس تأييد الحزب الوطنى (٢) .

وكان المتوقع أن يرحب الحزب الوطنى بهذه الفرصة لنشر آرائه فى قلب أوروبا ، غير أنه لم يفعل فى البداية . ويبدو أنه كان أسهل على الشمسى أن يعثر على أوروبيين مشهورين يقبلون حضور مؤتمر شباب مصر (بعد تغطية كل النفقات) من أن يجد وطنيين مصريين راغبين فى تأييده فقد كتب الى فريد فى مارس يشكو له أن أحدا من أعضاء الحزب لم يرسل خطبة لتلقى فى المؤتمر أو اسهاما لمواجهة نفقاته ، ثم تساءل : هل يعتقد الوطنيون أن كتابة المقالات لصحف القاهرة أجدى من تنوير الرأى العام الأوروبى ؟ ، وحذر من أن مؤتمرا صغيرا غير مدعم لابد أن يسئ الى الحركة الوطنية فى الخارج (٣) .

وحين فشلت هذه الدعوة ، ربما لعدم ثقة الوطنيين فى محمد فهمى ، قدم على الشمسى ، الى القاهرة ليستحث التأييد بنفسه . وأخيرا وافق فريد على حضور المؤتمر ومعاونة الشمسى فى الحصول على المال والخطباء (٤) . ولاضفاء جو من الوثام على المؤتمر وافق حزبا الأمة

(١) من على الشمسى الى فريد ، جنيف فى ٢٢ نوفمبر ١٩٠٨ ، والشمسى ينتمى الى أسرة اقطاعية نرية من الزقازيق من أصل تركى اختلط بالمصريين . وعمل بعد ذلك فى البرلمان ، وفى عدة وزارات ، ثم مديرا للبنك الاهلى . وكان ابن أخيه - على صبرى - رئيسا لوزراء مصر فيما بين عامى ١٩٦٢ و ١٩٦٥ .

(٢) من الشمسى الى فريد ، جنيف فى ٢٢ نوفمبر و ٣١ ديسمبر ١٩٠٨ ، ١٤ فبراير ١٩٠٩ .

(٣) من الشمسى الى فريد ، ادنبرة فى ٢٠ مارس ١٩٠٩ ، والواقع أن البريطانيين فى القاهرة كانوا يميلون الى اعتبار المؤتمر مجرد أضحوكة
Alexander : p. 271f., « The Egyptian Gazette », 16 February 1909.

(٤) من الشمسى الى فريد ، جنيف فى ١٣ يوليو ١٩٠٩ .

والاصلاح الدستوري أيضا على ايفاد ممثلين لهما . وأعلنت اللجنة الدائمة للمؤتمر أنه يهدف الى « . . التعريف بمطامع انجلترا في وادي النيل ، وفضح المساويء التي ترتكبها كل يوم باسم الحضارة والتقدم ، والبحث عن علاج للموقف بكل الوسائل الممكنة والمشروعة . . » (١) .

وأيا كانت درجة تأثير الرأي العام الأوربي باتفاق الأحزاب السياسية المصرية حول ضرورة الاستقلال الوطنى ، أو الجدية التى تقبل بها بعض الموضوعات الجدلية مثل « شرور الاحتلال » و « اشتراك جيش الاحتلال فى تهريب الحشيش » و « المقارنة بين المسألتين المصرية والايرلندية » (٢) ، فلاشك أن أبرز سمات المؤتمر كانت اشتراك ما لا يقل عن أربعة نواب من مجلس العموم البريطانى ، كان أهمهم كيرهاردى رئيس حزب العمال المستقل ، وقد ألقى خطبة نصح فيها المصريين بتجنب تكتيكات المتطرفين ، كالإساءة الشخصية الى الموظفين الانجليز المتصرين ، أو الإلحاح على حوادث فردية مثل حادثة دنشواى ، أو تكوين جمعيات ثورية سرية (٣) .

وكان ذلك أبعد ما يكون عما يريد الشباب المصرى سماعه . وقد وصف لطفى جمعة طالب الحقوق بليون فى مذكراته غير المنشورة ، وهو الذى قام بالدور الرئيسى فى اقناع أعضاء مجلس العموم البريطانى بحضور المؤتمر ، خطبة هاردى بأنها كانت ثناء على عمل كرومر فى مصر ودعوة للمصريين للخضوع للحكم البريطانى . وما ان انتهى هاردى من خطبته حتى نهض جمعة ، متجاهلا رفض فهمى الاعتراف به ، وشرع يفند الخطبة نقطة نقطة ، فحمله زملاؤه على اكتافهم وطافوا به القاعة وسط الهتاف والتصفيق . ودهش فريد الذى لعله لم يفهم خطبة هاردى ، وسر

(١) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/662 من كارترايت الى جراى فيينا فى ٩ مايو ١٩٠٩ ، رقم ٧٠ . وتوجد مقتطفات منها فى : Alexander : p. 272
(٢) يقدم عبد الرحمن الرافعى قائمة لغالبية الكلمات التى ألقاها المصريون فى المؤتمر : ص ١١١ وما بعدها ، تضاف اليها التقارير التى نشرتها جريدة « L'Eclair » فى ٢٢ سبتمبر ١٩٠٩ ومحفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/662 من باكس - ايرونسايد الى جراى ، برن فى ٢٩ نوفمبر ١٩٠٩ ، رقم ٥١ ولم يخطب فى المؤتمر أى من أعضاء اللجنة الادارية للحزب الوطنى ، باستثناء فريد الذى ألقى خطبة طويلة باللغة الفرنسية عن مساويء الحكم البريطانى فى مصر ومطالب الحزب الوطنى . وللترجمة العربية لهذه الخطبة انظر : عبد الرحمن الرافعى ص ص ١١٢ - ١١٦ .

(٣) Emrys Hughes : « Keir Hardie »; London; George Allen and Unwin, 1956, p. 188, Alexander : p. 275f.

برد جمعه الفورى ، فضمه وقبله وصاح والدموع تترقرق فى عينيه :
« انت ابنى ! أنت خليفتى ! أنت زعيم ! »

واذا بكير هاردى يصبح ، بغبائه ربما ، كمتحرر أبيض وسط تجمع
قوى من السود ، ولكنه مالبث أن تخلى عن هذا الدور بتوضيح للملاحظات
يلاثم الجو السائد بين الحاضرين .

كانت استجابة « جمعة » الخاصة تناسب شابا متطرفا كاستجابته
العامة ، فى حين كانت خطبة هاردى مؤامرة من حزب العمال حرض عليها
فهى لخدلان الوطنيين . وكان فريد « غير مشغول بهذه المسائل ، مهتما
فقط بالقاء خطبته وحضور المآدب » ، بل كان يشك فى أن أقرب أصدقائه
ومعاونيه ، وهو حامد العلايلى ، عميل للخديو (١) .

كان القصد من مؤتمر مصر الفتاة أن يكشف لأوربا عن رغبة مصر
الموحدة فى الاستقلال الوطنى بصرف النظر عن الانتماءات الحزبية ،
وبدلا من ذلك اذا به يكشف عن انقسامهم العميق الى فئات كل منها يشك
فى الآخر . فقد اعتقد فريد أن الخديو ضم فهى الى حزب منافس (٢) .
وكان مؤتمر مصر الفتاة مناسبة نادرة تعاون فيها فريد مع حركة مصرية
لاتخضع لسيطرته ، بحيث لاندعش لقرار الحزب بالاشراف على مؤتمره
الأوروبى فى العام التالى .

(١) أنا مدين لرابع لطفى جمعة بمصر الجديدة (ج . ع . م) للسماح لى بقراءة
مذكرات والده عن سنة ١٩٠٦ . وفى لقاء مع حامد العلايلى أخبرنى أنه لم يصبح عميلا
للخديو الا منذ سنة ١٩١١ حين تزوج ابنة الشاعر أحمد شوقى .

(٢) Blunt «My Diaries» : pp. 686, 693.

الخلاف حول قناة السويس وعواقبه

على الرغم من أن الوطنيين قادوا حملة ضخمة تطالب بحكومة دستورية ، فمن الخطأ الظن أن مصر كانت بلا دستور ، إذ كان القانون النظامي لسنة ١٨٨٣ ، وقد ظل القاعدة التشريعية للحكومة المصرية ثلاثين سنة ، يسمح بقيام عدة أجهزة نيابية : مجلس شورى القوانين ، والجمعية العمومية ، ومجالس المديرية . ولكن انتخاباتها جميعا كانت غير مباشرة ، والتصويت محدد ، واختصاصاتها ضئيلة للغاية ، في حين كانت سلطة التشريع الفعلية مقصورة على الوزراء ، أو على مستشاريهم البريطانيين في حقيقة الأمر .

ومن الخطأ أيضا الظن أن البريطانيين كانوا غافلين عن حاجة هذه الأجهزة إلى الدعم والاصلاح ، فخلافهم مع الوطنيين كان حول سرعة هذا الاصلاح ومداه . وزاد من تعقيد المسألة الاختلاف حول هذا الكيان التشريعي وهل يكون من حقه فرض القوانين على الأجانب المقيمين بمصر أم لا . كان الوطنيون يريدون الاحتفاظ بنظام الامتيازات القائم ، فكثيرا ما طبق لمصلحتهم (كما في حالة قانون المطبوعات) واقترح البريطانيون انهاء الامتيازات في مقابل حماية مصالح الأجانب عن طريق تمثيلهم تمثيلا حقيقيا في أى مجلس تشريعي يخطط له . ومثل هذه الخطوة العنيفة كان لابد أن تقابل بمقاومة عنيفة من الدول الأخرى صاحبة الامتيازات (١) ، فضلا عن « الأجانب » أنفسهم الذين لم تقع أعين الكثيرين منهم على البلاد التي يحملون جنسيتها . لذلك فقد فضل البريطانيون أن يقوموا بإجراء

(١) كانت دول الامتيازات هي : النمسا ، المجر ، بلجيكا ، الدانمرك ، فرنسا ، ألمانيا ، بريطانيا العظمى ، اليونان ، إيطاليا ، هولندا ، النرويج ، البرتغال ، روسيا ، إسبانيا ، السويد والولايات المتحدة .

اصلاحات تدريجية فى المؤسسات القائمة ، وهو اجراء يلائمهم لخبرتهم فى الاصلاح السياسى الداخلى التى اكتسبوها خلال القرن التاسع عشر .
أما الوطنيون فلم يستهوههم اتباع هذا الاسلوب لعدم تمرسهم بمزايا التدرج .

وكان أعضاء مجلس شورى القوانين قد أخذ ميلهم للحزب الوطنى يزداد مع قلة اختصاصاتهم التشريعية ، وعلى أمل أن يكبح الخديو هذا الميل عين عمه (وخليفته فيما بعد) الأمير حسين كامل رئيسا للمجلس فى مارس سنة ١٩٠٩ . وأهم من ذلك أعلنت الحكومة فى نوفمبر أنها ستسمح لأعضاء المجلس باستجواب الوزراء ، بشرط أن يقدموا أسئلتهم قبلها بخمسة أيام . ومن حق رئيس المجلس أن يستبعد الأسئلة التى يرى أنها ضارة أو غير لائقة (كأن يكون الوطنيون هم الذين أوجوا بها) . وباستطاعة الوزراء بعد ذلك أن يمتنعوا عن الاجابة اذا شاءوا . وقد عارض عدد من أعضاء المجلس بقيادة اسماعيل أباطة (١) اقتراح الحكومة بسبب هذه القيود ، ولكنه قبل فى النهاية ، وأصبح المجلس على نفس القدر من العناد ، فانضم أحمد يحيى الى اسماعيل أباطة فى مضايقة الحكومة حول ميزانية ١٩١٠ ، وزاد تأثير الصحافة الوطنية على أعضاء المجلس بدرجة لم تحدث من قبل . وتمثلت الخطوة الحقيقية الأولى فى برنامج جورست لدعم العنصر النيابى فى الحكومة المصرية فى زيادة صلاحيات مجالس المديرىات التى أجريت انتخاباتها فى مايو ١٩٠٩ . وعاد الوطنيون الى اتباع سياسة « اما الكل واما فلا » فعارضوا هذا الاصلاح على أساس أن الهدف منه هو شغل الشعب عن المطالبة بمجلس نيابى قومى .

(١) دور اسماعيل أباطة فى السياسة المصرية محير ، فهو يرتبط عادة بحزب الأمة ، وقد رأس وفدا من أعضاء مجلس شورى القوانين الى لندن سنة ١٩٠٨ ، للقيام بضغط من أجل الاصلاح الدستورى . وقد هاجمه الوطنيون لذلك ، فرد عليهم بتعويق جهودهم لانشاء لجنة فرعية للحزب فى محافظة الشرقية ، حيث تتمتع أسرته بالسيطرة الاقتصادية والسيادة السياسية . ولكن تطلع اسماعيل أباطة لمنصب وزارى جعله يغير موقعه ليشغل مكانا فى الحزب الوطنى فيما بين عامى ١٩٠٩ و ١٩١٠ . وبعد ذلك حينما بدأ الحزب فى الضعف ، سعى لمهادنة الحكومة والبريطانيين . وقد ضعفت أهميته السياسية بعد فشل دعوته لاعادة انتخاب مجلس شورى القوانين فى يناير ١٩١١ ، ومع ذلك فقد انتخب فى الجمعية التشريعية سنة ١٩١٤ باعتباره من أنصار الحكومة (أى معاديا للحزب الوطنى) . (مذكرات محمد فريد : ص ٨٢ ، محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/894 من جون م . روبرتسون الى جراى ، مجلس العموم فى ٣ أغسطس ١٩١٠) .

وكانت المسألة فى الحقيقة من الأفكار التى اختلف حولها بشأن البناء الحكومى . فبينما كانت الحكومات المحلية تقوم بدور هام فى النظم السياسية الانجلو سكسونية كانت اختصاصاتها فى المجتمع الاسلامى تقوم بها عادة المجتمعات الطائفية ذات الاستقلال الذاتى . أما بالنسبة للزعماء الوطنيين ذوى الميول الأوربية فلعل النموذج الذى آثروه هو الحكومة المركزية التى خلفها التراث النابليونى وتجسدت فى الجمهورية الفرنسية الثالثة . والنتيجة أن هوة الخلاف ازدادت اتساعا بين الوطنيين والبريطانيين .

وكانت الجمعية العمومية هى التى تعرض دورها بالفعل الى أكبر قدر من التغيير ، لأسباب لا صلة لها بخطط البريطانيين للإصلاح الدستورى . مما ترتب عليه نتائج غير متوقعة . فقد اهتمت شركة قناة السويس بتزايد الاضطرابات من أجل الاستقلال ، واحتمال أن يقدم الأحرار البريطانيون تنازلات للوطنية المصرية ، وعبرت عن حرصها على مد فترة امتيازها التى تنتهى سنة ١٩٦٨ . وكانت الحكومة المصرية بدورها بحاجة الى مال بسبب تدهور إيراداتها خلال الأزمة المالية . فبدأت تروج منذ مايو ١٩٠٩ شائعات عن اتفاق وشيك بين الجانبين ، وفى أكتوبر قدم المستشار المالى البريطانى مسودة مشروع للحكومة المصرية . وكانت الاتفاقية المقترحة تقضى بمد امتياز شركة قناة السويس الى سنة ٢٠٠٨ مقابل أن تدفع الشركة للحكومة أربعة ملايين جنيه على أربعة أقساط متساوية فيما بين سنتى ١٩١٠ و ١٩١٣ ، وتتلقى الحكومة كذلك نصيبها من صافى إيراد الشركة يتزايد تدريجيا من أربعة الى اثنى عشر فى المائة فيما بين عامى ١٩٢١ و ١٩٦٨ ، وابتداء من سنة ١٩٦٩ تتلقى الحكومة نصف صافى الإيراد ، بشرط ألا يقل نصيب الشركة عن خمسين مليون فرنك (مليونى جنيه مصرى) ، على أن يسمح للحكومة أيضا بأن يكون لها ثلاثة ممثلين فى مجلس الادارة (١) .

ومهما تكن المزايا المباشرة التى قدمتها هذه الخطة للحكومة المصرية (التى لم تتسلم أى نسبة من إيرادات القناة منذ سنة ١٨٨٠) فلا شك أنها كانت خطة قائمة على تصور خاطئ من جانب واحد . فيبدو أن الشركة كانت تتوقع نصرا وطنيا مظفرا فأرادت أن تحمى وضعها فى مصر . أما بالنسبة للمصريين ، وليس الوطنيين وحدهم ، فكانت الخطة تزجّل الى مالا نهاية تقريبا الوقت الذى تصبح فيه القناة ملكا لهم أخيرا .

وبدأت الصحافة الوطنية تهاجم على الفور اتفاقية مد الامتياز ،
واللجنة الادارية للحزب تنظم العمل لافساد الخطة (١) . وعقد مجلس
شورى القوانين اجتماعا غير عادى مع أعضاء الجمعية العمومية ومجالس
المديريات والبلديات لمناقشة المشروع (٢) ، واضطر رئيس الوزراء
بطرس غالى أمام عنف هجمات الصحافة الوطنية الى دعوة مجلس الوزراء
الى الاجتماع فى بيته ، حيث قرروا عرض الاتفاقية على الجمعية العمومية
للتصويت عليها . وكان قرار الوزراء ثوريا لأن المجلس لم تكن له أى
سلطة تشريعية غير التصديق على ضرائب جديدة . وأصر جورست على
تأييد القرار الذى تعرض لنقد حاد من الصحافة البريطانية (٣) .
وشاع الاعتقاد بأن الخديو كان المسئول عن تلك الخطوة ، فرحب الوطنيون
بتصريحاته العامة المؤيدة باعتبارها بشيرا بالدستور الذى طال
انتظاره (٤) . وحينما انتقل من الاسكندرية الى القاهرة مع تقدم الشتاء
أقيمت مظاهرات حماسية لتكريمه . ولم يقلل سفره للحج بعد ذلك من
شعبيته الجديدة .

اجتمعت الجمعية العمومية فى ٩ فبراير ١٩١٠ ، وخطب فيها
الخديو ، وأوصى بالموافقة على اتفاقية مد الامتياز . وبينما واصلت صحافة
الحزب الوطنى التنديد بمشروع الاتفاقية ، ونظم الحزب مسيرات وخطب
احتجاج انتخبت الجمعية العمومية لجنة لدراسة الاتفاقية المقترحة .
ولم يكن أعضاء اللجنة من ذوى الخبرة الخاصة بالشئون المالية ، ولكنهم
كانوا حساسين لنقد الصحافة ، فشاع الاعتقاد بأنها ستوصى الجمعية
برفض الاتفاقية (٥) . غير أن الحكومة لم تكن قد ألزمت نفسها بتنفيذ
قرار الجمعية .

ووسط هذا الخلاف أطلق صيدلى شاب يدعى ابراهيم ناصف
الوردانى النار على بطرس غالى وأصابه بجراح خطيرة . على الرغم من نقله
الى المستشفى واجراء عملية جراحية سريعة له لاجراج الرصاصات فقد
أزهقت روحه ، وتوفى فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى .

(١) « اللواء » ، ٣٠ أكتوبر ١٩٠٩ .

(٢) Alexander : p. 285.

(٣) « The Egyptian Gazette » , 3 November, 1909. على سبيل المثال .

(٤) « اللواء » ، ٣ نوفمبر ١٩٠٩ ، Alexander : p. 288

(٥) « The Egyptian Gazette » , 14 February 1910

وقبض على الورداني في موقع الجريمة واستجوبته النيابة العامة ، واعترف بجريمته ، وقرر أن دافعه للجريمة هو خيانة بطرس للأمة بتوقيع اتفاقية الحكم الثنائي للسودان ، وبرئاسته لمحكمة دنشواي ، وأحياء قانون المطبوعات ، والحث على قبول اتفاقية قناة السويس (١) .

وفتشت الشرطة بيت الورداني وعثرت على أوراق تثبت انتماءه الى جمعية سرية تسمى « التضامن الأخوي » ، هدفها الرئيسي هو تحرير مصر من الحكم البريطاني بكل وسيلة بما في ذلك استخدام القوة . ورغم اصرار الورداني على أنه عمل وحده ، فقد قبض على ثمانية أعضاء آخرين بتهمة التآمر ، ولكنهم مالبثوا أن أفرج عنهم لعدم وجود نص في قانون العقوبات الأهل يعاقب على عضوية الجمعيات السرية المتآمرة . وأنكر زعماء الحزب أي معرفة بالجمعية ، ولكنهم اضطروا للاعتراف بأن الورداني كان عضوا في الحزب .

وحوكم الورداني في إبريل بتهمة القتل ، وحكم عليه بالاعدام ، وكان الرأي العام يؤيد الدفاع ، فقد بدا أن المحامين يخاطبون الشارع أكثر مما يخاطبون المحكمة (٢) ، وأسرف في استغلال حقيقة أن الورداني مسلم وضحيته مسيحي ، فسارت جماعات من الشباب المسلم تصيح في الشوارع :

« ورداني ، ورداني »

الى قتل النصراني « (٤) (*)

ورفض مفتي الديار المصرية اصدار فتوى تؤيد اعدام الورداني ، وبذلت جهود عديدة لانقاذ حياته ، وبالرغم من أن الجميع توقعوا أن ينجو الورداني من الموت بطريقة ما ، فانه شنق في سرية تامة في

(١) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية من جورست الى جراي ، القاهرة في

٢٤ فبراير ١٩١٠ ، رقم ٢٢ .

(٢) كانت المرافعة الختامية للمحامي ابراهيم الهلباوي مشحونة بالسياسة لدرجة

اضطرت المحكمة الى اخلاء القاعة من الجمهور ، ولكن ظهر فيما بعد أن المرافعة كانت قد نشرت في الصحف بالفعل . كان الهلباوي يحاول استعادة شعبيته التي فقدتها بقيامه بدور ممثل الاتهام في محاكمة دنشواي .

Storrs : "orientation" : p. 84.

(٣)

(*) لم يحدث قط أن سارت جموع للشباب تهتف بهذا الهتاف او بما يشبهه .

انما جاءت هذه العبارة في إحدى الأغنيات الشعبية مجهولة المصدر ، وهي لا تمثل رأيا عاما ، لأن الرأي العام كان ينظر الى قتل بطرس غالي من زاوية وطنية بحتة .

٢٨ يونيو ١٩١٠ ، بعد أربع سنوات بالضبط من تنفيذ أحكام منشواى ،
وقبل أربع سنوات بالضبط من وقوع حادث اغتيال أخطر .

وبعد اغتيال بطرس غالى بقليل عين الخديو « محمد سعيد » وزير
الداخلية خلفا له . واعتبر الوطنيون هذا التعيين نصرا لهم لأنهم اعتقدوا
أن سعيدا متعاطف معهم (١) . وفى ٢٤ فبراير استقال الأمير حسين
كامل من رئاسة مجلس شورى القوانين ، ربما لانه تلقى تهديدات من
مجهولين باغتياله (٢) . وسرعان ما بدأ أعضاء الجمعية العمومية يقرأون
كلمات تهديد مكتوبة بخط اليد على الجدران . فاذا صح أن الوطنيين
كانت تناصرهم جمعية ارهابية سرية ، كما أكدت ذلك الصحف المناصرة
للبريطانيين فى تحذيراتها التى أعقبت الاغتيال ، فمعنى ذلك أن أعضاء
الجمعية العمومية لو وافقوا على اتفاقية قناة السويس لعرضوا حياتهم
للخطر ، ومن ثم فقد استجابوا لتوصية لجننتهم الخاصة ورفضوا مشروع
الاتفاقية فى ابريل (٣) . وكانت وزارة محمد سعيد قد قررت بالفعل
قبول قرار الجمعية واعتباره ملزما للحكومة . وهكذا أهملت الاتفاقية .

كان هذا أعظم نصر حققه الحزب الوطنى ، وهو يقدم مثالا نموذجيا
لحدود سلطة البريطانيين فى مصر . وقتذاك تشجع كثير من المصريين
وتوقعوا أن يلى ذلك الدستور ، ثم انسحاب جيش الاحتلال البريطانى .
ولكن الواقع أن هذين الهدفين الرئيسيين عند الوطنيين لم يتحققا . فزعامة
الحزب الوطنى فى تنافسها مع الطوائف المصرية الأخرى على الفوز
بالتأييد الشعبى تبنت ، أو أقرت القيام بحملة مقاومة علنية ، ولكنها
كانت تفتقر الى الارادة والوسائل اللازمة للقيام بثورة .

ان الرصاصات التى أطلقها الوردانى لم تقتل رئيس وزراء مصر
وحده ، بل قتلت أيضا سياسة حكومة الاحرار البريطانية فى العمل على

(١) Alexander : p. 312, A. J. Butler : «The Misgovernment of
Egypt», The Nineteenth Century, LXVIII, 404 (October 1910),
p. 593.

(٢) « The Egyptian Gazette »; 24 February 1910 وقد هاجمتها « اللواء »
لنايبتها لاتفاقية قناة السويس

(٣) نص التقرير الذى قدمته اللجنة الخاصة الى الجمعية العمومية منشور فى
Rothstein : pp. 371 - 408 وقد قدر التقرير أن الحكومة المصرية ستخسر ١٣٠ مليون
بين عامى ١٩١٩ و ٢٠٠٨ اذا نفذ المشروع ، وكان هذا هو السبب الرئيسى الذى استند
اليه لرفض الاتفاقية بعد أن حث الخديو والوزارة الجمعية على التصديق عليها ولكن
السبب الحقيقى كان سياسيا بلا ريب .

تقل السلطة تدريجيا وسلميا من أيدي البريطانيين الى المصريين . وقام
تيودور روزفلت بزيارة للقاهرة ثم لندن أكدت تغير سياسة بريطانيا في
مصر من التحرر الى الاستبداد . وكذلك حطم الورداني ، حتى سنة
١٩١٩ على الأقل ، وربما حتى اليوم ، آخر أمل لمصطفى كامل في قيام
اتحاد بين مسلمي مصر وأقباطها بشأن قضيتهم القومية ، والواقع أن
الورداني الذي ضحى بحياته مختارا للقضاء على رجل اعتبره خائنا لأمته
قد قضى في الوقت نفسه على الحزب الوطني الذي كانت تضحيته من
أجله أساسا . (*)

(*) هذه تقارير القاهي المؤلف جزافا وبلا سند من الواقع او التاريخ ، فالاتحاد
بين المسلمين والاقباط لم يصبه انهيار بل انه بعد فترة اعقبت قتل بطرس غالي ازدادت
العلاقة بين الفريقين توثقا وقد شهدت أحداث ثورة ١٩١٩ ، التي هي امتداد مباشر
لنشاط الحزب الوطني السياسي صورا من اندماج الفريقين وانصهارهما في وحدة
كاملة مثلها وأعلن عنها شعار (الهلال والصليب) .

أما الحزب الوطني فقد ازدادت قوته ونما تأييد الشعب له ، ولكن الانحسار الذي
أصابه بعد ذلك لا صلة له بقتل بطرس غالي ، وإنما جاء لأسباب منها اضطراب فريد
وجاويش الى الهجرة الى تركيا ، ولم تكن هذه الهجرة لتضعف الحزب الوطني لولا أن
الحرب العالمية الأولى اندلعت نيرانها بعد أقل من سنتين من وقوع هذه الهجرة ، ثم
ما أسفرت أخيرا عنه هذه الحرب من انتصار بريطانيا وخروجها قوية من الحرب الدولية
الأولى ، وما تلا ذلك من غلبة التيار المؤمن بالمفاوضة والتعاون مع الاحتلال البريطاني .

الفصل السادس

أقول الحزب الوطنى فى مصر

- الاجراءات البريطانية المضادة
- حملة الوطنيين فى أوروبا
- الزعيم السجين والانقسام الطائفى
- نظام الحكم الجديد فى مصر

الاجراءات البريطانية المضادة

فى الوقت الذى بدا فيه أن الحزب الوطنى متجه الى مزيد من الثورية اخذت الحكومة البريطانية تعيد النظر فى سياستها المصريه المتحررة التى نفذها جورست باخلاص ثلاث سنوات ، فى حين كان رد الفعل المباشر للحكومة المصرية ازاء اغتيال بطرس غالى هو تبني سياسته مماثلة - ظاهريا على الأقل - للوطنية المتقدمة . وتمثل ذلك فى تعيين محمد سعيد ، والمفروض أنه وطنى غير متحفظ ، (١) خلفا لرئيس الوزراء المغتال ، ثم استقالة الامير حسين كامل من رئاسة المجلس التشريعى ، ورفض الجمعية العمومية لاتفاقية قناة السويس ، وتخلي الحكومة عن الخطة التى أقرتها من قبل ، كل ذلك بدا وكأنه بشير بالنصر الوطنى الذى سيحققه الحزب الوطنى .

ومع ازدياد عنف الصحافة الوطنية واضطرابات الشارع أصبحت مصر مهددة بالفوضى . ولو وصلت الاضطرابات الى الدرجة التى يرفض معها أى وزير تولى المسئولية لما كان أمام البريطانيين الا أن يلجأوا الى القانون العسكرى لاعادة النظام ، أو أن ينسحبوا من مصر نهائيا . وعقد المراقبون المعاصرون مقارنات متشائمة بحالة مصر السياسية سنة ١٨٨١ (٢) ، غير أن الحكومة المصرية لم تستسلم سنة ١٩١٠ للوطنيين، بل عملت بتأييد بريطانى قوى ومتزايد على الحد من نفوذ الحزب الوطنى حتى فقد قدرته على تشكيل خطر حقيقى .

(١) لعل الرافعى اقترب من الحقيقة أكثر حينما كتب : « بالرغم من الآمال التى علقها الوطنيون على معاملة الوزارة الجديدة لهم برفق ، لما عرف من ميول محمد سعيد باشا الوطنية . فالحقيقة أن وزارته كانت أسوأ فى معاملتها للحركة الوطنية من وزارة بطرس غالى » (« محمد فريد » ، ص ١٥٦)

(٢) Alexander : p. 346f, «The Times», 23 April 1910.

كيف أمكن للحركة الوطنية أن تنجب ، وهي التي تعارض العنف ،
قاتلا كالورداني ؟

هل كان الحزب الوطني الظاهر الذي يسعى لاستقلال مصر بالوسائل
السلمية يخفى شبكة من الجمعيات التآمرية والثورية ؟

لقد قام مكتب المدعى العام عقب الاغتيال مباشرة بالتحري عن
الجمعية السرية التي ينتسب اليها الورداني . وتاريخ « جمعية التضامن
الأخوي » كما أسفرت عنه تلك التحريات يمثل نموذجا مصغرا لمحاولات
تسييس طلبة مصر في تلك الفترة . (١) فقد كونها سنة ١٩٠٥ تسعة
من طلبة مدرسة الهندسة جماعة أخوية للتعاون المتبادل في شئون
الدراسة ، وبالتدريج وسع الأعضاء مجال مناقشاتهم ليشمل المسائل
السياسية والاجتماعية . وسرعان ما تحول الكلام الى عمل . وفي سنة
١٩٠٧ زكى أحد الأعضاء « الورداني » لعضوية الجمعية لأن خبرته في
الصيدلة تمكنه من صنع المتفجرات والعقاقير السامة . وسنة ١٩٠٨
كانت الجمعية قد أصبحت سياسية بصورة واضحة ، وأصبحت أهدافها
الجديدة هي الحصول على استقلال مصر وحكومة دستورية بأى وسيلة ،
بما في ذلك القوة . واقترح أحد مسئوليتها الجدد (٢) ، وهو شفيق
منصور ، الذي سيظهر في تاريخ مصر مرة أخرى باعتباره واحدا من
المتآمرين على اغتيال سير لى ستاك سنة ١٩٢٤ ، برنامجا محكما يشمل
تكوين خلايا في المدارس الثانوية والعليا ، وتشجيع الصناعة الوطنية
بمقاطعة التجار والمنتجين الأجانب ، وإنشاء مدارس حرفية وتوعية زعماء
الطرق الصوفية وعلماء الاسلام بشرح موقف بريطانيا المعادى للاسلام
لهم ، وتأليف أشعار وأغان وطنية لتنبيه الفلاحين الى سوء حالهم في ظل
الحكم البريطاني .

(١) هذا التاريخ ملخص عن تقرير النائب العام عن « التضامن الأخوي » المؤرخ
٣٠ مارس ١٩١٠ ، محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/890 من جوردست الى
جراى ، القاهرة في ١٧ ابريل ١٩١٠ رقم ٤٦ .

(٢) كان المسئولون الذين أختيروا جميعا طلبة في المدارس الحكومية العليا :
عبد البرقوقى (رئيسا) شفيق منصور (سكرتيرا) ، ومحمود أنيس (أمينا للصندوق)
وقد أتم البرقوقى ومنصور دراستهما القانونية في باريس بعد ذلك ، حيث نشر الاول
رسالته « العلاقات بين السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية في مصر »
«Rapports entre le pouvoir judiciaire et le pouvoir executif en Egypte»
وفي سنة ١٩٢٥ كانت خطط البرقوقى للجمعية تشمل الكتابة والقاء المحاضرات وإنشاء
علاقات مع الطرق الصوفية .

وشجع الأعضاء الذين يدرسون بالخارج هذا الاتجاه الجديد :
واقترح الورداني وكان يدرس في لوزان الحصول على السلاح ، وقصر
الجمعية على المسلمين ، وكتب طالب من ليون الى أحمد فؤاد طالب الطب
بالقاهرة ، يغريه بخطة ارهابية ، ولكنه ينصح بعدم تنفيذها قبل أن
يتدرب الشعب على استخدام السلاح وينتهي للثورة (١) .

وأعد أعضاء الجمعية في مصر قائمة بالتجار الوطنيين تمهيدا لمقاطعة
الأجانب وأنشأوا أول مدرسة في سلسلة مدارس الشعب التي تمنوا أن
تنتشر في كل أرجاء البلاد برعاية « جمعية التضامن » .

وبالرغم من الشك الشائع في أن « جمعية التضامن » هي التي
تآمرت على حياة بطرس غالي ، فلم يثبت أبدا أنها أقرت عمل الورداني
قبل قيامه به ، وكذلك فليس من الواضح اذا كانت « جمعية التضامن »
قد تلقت أوامر من الحزب الوطني ، وإن كان كل أعضائها تقريبا من
الوطنيين . والورداني نفسه كان وطنيا بلا شك ، مثل طلبة لوزان في
الاحتفال بذكرى الأربعين لوفاة مصطفى كامل ، وحضر مؤتمرات جنيف
واشترك في الوفد الوطني في الاحتفالات بالدستور العثماني
سنة ١٩٠٩ (٢) .

وأوضحت التحقيقات التالية أيضا أن « جمعية التضامن » كانت على
صلة بعدة جمعيات سرية أخرى ، كلها مكونة من شباب الوطنيين . (٣)

(١) انظر نص الرسالة في Alexander : pp. 313 - 315 وكان أحمد فؤاد
وقد فصل من مدرسة الطب بسبب دوره في المؤامرة المزعومة ضد بطرس غالي ، وأتم تعليمه
في استانبول حيث عمل في وزارة الداخلية العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى .
وأثناء الاستجواب زعم فؤاد أن الاشارة الى الارهاب كانت اجابة على تعبيره عن نيته
لقتل مدير مدرسة الطب لأنه كان السبب في رسوبه في الامتحانات ثلاث مرات . وشهادته
توحى بعقلية مختلة ، ولكنها يمكن أن تصور جو التوتر والمؤامرات الذي كان سائدا في مصر
خلال سنتي ١٩٠٩ و ١٩١٠ .

(٢) تضم أوراق محمد فريد رسالة من الورداني بتاريخ ١٣ يوليو ١٩٠٩ تتحدث
عن توقيبات مع وراثة التعليم العثمانية لقبول الطلبة المصريين بالمدارس التركية العليا .
ومن المحتمل أن يكون فريد قد مزق رسائله الأخرى قبل أن تستدعيه النيابة لاستجوابه
حول دور حزبه في الاغتيال (مذكرات فريد : ص ٢٤٦) .

(٣) وكانت هذه الجمعيات تشمل : « التعاون الأخوي » بزعامة رئيس لجنة الحزب
الفرعية بالعباسية و « الحياة » وكان من بين المسئولين عنها خليل مذكور (المولود سنة
١٨٨٨) وقد شارك في اغتيال لي ستاك بعد ذلك ، ومحمود أبو الفتح الذي أنشأ فيما بعد
« المصري » جريدة الوفد الكبرى . (محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1114
من قشيشام الى جرای ، الرمل في ٣ يونيو ١٩١١ ، رقم ٨٦ ، سرى) .

وإذا كان اكتشاف هذا العدد الكبير من الجمعيات السرية التي تكاد تملأ مصر قد أندر الحكومة والبريطانيين ، فقد أوقع الوطنيين في الوقت نفسه في مأزق ، حين أدان الزعماء الاغتيال وعرضوا المعاونة في التحقيق فاثبتوا أنهم لم يكونوا ثوريين . لقد تحول الحزب من التآمر السرى برعاية القصر الى حركة تشمل الامة كلها وتستهدف تحرير مصر بالطرق الشرعية ، ويقودها محامون يعتقدون أنهم أصحاب قضية قوية يمكنهم الدفاع عنها أمام محكمة الرأى العام . ولكن المشكلة أن هذه المحكمة ليس لها وجود . فقلة من المسئولين البريطانيين هم الذين اقتنعوا بأن أحكم سياسة يمكن أن يتبعوها هى مغادرة مصر . فاذا باغتيال بطرس غالى واكتشاف الجمعيات السرية الخاضعة لنفوذ الوطنيين يقضى على كل أثر لهذه السياسة .

ترى هل كان على الوطنيين أن يصبحوا ثوريين صراحة ؟ لقد أثبت التاريخ القريب أن الثورة - لا التطور - هى التى حققت الاصلاح الدستورى فى كل من روسيا وايران وتركيا . وهذه الجمعيات السرية فى مصر لو كانت أقوى وأكثر تعاوناً فيما بينها أكان باستطاعتها القيام بثورة سنة ١٩١٠ ؟

الأرجح أن تكون الاجابة بالنفى ، لأن سحق جماهير المصريين وقتذاك لم يكن عميقاً بالدرجة التى وصل اليها سنة ١٩١٩ ، ولأن قيادة الحزب الوطنى كانت منقسمة على نفسها بصورة بالغة السوء . وقد أسهم صراع سنة ١٩٠٨ المهلك فى القضاء على الطبعتين الأوربيتين من « اللواء » ، وظهور صحف عربية منافسة « كالقطر المصرى » و « مصر الفتاة » . وفى فبراير سنة ١٩١٠ قضت على « اللواء » نفسه أزمة داخلية أخرى .

فعقب وفاة مصطفى كامل ورث أشقاؤه وشقيقاته الباقون على قيد الحياة نصف ريع ممتلكاته ، اذا جاز أن تسمى كذلك . وقام على فهمى بإدارة هذه التركة باسمهم . ونتيجة للمتعاب المالية فى « امبراطورية » مصطفى كامل الصحفية ما لبث أشقاؤه وشقيقاته أن أصبحوا فى ضائقة مؤسفة ، فانتهى بهم الأمر الى مقاضاة شركة « اللواء » لأنها ضمت اليها شركة « ليتاندر » شبه المفلسة . وفى الوقت نفسه قاضتها شركة فرنسية لاسترداد ديون لم تسدد قيمتها ألفا جنيه . وحكمت محكمة الاسكندرية لمصلحة المدعين وعينت يوسف المويلحى (١) حارساً قضائياً على « اللواء »

(١) يوسف بن عبد السلام المويلحى شخصية سياسية محيرة . اعتبره فريد عميلا سوريا لوزارة الداخلية ، وحتى ورثة مصطفى كامل أصحاب الدعوى عارضوا فى تعيينه =

لمدة عامين . وحين تذكر زعماء الوطنيين دور المويلحي في اضراب سنة ١٩٠٨ ضد « اللواء » ، وما تلا ذلك من ميلاد « مصر الفتاة » حاولوا منعه من دخول مكاتب « اللواء » . فلما أصر على حقه في تولى ادارة « اللواء » خرج منه فريد والدكتور رفعت ، وقطعا علاقة الحزب به ، وأعلنا انشاء لسان جديد للحزب أسمياه « العلم » (١) . وحصل شقيق زوجة فريد على ترخيص باصدار « العلم » بسهولة بسبب ما زعم من ميل رئيس الوزراء الجديد للوطنيين . وظهر أول عدد من الجريدة الجديدة في ٧ مارس سنة ١٩١٠ . ومع انتقال محرري « اللواء » تدريجيا الى « العلم » تعرض الجمهور المصري لمنافسة هابطة تعتمد على تبادل السباب بين صحيفتين المفروض أنهما وطنيتان . وقاطع معظم الوطنيين « اللواء » لهجومها على زعامة فريد . (٢) وهكذا ترك لورثة مصطفى كامل تركة أخذت تذبل بسرعة ، وفشل على فهمي في تغيير المويلحي ، فظل « اللواء » يحتضر طوال فترة عزله .

ورد « العلم » على « اللواء » بنشر سلسلة من الهجمات العنيفة المتصاعدة ضد الحكومة والانجليز ، حتى اتخذ مجلس الوزراء قرارا في ١٩ مارس بايقاف « العلم » شهريين . (٣) وحاول الوطنيون وقتذاك الحصول على عدة صحف أخرى ، فكانت الحكومة تصادرها كل مرة الى أن وفقوا أخيرا الى مجلة « الشعب » الأسبوعية ، وكانت مجهولة حتى

= وقد كتب فيما بعد خطابا الى كرومر في ٢٢ صفحة يصف فيه دوره في القضية ، ويعرف نفسه بأنه وطني معتدل (أي معاد لفريد) ، ويطلب معاونته في خلاف قام بينه ورئيس الوزراء سعيد . واعترف في خطابه بأن كان يتسلم اعانة شهرية قدرها عشرون جنيها للانفاق على جريدة « مصر الفتاة » ، بالإضافة الى مائة جنيه مرتبه الشهرى باعتباره حارسا على « اللواء » . (محفظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/894 من يوسف المويلحي الى كرومر ، لندن بدون تاريخ مرفق برسالة كرومر الى جراى ، لندن في ٣ سبتمبر ١٩١٠ ، خاص) .

(١) يوسف المويلحي « كلمتى الثانية الى الراى العام » ، « اللواء » ، ٥ مارس ١٩١٠ ، « The Egyptian Gazette », 2 March 1910. والكلمتان العربيتان « لواء » و « علم » مترادفتان تقريبا بمعنى « راية » .

(٢) Alexander : p. 345 مذكرات محمد فريد : ص ١٣ ، « العلم » : ٧ مارس ١٩١٠ ، « اللواء » : من ٧ الى ١٩ ، ٢٤ ، ٢٧ مارس ١٩١٠ . وكانت مادة الهجوم على فريد تدور حول اساءة استخدام الحزب للمال الذى جمع لاقامة تمثال لمصطفى كامل وكتاب تذكاري في قرية دنشواى ، وقد أقيم التمثال بالفعل ، أما الكتاب فلم ينشأ فيما أعلم . (٣) محفظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/889 من جورست الى جراى ٢٠ مارس ١٩١٠ ، رقم ٣١ .

ذلك الحين ، فاستخدموها لسانا للحزب حتى سمح « للعلم » بمعاودة الظهور (١) .

وحين نرجع الى الماضى لا نستطيع أن نفهم لماذا لم تستمر الحكومة فى تطبيق قانون المطبوعات ، أو سلطتها فى رفض الترخيص للصحف للقضاء على الصحافة الوطنية نهائيا ، فلا يبقى أمامنا إلا أن نفترض أن البريطانيين قد خشوا أن تكون مظاهرات الاحتجاج الوطنية التى لا بد أن تتبع مثل هذا الاجراء ، شرارة قد تشعل ثورة ، أو لعل سعيدا رئيس الوزراء أراد الاحتفاظ بدوره المزعوم فى تأييد الوطنيين ، أو ربما كان رجال السلطة ببساطة منقسمين بين مناصرة المبادئ التحررية وسياسة القمع المناسبة (٢) .

بدأت سياسة الحكومة تتغير فى مارس ، فى نفس الوقت الذى مر فيه الرئيس السابق تيودور روزفلت بالسودان ومصر فى طريق عودته من رحلة صيد افريقية . وبقدرته الخاصة أقحم نفسه فى أزمة مصر السياسية متخذا جانب قوى القانون والنظام كما ارتأها . فنصح الضباط المصريين فى السودان ، مدفوعا بمخاوف البريطانيين من قيام فتن عربية جديدة . (٣) بالابتعاد عن السياسة والمحافظة على ولائهم للعلمين اللذين يخدمون فى ظلها . (٤) وأثناء زيارة روزفلت للقاهرة خطب فى الجامعة المصرية الجديدة . فتجاهل تحذير « بلنت » المسبق ، ونوه بجريمة الوردانى وأدان الجهود المبذولة لتبريرها ، ونصح سامعيه بالصبر ، لأنهم بحاجة الى عدة أجيال قبل أن يصبحوا قادرين على حكم أنفسهم . (٥)

(١) عبد الرحمن الرافعى : ص ١٥٧ ، Alexander : p. 346

(٢) مما هو جدير بالملاحظة أن « العلم » صودرت فقط ، وأن الشعب لم تمس ، فى حين أن جريدتين أقل أهمية ، وهما « الاعتدال » و « الشجاعة » ، أوقفنا لنشرهما مقالات معادية حول الاغتيال .

(٣) أثناء زيارة روزفلت للخرطوم وزع منشور بلا توقيع يحوى نقد السردار ويجنالد وينجت للضباط المصريين الذين علقوا صورة مصطفى كامل بناديبهم

Alexander : pp. 334 - 336,

Elting E. Morrison ed. "The Letters of Theodore Roosevelt", Cambridge, Harvard University Press, 1954, VIII, pp. 350f., no. 5523.

من روزفلت الى جورج أوتو تريفيليان ، أو يستر باى فى أول أكتوبر ١٩١١ .

(٤) « The Times », 18 March 1910

(٥) Lawrence F. Abbott, ed. : "African and European addresses by Theodore Roosevelt", New York, G.P. Putnam's Sons, 1910, pp. 18-28, « The Times », 29 March 1910.

ولم يكن باستطاعته أن يختار طريقة أفضل لاثارة ناثرة الوطنيين الذين استجابوا بسيل من برقيات الاحتجاج ومظاهرات الشوارع ، والخطب والمقالات فى الصحف • (١) وحتى أكبر ناطق بلسان الأحزاب المصرية الأخرى لم يستطع الا أن يهاجم الخطبة (٢) •

واذا كانت زيارة روزفلت قد أغضبت كثيرا من المصريين ، فقد دفعت كذلك حكومتهم ومستشاريها الانجليز الى العمل ضد خطر الوطنيين ، فبعد رحيله الى أوربا بقليل قدمت الوزارة الى المجلس التشريعى ثلاثة قوانين تهدف الى تقليص أظفار الحركة الوطنية • أول هذه القوانين قصد به علاج نواحي النقص فى قانون المطبوعات بإدخال مخالفات المطبوعات تحت السلطة القانونية للقضاء الجالس • وقاد اسماعيل أباطة المجلس لمعارضة هذا الاجراء ، غير أن الوزارة أصدرته رغم ذلك • (٣) وكان القانون الثانى خاصا بلائحة النظام فى المدارس ، ويقضى بمنع طلاب المدارس الحكومية بعد أن أصبحوا بمثابة كتائب الصاعقة للوطنيين من المشاركة فى المظاهرات السياسية ، أو كتابة المقالات « المثيرة » فى الصحف • وأجاز المجلس القانون ، ولكن بعد أن ضيق دائرته ، وخفض عقوباته • (٤) أما القانون الثالث ، وهو الأهم ، فهو قانون التآمر السياسى الذى حرم العضوية فى أى جمعية سرية تدعو الى تغيير الحكومة بالقوة • وحاول المجلس تحت ضغط الصحافة الوطنية أن يخفف القانون ، ولكن الوزارة

(١) « الشعب » ، ٣ مارس ١٩١٠ ، p. 337 Alexander وكتب محمد فريد فى « الشعب » ، أول ابريل ١٩١٠ ، هجوما ربط فيه بين أصل روزفلت الهولندى وسياسة هولندا الاستعمارية القائمة على القمع فى جاوة وسومطرة ، وذكر قراءه بالفرقة العنصرية الأمريكية ضد الزنوج والسوريين (١) وغيرهم من الأجناس غير البيضاء • ورد روزفلت فى تعبيره عن سبب كراهيته لزعماء الوطنيين بقوله : « انهم مسلمون متعصبون فى ملابس أوربية • مزعجون عاطفيون ، ميثوس منهم تماما ، ولا يصلحون أساسا يمكن البناء عليه » • (Letters : VII, p. 351)

(٢) خطب أحمد لطفى السيد فى أعضاء حزب الأمة وقال لهم انهم جديرون بالدستور ، وأن عليهم أن يذهبوا ويأخذوه •
(«The Egyptian Gazette» 30 March 1910).
Shaykh Ali Yusuf : «Egypt's Reply to Mr. Roosevelt», «North American Review» cxcl, 6 (June 1910), pp. 728-737,

وأحمد شفيق : ج ٢ ص ٢١٢ ومابعدها •
David H. Button : «Theodore Roosevelt and Egyptian Nationalism», «Mid America» XLI, 2 (April 1959), pp. 88-103.

(٣) Alexander : pp. 329, 332

(٤) Ibid : p. 330 عبد الرحمن الرافعى (ص ١٧٢) يسخرون من القانون الذى يزعم أنه حرم استخدام كلمات مثيرة « كالحرية » فى العروض المسرحية •

أصدرته في يوليو ١٩١٠ محتفظا بجوهره كما اقترحته . (١) وبتخطي الحكومة للمجلس التشريعي ، ومن ثم تجاهلها لسياسة « جورست » السابقة في اعداد المصريين لحكم أنفسهم بالتوسع التدريجي في المسئوليات البرلمانية ، اكتسبت أسلحة جديدة تمكنها من سحق تهديد الوطنيين للقانون والنظام .

وكان أول ضحايا تغيير موقف الحكومة الشيخ جاويش أكبر كتاب الحزب الوطني ، الذي لم يتأثر بالحكم عليه بالسجن سنة ١٩٠٩ ، فظل ثوريا صريحا ، وكان يتميز بأسلوب أدبي يفضل أسلوب فريد ، فتمتع بين مسلمي مصر بشعبية أعظم بكثير من شعبية زعماء الحزب . ووصلت خطورته في ربيع سنة ١٩١٠ درجة حاول معها جورست نفيه الى جبل طارق ، ولو الى أن يتم اعدام الورداني ، ولكن الخطة فشلت (٢) .

وأيا كان الأمر ، فلا شك أن دعم قانون المطبوعات هو الذي أجبر « جاويش » على الصمت مؤقتا . وفي يوليو نشر أزهري آخر هو الشيخ علي الغاياتي ديوان شعر عربي عنوانه « وطنيتي » ، ورغم أن كثيرا من قصائده سبق نشرها في الصحف الوطنية دون رد فعل حكومي ، (٣) فإن نشرها مجمعة في وقت تراجعت فيه بريطانيا عن تساهلها السابق مع الحزب الوطني - جعلها تبدو مثيرة الى درجة كبيرة ، ووجد فيها المستشارون القانونيون للحكومة المصرية تبريرات للجريمة ، وتهجمات على الخديو ، ومحاولات لاثارة الحقد والكراهية ضد الحكومة . ولما كان جاويش وفريد قد كتبا مقدمتين للديوان تتضمنان تأييدهما لمحتوياته فقد اعتبرا شريكين في التهم . (٤) وحينما علم الغاياتي بمصادرة نسخ من الديوان فر متنكرا الى اسطنبول ، وكان فريد وقتها في أوروبا ، فأصبح على جاويش أن يواجه المحاكمة وحيدا . وحكمت عليه محكمة القاهرة بالسجن ثلاثة أشهر ، وأجلت قضية فريد الى حين عودته . أما

(١) Alexander : pp. 330 - 333

(٢) Lloyd : «Egypt since Cromer», 1, p. 100.

(٣) باستثناء واحد حينما أذرت « اللواء » . في أغسطس ١٩٠٩ بسبب مقال « دمينجرا » ، وكانت قد نشرت أيضا قصيدة للغاياتي يمدح فيها الوطني الهندي .

(٤) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/893 من تشييهام الى جراي ، الرمل في ١١ يوليو ١٩١٠ ، رقم ٩٨ . ولماذج من الشعر انظر القصائد التي هاجمت الخديو في : مذكرات أحمد شفيق : ج ٢ ، مجلد ٢ ، ص ٢٣٢ وقد ترجمها الى الانجليزية ج.م. أحمد في كتابه « الاصول الفكرية »

J. M. Ahmed : «Intellectual origins» : 7E.

الغاياتي ، وكان قد عمل في مجلة حزب الاتحاد والترقي الأسبوعية « دار الخلافة » فقد حكم عليه غيابيا بسنة مع الاشغال الشاقة . (١)

وأثبت الحكمان أن القوانين الاستثنائية الجديدة التي طبقتها الحكومة بقرار قادرة على إلحاق الأذى ، ومن ثم فترت حدة المعارضة الوطنية السافرة .

وفي إنجلترا - كما في مصر - كان الاتجاه يميل الى سياسة أكثر حزما في مصر . وأشار روزفلت الى هذا الرأي في خطبته « بجيلده هول » في ١٠ مايو ، حيث نقد السلطات البريطانية في مصر لضعفها المبالغ فيه فالوطنيون باغرائهم الورداني على اغتيال بطرس غالى ، ثم غفرانهم جريمته ، قد أظهروا مصر بمظهر العاجزة عن حكم نفسها . ومن ثم أصبح على بريطانيا ، لمصلحة الحضارة اتخاذ اجراءات حازمة لاعادة النظام . ولو أنها أحست وقتها بأنها ليس لها الحق في الوجود بمصر ، لكان معنى ذلك أن تترك المصريين يغرقون في بحار الفوضى (٢) .

ورغم أن جورست (٣) رفض بحدة نقد روزفلت ، فقد أحسنت لندن استقباله . وفي ١٣ يونيو أقيمت مناقشة في مجلس العموم تناوب فيها المحافظون والأحرار الهجوم على سياسة حكومة الأحرار في مصر . وتحدث سير ادوارد جراي باسم الوزارة ، فدافع عن جورست ، ووعد بعدم تقديم أى تنازلات استجابة لمطلب الحكم الذاتي قبل أن يتوقف الشعب القائم ، وقرر أن اجراءات حازمة ستتخذ لحماية الموظفين المصريين المتعاونين مع مستشاريهم البريطانيين (٤) .

ومنحت خطبة جراي تأييدا رسميا لسياسة القمع الجديدة التي

(١) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/893 من تشيئهم الى جراي ، الرمل في ٧ أغسطس ١٩١٠ ، رقم ١٠٨ ، pp. 365-367 Alexander : ولسيرة موجزة للشيوخ على الغاياتي انظر : عبد الرحمن الرافعي : « شعراء الوطنية » ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٤ ص ٣٠٥ .

(٢) «The African and European Addresses» pp. 157-172, «The Times», 1 June 1910.

(٣) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/893 من جورست الى باليه ، ٥ يونيو ١٩١٠ . بعد أن غادر روزفلت مصر عبر بصفة شخصية لصديقه هنري وايت عن رأيه في علاج جورست للموقف في مصر قائلا : « لا شك عندي في أن جورست شخص ممتاز ولكن من الواضح أنه يخشى التصرف قسرا . أن يتأكد من تأييد بلاده » . (من روزفلت الى وايت ، نابولي في ٢ ابريل ١٩١٠ Letters : w1, p. 65. no. 5270

(٤) «Parliamentary Debates», 5th series, XVII, pp. 1103-1159.

اتخذتها الحكومة المصرية وأندرت الوطنيين بأن اجراءات أشد في الطريق . (١) وكان معناها أن « الاحرار » قد عدلوا - مؤقتا على الأقل - عن سياستهم الرامية الى تسليم مقاليد الحكم تدريجيا للمصريين . وكانت تلك سياسة صعبة التنفيذ منذ بداية تطبيقها في أعقاب دنشواي ، وها هي ذي بريطانيا تواجه مشكلات أكثر الحاحا : تحدى ألمانيا العسكرية ، وقوتها الدبلوماسية ، والمسألة الايرلندية ، واعتراض مجلس اللوردات على ميزانية لويد جورج ، وما ترتب على ذلك من مناقشات حول الاصلاح البرلماني . وفي سنة ١٩١٠ أجريت الانتخابات العامة مرتين ، وكانت أغلبية الأحرار في البرلمان قد تناقصت منذ عام ١٩٠٦ . وأصبح مجلس الوزراء الآن أكثر التزاما بالمحافظة على مصالح بريطانيا الاستعمارية وأقل حرصا على تشجيع الحكم الذاتي . وكان الملك ادوارد السابع الذي كان صديقا للخديو قد توفي منذ قليل .

وأخيرا فقد تقبل الرأي العام البريطاني نقد روزفلت لسياسة حكومتهم في مصر - وحتى جرای أقر أنه وافق على خطبته قبل القائها - لأن معظم الشعب كان يعتقد أن الاحتلال يفيدهم ويفيد المصريين . وإذا كانت الأعمال الوحشية التي ارتكبتها البريطانيون ضد المصريين سنة ١٩٠٦ قد زعزعت هذا الاعتقاد ، فإن اغتيال بطرس غالي بيد أحد مواطنيه قد أقنع البريطانيين الآن أنهم لا يستطيعون ترك مصر للوطنيين .

(١) Alexander : pp. 353 - 354 نقل عن : «The Egyptian Gazette», 23 June 1910 :

حملة الوطنيين فى أوربا

كيف استجاب الوطنيون لردود الفعل البريطانية ؟ . . . لقد طامنوا من اثارهم فى مصر فى الوقت الذى استأنفوا فيه محاولة الفوز بتأييد المتحررين فى أوربا ، فحاولوا دحض الرأى السائد فى الخارج بأنهم جماعة ثورية خطيرة من دعاة الجامعة الاسلامية . ومن أجل تحقيق هذه الغاية سافر فريد الى فرنسا وبريطانيا ، حيث قام خلال شهرى مايو ويونيو بحملة كبيرة من الخطب والمقالات ، (١) كما مهد للمؤتمر الوطنى المصرى ، الذى سيعقد فى باريس فى سبتمبر من نفس العام ، وهو التجمع الاوروبى الوحيد الذى تحمل الحزب الوطنى نفقاته كاملة . وكان ذلك المؤتمر منفصلا تماما عن المؤتمر السنوى للشبيبة المصرية فى جنيف لان الوطنيين كانوا قد اختلفوا مع محمد فهمى بسبب سلوكه فى اجتماع سنة ١٩٠٩ . وعين فريد طالبا مصرى يدعى حامد العلايل ، ومؤيدة فرنسية شابة شديدة التحمس هى رينيه (عزيزة) دى روتشبرون سكرتيرين لرئاسة المؤتمر ، فأرسلا دعوات الى كثيرين من مشاهير السياسة الاوربيين . (٢) وقررت نشرة صحافية أن المشتركين فى المؤتمر

(١) جمعت خطب محمد فريد وكتاباتة خلال تلك الفترة ونشرت فى مجلد بعنوان : «Compagne de Mohamed Bey Farid», Brussels, St. Catherine's Press ca- 1910

ويشمل خطبه فى الاتحاد الفرنسى ، والجمعية النسائية الفرنسية بباريس ، والبعثة العلمانية بليون ومؤتمر موضوع الأجناس بلندن ، بالإضافة الى ثلاث رسائل لجريدة L'Eclair راحلة اكل من Les Nouvelles (وقد أجرت معه حديثا أيضا) «The Manchester Guardian», «Le Siècle», «L'Action».

(٢) وكان من بين من قبلوا دعوتهم وحضروا على نفقة الوطنيين : كير هاردى وأربعة آخرون من أعضاء مجلس العموم ، وعضو بمجلس الشيوخ الفرنسى ، وخمسة نواب فرنسيون ، وعضو من الرايخستاغ الالمانى وعضو بمجلس الشيوخ الايطالى ، وأكبر مساعدى ملك بافاريا ، ومدير الجمارك النرويجى ، وأمير روسى ، ومجموعة متباينة من =

من أوروبيين ومصريين سيناقشون » الوضع السياسى والقانونى والادارى والتنظيمى فى مصر ٠٠٠ واعلان ٠٠٠ موقف الحكومة الحالية وحالتها المالية ٠ « وهكذا يتاح للأوروبيين » أن يروا أننا شعب هادىء مسالم يحترم حقوق الاجانب ٠ وأنا جديرون بحكم أنفسنا ٠ « (١) وشملت المناقشة موضوعات محددة كالسياسة العامة فى مصر والسودان، والمسائل الادارية والمالية والضريبية والأوضاع الاقتصادية العامة ، والتعليم العام والخاص ٠ (٢)

وكان من مظاهر التغير الهامة التى طرأت على موقف فرنسا بعد سنة ١٩٠٤ أن الحكومة الفرنسية لم تكن شديدة السعادة باستخدام عاصمتها مركزا للاثارة ضد بريطانيا ومناصرة الجامعة الاسلامية والهجوم على الاستعمار على الأرجح ٠ فقررت الحكومة الفرنسية - بناء على نصيحة قنصلها العام فى القاهرة - منع عقد مؤتمر الوطنيين فى باريس ٠ (٣) ورغم أن هذا القرار لم يعلن الا قبل أسبوع من موعد بدء المؤتمر فان اللجنة التنظيمية اجتمعت واختارت نقل الاجتماعات الى بروكسل ، وهو ما كاد يخرج الحكومة البلجيكية ٠ (٤)

واجتمع المؤتمر وفقا للبرنامج الموضوع ، مع تخلف عدد قليل من المشتركين المنتظرين وافتقاد قدر كبير من الضغط الذى كان من الممكن أن يحققه لو انعقد فى باريس ٠ وكان من أهم المتحدثين فيه عدد من:

= المواطنين الهنود ، من بينهم سافار كار المتطرف رئيس تحرير مجلة «The Indian sociologist».

(عبد الرحمن النرافى : ص ١٩٣ وما بعدها) ٠

(١) Alexander : p. 370.

(٢) Ibid : p. 370f.

(٣) France, Ministère des Affaires Etrangères, «Egypte : Politique Interieure - Dossier Général» IV, p. 21.

من ريبوت الى بيشون ، الاسكندرية فى ٩ اغسطس ١٩١٠ ، رقم ٣٦٨ ، وربما كان التحرك لمنع المؤتمر نتيجة لمبادرة من الحكومة المصرية Ibid : v, p. 123f. من فوشيه الى بوانكاريه ، القاهرة فى ٥ سبتمبر ١٩١٢ ، رقم ٣٨٥ ، محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO371/1364 من كتنسر الى جراى ، القاهرة فى ٢٧ أكتوبر ١٩١٢ ، رقم ١١٧ ٠

(٤) Belgium, Ministère des Affaires Etrangères, « L'Egypte : Dossier Général », AF 10, 1910

وكانت ضمانات حرية الاجتماعات المنصوص عليها فى الدستور البلجيكى هى التى حالت دون منع اقامة المؤتمر ٠

السياسة الألمان ، (١) وبعض الهنود المتطرفين ، وعدد من الضباط المصريين الذين اشتكوا من سوء أحوال جيشهم تحت سيطرة البريطانيين ، وكيرهاردى الذى كفر عن سقطته سنة ١٩٠٩ بدعوة الوطنيين الى أن يصبحوا أكثر ثورية (٢) .

ورغم أن بعض الصحف الأوروبية أبدت اهتماما متزايدا بمشكلات مصر الاجتماعية والاقتصادية ، فإن غالبيتها خاضت فى السياسة أكثر (٣) .

بعد أن منعت فرنسا عقد مؤتمر الوطنيين فى عاصمتها أدركوا أن الدولة الأوروبية الوحيدة التى يمكن أن تؤيدهم هى ألمانيا . فبعد المؤتمر بقليل قام محمد فريد برحلته الأولى الى برلين حيث ألقى خطبة فى الجمعية الألمانية المعادية للاستعمار ، وأجرى مقابلات مع عدة صحف . (٤) ورغم منافسة ألمانيا لبريطانيا فلم تكن قد أظهرت حتى ذاك الحين الا اهتماما ضئيلا بالوطنيين ، اللهم الا اذا كانت مشاركتها فى مسألة جريدة « مصر الفتاة » متعمدة . وقد ظل البارون فون أوبنهايمر ، العالم الأثرى ذو الصلات الوثيقة بمختلف الطوائف السياسية فى مصر ، حتى لقد أسماه البريطانيون « جاسوس القيصر » (٥) ، ظل يمد الصحف الأوروبية فى مصر بالمال عدة سنوات . ولكنه لم يتوسع بالهبات الألمانية لتشمل أى جريدة عربية قبل سنة ١٩٠٩ ، حين قدم بعضها لجريدة « النظام » التى لم تكن تناصر الوطنيين الا قليلا . (٦) ومما يوضح قلة ادراك

(١) يرجع الفضل فى ذلك الى جهود د. محمود لبيب محرم (توفى سنة ١٩١٣) وهو من أوائل مؤيدى مصطفى كامل ، وقد أقام سنوات طويلة فى ميونيخ .

(٢) حرص عبد الرحمن الرافعى (ص ٢٠٧) على أن يشير الى أن دعوة هاردى كانت تتناقض مع مبادئ الحزب الوطنى . ولكن هل كان هاردى أول من خرج على هذه المبادئ ؟

(٣) جمعت الكلمات التى ألقى فى المؤتمر ونشرت فى كتاب بعنوان : «Oeuvres du Congrès National Egyptien tenu à Bruxelles le 22, 23, et 24 Septembre 1910», Bruges, St. Catherine's Press, 1911.

(٤) عبد الرحمن الرافعى : ص ٢١٢ ، « العلم » ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٤ ،

٣٠ نوفمبر ١٩١٠

France, Ministère des Affaires Etrangères : « Egypte : Politique Etrangère Relations avec l'Allemagne, 172,

من ديفرانس الى بيشون ، القاهرة فى ٢٤ نوفمبر ١٩١٠ ، رقم ٣٩٣

(٥)

Sir Ronald Storrs : "Orientations», London, Ivor Nicholson and Watson, 1937, p. 121.

(٦) تقرير أوبنهايمر ، القاهرة فى ٣٠ مارس ١٩٠٩ ، شريط ميكروفيلم رقم ٣٢ Germany, Auswartiges Amt : «Egyptische Frage» um 32.

الالمان لدقائق السياسة المصرية أن القنصل الالمانى فى القاهرة رجب بتولى يوسف المويلحى ادارة « اللواء » سنة ١٩١٠ على اعتبار أنه نصير للالمان لموقفه من حادثة « مصر الفتاة » ، وأن « اللواء » هى أوسع الصحف العربية انتشارا . (١) وفاته أن ولاء القراء المصريين كان للحزب الوطنى لا « للواء » .

ولعل المنافسة الانجليزية الالمانية كانت أقوى أثرا من زيارة «فريد» لبرلين ، اذ لم تأت سنة ١٩١١ الا وكانت ألمانيا تتبع سياسة مصرية أكثر ايجابية . فعلى سبيل المثال رشحت القنصلية الالمانية سكرتيرها الشرقى الدكتور كيرت بروفر ليصبح مديرا لدار الكتب الخديوية . ورغم أن الحكومة المصرية كانت تحتفظ منذ زمن بعيد بمناصب معينة للالمان ، فقد اعتبرت ترشيح بروفر غير قانونى ، واعترضت بريطانيا على تعيينه (٢) .

وبمزيد من التحريات علمت المخابرات البريطانية أن بروفر قد درس بمدارس الوطنيين ، وأن البنك الالمانى الشرقى يقرض الحزب الوطنى بفوائد منخفضة ، وأن « جاويش » وغيره من الوطنيين يتلقون رسائل عن طريق الحقيبة الدبلوماسية الالمانية . (٣) هذه التطورات ، ولعل تفسيرياتها مبالغ فيها ، كانت نذيرا بزيادة اعتماد الوطنيين على ألمانيا ، مما كان له أعمق الآثار فى التطورات التى عرفها الحزب بعد ذلك .

وفى خريف سنة ١٩١٠ وجد فريد فى استانبول ، كما سبق أن وجد فى برلين ، جمهورا أكثر تعاطفا من جمهور باريس . وكان من مظاهر تجدد اهتمام تركيا بالوطنية المصرية أن طلعت بك وزير الداخلية العثمانى والرئيس الأعظم للماسونيين فى استانبول عين « فريد » رئيسا لمحفلى القاهرة . (٤) واعترض الموظفون البريطانيون (بلا جدوى) على هذا

(١) من هاتزلدت الى بيتمان

Germany, Auswärtiges Amt : « Egyptische Frage »

مولفنج ، القاهرة فى أول ابريل ١٩١٠ ، سياسية رقم ٤٠ ، شريط ميكروفيلم رقم 32 um

(٢) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/7114 من كتشنر الى جراى ،

القاهرة فى ٣٠ سبتمبر ١٩١١ ، رقم ٩٩ Storrs : p. 142 وقد ظهر بروفر مرة

اخرى مديرا للمخابرات السياسية وادارة الخدمات السرية فى القدس اثناء الهجوم التركى -

الالمانى على قناة السويس سنة ١٩١٥ .

(٣) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1114 من روبرت جرج الى

سير و . تيرك ، القاهرة فى ٩ نوفمبر ١٩١١ ، خاص ، ويتضمن تقريرا لرونالد ستورز .

(٤) محفوظات وزارة الخارجية FO 371/892 من جورست الى جراى ، القاهرة

فى ٢٥ ابريل ١٩١٠ ، برقية رقم ٢٤ «The Times», 17 June 1910

التأييد العثماني للسافر لحركة مصرية تخريبية ، وبصفة خاصة عن طريق المحافل الماسونية التي كانت تحتضن جمعيات ثورية أخرى .

وعادت الجامعة الاسلامية تهديد بالظهور . وعثرت المخابرات البريطانية في تركيا على تقرير سرى موجه الى جمعية الاتحاد والترقي ، يوصي بالتعاون مع الوطنيين في مصر لتقوية مكانة الخلافة . (١) في هذه الظروف قامت « الصراط المستقيم » احدى المجلات الأسبوعية باستانبول بتمجيد الورداني ، وكذلك منعت مجلة « دار الخلافة » الناطقة بلسان جمعية الاتحاد والترقي من دخول مصر ، لنشرها مقالا معاديا للبريطانيين نسب الى علي الغاياتي . (٢) ووصلت الى البريطانيين معلومات عن علاقات أخرى بين جمعية الاتحاد والترقي والوطنيين بواسطة الكثيرين ، كبهاء الدين المناسترلي في القاهرة ، وعدد من أقارب الخديو المغتربين في استانبول ، (٣) بالاضافة الى بعض أتباع فريد نفسه : عزيزة دي روشبرون سكرتيرة المؤتمر الوطني ، وقد أصبحت الآن مراسلة لجريدتين في باريس ، وكانت على صلة وثيقة ببعض زعماء جمعية الاتحاد والترقي ، وفؤاد سليم الحجازي الذي كان من قبل سكرتيرا للحزب ، ويعمل الآن في الحكومة العثمانية التي مكنته من أن يعثر على وظائف أو معاهد دراسية للوطنيين الآخرين الهاربين من مصر (٤) .

ويرجع هذا الاهتمام الجديد من جانب جمعية الاتحاد والترقي بالوطنيين الى شكها المتزايد في نوايا بريطانيا . فلم يكف ينجح انقلاب سنة ١٩٠٨ حتى تنكر زعماء تركيا الفتاة للجامعة الاسلامية ، وتبنوا في الداخل المبادئ التحريرية ، وبدأوا يخطبون ود بريطانيا .

(١) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/893 من لوتر الى جراي ، ٤ ابريل في ٤ يوليو ١٩١٠ ، رقم ٤٤٣ ، سرى .

(٢) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/893 من تشيخام الى ماله ، القاهرة في ١٣ أغسطس ١٩١٠ ، خاص . والمجلتان تحملان اسمين يوحيان بسياسة مؤيدة للجامعة الاسلامية ، فـ « سراطى - مستقيم » تحريف تركي للكلمتين العربيتين « الصراط المستقيم » اللتين وردتا في سورة « الفاتحة » في القرآن . و « دار الخلافة » معناها مقر الخلافة .

(٣) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/893 من تشيخام الى جراي ، الرمل في ٩ سبتمبر ١٩١٠ ، خاص .

(٤) France, Ministère des Affaires Etrangères : « Egypte : Politique Intérieure Dossier Général », IV, p. 154

من شارل رو الى ييشون . القاهرة في ٩ أكتوبر ١٩١٠ ، رقم ٣٢٥ .

غير أن هذه السياسة المخالفة لسياسة السلطان عبد الحميد لم تستمر طويلا . اذ بدا أن تحالف بريطانيا مع روسيا ، العدو القديم لتركيا ، يتضمن تشجيعا للنزعة السلافية فى الاقاليم العثمانية الهادئة فى مقدونيا . وكانت مهمة احياء الامبراطورية العثمانية شديدة التعقيد فى السنتين الاوليين لتولى جمعية الاتحاد والترقى السلطة ، فقد ضمت النمسا اقليم البوسنة ، وأعلنت بلغاريا استقلالها رسميا ، وقامت مظاهرات أرمنية فى أدنا ، وحاول عبد الحميد القيام بانقلاب مضاد ، ووقعت اضطرابات فى كريت ، وألبانيا ، واليمن . وفى الوقت نفسه عجزت الحكومة التركية عن الحصول على قرض أجنبى .

ومع تعرض الامبراطورية العثمانية للخطر ، اندفعت جمعية الاتحاد والترقى فى حركات مغامرة ، كالجامعة الطورانية والجامعة الاسلامية ، موجهة ضد روسيا وحلفائها . ولذلك فقد رحبت بتأكيد « فريد » لجريدة « تركيا الفتاة » « Le Jeune Turk » الفرنسية بأن الوطنيين سوف يتعاونون مع تركيا وألمانيا ضد بريطانيا .

الزعيم السجين والانقسام الطائفي

عندما عاد فريد الى مصر قرب نهاية ١٩١٠ كانت تنتظره المحاكمة والسجن شبه المؤكد . وكان الشيخ على الغاياتى قد هرب من البلاد عقب نشر أشعاره التى اعتبرتها الحكومة المصرية محرضة على الفتنة ، وكان « جاويش » و « فريد » قد عرضا نفسيهما للعقوبة بموجب قانون المطبوعات المعدل بكتابتهما معدمتين تقريظيتين للديوان . وواجه « جاويش » المحاكمة وحده وقضى فى السجن الأشهر الثلاثة التى حكم عليه بها . أما « فريد » فقد أجلت محاكمته الى حين عودته . وشك الكثيرون فى أن فريدا سيعود ويخطر بالحكم عليه بالسجن ، ولكن ابنته وأصدقائه أقنعوه بالعودة لأن الحزب بحاجة الى قيادته (١) .

ولاشك أن أحوال الحزب الوطنى الداخلية قد اضطربت خلال غيبة فريد . فبعد أن أصدرت الحكومة ثلاثة قوانين استثنائية ، وأعدمت الوردانى ، بدأ بعض الأعضاء المعتدلين ينقدون زعامة فريد . وأعلن محمود أنيس ، العضو البارز باللجنة الادارية ، انسحابه من الحزب بخطاب نشرته جريدة « الأهرام » فى يوليو ١٩١٠ . وحتى « وادى النيل » ، جريدة الحزب الوطنى بالاسكندرية ، تنبأت بفشل جهود فريد فى الحصول على تأييد خارجى ضد الاحتلال ، ودعت الى « التقارب مع الأحرار البريطانيين وانهاء المظاهرات والفتن » (٢) .

وظلت « العلم » لسان حال الحزب على ولائها ، وان كان سجن جاويش قد أضعف من جاذبيتها ، ولعله قلل توزيعها . وبانسحاب عدد

(١) France, Ministère des Affaires Etrangères : «Egypte : Politique Intérieure — Dossier General», IV p. 173 f.

من دفرائس الى بيشون القاهرة فى ١٩ ديسمبر ١٩١٠ ، رقم ٤٦٤ .

(٢) Alexander : pp. 361-364.

من أغنى أعضاء الحزب من زعامته الفعلية ، مما انعكس على التشكيل المتغير للجنة الادارية ، نقصت اشتراكات الحزب بصورة واضحة . ومن المعروف جيدا أن « فريد » كان يستنزف ثروته الضخمة في سبيل حرية مصر ، ولكن كيف ومتى لا نعرف (١) . ولعل عودته للاشتغال بالمحاماة بعد ذلك ، سنة ١٩١١ ، كانت بسبب حاجته للمال (٢) .

ومن وجهة نظر المحللين الوطنيين تعتبر محاكمة محمد فريد وسجنه بداية استشهاده السياسى . فيموجب مواد قانون المطبوعات المعدل سنة ١٩١٠ حوكم فريد أمام محكمة الجنايات دون محلفين أو استئناف . ورفضت دعوى فريد بأنه كتب المقدمة دون أن يقرأ الديوان ، وأدين ، وحكم عليه بالسجن ستة أشهر (٣) .

وقد حققت هذه الادانة (حاول فريد استئنافها استنادا الى عدة نقاط قانونية ولكنه لم يوفق) الأثر المطلوب في تنفير كثيرين من الوطنيين من الطبقتين العليا والوسطى ، ممن لم يكن حكم السجن قد أصبح في نظرهم بعد وسام شرف ، وكذلك لم يكن قد تبين بعد ذلك الطريق الحديث للزعماء الوطنيين من السجن السياسى الى قصر الرئاسة على نسق نهرو وفكروما وكينياتا .

وأثناء محاكمة فريد زاره عدة رسل أوفدتهم السراى يعرضون عليه إيقاف المحاكمة بشرط أن يعتدل في سياسته ، أو على الأقل في تعبيره عن مبادئه . وخلال مدة سجنه رفض فريد أيضا عروضاً مشابهة بواسطة بعض المعتدلين ، كعثمان غالب ، والمدير الانجليزى للسجن كولز باشا في بعض الروايات (٤) ولعل معاصرى فريد لم يستطيعوا فهم تصرفه ، ولكن شباب المصريين وقتها وبعد ذلك استطاعوا فهمه .

(١) أخبرنى عبد الخالق فريد أن أباء وقع عددا من القروض للحصول على مال لنفقات الحزب ، بضمن أراضييه ، وأن البريطانيين أوعزوا للبنوك بأن تطالب بسداد كل هذه الديون في وقت واحد ، فاضطر فريد الى بيع أملاكه بالخسارة للحصول على المال اللازم . انظر أيضا : عبد الرحمن الرافعى : ص ٤٥٤ وما بعدها ، وتتردد قصة أخرى مؤداها أنه خسر ثروته في مضاربات فاشلة بالأرض .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : ص ٣١ .

(٣) المصدر السابق : ص ٢٢٧ - ٢٣٢ ، ولترجمة فرنسية لمقدمة فريد انظر : Oeuvres du Congrès National Egyptien : pp. 481-484.

(٤) في مسودة مقال لم ينشر عثرت عليه بين أوراق محمد فريد زعم أن الحديو أرسل اسماعيل أباطة وحسن العقاد لزيارته أثناء المحاكمة . وعن زيارة د. غالب الذى انقلب =

كيف نستدل على التغير الذى طرأ على التكوين الاجتماعى للحزب الوطنى ؟

قبل محاكمة فريد بفترة وجيزة عقد الحزب مؤتمره السنوى وانتخب مجلس ادارة جديدا ، وأعيد انتخاب فريد رئيسا ، مدى الحياة هذه المرة (وكان قد أصر من قبل على ثلاث سنوات فقط) • وضمت اللجنة الادارية عشرة فقط من الاعضاء الذين سبق انتخابهم فى ديسمبر ١٩٠٧ • وكان ممن استقالوا أو لم يعد انتخابهم كثير من أغنى أعضاء الحزب وأقوى مؤيديه ، كأحمد فايق ، ومحمود أنيس ، وعمر سلطان ، ومحمد خلوصى • واستقال ويصا واصف ، وكان القبطى الوحيد فى لجنة ١٩٠٧ بالإضافة الى ثرائه • أما الأعضاء الجدد فكانوا جميعا مسلمين ، وكان كثير منهم شبانا من ذوى النشاط فى التنظيمات التابعة للحزب ، أو لجانة الفرعية ، أو صحفه • وإذا كانت غالبيتهم تنتسب الى أسر محترمة ميسورة ، فان أحدا منهم لا يملك ثروة يمكن مقارنتها بثروة عمر سلطان (١) • ورغم ان دور كبار الملاك فى الحزب الوطنى لم يكن فى مثل قوته فى الاحزاب المنافسة ، فان هذا الدور أخذ فى الضعف أكثر ، فى الوقت الذى قوى فيه دور المهنيين الشبان ممن درسوا على المناهج العلمانية فى مدارس الحكومة أو المدارس الأجنبية •

وإذا كان سجن فريد قد جعله يبدو خطرا فى نظر الفئة الأولى ، فقد اعتبرته الأخيرة فدائها الأول ، وشهيد القضية الوطنية • كان النمط الاجتماعى لزعامة مصر السياسية بعد سنة ١٩٢٣ قد بدأ يتشكل بالفعل • ومن السوءات التى أسفر عنها اغتيال بطرس غالى تجدد المعارك الصحفية بين الأقباط والمسلمين ، ولما كان كلا الفريقين قد حاول فيما بعد الانحاء باللائمة على البريطانيين فيما نشب بينهما من تباغض ، فمن الصعب الآن أن نعيد تصور ما حدث فعلا ، أو تحديد ادانة الحزب الوطنى أو براءته •

• بعد ذلك على فريد ، انظر : عبد الرحمن الرافعى ، ص ٢٣٧ وما بعدها • ويصف كولز باشا فى كتابه ذكريات وانطباعات

Cales Basha : "Recollections and Reflections".
St. catherine press, ca., 1918.

مقابله لمحمد فريد فى السجن ، ولكنه لا يذكر أى عرض لترتيب الافراج عنه قبل موعد انتهاء الحكم •

(١) عن أسرة سلطان انظر :

Gabriel Baer : « A History of Landownership in Modern Egypt, 1800-1950 », London, Oxford University press, 1962, pp. 24, 137 f.

ان تقدم الاقليات على حساب الغالبية المسلمة كان من النتائج غير المتوقعة بالمرّة لاصلاحات محمد على ، وان كان فى الوقت نفسه نتيجة للتأثير الغربى العام على مصر ، كما أصاب البريطانيين بسبب ذلك قدر كبير من اللوم بلا مبرر . فاذا كان الأقباط قد تقدموا أثناء الحكم البريطانى فلم يكن ذلك الا لانهم أقدر من المسلمين على التكيف مع التغيرات الاجتماعية والاقتصادية الجارية ، والتي كان من الممكن أن تحدث بسبب موقع مصر ومواردها ، حتى ولو لم يوجد البريطانيون .

لقد كانت أوروبا الصناعية تحتاج الى كل القطن الذى تستطيع مصر انتاجه ، وكانت مستعدة للسخاء فى ثمنه . وزراعة القطن معناها تنمية اقتصاد سائل ، والأقباط هم المحاسبون التقليديون ، ومعناها أيضا اقامة حدود بين الملكيات الزراعية ، والأقباط هم المساحون التقليديون ، كما كانت تتطلب تنمية شبكة من التجار والعملاء وغيرهم من الوسطاء ، والأقباط كانوا أقدر على التفوق فى أساليب التجارة الأوربية لانفتاحهم على الغرب عن طريق مدارس الارساليات . وكانت سيطرة الأقباط على بعض المصالح الحكومية بالقاهرة تقابلها غلبة الموظفين المسلمين فى الأقاليم .

اما الخطأ الوحيد الذى يستحق عليه البريطانيون اللوم بحق فهو نشر جورست للأرقام النسبية بين المسلمين والأقباط العاملين فى مختلف المصالح الحكومية ، فحتى تعيين بطرس غالى رئيسا للوزراء ، وقد تم بمبادرة من الخديو لامن جورست ، كانت له سوابق ، اذ تولى نوبار الأرمنى المسيحى هذا المنصب عدة مرات قبل الاحتلال وبعده .

حقا كان بعض المسلمين ، وبصفة خاصة البورجوازيون من أبناء الطبقة المتوسطة الدنيا ، يخشون منافسة الأقباط التى يحرص عليها البريطانيون ، ولم يتصوروا أن قوة مسيحية يمكن أن تقصر فى تفضيل من يدينون بدينها . وزكى هذه المخاوف اللادعوى من المهيجين السياسيين والصحفيين المسلمين ، وكان بعضهم من الوطنيين . واستغل كثير من الأقباط ممن حيرتهم بنفس القدر حيده السياسة البريطانية الرسمية هذه التصريحات والكتابات العنيفة فى اثاره المخاوف الأوربية من «التعصب الاسلامى» .

وبدا اغتيال بطرس غالى فى نظر كثيرين من الأقباط بمثابة نذير بفتنة اسلامية قد تنتهى بآبادتهم ، فبدأوا على الفور يضغطون على البريطانيين

لاتخاذ اجراءات أعنف ضد الوطنيين (١) ، فرد عليهم المسلمون على الفور بحملات صحافية جديدة .

وازدادت الهوة بين الفريقين حينما نشرت « المرشد » ، وهي مجلة شهرية أمريكية تبشيرية ، مقالا تضمن اهانة للاسلام والنبي ، فاستثار هجمات مضادة في « اللواء » و « مصر الفتاة » وغيرهما من الصحف التي يملكها مسلمون (٢) . وازدادت حدة غضب الأقباط حين وجهت الحكومة انذارين « للوطن » لنشرها مقالات معادية للاسلام ، في حين أن صحف المسلمين (فيما زعموا) مسموح لها بالطعن في الأقباط ودينهم دون حساب (٣) .

وسرعان ما اتخذ الغضب القبطي شكلا منظما شبيها بحملات الصحافة الوطنية . فأنشئت جمعية قبطية ، وأرسل الصحفي المحنك قرياقوس ميخائيل الى لندن للحصول على تأييد بريطاني (٤) . وأغرق أعضاء الجمعية القبطية وزارة الخارجية البريطانية ببرقيات احتجاج على رفض جورست المزعوم سماع شكاواهم (٥) . وانتهى بهم الأمر الى استعارة وسيلة أخرى من سجل الوطنيين ، فسعوا للحصول على العطف الخارجي باقامة مؤتمر في أسسيوط في مارس ١٩١١ ، بالرغم من عدم موافقة الحكومة المصرية والبطريركية القبطية . واشترك في المؤتمر أسقف

(١) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/891 من أمجد عبد الملك الى جراى ، أبو جرجس في ٢٤ فبراير ١٩١٠ ، وهي البرقية الاولى من برقيات عديدة بعث بها الأقباط الى لندن خلال سنتي ١٩١٠ و ١٩١١ .

(٢) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 377/894 من تشيهاام الى جراى ، القاهرة في ٢٥ أغسطس ١٩١٠ ، برقية رقم ٤٠ . وقد أقيمت البعثة التبشيرية بالتخل عن المجلة لتجنب المصادرة بموجب قانون المطبوعات على أن تمنح ترخيصا باصدار صحيفة أخرى .

(٣) A.T.U., « The Newspaper Fight in Egypt », « The Moslem World », (٣) 1,2 (April 1911), p. 216 f.

(٤) Kyriakos Mikhail : «Copts Moslems under British Control», London, Elder, 1911, p. 16.

محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/894 ، « تقرير عن جمعية الأقباط الكبرى بمصر » ، سلم في ١١ أغسطس ١٩١٠ ، من تشيهاام الى مالى ، الرمل في ١٦ سبتمبر ١٩١٠ ، خاص .

(٥) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1111 من ميخائيل فانوس الى أسكويث ، القاهرة في ٢ فبراير ١٩١١ ، برقية ، والوثائق التالية لها .

أسيوط وكثير من الزعماء المدبرين ، وبعضهم من أنصار مصطفى كامل
السابقين (١) .

واشتكى الأقباط المؤتمر من اضطهاد الحكومة لهم فى المرتبات
والترقيات ، وعدم تمثيلهم بالقدر الكافى فى مجالس المديريات والمناصب
العليا بشكل عام ، وعجزهم عن اقناع الحكومة باعتبار يوم الأحد يوم
راحة ، وعدم العناية بالتعليم المسيحي فى مدارس الاقاليم المعانة من
الدولة ، واضطهاد الحكومة لجمعياتهم الخيرية .

وأرسل المؤتمر مندوبا ليسلم هذه الشكاوى الى جراى ، ولكن
الوكالة البريطانية نصحت وزارة الخارجية بعدم استقباله (٢) . ونقد
جورست فى تقريره عن سنة ١٩١٠ المؤتمر القبطى وبرر رفض الحكومة
المصرية الاستجابة لمطالب الأقباط (٣) .

وكما هو متوقع أثار المؤتمر القبطى معارك طائفية جديدة فى
« مصر الفتاة » و « اللواء » و « العلم » ، بل فى « المؤيد » أيضا (٤) .
وكان من الطبيعى أن يطالب المسلمون بمؤتمر خاص بهم ليردوا على
الأقباط . غير أنه على عكس المتوقع لم يقيم بالمبادرة الوطنيون المتطرفون ،
بل المعتدلون الذين دعوا « رياض باشا » الذى كانت السن قد تقدمت به
وهادن البريطانيين منذ زمن بعيد ، ليرأس « مؤتمرا مصريا » . وتكرنت
غالبية مجلس الادارة من أنصار حزب الأمة الذين تعاونوا مع وزارة
الداخلية فى تخطيط برنامج محكم . فلم يحدث خروج على النظام الا فى
اليوم الأخير حينما فتح المجال لمناقشة توصيات سبق اقرارها والتصويت
عليها ، فطرد أحد الحاضرين لهتافه ، « يحيا الدستور ! » (٥) .

(١) اخنوخ فانوس ومرقص حنا على سبيل المثال (Mikhail : p. 29 f.).

(٢) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1111 L.A. من فانوس الى جراى ،
لندن فى ٢٠ ابريل ١٩١١ ، من تشييهام الى جراى ، القاهرة فى ٣ مايو ١٩١١ ، برقية
رقم ١٣ .

(٣) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية

FO, « Egypt, no. 1 » (1911), « Reports by his Majesty's Agent and Consul
General on the Finances, Administration, and Condition of Egypt
and Soudan in 1910 » 5-10, included in Parliament, "Accounts and
Papers" : pp. C III, 241.

(٤) Mikhail : pp. 92-97.

(٥) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1113 من تشييهام الى جراى .
القاهرة فى ٦ مايو ١٩١١ ، رقم ٤٣ .

ورغم أن معظم الخطباء كانوا من الوطنيين (١) ، فإن الحزب لم يؤيد المؤتمر رسميا ، بل حاول تعويق تكوين لجنة دائمة لتنظيم مؤتمر مماثل سنويا ، ولكنه لم يوفق في محاولته . ولم يكن اعتراض الحزب منصبا على المؤتمرات الطائفية في ذاتها بقدر ما كان رفضا لمجلس ادارة المؤتمر الذى تؤيده الحكومة بهدف تشتيت مطالب الوطنيين (٢) . ومنع السجن فريدا من معارضة المؤتمرين (٣) ، واعتقد أن جورست هو الذى شجع على عقد المؤتمر المصرى ليمزق الحركة الوطنية (٤) . وما أكثر ما زعم أعداء بريطانيا أنها تستغل الانقسامات الطائفية للسيطرة على أتباع هذه الطوائف . ومن المحتمل أن يكون هدف جورست فى تلك الحالة بالذات هو منع الوطنيين من استخدام مؤتمر المسلمين منبرا للدعوة لبرنامجهم .

فى تلك الأثناء كان الحزب الوطنى يتعثر فى غيبة زعيمه المختار . وبينما كان فريد يقضى مدة سجنه أصبح الشيخ جاويش المتحدث الرئيسى باسم الوطنيين ، يكتب افتتاحيات « العلم » كل يوم تقريبا ، ويخطب مهاجما الاحتلال فى المنصورة والقاهرة . وبايعاز من البريطانيين أنذر رئيس الوزراء محمد سعيد الشيخ جاويش ليحدد نشاطه المثير فى القاهرة ، ووضعه تحت رقابة الشرطة (٥) .

وواجه الوطنيون صعوبات أكبر فى نشر آرائهم خارج القاهرة والاسكندرية ، فنشروا تقارير عن نشاط لجانهم الفرعية بعد سنة ١٩١٠ . وقرر المستشار البريطانى لوزارة الداخلية أن اشتراكات القرى فى الحزب الوطنى آخذة فى التناقص . فقد خفف محصول القطن الوفير سنة ١٩١٠ من حدة الضغط الاقتصادى ، ونجحت مجالس المديريات بعد تدعيمها فى نقل ثورة الاهتمام من المطالب الوطنية الى المطالب المحلية . ولعل ضغط الحكومة على أعيان الريف ذوى الميول الوطنية قد ساعد على تقوية

(١) على سبيل المثال : الشيخ جاويش ، ومحمود أبو النصر ، وحافظ رمضان ، وإبراهيم رمزي ، وعمر لطفى ، ومحمد على علوبة . ونشرت محاضر الجلسات فى : « مجموعة أعمال المؤتمر المصرى الأول المنعقد بهليوبوليس » ، القاهرة ، المطبعة المصرية ، ١٩١١

(٢) لراى مضاد انظر : Adam : p. 213, Landau : p. 126.

(٣) يقول الرافعى (ص ٢٤٣) ان فريدا لو كان طليقا لمنع انعقاد المؤتمر المصرى .

(٤) مذكرات محمد فريد : ص ٨٢

(٥) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/III3 من تشييهام الى جراى ،

القاهرة فى ٢٩ ابريل ١٩١١ ، رقم ٣٩ .

هذا الاتجاه (١) • وكذلك فقد كان للقوانين الاستثنائية التي تأكدت
بسجن فريد تأثير مشبط حتى على الوطنيين من سكان المدن •

وحيثما أفرج عن فريد فى الساعة الخامسة من صباح ١٨ يوليو
حياء عدد قليل من مؤيديه المتحمسين بعد أن ظلوا ينتظرونه خارج السجن
طوال الليل (٢) • وفى اليوم التالى نشر مقالا بعنوان « من سجن الى سجن »
ذهب فيه الى أن الحكم البريطانى قد حول المصريين جميعا الى سجناء (٣) •
ولكن لم يكن هناك من يحطم السجن •

-
- (١) محفوفات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/III14 من تشييهام الى جواى ،
الرمال فى ٢٤ يونيو ١٩١١ ، رقم ٦٥ ، ويحوى تقريراً من رونالد جراهام •
(٢) عبد الرحمن الرافعى : ص ٢٤٠
(٣) « العلم » ، ١٩ يوليو ١٩١١ ، عبد الرحمن الرافعى : ص ص ٢٤٠ - ٢٤٣

نظام الحكم الجديد فى مصر

قبل الافراج عن فريد بقليل كانت مصر قد حصلت على مندوب بريطانى جديد . فقد أصيب الدون جورست بسرطان لاشفاء منه ، وظل فى منصبه حتى مايو ، ثم عاد الى بريطانيا ، حيث توفى بعد شهرين . وقبيل وفاته زاره الخديو تعبيرا عن تقديره له . وفى الوقت نفسه عينت حكومة الأحرار اللورد كتشنر فى مكانه ، فوضعت بذلك نهاية لسياستها المصرية المهددة التى كانت قد أرسلت جورست لتنفيذها منذ أربع سنوات .

ومن وجهة نظر الراى العام البريطانى كان كتشنر بطل السودان وحرب البوير ، ولكن كثيرا من السياسيين كانوا يكرهونه . فى تلك الفترة كان بلا عمل ، وأقرب للامتعاظ لعدم تعيينه نائبا للملك فى الهند ، ولم يخف رغبته فى أن يصبح سفيرا فى استانبول أو قنصلا عاما فى مصر (١) . ويبدو أن الحكومة أسعدها ابعاده عن لندن ، فأرسلته الى مصر ، متجاهلة اعتراضات بلنت (التى تعكس آراء الوطنيين على الأرجح) على تعيين شخصية عسكرية فى هذا المنصب (٢) أما الغريب حقا فهو تجاهل بريطانيا للخديو أيضا ، وهو الذى سبق له أن رفض كتشنر منذ حادثة الحدود سنة ١٨٩٤ .

ما طبيعة الأوضاع التى ورثها كتشنر عن سلفه ؟

(١) Magnus « Kitchener » : pp. 252-255.

(٢) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/IX14 من الأناقة هـ.م. هوسين الى جراى ، لندن فى ١٤ يونيو ١٩١١ ، ويحوى قرار لجنة مصر ، وكانت هذه الجماعة تتكون من بلنت ، وبعض الأصدقاء الأيرلنديين ، وقليل من المصريين الذين يدرسون فى إنجلترا .

لقد أدان النقاد المحافظون والاستعماريون جورست بعنف في حياته وبعد مماته « لضعفه » في معاملة المعارضة الوطنية (١) . غير أن هذا النقد يجانب الحق لأن جورست كان مكلفا من حكومته بأعداد مصر للحكم الذاتي في وقت كان الحزب الوطني يحظى فيه بالتأييد الشعبي . كانت سياسة حكومة الأحرار كفيفة بتشجيع المصريين على الانضمام الى صفوف الوطنيين ، ورغم ذلك فلم يكن أحد من المسئولين ، سواء في وزارة الخارجية أم في القاهرة يقبل التفاوض المباشر مع الوطنيين . وهذه السياسة لم يبتكرها جورست ، وإنما اختارته حكومة الأحرار لينفذها .

أما المناسبة الوحيدة التي لا يمكن فيها رد « ضعف » جورست إلى رؤسائه فكانت موافقته على طلب الوزارة المصرية إحالة اتفاقية قناة السويس إلى الجمعية العمومية ، وهي وسيلة سهلة للتخلص من المسئولية . ورغم ذلك فينبغي الإشارة بكل نزاهة إلى أن معظم المصريين المستنيرين عارضوا المشروع بصلافة ، وبصفة خاصة الميالون إلى التكتيكات المتطرفة . ولو أن الحكومة وافقت ببساطة على مد امتياز قناة السويس لاستوجبت الاضطرابات التي كان من الممكن أن تترتب عليها سياسة قمع أعنف ، وربما تسببت في قيام ثورة .

وبين الحين والآخر كان الوطنيون يؤيدون جورست بتحفظ ضد نقاده ، خوفا بلاشك من استبدال مندوب آخر به ، لا بد أن يكون أسوأ منه (٢) . وإن كان من المألوف مع ذلك أن ينقدوه بدورهم لاجتذابه الخديو بعيدا عن حركتهم ، ولأنه منح الوزارة ظل السلطة دون حقيقتها ، ولإجراءات القمع التي اتخذها ضد الصحافة ، وتجاهله معارضة المجلس التشريعي للقوانين الاستثنائية ، ولإبعاده الأقباط عن المسلمين لتمزيق الحزب الوطني . أما نقدهم الأساسي فكان بالطبع لأنه لم يمهّد لجلاء جيش الاحتلال البريطاني .

على أن السنوات الأربع التي قضاها جورست في الوكالة البريطانية قد علمت المصريين أنه لا يوجد مسئول بريطاني يرغب في الجلاء عن مصر

(١) A. J. Butler : «The Misgovernment of Egypt», «The Nineteenth Century» LXVIII, 404 (October 1910) pp. 587-597, Pelham Edgar «Shall Egypt Have a constitution ?» Fortnightly Review, CIV (September 1910), p. 411, Lloyd : I, pp. 110-113, Ralph Neville : «The Muddle in Egypt and the Way Out», The Nineteenth Century, LXIX, 6 (June 1911), pp. 1022-1035.

(٢) Alexander : p. 339 f. نقلا عن « اللواء » .

مهما كان الأساس القانوني للاحتلال واهيا ، وأنه لا يمكن الثقة بأى تأكيد بريطاني بأن الاحتلال مؤقت . ومن المحتمل أن يكون ربع القرن الذي قضاه كرومر فى الوكالة قد خدع بعض المصريين فتصوروا أن الجلاء سيعقب اعتزاله ، ولكن مرور الوقت لم يزد البريطانيين الا اصرارا على البقاء . لقد استتب الأمن واستقر القانون ، ولم يعد الخديو مهددا ، ولكن مصر أصبحت فى الوقت نفسه حلقة استراتيجية فى مواصلات بريطانيا الاستعمارية ، وكان ٧٨٪ من رأس المال المستثمر فى مصر أجنبيا (١) . واستعيد السودان ، ولم يعد أحد يثق بالوطنيين . وكما طال بقاء البريطانيين ازداد نفاد صبر الوطنيين ، واتخذ كل من الفريقين وضع الاستعداد .

وعلى العكس من الفكرة القديمة لم تكن مصر بلدا يسهل حكمه فقد اعتمد نفوذ المندوب البريطانى على وجود القوات البريطانية ، وليس على حماية شكلية ، أو حتى موافقة الدول الكبرى الأخرى . ولم يكن للحاكم الشرعى ، وهو السلطان العثمانى أى نفوذ غير محاولة التعويق . وكان تابعه الخديو غريبا بالنسب ، وفى حالات كثيرة بالمشاعر ، عن الشعب الذى يحكمه ، وكثيرا ما كان ينفر من الخضوع « لمشورة » المندوب البريطانى . وكان الوزراء أنفسهم من سلالات غير مصرية ، يتجنبون المسئولية ، ويتملقون الشعبية ، ويجدون سلطتهم يستخدمها المستشارون باسمهم . وكانت البيروقراطية المتخمة بأعداد متزايدة من الكتبة حاملي شهادات اتمام الدراسة الابتدائية أو الثانوية عاجزين عن القيام بأى عمل نافع ، تستخدم أساليب التعويق العثمانية وطرق الأقباط المبهمة فى الحسابات . وكان النظام القانونى مرتعا للمحامين ، فهو يقوم على تطبيق الشريعة الاسلامية الى جوار « قانون نابليون » ، وتنفذه أربعة أنواع من المحاكم على الأقل .

وقد استطاع كرومر ، بفضل الثقة غير المحدودة التى أسبغت عليه ، والاستقلال النسبى الذى منحته له حكومة بلاده ، أن يتصرف أفضل من جورست الذى لم يكن أكثر من موظف مدنى . ولكن هل كان باستطاعة أى شخص آخر أن يتصرف أفضل ؟

(١) Great Britain FO, Egypt, no. I (1907), «Reports by his Majesty's Agent and Consul — General on the Finances, Administration, and Condition of Egypt and the Sudan in 1905», included in Parliament Accounts and Papers, C, p. 617.

وينبغى مع ذلك أن نلاحظ أن مجموع رأس المال الفرنسى المستثمر فى مصر كان يفوق البريطانى بكثير (Issawi : p. 39)

ان جورست جدير بأن ينسب اليه الفضل - أو اللوم - الذى يضيف عادة على خليفته لنجاحه فى شل الحركة الوطنية ، وان كان السبب الحقيقى لتردى الحزب هو المشاجرات على الزعامة التى نشبت بين خلفاء مصطفى كامل وعجزهم عن الاختيار بين النهج الشرعى والأسلوب الثورى للعمل .

أما مأساة سياسة جورست الحقيقية فقد تمثلت فى أن مهادنته للخديو أبعدت عنه حزب الأمة وغيره من العناصر المعتدلة التى كان من الممكن أن تعاون فى انتقال السلطة التدريجى من البريطانيين الى أيدي المصريين .

وفى نفس اليوم الذى وصل فيه كتشنر الى القاهرة ليتسلم مسئولياته الجديدة هاجمت ايطاليا ولاية طرابلس العثمانية ، فثارت ثائرة الوطنيين لهذا المظهر الجديد للعدوان الأوروبى ، وطالب كثير من المصريين حكومتهم بالتدخل الى جانب تركيا . ورغم أن الحكومة البريطانية لم تكن متعاطفة مع الحملة الايطالية ، فقد أدركت أن المعارضه السفيرة قد تؤدى الى تقوية التحالف المتردد بين ايطاليا وألمانيا والنمسا ، ولذلك أجبرت الحكومة المصرية على اعلان حيادها . ووجد الوطنيون مجالا خصبا للهجوم على هذا الموقف الذى يتعارض مع وضع مصر الشرعى باعتبارها ولاية عثمانية ذات وضع خاص ، وبدأوا يدعون للاكتتاب لمساعدة القوات العثمانية المسلحة (١) وتطوعت مجموعة من الاطباء الوطنيين للخدمة فى الجيش العثمانى وسافروا الى طرابلس وسط جلبة كبيرة (٢) وعالج اللورد كتشنر الموقف الداخلى الحرج بحنكة كبيرة ، فنبط همه الضباط المصريين ورجال قبائل البدو عن التطوع بخدماتهم للاتراك ، وفى الوقت نفسه تبرع شخصيا بمائة جنيه لجمعية الهلال الأحمر العثمانية (٣) .

وبعد وصول كتشنر شددت الحكومة حملتها ضد الوطنيين ، وبدأت مرحلة من الحكم الفردى الاستبدادى . فقد كان الوطنيون حتى ذلك الحين يعملون علنا رغم تعويق قوانين جورست الاستثنائية ، ولكن فى أكتوبر ١٩١١ أوقفت الحكومة « مصر الفتاة » لهجومها على حيادها فى حرب طرابلس (٤) وبعد شهرين تلقت « العلم » أمرا بالمصادرة ثلاثة أشهر

(١) « العلم » ، ٩ أكتوبر ١٩١١ ، « اللواء » ، ٢٩ أكتوبر ١٩٠٨ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : ص ٢٥٦ .

(٣) Maguns : p. 361, Storrs . 127f .

(٤) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1115 من كتشنر الى جراى ،

القاهرة فى ٧ أكتوبر ١٩١١ ، رقم ١٠٠ .

للسبب نفسه ، وهو حكم اعتبره كتشنر مسرفا في التساهل . (١)

وحيثما استأنف الوطنيون ، كما فعلوا سنة ١٩١٠ ، إصدار « الشعب » أوقفتها الحكومة هي الأخرى ، تاركة الحزب بلا لسان يعبر عنه . وهكذا أجبر الشيخ جاويش على أن يبقى فترة طويلة في فراغ لم يألوه فبدأ يهرب الأسلحة الى الأتراك في طرابلس . (٢) وانتهى به الأمر الى الرحيل الى استانبول حيث استأنف عمله الصحفي كمدير لمجلتي « الهلال العثماني » و « الحق يعلو » العربيتين اللتين تصدرهما جمعية الاتحاد والترقي . ولن يلبث فريد وكثير غيره من الوطنيين أن يجاروا الشيخ في هجرته من النيل الى البوسفور .

وقد أبدى لي مؤرخ مصري ثاقب النظرة ملاحظة عن كتشنر مؤداها أنه أكثر الأجانب الذين حكموا مصر الحديثة شبها بعبد الناصر . وهذه المقارنة لا تبدو غريبة اذا استبعدنا الاختلافات الواضحة بينهما ، كسياستهما الخارجية . فكلاهما كان يؤثر مصالح الفلاح على مصالح طبقة المهنيين في المدن . وكلاهما كان يشك في دوافع السياسيين من المحامين وأساتيبيهم ، وطوائفهم وأحزابهم . ويبقى ذلك التشابه بينهما في سيطرة كل منهما على جهازه النيابي المنتخب بحرية . وقد كتب كتشنر في أول تقاريره السنوية عن الشعوب الاسلامية : « ان الروح الحزبية عندهم أشبه بالحمز القوية عند شعوب أفريقيا البدائية » (٣) وكان قد تلقى قبل وصوله الى مصر تقريرا مفصلا عن الأحزاب المصرية كتبه مستشار وزارة الداخلية ، وجاء فيه أن الوطنيين ، رغم أنهم لا يتمتعون بسمعة طيبة في « الدوائر المحترمة » ، فما زالوا يسيطرون على أكبر تأييد شعبي ويمثلون

(١) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1361 من كتشنر الى جراي ، القاهرة في ٢٤ ديسمبر ١٩١١ ، رقم ١٣٨ .

(٢) مقدمة ناصر جاريش لطبعة دار الهلال لكتاب « الاسلام دين الفطرة » ، ص ٩ .
(٣) Lloyd : I, p. 130 نقلا عن تقرير سنة ١٩١١ . وفي حديث مع تليفزيون CBS في ٧ ابريل ١٩٥٨ أجاب عبد الناصر على سؤال عن الموعد الذي سيعيد فيه الحكومة الديمقراطية والأحزاب السياسية بقوله : « ... لو اني سمحت الآن بقيام الأحزاب فورا فهاذا ستكون النتيجة ؟ ساجد في الأغلب ثلاثة أحزاب ، أحدها سينادي بالتحالف مع الغرب وسيعتمد على بعض الرجعيين والاقطاعيين ، في حين سيدعو الحزب الثاني للتحالف مع الاتحاد السوفييتي وسيعتمد على الشيوعيين . أما الحزب الثالث فسيدافع عن سياسة عدم الانحياز والحياد الإيجابي . وسيقوم صراع عنيف بين الأحزاب الثلاثة مما سيمزق وحدة وطننا . فهل أرغب في ذلك ؟ الاجابة بالنفي قطعا »
(President Gamal Abdel Nasser's Speeches and Press Interviews - 1958 Cairo, UAR Information Dept., 1959, p. 387).

أخطر تهديد للاحتلال البريطاني ، كما يشكلون خطرا اجتماعيا بسبب نشاطهم المثير بين عمال المدن . (١)

تري ، هل ستتسارع تصرفات فريد بتأكيد توقعات كتشنر ، ومن ثم تبرر اتخاذ اجراءات قمع جديدة ضد الوطنيين ؟

قبل وصول كتشنر مباشرة خطب فريد في جمهور يزيه على أربعة آلاف ، ودعاه الى مواصلة الكفاح الوطني أيا كان المندوب الذي يرسله البريطانيون الى مصر . (٢) وقضى الشهرين التاليين خارج مصر يواصل حملاته ، ومعظمها تأييد لدفاع العثمانيين عن طرابلس . (٣) وفي أوائل سنة ١٩١٢ تسبب في اثارة عامة حينما رفض الوقوف عند عزف النشيد الخديوي في دار الأوبرا بالقاهرة ، وهو تصرف اعتبرته السراي بمثابة اعلان الوطنيين الحرب ضد الخديو . (٤) غير أن خطبة فريد في الاجتماع السنوي للحزب الوطني هي التي أفسدت في النهاية علاقته بالحكومة .

وفي مارس ١٩١٢ كان على فهمي كامل قد استعاد سيطرته على « اللواء » ، وانتهى إيقاف « العلم » . وهكذا عقد الحزب الوطني اجتماعه السنوي في ٢٢ مارس وقد استرد أدائيه اللتين يعبر بهما عن نفسه . ولم يحضر الاجتماع سوى ثلثمائة عضو ، معظمهم من الطلاب . (٥) وكان ذلك نقيضا مفاجعا للآلاف الذين حضروا المؤتمرات السابقة . وكانت خطبة فريد ، وهي التي شغلت الجانب الأكبر من البرنامج ذات أهمية خاصة . لانه وجه أكبر قدر من اهتمامه للمسائل الاقتصادية والاجتماعية ، فحدد نواقص الجامعة المصرية ، ومعوقات تطور الجمعيات التعاونية المتمثلة في القانون التجاري الحالي ومعارضة البريطانيين لها . واتهم الحكومة بتبديد أموال الشعب في بنوك توفير البريد ، ليستثمرها البنك الاهلي المصري الذي يملكه البريطانيون ، وكبدل اقترح فريد تكوين جمعيات ائتمان تعاونية تخلص الفلاحين من برائن المرابين والرأسماليين الأجانب .

وأثنى فريد في خطبته على مدارس العمال وكبار السن التي بدأها الوطنيون ، وحث على استخدام كتاتيب القرى مدارس ليلية للفلاحين ،

(١) Kitchener papers, JJ/13, Ronald Graham; «Political Parties in Egypt», 10 August 1911.

(٢) عبد الرحمن الرافعي : ص ص ٢٤٦ - ٢٤٩

(٣) المصدر السابق : ص ص ٢٥٠ - ٢٥٦ .

(٤) أحمد شفيق ، ج ٢ ، مجلد ٢ ، ص ٢٦٧ وما بعدها .

(٥) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1362 من كتشنر الى جراي .

القاهرة في ٢٥ مارس ١٩١٢ ، برقية رقم ١٢ .

كما دعا الى التوسع فى حركة النقابات العمالية التى رأى أنها ستعلم
لعمال قيمة الاتحاد ، وتساعدهم فى الدفاع عن حقوقهم ، وتمكنهم من
تأمين أنفسهم ضد الشيخوخة والحوادث ، وقابل بين استبعاد الشركات
الأجنبية وإخلاص العمال والفلاحين ، وأوضح كيف أن العمال الأوربيين
يتمتعون بنفوذ كبير عن طريق تمثيلهم النيابى وحقوقهم فى الاضراب ، وكلاهما
تحقق لهم عن طريق اتحادهم .

ونقد قلة الميزانيات المخصصة لمجالس التعليم بالمديريات ، وأوضح
أن ضعف هذه المجالس سببه تدخل الحكومة وقوانين الانتخابات الحالية
التي رفض الانجليز تغييرها ، لان النظام الحالى يتيح لهم أن يثبتوا أن
المصريين غير جديرين بحكم أنفسهم . وقارن بين تخلف مصر وحرية البلاد
الأخرى وتقدمها ، ثم نقد أسلوب كتشنر فى حكم البلاد ، وحظر بريطانيا
معاونة المصريين للقوات العثمانية فى طرابلس ، ثم دعا الجمعية العمومية
الى المطالبة بالدستور والغاء قانون المطبوعات . (١)

ولم يحدث من قبل أن وصفت خطبة ألقاها زعيم وطنى الجانب المظلم
من الحياة المصرية فى ظل السيطرة الأجنبية بمثل هذا التفصيل . وأثارت
الخطبة جدلا حول شركات الاحتكار ، وبصفة خاصة فى المرافق العامة ،
وكان معظمها يملكه أجنبى ، (٢) وجدلا آخر حول قسوة نظام الامتحانات
فى المدارس العليا . ولسوء أحوال الحزب المالية استبدلت حفلة شاي فى
ناديه بالمأدبة المعتادة . (٣)

وبعد يومين تلقى فريد استدعاء للمثول أمام المدعى العام لاستجوابه
حول خطبته ، فدهش لانه كان يعتبرها أرق لهجة من خطبه السابقة .

(١) عبد الرحمن الرافعى : ص ص ٢٦٢ - ٢٦٩

(٢) على سبيل المثال كانت شركا ترام الاسكندرية والقاهرة يملكهما بلجيكيون ،
باستثناء ترام الرمل فكانت تملكه شركة بريطانية . وكانت شركة بريطانية أخرى تملك
الاسكندرية بالمياه ، فى حين كانت كهرباؤها من اختصاص الفرنسيين . وكل شىء فى
هليوبوليس ، احدى ضواحي القاهرة ، كان يملكه اللوجيه البلجيكي البارون امبان
وكانت معظم السكك الحديدية ملكا للحكومة المصرية ، ولكن بعض المؤسسات الاوربية
كانت تدير عدة خطوط صغيرة . وكانت خطوط «البوستة الخديوية» الملاحية ملكا للحكومة
فى الاصل ثم بيعت لشركة انجليزية . ومعظم هذه الحقائق مستمدة من تشارلز عيسوى .

(٣) عبد الرحمن الرافعى : ص ٢٦٩

وكنوع من الحيطة دعا لجنة الأصدقاء (١) التي كونها للتشاور في الموضوعات الهامة قبل عرضها على اللجنة الادارية (لا شك أن ثقته بها كانت أقل) . وبعد انتهاء فريد من الاستجواب أدرك أن الحكومة تريد أن تحاكمه بتهمة التحريض على الشغب ، واتفق مع اللجنة على أنه من الأفضل له أن يواصل الكفاح من المنفى على أن يبقى في مصر ويتعرض لحكم بالسجن لفترة طويلة . (٢)

وفي ٢٦ مارس أبحر فريد من الاسكندرية على سفينة روسية ، بعد أن اتخذ احتياطات غير عادية خشية أن يكتشف أمره . وكالشيخ جاويش وجد في استانبول الملجأ والحرية اللازمة لاستئناف حملته على بريطانيا . وبعد ستة أسابيع حكم عليه غيابيا بالأشغال الشاقة لمدة سنة . (٣) ولم ير مصر بعد ذلك قط .

(١) كان أعضاء هذه اللجنة هم : الدكتور صادق رمضان ، وفؤاد سليم الحجازي ، ومحمود فهمي حسين واسماعيل لبيب ، واسماعيل حافظ . وربما كان د. رمضان الطبيب الخاص للخديوي سابقا ، هو أقرب أولئك الرجال الى فريد رغم أنه لم يكن أحد المسؤولين المنتخبين في الحزب . لاحظ غياب وكيل الحزب ، علي فهمي كامل وأحمد لطفى . ومن المحتمل أن يكون فريد قد فقد ثقته في بقية المسؤولين في الحزب ، أو في قدرة اللجنة الادارية على مساعدته في الوصول الى قرارات في المسائل الدقيقة .

(٢) مذكرات محمد فريد : ١٤ ص وما بعدها ، عبد الرحمن الرافعي : ص ٢٨٤ .
(٣) عبد الرحمن الرافعي : ص ٢٧٤ . كما حكم على كل من علي فهمي كامل واسماعيل حافظ بالسجن ثلاثة اشهر لكل منهما لنشرهما نص خطبة فريد في « اللواء » و « العلم » على التوالي ، ولعل محاكمة الوطنيين هي التي دفعت سعد زغلول الى تقديم استقالته من منصب وذر الحقانية على نحو ما أعلن في حديث له مع أمين الرافعي نشر في « العلم » في ٥ ابريل سنة ١٩١٢ ، ويؤيد ذلك أحمد شفيق في مذكراته (ج ٢ ، مجلد ٢ ، ص ٢٦٨ ، ٢٧١ وما بعدها) ولكن العقاد من ناحية أخرى يرجع استقالته في كتابه « سعد زغلول » (ص ١٢٨ وما بعدها) الى مشاجرة مع كتشنر حول ميزانية الوزارة . وبالإضافة الى ذلك فقد كانت علاقة سعد بالخديو ورئيس الوزراء ليست ودية بحال . وكانت استعدائه خطوة هامة في تطوره من متعاون مع الانجليز الى تول مسئولية قيادة الكفاح من أجل استقلال مصر .

الفصل السابع انكسار الحزب الوطنى فى مصر

- الأزمة داخل الحزب
- الوطنية المصرية خارج مصر

الأزمة داخل الحزب

عجلت هجرة فريد من مصر بانهيار الحزب الوطنى بين صدمات سوء المحظ الخارجية والانقسامات الداخلية . فقد زادت الحكومة - بتوجيه كتشنر - اجراءاتها القمعية . فأرهبت الجميع باستثناء معارضى الحزب اللوالين للحكم البريطانى . فالجمعية العمومية المصرية التى كانت قراراتها السابقة بمثابة مؤشرات لقوة الوطنيين، رفضت اقتراح العضو عبد اللطيف الصوفانى ، وهو من أكبر زعماء الوطنيين بالدعوة لإنشاء نظام نيابى فورا . (١) وأوقفت الحكومة « وادى النيل » ، جريدة الحزب الوطنى اليومية بالاسكندرية ، (٢) ومنعت « Egypt » التى كانت تصدرها فى لندن لجنة « بلنت » المصرية ، من دخول البلاد بسبب هجومها على سياسة كتشنر ، (٣) فى حين كان على فهمى كامل ينفذ حكم السجن لنشره خطبة فريد فى « اللواء » ، فوقعت أكبر صحف الحزب الوطنى فى ضائقة مالية مؤسفة . وحينما أفرج عن « على » وجد شركة « اللواء » فيما يشبه الموت المفاجئ بعد أن عجزت عن نشر عنوانها أو اسم رئيس تحريرها المسئول (٤) . ولم تستطع « العلم » أيضا أن تصمد أمام حنكة

- (١) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1362 من كتشنر الى جراى ، القاهرة فى ١٤ ابريل ١٩١٢ ، رقم ٤١ .
(٢) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1362 من كتشنر الى جراى ، القاهرة فى ٧ ابريل ١٩١٢ ، برقية رقم ١٨ . وسمح «لوادى النيل» بمعاودة الصدور سنة ١٩١٤ بنفس رئيس تحريرها محمد الكلزة ، وظلت تصدر حتى سنة ١٩٣٦ .
(٣) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1363 من كتشنر الى جراى ، القاهرة فى ٤ ابريل ١٩١٢ ، رقم ٣٨ .
(٤) من على فهمى كامل الى فريد ، القاهرة فى ١١ أغسطس ١٩١٢ ، محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1364 من تشيثام الى جراى ، القاهرة فى ٩ سبتمبر ١٩١٢ ، رقم ٩٦ .

كتشنر التخريبية • (١) فلم يبق قرب نهاية سنة ١٩١٢ غير « الشعب » ليتحدث باسم الحزب (٢) •

كانت سياسة الحزب نحو الخديو هي العامل الرئيسي في انقسامه الداخلي • فقد كان تعيين كتشنر مندوبا بريطانيا وقنصلا عاما نذيرا بنهاية « الوفاق » بين السراى والوكالة البريطانية • ولهذا أبدى الخديو قدرا من الاهتمام بمصالحة الحزب الوطنى • غير أن الوطنيين بعد أن منوا بالفشل مرتين فى محاولاتهم العمل مع الخديو عباس أصبحوا بصفة عامة وفريد بصفة أخص ، ينظرون بشك كبير الى محاولاته للتقرب منهم • ورفض فريد أول عرض تقدم به للصالح فى سبتمبر سنة ١٩١١ ، وكذب مرارا شائعة نسبها الى الخديو ومندوبيه ، بأن السراى أعطته ثلثمائة جنيه لنفقات رحلته • (٣) وبعد هربه الى استانبول هاجم الخديو فى عدة مقالات نشرها فى صحيفتى « الهلال العثمانى » و « Le Jeune Turc » اللتين تصدرهما جماعة الاتحاد والترقى (٤) • ثم كتب بعد ذلك مقالين أعنف فى « Le Siècle » وهى جريدة يومية تصدر فى باريس ، كشف فيها دور الخديو ، ولم يكن معروفا حتى ذاك الحين ، فى تكوين الحزب الوطنى سنة ١٩٠٦ و ١٩٠٧ ، واتهمه بالتآمر على فصل الولايات العربية عن الحكم العثمانى ليصبح خليفة للعرب تحت الحماية البريطانية • (٥)

(١) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1364 من كتشنر الى جراى ، القاهرة فى ٣٠ نوفمبر ١٩١٢ ، رقم ١٢٦ •

(٢) كتب ويني الى فريد فى خطاب بتاريخ ٢١ ديسمبر ١٩١٢ يقول ان صوت « الشعب » كان شديد الضعف رغم ادارته لها ، وادارة الشقيقين المؤهوبين أمين وعبد الرحمن الرافعى • وبعد ذلك حينما خلفت الحكومة قبضتها توسعت « الشعب » من أربع صفحات الى ثمان واستأنفت نشر مقالات بتوقيع أعضاء الحزب •

(٣) مذكرات محمد فريد : ص ص ٢٣ - ٢٥ ، عبد الرحمن الرافعى : « محمد فريد » ص ٤٤٤ •

(٤) مذكرات محمد فريد : ص ص ١٦ - ١٨ •

(٥) « Le Siècle » ١٠ يوليو و ١٤ أغسطس • وسعى الخديو عباس للخلافة شائنة قديمة ، فعمل مسندى كامل مسئولية تكذيبها فى مقال « Berliner Tageblatt » فى ديسمبر سنة ١٨١٧ وأعاد على فهمى كامل نشره فى كتابه : ج ٦ ، ص ص ١١٧-١٢٨ ويشير أحمد شفيق فى مذكراته (ج ٢ ، مجلد ١ ، ص ٣٥١ وما بعدها) الى لقاء تعدد الخديو توقيعه يدعو مسندى اليمن الى الثورة على الحكم العثمانى • وقد حذر بلنت ، الذى كان ذات يوم من دعاة انفصال العرب عن الحكم العثمانى ، الوطنيين من أطماع الخديو فى خطبته التى ألقاها فى مؤتمر بروكسل ١٩١٠ • انظر :

Oeuvres du Congrès National Egyptien, p. 82, Adam : «Angle-terre en Egypté», p. 208.

وهدف هذان المقالان أيضا الى اثارة مخاوف فرنسا من تضاول نفوذها في سوريا نتيجة تأمر البريطانيين مع الخديو تحت ستار القومية العربية ، فأغضب بذلك الخديو وأزعج كثيرا من الوطنيين الباقين في مصر . وخشيت اللجنة الادارية أن يتعرض الحزب للمزيد من عدوان الحكومة ، فأمرت على فهمي كامل بالكتابة الى فريد يطالبه بتفسير لهجماته ، (١) بل ذهب بعضهم الى المطالبة باستقالته من الحزب .

ولم تكن سياسة الحزب تجاه الخديو هي موضوع النزاع الوحيد ، فقد وقعت في صيف ١٩١٢ حادثتان أثارتا الشكوك لدى المتنصلين من الأساليب والأهداف الثورية . كانت الأولى محاولة فاشلة لقتل كل من كتشنر والخديو ومحمد سعيد رئيس الوزراء . وقبضت الشرطة على خمسة شبان من الوطنيين ، قدم ثلاثة منهم للمحاكمة وأدينوا على أساس شهادة مزيفة في الأغلب . (٢)

وزادت الحادثة من النفور العام من الوطنيين ، كما أثبتت أن قفاز جورست المخملي قد تحول في يد كتشنر الى قبضة من حديد . وبعد فترة وجيزة قبض على طالب مصري بالكلية العسكرية باستنابول يدعى أحمد مختار ، وهو يحاول في جمرك الاسكندرية تهريب منشورات ثورية في شكل كتيب بعنوان « القصاص » . وكانت الكتيبات تدعو الى تكوين جمعيات سياسية سرية في مصر ، وتمجد الورداني (في دعوة مقنعه لاغتيال كبار المسئولين) ، وتوجه لوما طويلا للخديو ، يدين وزارة سعيد

= وكذلك تلقى فريد رسالة من رئيس تحرير « البلاغ » البيروتية بتاريخ ٦ فبراير ١٩١٢ يحذره من مؤامرات ضد السلطان ينفذها في سوريا عملاء البريطانيين والخديو . وعن آراء الوطنيين المصريين في القومية العربية انظر ايضا : انيس صايغ « الفكرة العربية في مصر » ، بيروت ، مطبعة هيكل الغريب ، ١٩٥٩ ، ص ٤٩ - ٥٥ ، ٧٢ وما بعدها . (١) من على فهمي كامل الى محمد فريد القاهرة في ١٣ سبتمبر ١٩١٢

(٢) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1362 من تشييهام الى جراي القاهرة في ٢٢ يوليو ١٩١٢ ، رقم ٨١ ، من تشييهام الى جراي ، الرمل في ١٨ أغسطس ١٩١٢ رقم ٩١ . ويذهب عبد الرحمن الرافعي (ص ٢٨٦) الى أن الحكومة لم تقدم أي دليل يثبت وجود مؤامرة ، ولكنها اعتمدت على شهادة رئيس مباحث الشرطة . وقد اعترف هذا الضابط فيما بعد أن شهادته في تلك القضية كانت كاذبة ، بعد ادانته في تهم رشوة . واعتقد الوطنيون أن كتشنر اختلق هذه المؤامرة ليس الى سمعة الحزب ويرر قمعه له . انظر مقال محمد فريد « Le Complot contre le Khédive; l'opinion des nationalistes égyptiens » ، « Le siecle » ١٩١٢ يوليو ٢٤

وإعتماده على البريطانيين ، واضطهاده للوطنيين ، وفساد المحيطين به (١) .
وباستجواب مختار نسب تأليف هذا الكتيب الى الشيخ جاويش .
وخشيت الحكومة المصرية أن يستخدم الوطنيون استانبول قاعدة
يوجهون منها نشاطهم الثوري الى مصر ، فطالبت بتسليم جاويش (٢) .
وكانت وزارة مناصرة للبريطانيين قد تولت الحكم منذ قليل وأقصت حزب
الاتحاد والترقي ، فما كان منها الا أن قبضت على جاويش وسلمته
للسلطات المصرية . وكان فريد والدكتور منصور رفعت قد أقحما أيضا في
شهادة مختار ، ولكنهما نجيا من تسليمهما بالاسراع بالفرار الى فرنسا
أولا ثم سويسرا (٣) . وبدأ الخديو يهدد الحزب بمزيد من العدوان اذا
لم يستنكر هجمات فريد عليه . (٤) أما وقد أصبح فريد طريد العدالة في
ثلاثة دول ، فان قسما كبيرا من أعضاء اللجنة الادارية أبدى استعداده
لنبذ زعامته المخرجة للحزب بصورة متصاعدة . وحصلت هذه المجموعة
بقيادة عبد الحميد عمار على تأييد غالبية اللجنة التي أصدرت بيانا بأنها
« تنصل من كل حركة تسيء الى سمعة البلاد ، وتعتبر كل تصرف خارجا
عن نطاق العمل السلمي والعقل مضادا لمبادئ الحزب الوطني » (٥) .
وأرسلت مجموعة عبد الحميد عمار ، ربما بتعريض من الخديو ، رسالة الى

(١) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1363 من تشييهام الى جراي ،
الرميل في اول سبتمبر ١٩١٢ ، رقم ٩٤ ويحوى ترجمة فرنسية لكتيب « القصاص »
ومن اتباع الخديو الذين نسب اليهم الفساد عدد من الوطنيين السابقين كمحمد علي
دلاور ، واحمد شوفي ، وحامد العلايلي .

(٢) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1363 من تشييهام الى جراي ،
الرميل في ٢٧ اغسطس ١٩١٢ برقية رقم ٤٩ .

(٣) مذكرات محمد فريد : ص ١٨ - ٢٠
France, Ministère des Affaires Etrangères : Egypte : Politique Intérieure —
Dossier Général, V, p. 121, من فوشيه الى بونكاريه ، القاهرة في
٢ سبتمبر ١٩١٢ ، برقية رقم ٧٣ ، المصدر السابق : مذكرة عن محمد فريد في ٥
سبتمبر ١٩١٢ ، رقم ١٥٤ محفوظات وزارة الخارجية البريطانية ، FO 371/1364
من كامبون الى جراي ، لندن في ١٥ سبتمبر ١٩١٢ .

(٤) من علي فهمي كامل الى فريد ، ٨ يناير ١٩١٢

(٥) France, Ministère des Affaires Etrangères : Egypte : Politique Intérieure —
Dossier Général, V, p. 139 f. من فوشيه الى بونكاريه ، القاهرة في ١٠ سبتمبر ١٩١٢ رقم ٣٩٠ ، محفوظات وزارة
الخارجية البريطانية FO 371/1363 من تشييهام الى ماليه ، القاهرة في ١٦ سبتمبر
١٩١٢ ، خاص .

فريد تطالبه فيها بالاستقالة (١) . فاستجاب فريد قائلا ان غيبته الطويلة عن مصر جعلته عاجزا عن مباشرة واجبات منصبه (٢) ، ولكن الحزب لم يسارع الى البت في استقالته .

ويبدو أن اللجنة الادارية انقسمت الى معسكرين : « المعتدلين » الذين يريدون انقاذ الحزب بتخفيف التوتر مع السراى ولو ضحوا في سبيل ذلك بزعيمهم ، و « المتطرفين » الذين رأوا خلاصهم في التمسك الصارم بالمبادئ الوطنية والولاء لفريد وازدراء كل المتعاونين مع الانجليز . كان المعتدلون هم أعضاء اللجنة الأكثر ثراء وتقدما في السن : عبد الحميد عمار ، عبد اللطيف الصوفاني ، وحافظ رمضان ، وعلى علوبة ، ومحمد أحمد شريف ، وعلى المنزلاوى (٣) . وكان من أنصار فريد : اسماعيل حافظ (شقيق زوجته) ، وعبد الملك حمزة ، وعبد الله طلعت ، واسماعيل لبيب ، وأحمد وفيق ، واسماعيل كامل ، وعبد الرحمن الرافعى ومصطفى الشوربجى . أما على فهمى كامل أكبر مسئول في الحزب فقد أدعى الحياد (٤) ، وان كان ميله المبدئى أقرب الى المعتدلين (٥) .

ووصل الصراع بين الفريقين حول السيطرة على الحزب الى قمته (*) فى يناير ١٩١٣ ، حينما عقدت سلسلة من الاجتماعات الجانبية ، حاولت خلالها كل طائفة فصل معارضيها من عضوية اللجنة الادارية (٦) . وفى النهاية انتصر « المتطرفون » واستطاعوا رفض استقالة فريد وعزل

(١) أحمد شفيق : ج ٢ ، مجلد ٢ ص ٢٧٠

(٢) « الأهرام » : ٢٠ سبتمبر ١٩١٢ ، « Le Siècle » ٢٥ سبتمبر ١٩١٢

(٣) استقال المنزلاوى - من اللجنة بعد أن فشلت فى اتخاذ اجراء فورى بشأن استقالة فريد ، واتهمه بأنه حقق أرباحا طائلة من عملية « العلم »

من فوشيه الى بوانكاريه ، القاهرة فى ١٠ أكتوبر ١٩١٢ .
France, Ministère des Affaires Etrangères : Egypte : Politique Intérieure —
Dossier Général, VI, p. 19.

(٤) من على فهمى كامل الى فريد ، ٨ يناير ١٩١٣ .

(٥) من أحمد وفيق الى فريد ، القاهرة فى ٢١ ديسمبر ١٩١٢ . ومما كتبه وفيق أن فريقه يريد عزل « على » عن الوكالة لأنه يعارض جهودهم لطرد « عمر » من اللجنة الادارية .

(٦) من على فهمى كامل الى فريد ، ٨ يناير ١٩١٣ .

(*) المؤلف يخلط بين اختلاف فريقى الحزب حول سياسة الحزب تجاه الخديو ، وبين الصراع من أجل التمسك والسيطرة . الخلاف الأول موجود وله اسبابه أما الثانى فيتخلله المؤلف . والوقائع التى يوردها لا تؤيد فى قليل أو كثير أن الفريق المناهض لفريد كان فيه من يضمح فى الرئاسة دون فريد نفسه .

عبد الحميد عمار من عضوية اللجنة (١) . وترتب على ذلك استقالة كثير من المعتدلين أو توقفهم عن حضور الاجتماعات ، فانتخبت اللجنة الادارية ، بناء على اقتراح فريد ، أعضاء آخرين بدلا منهم ، كما صوتت على تأجيل المؤتمر السنوى للحزب حتى نهاية العام . (٢) وان كان هذا الاجتماع للوطنيين لم ينعقد فى الحقيقة الا بعد عشر سنوات .

ان الحزب الوطنى لم يختف من الوجود ، وان كان الجانب الاكبر من جاذبيته قد تبدد . (*) فكثير من أعضائه البارزين تخلوا عن القضية ، بعضهم الى الابد ، وبعضهم الآخر حتى قيام ثورة ١٩١٩ . وتحالفت عودة الرخاء التدريجى ، وانتهاء الأزمة الطويلة التى تلت سنة ١٩٠٧ مع خوف الوطنيين الباقين من المزيد من بطش الحكومة على جعل التربة غير صالحة مؤقتا لانتشار المعارضة للبريطانيين .

وبالرغم من ذلك فقد ظلت عوامل فقدان التوازن تتزايد فى المجتمع المصرى - الانتقال الى الاقتصاد السائل المعتمد على محصول واحد ، وسيطرة النفوذ الأجنبى وظهور طبقة بروليتاريا فى المدن بلا جذور تقريبا ، وانهيار القيم والنظم المتوارثة - كل هذه العوامل لم تتوقف عن القيام بدورها . وبشيء من التأمل يمكن أن نلاحظ أن سنتى ١٩١٣ و ١٩١٤ الهادئتين - لا السنوات من ١٩٠٧ الى ١٩١٢ - هما اللتان تقدمان النموذج السائد لتاريخ مصر الحديث .

(١) من ولىق الى فريد فى ٢٠ يناير ١٩١٣ ، من عبد الملك حمزة الى فريد ، القاهرة فى ٢٠ يناير ١٩١٣

«٢» من على فهمى كامل الى فريد ، القاهرة فى ٦ فبراير ١٩١٣ .
(*) ويخلط المؤلف هنا بين فقدان لحزب جاذبيته او تأييد الشعب له ، وتضييق الحكومة عليه ، واضطهاد انصاره ، واغلاق صحفه . فالحزب الوطنى بقى قائد الشعب ، وبقى المصريون يذكرون مصطفى كامل ، والفلاحون يتغنون بالمواويل التى تهجد دوره فى حادثة دنشواى كما كانوا يذكرون « فريد » على البعد ، ولكن السلطة العسكرية لجأت الى اقصى العنف لمنع كل نشاط للحزب الوطنى . فصمت الشعب كان صموتا مفروضا على الحزب الوطنى ولم يكن انفضاضا من الشعب عنه .

الوطنية المصرية خارج مصر

نجحت اجراءات القمع التي نفذها كتشنر وخصومته القاتلة في اضعاف الحزب الوطنى (*) فى مصر وحرمة زعماءه ، فاضطر الى نقل بؤرة نشاطه الى خارج مصر . فاجتمعت أعداد قليلة من الوطنيين المبعدين فى استانبول ، حيث شغل الشيخ جاويش منصبا هاما حين رأس تحرير صحف جماعة الاتحاد والترقى ، وفى جنيف حيث لجأ فريد بعد ترحال استمر بضعة أشهر من بلد لآخر ليتجنب تسليمه للسلطات المصرية .

ولما لم يكن لأى من الجماعتين موارد تسمح لها بالتفرغ للهجوم على الاحتلال ، فقد تحولتا الى الدعوة للجامعة الاسلامية . وفى يناير ١٩١٣ التقت فى جنيف جماعة من المسلمين المبعدين وكونوا جمعية ترقى الاسلام . وتولى فريد رئاسة تحرير مجلتها الشهرية «Bulletin de la Société Endjouman Terekki-Islam» ، وكان المفروض أن تنشر أخبار العالم الاسلامي وتعرض المصاعب التي تواجه المسلمين الذين وقعت بلادهم تحت سيطرة حكم المسيحيين (١) . وعبر فريد فى افتتاحياته عن يأسه من

(١) مذكرات محمد فريد : ص ٢٢ . وكانت مجلة الـ « Bulletin » التي ظلت تصدر بانتظام حتى سنة ١٩١٥ نوعا من الاستمرار لمجلة بلنت : «Egypt» التي توقفت عن الصدور بعد وفاة فريدريك ريان المبكرة فى أبريل ١٩١٣ . (Blunt : « My Diaries », 825).

(٢) مرة أخرى نختلف مع المؤلف فى استعمال تعبير « اضعاف الحزب الوطنى » ، فاستعمال القوة ضد حزب قد تمنعه من نشاطه وتزداد اسمه وظهور تأييد الناس له ، ولكن ليس معنى هذا اضعاف الحزب ، فاستعمال القوة ضد حزب ما فى وقت ما قد يؤدي الى مضاعفة قوته .

مستقبل الاسلام ، وعدم ثقته في أهداف ، لا بريطانيا وحدها ، بل أوروبا
المسيحية كلها (١) .

كان موقفه انعكاسا صادقا لليأس العام الذي خيم على المراقبين
المسلمين : فقد كانت فرنسا قد أتمت لتوها تطويق امبراطوريتها بشمال
افريقيا باعلان الحماية على مراكش ، وسقطت طرابلس في أيدي الايطاليين ،
ونصب كتشنر نفسه حاكما فعليا لمصر ، في حين كانت ايران شبيهة
مستعمرة روسية ، و « الحلف البلقاني » يقوم بطرد تركيا من ولاياتها
الأوربية وسط تهليل المسيحية في كل أرجاء العالم تقريبا .

وكانت لفريد نظرة اسلامية بالرغم من ثقافته الغربية ، فرأى أن
دفاع أوروبا عن حق دول البلقان في تقرير مصيرها ، وما صحبه من موقف
عدائي تجاه مطلب مصر المسلمة للاستقلال ، لا معنى له سوى أن الحروب
الصليبية لم تنته .

ولم تنتعش آمال فريد الا في يناير ١٩١٣ حينما أطاح ضباط جماعة
الاتحاد والترقي بوزارة كامل باشا المناصرة للانجليز وشسحنوا المقاومة
التركية لقوات البلقان . فعاد الى استانبول في فبراير حيث قام باحياء
جمعية الطلبة المصريين الممزقة ، غير أنه تشاجر مع جاويش ، لأنه كان
يعتقد أنه هادن الخديو سرا ليضمن تبرئته من حادثة أحمد مختار (٢) ،
وحرص على ابعاده من قيادة الطلبة . ومن سوء حظ المصريين أن «جاويش»
هو الذي كان يحظى بثقة زعماء تركيا الفتاة . وهكذا كادت الأشهر الثلاثة
التي قضاها فريد باستانبول لا تحقق شيئا بالمرّة (٣) .

(١) بالإضافة الى «Bulletin» أصدر فريدة نشرة :
«Etude sur la crise Ottomane actuelle». Geneve, Société «Le Progrès
de l'Islam», 1913, 2nd ed., 1915.

عبر فيها عن آراء مشابهة .

(٢) مذكرات محمد فريد : ص ٤٦ وما بعدها .

(٣) جاء في مجلة «The Near East» ١٣ أكتوبر ١٩١٣ ، أن فريدا منح ١٥٠٠
فرنك ليغادر استانبول ، لأنه كان يثير الفرقة بين الأتراك . واثناء اقامته كتب مقالا
اتهم فيه الشيخ علي يوسف بالتعاون مع جمعية عربية انفصالية في القاهرة ، وأوحى
باصدار كتيب يوجه اللوم للخديو ويعتبره مسئولا عن الهزائم العثمانية في حرب البلقان
الأولى . انظر :

Die Grosse Politik der Europäischen Kabinette, XXXVIII, p. 25,

من فاجنهايم الى بيثمن - هولفينج ، يرا في ١٢ ابريل ١٩١٣ ، رقم ٥٨
France, Ministère des Affaires Etrangères : Egypte : Politique Inté-
rieure Relations du Khédivé avec le Sultan, II, p. 119 f.

من ديفرانس الى بوانكاريه ، القاهرة في ٢١ ابريل ١٩١٣ .
«The Moslem World», XI, 3 (July 1921), p. 320.

وعند عودة فريد الى جنيف في مايو كرس معظم وقته وجهده خلال السنة التالية لتنظيم السبعمئة مصرى الذين يدرسون في أوروبا (١) في جمعيات سياسية تختزن وقود الوطنية الى أن تسمح ظروف مصر باضرامها هناك . وفي أغسطس دعا فريد الى اجتماع طلابى بقرية فرنسية قريبة من جنيف تدعى « كولونى - سو - سالييف » Collonges-Sous-Salève حيث طالب باتخاذ موقف نضالى مؤيد للوطنيين ، وتحقيق له ما أراد .

وفي ديسمبر كونت الجالية المصرية الكبيرة بجنيف ناديا وطنيا أسمته جمعية « أبو الهول » . وأصبح هذا النادى نموذجا لنواد مماثلة في مدن أوروبية أخرى حيثما وجد عدد كبير من الطلاب المصريين . ففي ربيع سنة ١٩١٤ رأس فريد بنفسه حفلات افتتاح فروع « جمعية » « أبو الهول » في لندن ، وباريس ، وليون ، ولييج ، وأنتويرب ، وبروكسل (٢) .

لم تكن علاقة الخديو بكتشنر طيبة حين كان الأخير سردار الجيش المصرى في تسعينيات القرن الماضى ، وازدادت سوءا حين أصبح المندوب البريطانى فى القاهرة ، وأصبح الصراع بينهما علنيا فى مستهل سنة ١٩١٣ حينما حاول عباس أن يبيع لشركة ايطالية سكة حديد مريوط

(١) فى تقرير أعدته وزارة المعارف المصرية وضمته محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1639 ، من تشيىهام الى جراى ، الرمل فى ٢١ سبتمبر ١٩١٣ ، رقم ١٠٨ ، أن عدد المصريين الذين كانوا يدرسون فى المعاهد العليا بأوروبا ٧٠٦ طلاب ، من بينهم ٤٤٠ بانجلترا ، ١٨٦ بفرنسا ، ٣٥ بسويسرا ، ٢٢ بالامبراطورية العثمانية ، ٢٠ بألمانيا ، ٩ ببلجيكا ، ٨ بإيطاليا ، ٤ فى النمسا والمجر . ومعظمهم كانوا يدرسون على نفقة أهليهم ، ومن ثم لا يخضعون لأى توجيه رسمى ، فكانت لهم حرية الارتباط بالعمل الوطنى اذا شاءوا . وكان تعيين وزارة المعارف لمشرفين على هؤلاء الطلاب فى لندن وباريس وجنيف سنة ١٩١٢ ، اجراء حثت عليه وزارة الخارجية البريطانية وكتشنر ، وهاجمه فريد ، والأرجح انه أحدث أثرا مثبطا فى حماسة الطلبة للمشاركة فى النشاط السياسى . (٣)

(٢) مذكرات محمد فريد : ص ص ٦٤ ، ٦٩ - ٧٣ ، ٧٨ وما بعدها ، عبد الرحمن الرافعى ، « محمد فريد » ، ص ص ٣٠٩ وما بعدها ، ٣٢٨ - ٣٣٤ Bulletin de la Société Endjouman, Terkki-Islam II, 4-6 (April-June 1914) pp. 222-246, 306-308, 341-349, The African Times and Orient Review, London, N.S., I, 1 (March 1914), p. 5f.

(٣) لا يوجد أدنى دليل يعتد به على حصول هذا التشبيط ، اذ أن الحرب لم تلبث أن قامت واصبحت هذه المكاتب عديمة التأثير على الطلاب ازاء أحداث الحرب الضخمة التى شغلت الجميع وعطلت أكثر النشاط السياسى .

التي أنشأها على ساحل البحر الأبيض من الاسكندرية غربا حتى مرسى مطروح . وكان بند من عقد البيع يسمح للمشتري بمد الخط الى السلوم على الحدود الليبية . ولما كانت ليبيا قد أصبحت الآن مستعمرة ايطالية ، فان سكة حديد مريوط اكتسبت اهمية استراتيجية كبيرة بالنسبة لها ومن الممكن أن تسهم في تقوية مركزها في شمال شرقى افريقيا . لذلك فقد تدخل كتشنر لمنع البيع (١) .

ومنذ ذلك الحين بذل كتشنر كل ما فى وسعه للحد من سلطات الخديو ، وتحرك بجرأة حيثما لم يجرؤ حتى كرومر على مجرد الخطو . فاستطاع أن يستخلص ادارة أوقاف المسلمين من اشراف الديوان الخديوى ، وكانت تمتد عباسا بجانب كبير من النفقات التي تتطلبها مؤامراته ضد البريطانيين والوطنيين ، وأنشأ وزارة خاصة لتدير هذه الثروات الدينية (٢) . وكذلك وضع حدا للعملية المربحة التي كان يمارسها الخديو فى بيع الرتب والأوسمة ، وكانت تمثل مصدرا آخر للدخل الخاص والفضائح العامة (٣) بل لقد فكر فى خلع عباس ، لولا أن صرفه كرومر عن ذلك لئلا يستثير الخديو العطف العام و « يتحول الى مركز يمكن أن تتجمع حوله النزعات الوطنية » (٤) .

لقد كان الجشع هو النقيصة المأساوية فى الخديو ، وباستثنائه كان شخصية جذابة . ولعل حالته تؤكد حقيقة أن قليلا من السلطة يمكن أن يفسد تماما وبنفس القدر كالكثر منها . فلم يكن عباس مؤهلا ليكون حاكما سوريا ، وقد أثار حقه تباهى كتشنر بممارسة سلطاته فى حين أن تواضع جورست المنكر لذاته كان يهدئه . وهكذا استؤنفت فى سنة ١٩١٣ العلاقات المتوترة التي كانت سمة الفترة الأولى من حكم عباس .

فى مثل هذه الظروف لم يكن غريبا أن يبحث الخديو عن حلفاء جدد ضد كتشنر ، بدأ بمحاولات سرية للتقرب من الوطنيين ، على نفس النحو الذى فعله فى صراعه مع كرومر منذ عشرين عاما . ان عروضة السابقة

(١) Lloyd : I. p. 171. ون ناحية اخرى قال ييمان فى كتابه «عزل الخديو» ان عباسا عرض قبل ذلك بيع خط سكة حديد مريوط للحكومة ، ولكن كتشنر رفض ، بهدف تخفيض الثمن .

» The Dethronement of the Khediv»
Lloyd : I. pp. 169-171, Beaman :
pp. 50-52.

Lloyd : I, p. 171

(٢)

Magnus : p. 272.

(٣)

(٤) من كرومر الى كتشنر ، لندن فى ٣٠ يوليو ١٩١٣ ، Magnus : p. 272 f.

على المعتدلين لم تحقق الا تمزيق الحزب ، فى حين ظلت غالبية اللجنة الادارية على اخلاصها لفريد . فما كان منه الا أن بدأ يسعى لمصالحة فريد نفسه . فلم يكن مصادفة أن يكتب واحد من أعضاء اللجنة المخلصين ، وهو محمود الشيشينى ، الى فريد فى مايو ١٩١٣ يدعو الى محاولة للتقارب يتولاها شخص يتمتع بثقة الطرفين (١) .

وحاول الخديو نفسه الاتصال بفريد عن طريق بعض المغتربين المصريين ، كيوسف صديق ، ومحمد على دلاور ، ومحمود سالم ، وكلهم وطنيون سابقون على علاقة وثيقة بالسراى (٢) ، بل لقد فكر أيضا فى طريقة أفضل للاتصال بفريد ، فظل فترة يدفع مرتبا شهريا لعزيزة دى روتشبرون ، وهى من أشد مؤيدى فريد حماسة (٣) ، ودعاها الى

(١) من محمود الشيشينى الى فريد ، القاهرة ، فى ١٩ مايو ١٩١٣ . وقد تزوج حيدر بن محمود كبرى بنات محمد فريد .

(٢) مذكرات محمد فريد : ص ٤٤ - ٤٦ ، أحمد شفيق : ج ٢ ، مجلد ٢ ، من ٣٠٣ . وكان « صديق » وقتذاك رئيس الديوان الخديو ، « ودلاور » ناظر اقطاعيات الخديو ، « و.م.ل.م » رئيس «جمعية الدعوة والارشاد» وهى معهد الشيخ رشيد رضا بالقاهرة لتدريب المبشرين المسلمين . وهناك شخص آخر أقل شهرة ، وان كان اقرب للوطنيين ، وهو توفيق زاهر ، قابل فريد عدة مرات سنة ١٩١٣ بشأن الصلح مع الخديو .

(٣) قصة مدام عزيزة دى روتشبرون ، واسمها الحقيقى رينيه روتشبرون - ريفارد ، تعقدت على أيدي المصريين المعجبين بها والكارهين لها حتى أصبحت تستعصى على الحل . لقد ولدت سنة ١٨٨٨ لأسرة فرنسية بورجوازية تعيش فى الأرجنتين ، ولكنها عادت الى باريس بعد وفاة والدتها ، وشغفت بالدراسات الاسلامية وهى طالبة بثانوية فيكتور هوجو فالتحقت بمدرسة اللغات الشرقية الحية حيث تعلمت اللغة التركية ، ثم بمدرسة العلوم السياسية . وكونت علاقات مع كثيرين من الطلاب المصريين ، والأتراك ، والهنود ، والایرانیين فى باريس سنة ١٩٠٩ ، وهى نفس السنة التى التقت فيها بفريد ، وانشأت ناديا ، ومركزا شرقيا ومجلة شهرية هى «La Revue Orientale» وفى سنة ١٩١٠ أصبحت احلى سكرنيرات المؤتمر الوطنى المصرى .

وفى مقابلة مع كاتب هذه السطور روت أن «فريد» حينما علم أنها حامل وعدها ، فى حضور عدد من الأصدقاء أنه سيتخذها زوجة ثانية له . وقد تألم أبوها بعق لحملها واضطرها الى مغادرة البيت ، فسافرت الى تركيا مراسلة لصحيفتين باريسيتين ، وفى نيتها مقابلة فريد هناك . وفى استانبول قضى معها فريد معظم شهر ديسمبر ١٩١٠ ، ثم عاد الى القادرة ليواجه المحاكمة حول ديوان «وطنيتى» . وفى مارس ١٩١١ وضعت طفلا ، اسمته محمود وحيد (« وحيد » باللغة العربية تكاد تكون مرادفة لفريد) . فى تلك الأثناء كان فريد قد فقد ثروته ، وأصبح غير قادر ، أو غير راغب ، على الوفاء بوعده بالزواج . وبعد مصاعب جمة احتملتها روتشبرون اتصلت فى النهاية بيوسف صديق ، الذى استطاع بدوره اقناع الخديو بأن يخصص لها مرتبا شهريا قدره عشرون جنيها تعول به ابنتها ، على أساس أن ابوة فريد له تجعله مصريا . غير أن فريد لم يعترف قط =

قصره باستانبول وطلب منها أن ترتب له لقاء مع فريد . فذهبت الى جنيف حيث حصلت على موافقة فريد المبدئية على أن يقابل الخديو وجها لوجه . غير أن الخديو حينما زار جنيف في أكتوبر سنة ١٩١٣ خشى متابعة الجواسيس البريطانيين ، ورحل قبل أن يتم ترتيب اللقاء (١) .

وهكذا بدأ دور مدام دي روتشبرون الغريب في الوساطة بين الوطنيين والخديو . وقد ظلت مسألة الصلح هذه تشغل « فريد » حتى نشوب الحرب العالمية الأولى ، فقد كان الجانبان مترددين ، فمع ضعف موقفيهما كان لابد من أن يكشف كل منهما ورقه بحذر شديد . فقد ارسل الخديو في أواخر نوفمبر يستدعي روتشبرون الى القاهرة وأرفق برسالته تذكرة الباخرة . وعلى الفور كتب فريد الى شقيق زوجته بالقاهرة يحذر الوطنيين من معاونتها في جهودها للوساطة (٢) . لعله خشى أن يستخدمها الخديو في احداث المزيد من الفرقة في صفوف الحزب . ولكن اللجنة الادارية كانت قد قررت بالفعل التقرب من الخديو ، عن طريق عبد الملك حمزة ومصطفى الشوربجي هذه المرة (٣) . وقد وعدهما الخديو بأنه سيقابل فريد حينما يسافر الى أوروبا في الصيف التالي ، كما دفع ألف جنيه لانقاذ « الشعب » من ضائقتها المالية المستمرة ، فغضب لذلك فريد وكثير من مؤيديه في القاهرة ، ممن كرهوا أن يصبح للخديو فضل جديد على أداة الحزب (٤) .

= بنسبة هذا الابن اليه علنا ، رغم أنه ظل على اتصال بروتشبرون حتى وفاته . وكتب في مذكراته أن الخديو كان يدفع لها لتتجسس عليه ، لكنه استطاع اقناعها بأن تتجسس له على عباس وان كانت روتشبرون (مدام فييسار الآن) أخبرتنى أن ما قاله فريد في مذكراته غير صحيح . هذه الفضيحة غير السارة في حياة فريد الخاصة كان من الممكن ألا تعنى بها هذه الدراسة ، لولا الدور الهام الذي قامت بها روتشبرون في الوساطة بين فريد والخديو . ولم يصدق جميع الوطنيين قصتها ، فمازال الكثير منهم يعتبرونها متأمرة او عميلة للانجليز . وستحصل على تفاصيل حياتها حين تنشر مذكراتها . وقد أشاد أحمد شوقي (ج ٢ ، مجلد ٢ ، ص ٣٠٣) بكفاءتها في الوساطة بين الخديو وفريد .

(١) المصدر السابق ، مذكرات محمد فريد : ص ٥٣ وما بعدها .

(٢) مذكرات محمد فريد : ص ٦٢

(٣) من على فهمي كامل الى فريد القاهرة في ٨ نوفمبر ١٩١٣ .

(٤) من عبد الملك حمزة ، ومحمد علي محمد ، وعبد الحميد سعيد ، واسماعيل كامل ، وعوض البحراوى وأحمد طاهر الى فريد القاهرة في أول مايو ١٩١٤ ، من عبد الملك حمزة الى فريد في ١٣ مايو ١٩١٤ ، من أحمد وفيق الى فريد ، فاقوس في ١٧ يونيو ١٩١٤ . وكان فريد يعتقد أن عبد الله طلعت وشقيق اسماعيل لبيب وأحد مديري الشعب يتقاضون مبالغ منتظمة من الخديو ، ومن ثم أصبح « الشعب » خديويا أكثر من « المؤيد » . (مذكرات محمد فريد : ص ٨٣)

ومن ناحية أخرى قضت روتشبرون الشتاء كله في مصر دون أن تقابل الخديو ، ولكنها قابلت كتشنر الذي قال لها بفظاظته المعهودة انه يفضل أن يفتح بوابات السجون على اتساعها ويطلق سراح كل مجرمي مصر على أن يسمح لفريد بالعودة . وأخبرها حسين رشدي ، الذي خلف محمد سعيد في رئاسة الوزارة في مارس ١٩١٤ ، ان الحكومة المصرية تريد محاكمة فريد غيابيا على مقالاته في الصحافة الأوربية ، بهدف أن يصدر ضده حكم قاس يصرفه نهائيا عن التفكير في العودة الى مصر ، ومعنى ذلك أن غيبة فريد عن مصر سنتين لم تقل ، في نظر كتشنر ، من قدرته على اثاره المعارضة (١) .

ورغم أن كتشنر استخدم العنف في مواجهة اثارات الوطنيين المتطرفين ، فقد حاول الاستجابة لرغبة المصريين العامة في الاصلاح الدستوري . ففي يوليو ١٩١٣ أصدرت الحكومة المصرية قانونا نظاميا يحل محل قانون ١٨٨٣ ، وينشئ جهازا نيابيا جديدا هو الجمعية التشريعية التي تقوم بدور المجلس التشريعي والجمعية العمومية معا . وخولت هذه الجمعية التشريعية حق اقتراح التشريعات ، ورفض اقرار ضرائب جديدة ، ولكنها لا تستطيع منع الحكومة من اقرار القوانين ، وليس من حقها مناقشة التزامات مصر نحو الامبراطورية العثمانية أو الدول الأجنبية ، بما فيها بريطانيا ، ولا تملك أن تعين الوزراء أو تقييهم ، فقد ظلوا مسئولين دستوريا امام الخديو ، أو امام البريطانيين في حقيقة الأمر . وكانت الجمعية التشريعية تضم الوزراء ، بالإضافة الى ١٧ عضوا تعينهم الحكومة و ٦٦ عضوا يختارهم مندوبو الناخبين الذين انتخبوا شعبيا بدورهم (٢) .

واعتبر الوطنيون الجمعية التشريعية - بسلطاتها المقيدة وطبيعتها النيابية المحدودة - شركا وخديعة بريطانية لصرف الرأي العام المصري عن دعوة الحزب الوطني لنظام دستوري حقيقي . (٣) ويبدو أن تكوين

(١) مذكرات محمد فريد : ص ٧٩ وما بعدها .

(٢) Landau : « Parliaments and Parties », p. 55 f.

(٣) Muhammad Farid : « La Nouvelle loi organique », La Vie, Paris,

11 October 1913, pp. 48f.

عبد الرحمن الراعي : ص ٣١٣ - ٣١٧

Ali Fahmi Muhammad : " The Egyptian Constitution », The African Times and Orient Review, 14 (August 1913), pp. 47-10.

الجمعية التشريعية وتوقيت اقامتها قد قضى بالفعل على نفوذ الوطنيين (*) ولم يسمح للأحزاب بالقيام بحملات انتخابية علنية للمرشحين في المرحلة الاولى التي تمت في أكتوبر ، وكان مجموع الناخبين ضئيلا بصورة مخيبة للآمال (١) . وأجريت المرحلة الثانية من الانتخابات في ديسمبر ، ورغم أن معظم المنتخبين كانوا - كما هو متوقع - من ملاك الاراضى الميالين لتأييد حزب الأمة ، فقد كان معهم عدد قليل من الوطنيين (٢) ، وكان فوزهم في الانتخابات ، رغم ارادة النظام الحاكم ، عاملا لتجديد حياة الحزب في مصر قبيل الحرب العالمية الاولى ، فأعيد افتتاح ناديه سنة ١٩١٤ ، وكان قد أغلق في أوائل سنة ١٩١٣ نتيجة للعجز المالى ، الحزب . ولو قدر للجمعية التشريعية أن تستمر ، لكان من المحتمل أن ووسعت جريدة « الشعب » نشاطها ، وبدأت تنشر مقالات بأقلام زعماء يتخذ الحزب الوطنى طريقا أكثر شرعية ، ويعمل على تحقيق أهدافه من خلال المؤسسات السياسية القائمة بدلا من طبيعته الثورية التى تسعى لتدمير هذه المؤسسات .

وفى الدورة الاولى للجمعية التشريعية ، والوحيدة كما اتضح فيما بعد ، ثبت أن سعد زغلول كان الشخصية الرئيسية فى الجمعية . وقد انتخب فى القاهرة بتأييد الوطنيين ، وكان بعضهم يترضى لو أنه انضم الى الحزب الوطنى ، ويصبح وكيلا له بدلا من أحمد لطفى ، لكى يكون فى النهاية جبهة معارضة فى الجمعية من أعضاء الحزب الوطنى وحزب الأمة . ورغم أن بعض ذوى النفوذ فى الحزب ، كعلى فهمى كامل وعبد الملك

(١) Basil Worsfold : « The Future of Egypt », London, Collins, co. 1914.

العقاد : « سعد زغلول » ، ص ١٥٣ ، ويقول أن ٦٩٪ فقط من المسموح لهم بالتصويت فى القاهرة و ٩٨٪ فقط من المسموح لهم بالتصويت فى الاسكندرية هم الذين ذهبوا فعلا الى صناديق الانتخاب . وكان معنى ذلك ، من وجهة النظر البريطانية ، أن معظم المصريين لم يكونوا مؤهلين بعد للحكم النيابى ، أما الوطنيون فقد ذهبوا الى أن تجريد الجمعية التشريعية من كل سلطة تقريبا ، والقيود التى فرضت على الدعاية الحزبية العلنية فى الانتخابات هى التى نفرت غالبية الناخبين .

(٢) يقدم عبد الرحمن الرافعى (ص ٣١٨ وما بعدها) قوائم بجميع الأعضاء المعيّنين والمختارين . وكان الأعضاء الوطنيون هم : عبد اللطيف الصوفانى ، على الشمسى على المنزلاوى ، حافظ المشاوى ، عبد اللطيف المكباتى ، محمد على علوبة .

(*) لا ينزع المؤلف موضعا الاقال أن نفوذ الحزب الوطنى قد انتهى ، فى حين أن الانجليز كانوا يشكون من أن الجمعية التشريعية كانت خاضعة لنفوذ الحزب ، ومسرورة بتوجيهاته .

حمزة ، كانوا متحمسين للاتفاق مع سعد ، فقد آثر فريد الحذر ، لئلا يستغل سعد تأييدهم في استعادة منصب وزارى ، كما فعل محمد سعيد منذ ست سنوات (١) .

وقد أثبت تطور الأحداث التالية خطأ فريد . فحينما اصطدم محمد سعيد مع الخديو فى النهاية واضطر الى الاستقالة فى مارس ١٩١٤ ، تمنى سعد أن يدعى حموه مصطفى فهمى ، الذى تقدمت به السن ، الى تشكيل الوزارة الجديدة . ولكن رئاسة الوزارة انتقلت الى حسين رشدى لا لشيء الا لأن سعدا كان قد أصبح أكبر ناقد للحكومة فى الجمعية ، التى انتخب وكيلا لها (٢) ، وكان مصطفى فهمى واقعا تحت تأثيره بصورة واضحة . وترتب على ذلك أن ازداد التصاق سعد بدوره الجديد زعيما للمعارضة ضد الحكومة ، وإن لم ينضم رسميا الى الحزب الوطنى . ويمثل هذا الدور مرحلة هامة فى تطوره من وزير متعاون مع البريطانيين الى زعامة كفاح مصر فى سبيل استقلالها . ولعلنا لن نعرف أبدا مقدار دينه لتأييد الوطنيين خلال تلك المرحلة الانتقالية (٣) .

وكانت أعظم رغبات فريد فى تقارب مع الخديو - لا مع سعد - تبدو عسيرة المنال مع مرور الوقت . ففى أوائل صيف سنة ١٩١٤ يعد لمؤتمر فروع « جمعية أبى الهول » وغيرها من تنظيمات الطلاب المصريين فى أوروبا . وكانت جهود فريد فى الاتصال بالخديو عن طريق روتشبرون ويوسف صديق قد إقنعتة أخيرا بأن عباسا لم يكن مهتما حقا باتمام الصلح بينهما ، فشرع يضمن خطبته أمام مؤتمر الطلاب تحذيرا من التعاون مع الخديو (٤) .

(١) مذكرات محمد فريد : ص ٦٩ .

(٢) أو بدقة أكثر التوكيل الثانى للجمعية ، فقد عينت الحكومة أحمد مظلوم رئيسا ، وعلى يكي وكيلا أول . ومن بين الخلافات الأولى التى نشبت فى الجمعية خلاف حول أى الوكيلين يرأسها فى حالة غياب الرئيس . (العقاد : ص ص ١٦٠ - ١٦٣)

(٣) يمكن أن تلقى مذكرات سعد زغلول ، التى لم تنشر بعد بعض الضوء على هذه المسألة . وأميل الى الشك فى أن سعدا فكر فى أى وقت فى الانضمام للحزب الوطنى ، وبصفة خاصة فى تلك المرحلة التى قبل فيها زعماء الحزب تمويل الخديو « للشعب » ، فقد كان سعد معارضا للخديو بشكل حاسم . (★)

(٤) مذكرات محمد فريد : ص ٨٠ وما بعدها .

(★) أؤيد هذا الشك فسعد زغلول - كما يقول فى مذكراته هو - كان فى تلك الفترة حائرا لا يدري أى سبيل يتجه وكان ينكر أنه يفكر فى زعامة المعارضة .

وفى الوقت الذى كان فريد ماضيا فى طريقه فى جنيف أطلق طالب وطنى فى استانبول أربع رصاصات على الخديو وهو يغادر الباب العالى ، بتحريض الشيخ جاويش فيما يبدو ، أو ربما جمعية الاتحاد والترقى نفسها (١) . وأصيب عباس بجراح خطيرة ولكنها ليست قاتلة . أما أحمد مظهر الذى حاول اغتياله فقد قتله الحراس الأتراك على الفور . وأثارت الحادثة كمية كبيرة من العطف على الخديو فى مصر ، حتى بين الوطنيين أنفسهم (٢) ، ومن المرجح انها كانت كفيلة بتعويق قيام أى صلح بين الخديو وفريد مالم تنشب الحرب العالمية الأولى فى ذلك الوقت بالضبط .

وعلى الرغم من أن تركيا ومصر لم تشتركا رسميا فى المراحل الأولى من الصراع الأوروبى ، فإن التتابع السريع للأحداث فى الشرق الأوسط لم يلبث أن مكن فريد من تحويل اهتمامه بتنظيم الطلبة المصريين فى أوروبا الى مجال سياسى آخر أكثر إثارة . فقد وجد الوطنيون ، كثير من الحركات الصغيرة السابقة واللاحقة ، أن الأزمة الدولية قد زادت من قيمتهم فى نظر القوى الدولية المعنية ، ومن ثم انتهت مرحلة انتكاسهم .

(١) Beamman : p. 62 f. Storrs : p. 144 f.

(٢) مذكرات محمد فريد : ص ٨٣ ، أحمد شفيق : ج ٢ مجلد ٢ ، ص ٣٣٠ .

الفصل الثامن

الوطنيون المصريون أثناء الحرب العالمية الأولى

- الأوضاع الدولية
- الوطنيون ، والاتراك ، والخديو
- فسخ التحالف بين الاتراك والخديو
- محمد فريد . . فريدا
- إعادة تكوين الحلف الوطني

الأوضاع الدولية

حرك اغتيال الأرشييدوق فرانز فرديناند . ولى عهد عرش أسرة هابسبورج فى سراجيفو ، سلسلة من الأحداث ، بلغت قممتها بنشوب الحرب العالمية الأولى التى جلبت الخراب والمأساة على أمم وشعوب أوروبا . أما بالنسبة للوطنيين المصريين فقد أحييت الآمال فى بادئ الامر ، ثم أدت الى ما كان من تورطهم فى سياسة تركيا وحلفائها ، وأخيرا مع هزيمة دول المحور ، الى القضاء شبه التام على آمالهم ونفوذهم .

وفى نفس اليوم الذى اجتمع فيه الطلبة المصريون فى جنيف ، ونجا الخديو بصعوبة من محاولة اغتياله فى استانبول فى ٢٥ يوليو ١٩١٤ ، ردت الصرب على انذار النمسا الذى قدمته فى استجابة متباطئة لمصرع الأرشييدوق بأيدى ارهابيين من البوسنة بتحريض صربى . كانت مواد الانذار عنيفة ، فقد كانت النمسا محقة فى خوفها من تأثير انفصال على قومية السلاف الجنوبيين فى امبراطورية آل هابسبورج ، ولذلك فقد أرادت أن تلقن الصربيين درسا لا ينسى ، ولكن ردهم جاء مهدئا . ورغم ذلك فقد كانت النمسا مصرة على القضاء على أى محاولة للنيل من وحدتها الاقليمية ، فأعلنت الحرب فى ٢٨ يوليو . وفى اليوم التالى أعلنت روسيا التحرك الشامل لقواتها المسلحة ، وهى الملتزمة بمعاونة الصرب . ولما كانت ألمانيا ملتزمة بنفس الطريقة نحو النمسا ، فقد أرسلت فى ٣١ يوليو انذارا لروسيا بضرورة وقف تحركات قواتها المسلحة . وحينما لم تتلق جوابا أعلنت عليها الحرب فى أول أغسطس .

وبعد يومين أعلنت ألمانيا الحرب على فرنسا حليفة روسيا ، وغزت بلجيكا ، فأعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا . وخلال أقل من أسبوعين

كانت كل الدول المسيحية في أوروبا - باستثناء إيطاليا - قد اشتركت
ذلك الصراع الهائل الذي أصبح اسمه الحرب العالمية الأولى .

وعند نشوب الحرب كانت الامبراطورية العثمانية أقوى الدول
الملتزمة في نطاق الدول الأوروبية . ورغم ضعفها العسكري نتيجة حم
التطهير بين ضباط قواتها المسلحة خلال سنوات الاضطراب التي أعيا
ثورة ١٩٠٨ ، وكذلك نتيجة لخسائرها في الأرواح والأراضي في حر
طرابلس والبلقان ، فقد ظلت تركيا مع ذلك تمثل حليفا له وزنه ويرقه
فموقعها الاستراتيجي عبر منفذ روسيا الى البحر الأبيض المتوسط
وطريق أوروبا البري الى الخليج الفارسي ، بالإضافة الى المداه الذي
المبهمة للسلطان - الخليفة ، وان كانت تحظى بالاحترام على نطاق واسع
كل ذلك جعل من تركيا عدوا غير مرغوب فيه على أقل تقدير .

ولما كانت روسيا ، العدو التاريخي لتركيا ، تقف دبلوماسيا
جانب بريطانيا وفرنسا ، الدولتين اللتين تشك تركيا في تأمرهما
ولاياتها العربية ، فقد أصبح لألمانيا الأسبقية في المنافسة على ات
تركيا . وضع ذلك في أواخر سنة ١٩١٣ حينما دعت الحكومة العثم
بعثة عسكرية ألمانية برئاسة الجنرال ليتمان فون ساندرز ، للمعاونة
تدريب جيشها واستعادة روحه المعنوية التي هزتها بعنف هزيمة البلق
وكذلك كان للألمان صديق في شخص أنور بك ، الذي اقترن ص
الصاروخي بزواجه من أميرة عثمانية سنة ١٩١٤ . وكان أنور أ
ضباط تركيا الفتاة اندفاعا ، وقد عمل ملحقا عسكريا عثمانيا ببر
قبل تعيينه في منصبه الاستراتيجي وزيرا للحربية في وزارة سد
حليم . وهذا الأخير هو ابن حليم الذي تأمر ضد قريبه الخديو اسماع
ولذلك كان عدوا تقليديا لعباس . ولما كان سعيد حليم طامعا في عو
مصر ، فقد كان صدر أعظم صوري فحسب ، أما السلطة الحقيقية فكان
مركزة في أيدي مثلث جمعية الاتحاد والترقي : أنور ، وطلعت ، وجما
وكان أنور أكثرهم حماسة للألمان ، يليه طلعت ، في حين كان جمال مؤ
للحلفاء حتى يوليو سنة ١٩١٤ حين أحس بفتور الحكومة الفرنسية ؛
اقتراحه عقد تحالف فرنسي عثماني (١) .

وفي اليوم التالي لإعلان ألمانيا الحرب على روسيا اقنع أنور مجا
الوزراء التركي بتوقيع اتفاقية سرية مع ألمانيا تلزم الامبراطورية العثما

(١) Enal Pasha : « Memoires Of a Turkish Statesman », London,
Hutchinson and Co., Ca. 1921, pp. 104-107.

بالاشتراك في العدوان على روسيا . غير أن حماسة تركيا لهذه الاتفاقية سرعان ما فترت بعد أن أعلنت فرنسا وبريطانيا الحرب على ألمانيا ، ووجد الألمان الموجودين في استانبول أن تركيا ترفض تنفيذ اتفاقيتهما (١) .

ومن ناحية أخرى لم يكن لدى دول الحلفاء الكثير لتقدمه لتركيا في مقابل بقائها على الحياد ، باستثناء وعد باحترام وحدة أراضيها طوال فترة الحرب . فلم تستطع الحكومة العثمانية أن تمنع نفسها من الشك في أن دول الحلفاء تنوى ، إذا قدر لها النصر ، تقسيم الامبراطورية بعد انتهاء الحرب ، ولذلك فقد قررت استغلال هذا الموقف العسير بأقصى ما تستطيع ، فظلت محايدة وإن حركت قواتها استعدادا لخوض الحرب . وفي أكتوبر سمح أنور - دون الرجوع الى زملائه - للبارجة الحربية الألمانية « جوبان » التي لجأت الى المضائق في أغسطس ، بدخول البحر الأسود ومهاجمة السفن الروسية . ولما كانت الحكومة العثمانية سبق أن بررت ايوائها للبارجة « جوبان » بأنها هدية من ألمانيا ، فقد اعتبرت روسيا هذا التصرف عملا حربيا عدوانيا من جانب تركيا وأعلنت الحرب عليها ، وسرعان ما حذت حذوها كل من فرنسا وبريطانيا (٢) .

ومنذ أصبحت بريطانيا وتركيا في حالة حرب لم تعد مصر ولاية عثمانية . وحتى خلال الشهور القليلة التي التزمت فيها تركيا بالحياد لم تتردد بريطانيا في تأكيد سيطرتها على مصر ، فقد اضطرت الحكومة المصرية الى وقف كل التعاملات المالية والتجارية التي يمكن أن تفقد الدول المحاربة لبريطانيا ، ثم زادت على ذلك ابعاد قنصلي ألمانيا والنمسا (٣) ، وانتهت بالفعل سيادة تركيا على مصر .

Ulrich Trupener : « German Military Aid to Turkey, a Historical Re-evaluation », *Journal of Modern History*, XXXII, 2 (June 1960), pp. 145-149.

ويعتمد هذا المقال على وثائق وزارة الخارجية الألمانية التي استولى عليها الحلفاء .

(٢) لتفاصيل المفاوضات الدبلوماسية بين دول المحور وتركيا ، بهدف ضمان حياد

الأخيرة انظر مجموعات الوثائق التالية :

Great Britain, FO, Miscellaneous, no. 13 (1914), « Correspondence Respecting Events Leading to the Rupture of Relations with Turkey », cd. 7268, bound in Parliament, Accounts and Papers LXXV, pp. 179-271, Friedrich Stieve (ed.), *Das russische Oranienbuch über den Kriegsausbruch mit der Türkei*, Berlin, für Kulturpolitik, 1926.

(٣) « كان المصريون في جنيف مهشين التوقع ما هو أسوأ ، فقد تلقوا تقريرا خاطئا

عن ذلك اليوم جاء فيه أن مصر « لما كانت جزءا من الامبراطورية البريطانية » فقد أعلنت الحرب على ألمانيا وحليفاتها . (مذكرات محمد فريد : ص ٣٨) .

فى ذلك الوقت كان الخديو لايزال يستشفى فى استانبول من آثار الرصاص ، والأرجح أنه لم يستشر فى قطع مصر لعلاقاتها بدول المحور . وكان البريطانيون لا يريدون عودته الى مصر ، فحاول لويس مالىيه سفيرهم باستانبول اقناع عباس بتمضية فترة الحرب فى إيطاليا ، ولكنه لم يوفق (١)

وكان رئيس الوزراء حسين رشدى يقوم بدور نائب الملك أثناء غياب الخديو ، وقد هوجم فيما بعد لموافقته على تثبيت سيطرة بريطانيا على مصر دون أن يتفق على تعويض مناسب ، كوعد بالاستقلال بعد انتهاء الحرب (٢) . ولكن الواقع ان بريطانيا كانت تملك وحدها القوة لفرض شروطها ، وكان عليها أن تحمى طريقها عبر مصر لنقل القوات من الهند واستراليا الى الجبهة الغربية ، ولم يكن باستطاعتها أن تمنح أعداء بريطانيا حرية إثارة المعارضة الوطنية داخل مصر . غير أن وضع البلاد ظل موضع شك ما يقرب من ستة أسابيع بعد اعلان بريطانيا الحرب على تركيا الى أن أعلنت بريطانيا قطع علاقات مصر بالامبراطورية العثمانية ، وأعلنت الحماية على البلاد ، وعزلت « عباس » . وقد طال تدبر كل هذه الاجراءات التى اعتبرها الكثيرون لامفر منها . وهكذا نرى أن الحرب هى التى مزقت غلالة الخيال عن واقع الحكم البريطانى لمصر .

(١) أحمد شفيق : ج ٢ ، مجلد ٢ ، ص ٣٥١ - ٣٥٥ ، مذكرات محمد فريد : ص ٩٠ وما بعدها ، Beamman : p. 64 f.

(٢) انظر على سبيل المثال Beamman : p. 63 n. وتد ثارت مناقشة طويلة حول هذه المسألة على صفحات « الأهرام » على اثر وفاة رشدى سنة ١٩٢٧ ، انظر أيضا : Marshall : pp. 97-99.

الوطنيون ، والآتراك ، والخديو

مع بداية الأعمال العدوانية بين بريطانيا وترب وما ترتب عليها من تغير في وضع مصر أصبحت المسألة المصرية ذات طبيعة دولية مرة أخرى ، كما كانت قبل أن ينقل « الاتفاق الودى » بين بريطانيا وفرنسا عبء معارضة الحكم البريطانى الى المصريين وحدهم . وكان أهم تغير طرأ عليها أن ألمانيا ، وقد اتخذت الدور الذى كانت تقوم به فرنسا من قبل ، أصبح عليها أن تعمل بالتنسيق مع حليفتها العثمانية . فضلا عن ذلك فلم تكن ألمانيا وتركيا تتوقعان عونا كبيرا من الوطنيين فى مصر الذين عوقبهم رقابة الحكومة ومراقبتها واعتقالاتها .

ومن ناحية أخرى فالوطنيون خارج مصر الذين لم يخضعوا لمثل تلك القيود وجدوا أنفسهم يتحولون فجأة من حركة نشاط طلابى لا أهمية لها الى ملحق هام بجهاز الحرب التركى - الألمانى وحاشية الخديو المنفى . فانتقل اهتمامهم نتيجة لذلك من مجرد الابقاء على حياتهم الى محاولة شق طريق بين أطماع مناصريهم . فلقد كره فريد دائما أن يكون أداة لتحقيق مصالح آخرين ، المفروض أنهم أقل اهتماما بقضية حرية مصر . فلم يحدث من قبل أن وجه اهتماما كبيرا لألمانيا والنمسا (١) ، وتشاجر مع جماعة الاتحاد والترقى (٢) ، وفشل فى التوصل الى صلح مع الخديو

(١) قام مصطفى كامل خلال كفاحه بما لا يقل عن ثمانى رحلات الى ألمانيا والنمسا ، وأدى بالعديد من الأحاديث لصحف برلين وفيينا ، فلما خلفه فريد فى زعامة الوطنيين ، وكان يكره الألمان ، لم يزر ألمانيا سوى مرتين (★)

(٢) من فريد الى روتشبرون ، جنيف فى ٣١ يناير ١٩١٤ .
(★) الحق أننى لم أتع على شئ فيما قاله أو كتبه فريد يؤيد القول بأنه كان يكره الألمان وتصرفاته بعد إعلان الحرب كانت تدل على أنه تعامل مع سياستهم دون أى توجس من نواياهم .

رغم كراهيتهما المشتركة لكتشنر . ان طبيعة الوطنى تفرض عليه مقاومة كل الجهود الخارجية للسيطرة على بلاده ، ولكن حينما تضطره الظروف الى الاعتماد الكلى على مؤيدين خارجيين ، يصبح من الصعب أن يتجنب استخدامه لتحقيق مصالحهم ، وهو ما تعلمه جيدا خلفاء فريد ، وعبد الناصر بصفة خاصة ، من خلال التجربة المريرة .

فى أواخر سنة ١٩١٤ كتب فريد الى الخديو يحثه على ان ينتهز فرصة الحرب ليطلب استقلال مصر ، أو على الأقل يضغط للحصول على الحكم الذاتى الداخلى والاصلاح الدستورى (١) ، ثم سافر الى استانبول لاتمام الصلح مع كل من عباس والأتراك . غير أن البريطانيين أحبطوا تدبيرات فريد بمنع الخديو من العودة الى مصر لثلا يثير المعارضة فيها ، ومن ثم وجد فريد عند وصوله الخديو راغباً فى توحيد أهداف الأتراك والوطنيين لطرد البريطانيين من مصر (٢) . ورحب الخديو بفريد واستخدمه فى تقوية علاقاته بزعماء جماعة الاتحاد والترقى . وبهتكة فطرية أيد أنور الخديو بكل حماسة ، فى حين تحفظ طلعت ، واتخذ بحال موقفا شبه عدائى . فقد كانت علاقة الخديو بهم سيئة منذ زمن بعيد ، ووضح فيما بعد ، بالنسبة لطلعت على الأقل ، استحالة التعاون بينهما .

وبدأت تركيا ، خلال سبتمبر وأكتوبر ، وهى لاتزال فى حالة سلم من الوجهة الرسمية ، تستعد باشراف الألمان لغزو مصر . فحشدت القوات التركية فى فلسطين ، وأنشأت خط سكة حديد من معان الى العقبة لنقل الامدادات ، واكتشف البريطانيون عملاء للامان يثيرون المعارضة فى مصر (٣) . وفى استانبول شارك السفير الالماني البارون فون فانجهاييم فى الجهود المبذولة لتحسين العلاقات بين الخديو وجماعة الاتحاد والترقى (٤) . وكذلك اتصل فريد بالسفارة الالمانية ، وان ظل على شكه

(١) من فريد الى الخديو ، جنيف فى ٢٢ أغسطس ١٩١٤ ، مذكرات محمد فريد : ص ٨٣ - ٨٥ ، أحمد شفيق ج ٢ ، مجلد ٢ ، ص ٣٦٢
(٢) مذكرات فريد : ص ٨٥ وما بعدها . وكتب أحمد شفيق (ج ٢ ، مجلد ٢ ، ص ٣٤٤) أنه حينما قدم من القاهرة فى أواخر أغسطس حذر الخديو من أن البريطانيين يريدون خلعه .

(٣) Parliament, Accounts and Papers, ed. 7268, doc. no. 125.

(٤) Germany, Auswärtiges Amt, Egyptische Frage, Wagenheim to Bethmann — Hollweg, Fherapia, 25 August 1914, 25 August 1914, telegram no. 576. ganz geheim, microfilm reel UM 136.

في اخلاص المانيا للوطنية المصرية (١) ، كما سوى خلافاته مع جاويش ومؤيديه من المصريين الذين عينتهم الحكومة العثمانية ، واتحدت جماعة مؤتمر جنيف بزعامة محمد فهمي وعلى الشمسي مع جماعتي فريد وجاويش على تأييد الخديو .

وفي اجتماع عقد في ١٢ أكتوبر اتفقوا على « اقالة » وزارة رشدي ، و « تعيين » مصطفى ماهر (٢) (*) رئيسا للوزارة الجديدة ، و « انشاء » لجنة عسكرية في القاهرة لتنظيم التمرد الشعبي المتوقع عندما يدخل الجيش العثماني مصر ، وارسل مندوبين مصريين الى القاهرة لابلاغ التعليمات اللازمة . واتفقت الجماعة كذلك على اصدار منشور باسم الخديو يمنح الشعب المصري دستورا ويدعووه الى الثورة على البريطانيين (٣) . وكتب جاويش مسودة المنشور ، في الوقت الذي أعلنت فيه دول الحلفاء الحرب على تركيا ، فدعا فيه المصريين الى تأييد حملة السلطان - الخليفة لتحرير بلادهم من الاحتلال العسكري ، ووعدهم باقامة نظام برلماني والغاء القوانين الاستثنائية لسنة ١٩١٠ ، واصدار عفو عام عن كل من حكم عليهم بموجبها . ولكن هذا المنشور لم يقدر له أن يوزع نتيجة للمسار الذي اتخذته الأحداث التالية (٤) .

فالصداقة بين الخديو وجماعة الاتحاد والترقي ، وقد قامت على توازن غير مستقر للمصالح ، لم تلبث أن اهتزت بفضل الصدر الأعظم

(١) أغفل فريد في مذكراته (ص ٨٨) برقية تأييد نشر عنها الكثير ، وكان القيصر غليوم أرسلها الى الخديو يذكره فيها أن بول كروجر رئيس جمهورية الترانسفال الذي سبق له أن تلقى تحيات القيصر الألماني بالبرق قد منع بعد ذلك من دخول برلين .

(٢) مصطفى ماهر هو شقيق السياسيين المشهورين على وأحمد ماهر ، وهو ابن محمد ماهر الذي كان وكيلا لوزارة الحرية سنة ١٨٩٤ (*) (انظر « حادثة الحدود » التي وصفت في الفصل الثاني)

(٣) مذكرات محمد فريد : ص ٩١ ، أحمد شفيق : ج ٢ ، مجلد ٢ ، ص ٣٦٤ .

(٤) لم تقر الحكومة العثمانية هذا المنشور ، والمفروض أن كل نسخة أعدمت . والنص المأخوذ عن مذكرات فريد نشره عبد الرحمن الرافعي : ص ٣٤٥ ، وانظر أيضا : أحمد شفيق ، ج ٢ ، مجلد ٢ ، ص ص ٣٨٠ - ٣٨٣ .

(*) مصطفى ماهر هذا كان وزيرا من وزراء ما بعد ثورة ١٩١٩ تولى وزارة المعارف سنة ١٩٢٣ والمالية سنة ١٩٢٩ ، ولا صلة له مطلقا بعلي ماهر باشا وأحمد ماهر باشا اللذين كان نهما أخ اسمه مصطفى ماهر ولكنه لم يشتغل بالسياسة ولم يهين وزيرا قط .

الذى ظل يعتبر نفسه صاحب الحق فى العرش الخديوى (١) . فنقد عباسا لاتفاقه مع الوطنيين ، واقترح علنا تكوين جماعة وطنية جديدة تسمى « حزب مصر العثمانية » برئاسة الشيخ جاويش ، يكون من أهدافها عزل عباس ليحل هو محله ، وتخفيض وضع مصر الى ولاية عثمانية عادية . واستغل شكوك كثير من الأتراك فى الوطنيين بالشكوى من أن أنصار فريد يرتدون دبابيس ذات ثنيات عليها شعار « مصر للمصريين » (بدلا من « مصر للمسلمين » بما فيهم الأتراك) ، وزعم أنهم سيطالبون بجلاء القوات العثمانية بعد ٢٤ ساعة من تحرير مصر من البريطانيين (٢) .

وبعد أن دخلت تركيا الحرب ، أخذت حاشية الخديو ، وقد خشت تأثير تصريحات الصدر الأعظم ، تدعو الحكومة الى وضع الخديو على رأس الحملة العسكرية المزمع تسييرها الى مصر ، أو على الأقل تسمح له بمصاحبتها . ولم يرحب أى من قادة الاتحاد والترقى الثلاثة بهذه الفكرة . وحتى أنور ، وهو أكثرهم تعاطفا مع عباس اقترح أن ينتظر فريد والخديو حتى يعبر الجيش العثماني قناة السويس . (٣) ثم جاء تعيين جمال ، أكثر زعماء الاتحاد والترقى عداء للخديو ، قائدا عاما للحملة المصرية ، بمثابة نذير أكبر لحاشية عباس ، خاصة حينما لم يدع أحدا لمصاحبة جيشه الا « جاويش » واثني من أتباعه . (٤) وكذلك انزعج فريد ، ولكن « جمال » أكد له أنه على استعداد ليصحب أى مصريين مدنيين بشرط أن يخضعوا للأوامر العسكرية (٥) . وتحرك جمال الى الجبهة فى ٢٢ نوفمبر يصحبه عدد قليل من أفراد حاشية الخديو الثانويين .

(١) اعتمدت مطالبة سعيد حليم بعرش مصر على قانون الوراثة التركى الذى ظل مطبقا فى مصر حتى عصر اسماعيل ، وكان ينص على أن يخلف الحاكم أكبر أعضاء الأسرة سنا من الذكور والحقيقة أنه كان بمصر عدة أفراد من الأسرة الخديوية يكبرون سعيد حليم . من بينهم السلطان حسين كامل الذى فرضه البريطانيون ليشغل مكان عباس .

(٢) مذكرات فريد ، ص ٩٢ وما بعدها ، عبد الرحمن الرافعى : ص ٣٥٢ وما بعدها ، أحمد شفيق : ج ٢ ، مجلد ٢ ، ص ٣٦٤ وما بعدها .

(٣) مذكرات فريد : ص ٩٩ ، أحمد شفيق : ج ٢ ، مجلد ٢ ، ص ٣٨٣ - ٣٨٩

(٤) هما الدكتور أحمد فؤاد من وزارة الداخلية ، وفؤاد سليم القنصل العثماني بسالونيك ، ولم يكن الاثنان على علاقة طيبة بفريد ولا بالخديو .

(٥) مذكرات محمد فريد : ص ١٠١ .

ولما عجز الخديو عن الحصول على الاذن بمصاحبة الجيش العثماني الى مصر بشخصه ، حاول اقناع الحكومة بالموافقة على ارسال عمه ابراهيم حلمي ممثلا له ، ففشلت هذه المحاولة أيضا .

وحين بلغ « عباس » أن « جمال » أمر جميع أعضاء الحاشية الخديوية المرافقين له بالعودة الى استانبول رحل فجأة الى فيينا . وسرعان ما لحق به فريد في محاولة لمنع وقوع قطيعة تامة بين الخديو والاتراك (١) . ولكن كان الوقت قد فات .

(١) مذكرات محمد فريد : ص ص ١٠٥ - ١٠٧ .

قسط التحالف بين الأتراك والحديو

أعلن البريطانيون حمايتهم على مصر في ١٨ ديسمبر ١٩١٤ وقطعوا علاقتها الرسمية بالامبراطورية العثمانية ، واعتبروا الخديو متحدا مع الأعداء في أهدافهم ، فأعلنوا خلعه في اليوم التالي وعينوا عمه حسين كامل سلطانا على مصر . وكان قانون الأحكام العرفية قد أعلن وفرضت رقابة صارمة على المطبوعات .

في تلك الأثناء كانت قوات الحملة التركية ، وعددها حوالي ٢٠.٠٠٠ جندي ، تتقدم عبر سسيناء على أمل أن تقطع شريان حياة الامبراطورية البريطانية وتحرر مصر التي تحتلها قوات بريطانية قوامها نحو ٧٠.٠٠٠ جندي (١) ولو قدر لجيش جمال أن ينجح في تحقيق مهمته لكان بحاجة ملحة الى تأييد تمرد شعبي يقوم به المصريون الساخطون . والواقع ان « فريد » أكد للأتراك أن جيوشهم ما ان تدخل مصر حتى يهب مسلمو مصر ثائرين (٢) .

ولكن الواقع ان مثل هذه الثورة لم تحدث ، فلم يكذب ذلك نبوءة فريد(*) فحسب ، بل قلل أيضا من قيمته في نظر الحكومة العثمانية .

(١) فرقة بريطانية محلية وفرقتان هندية بالاضافة الى قوة المستعمرات الاسترالية وبلغ مجموعها الكلي ١٥٠.٠٠٠

P. G. Elgood : Egypt and the Army», London, Oxford University Press, 1924, p. 117 f. Haskins : « British Routes to India », p. 479.

(٢) فؤاد ميداني (مترجم) : « سوريا ولبنان في الحرب العالمية » ، « الأحرار » (بيروت حوالي سنة ١٩٣٣) وكاتب المذكرات الأصلية هو عزيز بك مدير الأمن العام العثماني أثناء الحرب العالمية الأولى . وأنا مدين لتوماس ناف وفيليب ستودارد بلفتي الى هذا المصدر . انظر أيضا : Elgood : p. 140

(*) فريد لم يكذب ، فجيوش الأتراك لم تخط باقدامها ارض مصر الى ان انتهت الحرب العالمية الأولى .

وتوقف الجيش العثماني عند القناة • وكان الوطنيون الموجودون في القاهرة قليلين وخائفين من القمع (١) ، كما كانوا معارضين للشوكة من حيث المبدأ ولا يعرفون كيف ينظمونها (٢) • لاشك أن مصريين كثيرين قد رفضوا إعلان بريطانيا للحماية ، ونقضها السريع لوعدها المتعجل بأنها لن تستخدمها الا في اجراءات الحرب (٣) • غير أن المصريين من أهل المدن الذين توقعوا انتصار الأتراك والألمان ، وان لم يظهروا الا قدرا ضئيلا من الحماسة « لسلطانهم » الجديد (٤) ، فانهم في الوقت نفسه لم يحزنوا لغزل الخديو (٥) • وقد عبر قول شعبي عن موقف مصر من الجيش العثماني الزاحف : « نتمنى للاتراك كل نجاح •• ولكن من بعيد » (٦) : (*) ولم تكن هناك أن رغبة في استبدال احتلال آخر ألماني بالاحتلال البريطاني • (٧)

وقامت السلطات بنفى معظم المعارضين المعروفين للحكم البريطاني ، سواء أكانوا وطنيين أم خديويين ، أو سجنهم ، أو وضعهم تحت المراقبة

- (١) صدر قانون استثنائي جديد في أكتوبر يمنع أى اجتماع يضم أكثر من أربعة أشخاص
- (٢) كتبت مدام دي روتشبرون في مذكراتها بعد أن زارت القاهرة في مهمة كلفها بها فريد في مارس ١٩١٥ : « يمثل الوطنيون في اللجنة الادارية هنا أعجب من عرفت من الحالمين المتعلقين بنظريات السلام • فهم يسمحون بكل ما يساعد على استتباب النظام في مصر • وكان على فهمي كامل هو الذي أكد لي بنفسه انه على استعداد أن يصبح عميلا لأجهزة الأمن العام لو اقتضى الأمر ذلك ، كما صارحتي آخر من مشاهيرهم ، وهو المحامي محمود فهمي سكرتير عام الحزب ، بأنه لو أتيح له أن يعيد اصدار جريدة الحزب « وهي » الشعب » التي فضلوا ايقافها باختيارهم عن اخضاعها للرقابة (فسيستخدمها لتهديد الشعب • كانوا جميعا صادقي النية نحو واجبه الأول ، وهو التأكيد أنهم وطنيون مخلصون ، وليسوا مثيرون قلقا خطرين ، أو معادين للأجانب أو متعصبين • » (★★)
- هذه الفقرة مأخوذة بتصريح من المؤلفة من مذكرات روتشبرون غير المنشورة : ص ٢٧٢ وما بعدها •

(٣) Elgood : pp. 85-87.

(٤) Storrs : p. 163.

(٥) Lloyd : I, p. 202 وقد اختلف معه في ذلك Beaman : p. 69 f.

(٦) Storrs : p. 154.

(٧) العقاد : « سعد زغلول •• » ، ص ص ١٨٣ - ١٨٥ •

(★★) هذا كلام جدير بأن يصدر عن المجموعة القليلة الباقية من حزب الأمة التي كانت تكره الأتراك ، وتؤثر عليهم الانجليز وحكم الانجليز •

★★ هذا كلام يجب الأخذ به في حذر شديد •

طول فترة الحرب أو بعضها (١) ، كما عطلت الجمعية التشريعية المشاغبة الى أجل غير مسمى . وسعد زغلول ، الذى بشرت زعامته داخل هذه المؤسسة ببروزه لحمل لواء الثورة الوطنية سنة ١٩١٩ ، ظل لايمارس أى نشاط سياسى طالما بقيت نتيجة الحرب موضع شك (٢) .

أما المعارضة العلنية ، فقد صدر الجانب الأكبر منها عن قلب الوطنية المصرية المتجدد أبدا ، المتمثل فى طلبة المدارس العليا والثانوية . فهجر معظم طلبة الحقوق فصولهم يرمى قام السلطان حسين كامل بزيارته الأولى لمدرستهم (٣) . وبذلت محاولتان لاغتياله سنة ١٩١٥ ، ثبت فيما بعد أنهما حادثتان منعزلتان . (*)

وقد لاحظ المؤرخون الحريون البريطانيون اهمال أعدائهم الغريب لفرص الدعاية ضدهم فى مصر (٤) . والحقيقة أن الأتراك ، والألمان ، والخبديو ، والوطنيين أرادوا جميعا إثارة المعارضة الكامنة ضد الحماية البريطانية . ووضع كل منهم خططا لتحقيق هذه الغاية ، أما ما فشلوا فيه فهو التنسيق بين أهدافهم .

فقد أراد فريد ارسال عملاء ودعاية الى مصر لإثارة فتنة معادية للبريطانيين ، وفى بداية سنة ١٩١٥ أرسل عبد العزيز عمران طالب الطب بجنيف لتنظيم الاتصال بالوطنيين فى مصر ، ولكن اقامته حددت فى بيته ، ثم نفى بعد ذلك ، فقدم عند عودته تقريرا ذكر فيه أن الوطنيين مستعدون لتنظيم حركة مقاومة اذا أرسلت اليهم الأسلحة والامدادات (٥) . وفى مارس أرسل رفيقته الفرنسية عزيزة دى روتشبرون الى القاهرة لنفس الغرض ، ولكن ضغط بريطانيا على قنصل فرنسا العام عجل

(١) عبد الرحمن الرافعى : « ثورة سنة ١٩١٩ » ، ط ٢ ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٥ ، ج ١ ، ص ٣٠ وما بعدها ، « محمد فريد » ص ٣٥١ وما بعدها .

(٢) النقاد ص ١٩٠ . وربما احتاجت هذه العبارة الى تعديل بعد أن تنشر مذكرات «سعد» كاملة . وقد ظهرت أجزاء منها فى جريدة «الأخبار» خلال سنتى ١٩٦٣ و ١٩٦٤ .

(٣) عبد الرحمن الرافعى : « ثورة ١٩١٩ » ، ج ١ ، ص ٣١ - ٣٣ .

(٤) C. R. M. F. Cruttwell : A History of the Great War, 1914-1918, (٤) Oxford, the Charendon Press, 1936, p. 351m., Elgood : pp. 139-142.

(٥) مذكرات محمد فريد ، ص ١٢٦ وما بعدها .

(٦) وهذه الحوادث كلها اثر من آثار روح الحزب الوطنى ومقاومته للانجليز ، فلم يكن هناك حزب سياسى فى مصر فى تلك الايام الا الحزب الوطنى ، ولم تكن هناك معارضة للانجليز تههم الا معارضة الحزب الوطنى .

برحيلها (١) . وفى مايو حث فريد الخديويين على تنظيم عملهم الثورى :
واقترح عليهم تهريب أمين الرافعى من مصر ليستأنف اصدار «الشعب»
فى دمشق أو استانبول (٢) .

ولم يكن فريد هو وحده الذى حث على بذل جهد اعظم شجاعة
واكثر تنظيما لاضرام نار الفتنة فى مصر ، بل شاركه فى ذلك عدد من
الألمان كان أبرزهم صديقه القديم البارون أوبنهايم الذى عرفه الانجليز
فى القاهرة باسم « جاسوس القيصر » ، واسماعيل لبيب « ملازم » محمد
فريد الذى قضى ربيع سنة ١٩١٥ فى سوريا وعاد بخطة محكمة لتوصيل
الرسائل الى الجمعيات الثورية السرية فى مصر باستخدام الشفرة
والأخبار الكيميائية وعملاء فى نابولى أو أثينا ، على أن يقوم أنور بك
بالعمليات العسكرية الضرورية ، كتهريب الرجال والذخائر ، ويصدر
الشيخ جاويش جريدة تدعو الى الجامعة الاسلامية (٣) . واقترح لبيب
أيضا ، وكان لا يثق بالشيخ جاويش ، ارسال ستة شبان مصريين الى
الكليات العسكرية أو الفنية باستانبول لتثقيفهم سياسيا ، على أن يتعلم
أربعة منهم بعد ذلك صنع المتفجرات ، ويذهب الخامس الى سويسرا
أو ألمانيا ، ليرسل التعليمات الى السادس الذى سيذهب الى مصر ليمهد
الطريق أمام الأربعة الأولين الذين سيتم تهريبهم ليقوموا بنشاط
ارهابى (٤) .

غير أن أيا من هذه الخطط لم يوضع موضع التنفيذ بسبب انقسام
معارضى الحماية البريطانية فى أوائل الحرب حول سياستهم فى مصر ،
فلما تم التوحيد بينهم كان وقت العمل قد فات .

فقد خشى الخديو المخلوع وحاشيته عدوان سعيد حليم الصدر
الاعظم وأعوانه ، ففروا الى فيينا ، وحذا كثير من الوطنيين حذوهم .

(١) مذكرات محمد فريد : ص ١٣١ ، مذكرات روتشبرون : ص ص ٢٨٠ - ٢٨٢ .

(٢) مذكرات محمد فريد : ص ١٣٦ وما بعدها .

(٣) أحمد شفيق ، ج ٣ ص ص ٥٢ - ٥٨ . وكان الشخصان المقترحان لتلقى هذه
الرسائل السرية هما : أحمد حلمى رئيس تحرير «القطر المصرى» السابق ، وعبد اللطيف
المكباتى الذى أصبح فيما بعد واحدا من زعماء ثورة ١٩١٩ . ومن المستبعد وجود جمعيات
سياسية سرية نشطة فى مصر سنة ١٩١٥ .

(٤) أحمد شفيق : ج ٣ ، ص ٥٨ . كان لبيب ، كمعظم معاصريه ، لا يعرف شيئا
عن حرب العصابات ، أو حتى تكتيكات الفتنة الوطنية ، غير أن اقتراحه يمثل خطط
الوطنيين خارج مصر .

ورغم ذلك فقد كان ثمت خلاف إساسى بين موقف كل من الخديويين وأنصار فريد .

واستطاع الخديو السابق القيام بلعبة مزدوجة ، فيطلب تأييد الألمان والاتراك لاستعادة عرشه ، ويتفاوض فى الوقت نفسه مع بريطانيا سرا لضمان دخل أملاكه المصرية المصادرة وإعلان ابنه عبد المنعم وليا للعهد (١) .

ومن ناحية أخرى كان على الوطنيين أن يؤيدوا أعداء بريطانيا إذا أرادوا مواصلة معارضتهم العنيدة للحكم البريطانى لمصر . وطالما كان فريد يعمل مع الخديو ، ويتقاضى منه مالا فى الأغلب ، فقد كان عليه أن يحثه على التعاون مع تركيا ، وإن شاركه شكوكه فى سعيد حليم وجمال .

وفي يناير ١٩١٥ ذهب فريد الى برلين بهدف اقناع الحكومة الألمانية بالضغط على الأتراك ليتخلوا عن عزمهم تخفيض مصر الى ولاية عثمانية عادية بعد تحريرها من البريطانيين . وما كاد فريد يتحدث الى آرثر زيمرمان وكيل الخارجية الألمانية ، حتى أصدر السلطان العثمانى « ارادة » نشرت قبيل وصول جيشه الى قناة السويس ، بأن هدف الحملة هو إعادة مصر الى استقلالها الذاتى المتميز داخل الامبراطورية (٢) . ورغم ذلك فقد رفض عباس العودة الى تركيا ، خوفا من تعرض حياته للخطر على أيدي عملاء الصدر الأعظم ، ولا يلقى طلبه استعادة العرش ما هو جدير به من احترام . وإذا بهزيمة جيش جمال تجعل هذا المطلب نوعا من العبث (٣) .

ولما كان سعيد حليم مجرد حاكم صورى ، فقد رجا الوطنيون إن تحل مشكلتهم اذا تخلص منه حكام تركيا الفعليين : أنور وطلعت وجمال ، غير أن نجاح الدفاع العثمانى فى غاليبولى فى افساد محاولة الانجليز والفرنسيين اقتحام الدردنيل وإجبار تركيا على الخروج من الحرب ،

(١) مذكرات محمد فريد : صص ١١٠ ، ١١٦ وما بعدها ، ١٢٠ . ويعتقد فريد أن البريطانيين أرسلوا محب باشا ، وزير الزراعة السابق ، لمقابلة الخديو ، وأنه اتصل سرا بالسيررينيل رود السفير البريطانى بروما ، وكان قبل ذلك سكرتيرا للمفوضية بالوكالة البريطانية بالقاهرة .

(٢) نص « الارادة » لم يرد فى مذكرات فريد ولا شفيق ، ولكن يمكن العثور عليه فى كتاب محمود أبو الفتوح « مع الوفد المصرى » ، ص ٩٩ . وكتب مدام فيبيارد (روتشبرون) فى رسالة الى الباحث فى فبراير ١٩٦٥ أن فريدا كتب بنفسه معظم منشور السلطان ، ولكنه حرص على ألا يعرف ذلك .

(٣) مذكرات فريد : ص ١١٧ ، ١٢٠ .

عزز موقف حلیم فی مجلس الوزراء ، وزاد من اصرار ألمانيا على فرض حليفها بعد أن زادت قيمته . أضف الى ذلك أن سعيد حلیم بدأ يدفع مرتبات لحاشية الخديو ، ويقدم قروضا للوطنيين بكرم زاد من افضاله المالية على المصريين (١) . وانضم جاويد ، وزير المالية العثمانية السابق ، الى فريد فى محاولة اقناع الخديو بالصالح مع الاتراك ، ولكن بلا جدوى (٢) .

وفى صيف ١٩١٥ كان قد وضح أن الخديو يرغب فى الدخول فى مفاوضات سرية مع البريطانيين احتياطا لهزيمة ألمانيا المترقعة . وبينما أكد لفريد أنه عائد أخيرا الى استانبول أسر لعزيزة روتشبرون أنه لن يذهب الا اذا تأكد من انتصار ألمانيا ، وأرسلها الى باريس للاتصال بالحكومة الفرنسية . ورغم أن روتشبرون كتبت الى فريد أنها علمت أن بريطانيا ليست لديها أى نية للاتفاق مع الخديو (٣) ، فانه قطع علاقته بالاتراك بانتقاله سرا الى لوسرن ، وقرر أن يقضى فترة الحرب فى سويسرا ، بعيدا عن نفوذ دول المحور ، وأرسل خطابا الى السلطان يشكو فيه سوء معاملتها له ، ويعلن تأجيل عودته الى استانبول « حتى ينتهى الموقف الراهن » (٤) . ذلك أن دخول ايطاليا لحرب والانتصارات المؤقتة التى حققها الحلفاء فى البلقان قد خدعت الكثيرين فتوقعوا هزيمة سريعة لألمانيا ، ومن ثم حرص الخديو على ألا يربط مصيره بسفينة غارقة .

فى ذلك الوقت ازداد تلوث سمعة الخديو وأتباعه بفضيحة مالية . فقد اختلف يوسف صديق مع الخديو وكشف أن عباسا اختلس أربعة ملايين مارك دفعتها له ألمانيا ، وكان هذا المبلغ مخصصا لوكيله المالى ذائع الصيت المرحوم بولو باشا لكى يدفعه لعدة صحف باريسية كبرى فى محاولة للسيطرة عليها وتوجيه سياستها ضد الحرب (٥) . ورفض

(١) مذكرات فريد : ص ١٣٦ وما بعدها ، أحمد شفيق : ج ٣ ، ص ٥٩

(٢) مذكرات فريد : ص ١٤٣

(٣) المصدر السابق . ص ص ١٤٧ - ١٤٩

(٤) المصدر السابق : ١٥٥ - ١٥٧ . وغموض عبارة الخديو مقصود .

(٥) تلقى هذه النصرة بعض الضوء الهام على « قضية بولو » المشهورة . فقد أصبح بول بولو (١٨٦٧ - ١٩١٨) ، الذى يسمى عادة « بولو باشا » ، وكيلا ماليا للخديو فى فرنسا ، ووكيلا سد سيا أيضا وفقا لما جاء فى مذكرات فريد (ص ١٥٥) . وكان بولو وغيلبيو كافاليني فى باريس ، ومحمد يكن فى سويسرا أهم وكلاء الخديو فى تلك الخطة التى أثبتت فشلها . لهذا ولأعمال أخرى قام بها بولو أثناء الحرب حاكمه الفرنسيون عسكريا ومنتزه سنة ١٩١٨ . وأثناء المحاكمة تردد كثيرا ذكر الخديو ، محمد يكن ويوسف صديق وثله نشر فى باريس نص غير رسمى للمحاكمة بعنوان « قضية =

الخديو رد المبلغ الى الحكومة الألمانية ، وأشفق الوطنيون على سمعهم فكتبوا مذكرة يهددون فيها بالانفصال عن عباس مالم يعد الى استانبول ويرد المال الالماني ، وكونوا لجنة مشتركة من الوطنيين والخديويين لمعاونة عباس في ادارة شئونه السياسية (١) . غير أن السفير العثماني في برلين أخطر « فريد » أن حكومته لا ترغب في تسوية مشكلة الخديو قبل أن تستعد لارسال حملة جديدة الى مصر (٢) . في ذلك الوقت بالضبط وصل الى برلين الزعيم الوطني الشاب عبد الملك حمزة ، وأقنع الشيخ جاويش بالانفصال عن فريد لتأييده المستمر للخديو . وخشى فريد أن يدبر سعيد حليم مؤامرة أخرى للفرقة بين الوطنيين فقرر ألا يقطع علاقاته بالخديو (٣) فكان قراره ذاك بمثابة الخطوة الأولى نحو انفصاله عن الحكومة العثمانية (٤) رغم أنه لم يكف عن الضغط على الخديو لمغادرة سويسرا وسداد ديونه .

وفي نوفمبر أخبره الخديو أنه وافق على السداد لألمانيا ، وأنه يجري اتصالات مباشرة مع أنور للتفاوض حول ما يعوق الصلح مع الحكومة العثمانية . غير أن أمل فريد في اتمام التصالح بين تركيا والخديو مالميث أن تحطم حينما قطع عباس المباحثات فجأة ورحل الى لوزان (٥) ، وما كان

= بولو أمام مجلس الحزب الثالث « ضمن سلسلة « محاكمات الخيانة » ج ١ ، ١ - ٤ (٢ مارس - ١١ ابريل ١٩١٨) وعن حياة بولو باشا انظر :
M. Prévost : Bolo (Paul-Marie), Dictionnaire de biographie française, Librairie netouzey et amé. n.d., VI, p. 884 f.

وليس هناك - فيما اعلم - دراسة خاصة عن قضية بولو . وروايات المعاصرين تشمل . شفيق : ج ٣ صص ٢١٢ - ٢١٦ ،

Severance Johnson : « The Enemy Within », New York, Mc Cann, 1919, pp. 95-124, 221-230, de Roux : Le défaitisme et les manoeuvres pro-allemands, Paris Nouvelle Librairie Nationale, 1918 pp 53-73 « Le proches de Bolo Pacha et le droit international », Revue du droit international privé et du droit pénal international, XIV (1918), pp 62-66.

(١) مذكرات فريد : ص ١٥٩ . وللنص الكامل انظر : شفيق : ج ٣ ، ص ٧٥

وما بعدها .

(٢) مذكرات فريد ص ١٦١

(٣) مذكرات فريد : ص ١٦٢ . وحينما قابلت عبد الملك حمزة أبدى أسفه لأنه عارض فريدا في تلك المسألة ، ولكنه قال ان ثقته بالخديو ظلت مفقودة بعد خلعه أكثر من ذي قبل . وقد رفض حمزة سنة ١٩١٤ قبول لقب « بك » من الخديو .

(٤) مذكرات فريد ص ١٦٣ .

(٥) مذكرات فريد : ص ١٧١ - ١٧٥

له أن يدهش ، لأن علاقته كانت سيئة بزعماء تركيا الفتاة منذ وصلوا الى السلطة رغم معاونته لهم في صراعهم ضد عبد الحميد ، وايدوا الوطنيين ضده خلال مرحلة سياسة جورست الوفاقية ، وشكوا في أنه هو الذي أوحى اليه بأن يصبح خليفة العرب ، في حين شك عباس في أنهم حاولوا تدمير اغتياله سنة ١٩١٤ وسمحوا لرئيس وزرائهم الدمية بالتآمر ضده من أجل العرش الخديوى . ولم يعد الخديو الى استنبول سنة ١٩١٥ ، ولا سنة ١٩١٦ ، ومع ذلك فقد فشل أيضا في الوصول الى اتفاق مع البريطانيين . وحينما أبرم عباس الصلح مع الحكومة العثمانية في أواخر سنة ١٩١٧ كانت أشياء كثيرة قد تغيرت ، ولم يعد فريد في موقف يسمح له بالافادة من تلك المصالحة .

فقرّب نهاية سنة ١٩١٥ كان قد نما انقسام بين صفوف الوطنيين مواز للهوة الآخذة في الاتساع بين عباس والأتراك . ووجد فريد نفسه ، بسبب اصراره على عدم هجر الخديو ، موضع شك متزايد من جانب المسئولين الألمان والأتراك ، ومعرضا لنقد سافر من أعضاء حزبه ، بتحريض من الشيخ جاويش وعبد الملك حمزة (١) . ولاشك ان فريدا سكب وقودا زاد النار اشتعالا حينما صرح لبعض التونسيين المغتربين انه يسره أن يقبل لمصر نظاما دستوريا في ظل الحماية البريطانية (٢) ، وهو نفس الموقف المعتدل الذي طالما هاجمه باعتباره انحرافا عن مبادئ مصطفى كامل التي لا تقبل المساومة . (*)

وبأمل اسكات ناقديه قرر فريد أن يذهب الى استانبول ، أو اذا أمكن الى سوريا ليلتحق بالحملة المصرية الجديدة الجارية اعدادها وقتذاك .

(١) مذكرات فريد : ص ١٨٠

(٢) مذكرات فريد : ص ١٧٩

(*) لا شك في أن محمد فريد قد سجل في مذكراته اثناء المنفى ، وفي ظل ظروفه العصيبة وكثرة الدسائس من حوله وفي لحظة يأس عابرة أنه تقبل هذه الفكرة ، كحل أخير اذا فشلت جميع المساعي ، وخابت جميع الآمال ، ولكنه قرن كلامه باستعداده لتدبير ثورة ضد الانجليز ولكنك لا تجد أثرا لهذه الفكرة بعد ذلك في مذكرات فريد ، ولا في مسلكه العام ، ولا في تصرفاته السياسية مع جميع الأطراف ، فهي من قبيل ما ذكره الله تعالى في كتابه الحكيم : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ، الا اذا تمنى . ألقى الشيطان في أمنيته . فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته . والله عليم حكيم . » (« الحج » ، آية ٥٢) .

للا يجوز لاحد أن يقيم وزنا لهذا الخاطر العابر ، ولا يصح أن يقال أن هذا الخاطر زاد من موقف فريد حرجا . فان فريدا لم يصارح بهذا الخاطر احدا ، ولم يبين عليه عهدا .

وأخبر زيمرمان انه يرغب فى أن يصحب جيش جمال عدد من المصريين المدنيين خوفا من استيلائه على ادارة مصر (١) . وأيا كان الأمر فقد كان الموقف العام لمجموعة فريد آخذا فى السوء . ففي يناير سنة ١٩١٦ أصبح فؤاد سليم سفيرا عثمانيا فى برن ، وهو مصرى وطنى ارتقى بسرعة كبيرة فى خدمة جمعية الاتحاد والترقى . وبسبب علاقة فؤاد سليم الوثيقة بسعيد حليم أيقن فريد أنه عين فى منصبه ليتجسس على الخديو والوطنيين (٢) وكذلك أوقف الصدر الأعظم اعانة الحكومة العثمانية الشهرية لكل من اسماعيل لبيب ومنصور رفعت مؤيدى فريد ، فلم يستطع هذا الأخير أن يمنع نفسه من القلق خشية أن يأتى الدور على مرتبه هو (٣) .

وذهب فريد الى استانبول فى أواخر يناير حيث أمضى شهرين مرهقين الى أبعد حد فى محاولة تصحيح الاساءات التى لحقت بشخصه ، بنسبتها الى شائعات أطلقها أعداؤه . ومن بين ثلاثى الاتحاد والترقى لم يبق متعاطفا معه سوى أنور الذى وعده بأن وزارة الحربية سسندع اعانات الوطنيين التى أوقف الصدر الأعظم صرفها من ميزانية وزارة الخارجية العثمانية (٤) . وفشل فريد فى التفاهم مع طلعت الذى لم يكن يثق به لعلاقته بعباس ، وقد أجرى معه استجوابا طويلا (٥) . أما جمال فقد كان مشهورا بعدوانيته ، فسرعان ما أدرك فريد قلة جدوى الانضمام الى جيشه بسوريا .

وأصبحت الحملة المصرية نفسها قضية خاسرة بسبب اضطراب أعداد متزايدة من القوات العثمانية لقتال البريطانيين فى العراق ، والروس فى القوقاز . وبدأ فريد يفتن الى أن الأتراك قد تخلوا ، فى سبيل الجامعة الطورانية ، عن سياستهم القديمة فى التعاون مع القوميات الاسلامية

(١) مذكرات فريد : ص ١٨٠ وما بعدها

(٢) مذكرات فريد : ص ١٨٢ . ولسيرة موجزة لفؤاد سليم (المولود سنة ١٨٤٧) وصديق مصطفى كامل لفترة طويلة انظر :

Die Islamische Welt, I, 6 (May 1917) p. 321

(٣) مذكرات فريد ص ١٨١

(٤) مذكرات فريد : ص ١٨٤ . وربما كان باعث أنور لذلك عداؤه لسعيد حليم .

(٥) مذكرات فريد : ص ١٨٩ - ١٩١ ، عبد الرحمن الرافعى : « محمد فريد »

ص ٣٥٢ وما بعدها

الأخرى (١) • وهو تحول سياسى كفيل بأن يصرفهم عن تحرير مصر •
وهكذا أصبحت اقامة فريد فى استانبول عديمة النفع ، بل قد تكون
خطرا عليه ، اذ من الممكن أن يقبض عليه وتلق له تهمة بالخيانة •

اما وقد خاب أمله فى الأتراك فقد عاد الى جنيف فى ابريل ، وكاد
يتباهى بأخبار الثورة العربية بالحجاز ، وقابل عامدا بين سماحة أمير
الحجاز حسين نحو المحاولتين المدانتين لاغتياله وأحكام الاعدام المشهورة
التي نفذها جمال علنا فى اثنين وعشرين زعيما عربيا فى سوريا فى
مايو ١٩١٦ (٢) •

وعلم فريد بعد عودته بقليل أن الخديو مازال يفاوض البريطانيين ،
فلم يجزع كما حدث سنة ١٩١٥ ، بل أيد عباسا رغم اشفاقه من احتمال
أن يغضب الأتراك دون أن يوفق فى ارضاء البريطانيين (٣) • يبدو أن
فريدا ، الذى عانى جسديا ومعنويا من مواقف الفشل والمؤامرات خلال
سنوات الحرب ، قد أصبح مستعدا لهجر السياسة ، بل التوصل الى
اتفاق خاص مع البريطانيين • فبمعاونة روتشبرون التي عادت الى فرنسا ،
قابل فريد النائب الفرنسى جورج بوسنو ، ربما سعيا للصلح مع
الحلفاء (٤) • وقد شبطت أجزاء كثيرة من مذكراته الخاصة بهذه الفترة ،
ولكن بقيت هذه الفقرة الهامة :

(١) يمكن تعريف الجامعة الطورانية بأنها تمجيد للتاريخ التركى والنظم والثقافة
التركية (نى مقابل الاسلامية) والاعقاد بأن الشعوب التي تنتمى الى الجنس التركى
يجب أن تتوحد فى دولة واحدة • • وشعوب الجنس التركى تشمل بالإضافة الى سكان
الأناضول : الترافيز ، والقوقاز ، والقرغيز ، والأذربيجانيين ، والتركمان والأوغيين ،
والأوزبكين • وكان معظمهم - كحالهم الآن - خاضعين للحكم الروسى • وتبنى هذه
السياسة أدى بالضرورة الى تقوية حرب تركيا مع روسيا على حساب الهدف العثمانى
(أو الجامعة الاسلاميه ، الرامى الى طرد البريطانيين من مصر • ولقد كانت الجامعة =
= الطورانية سببا ونتيجة فى الوقت نفسه ليقظة القومية العربية فى أوائل القرن العشرين
ولعل مما له دلالة أن من بين الكلمات التي استخدمها فريد فى وصفها كلمة « تترك » •

(٢) مذكرات فريد ص ٢٠٦

(٣) مذكرات فريد ص ١٩٩

(٤) أكدت لى مدام فييار ذلك فى خطابين كتبتهما فى ٨ يوليو و ٥ نوفمبر سنة

١٩٦٤ ، واستشهدت فيهما بخطاب تلقته من فريد بتاريخ ٢١ مايو ١٩١٦

« ٠٠ لقد تخلى الترك عن الجامعة الاسلامية ٠٠ ماعدا
انور باشا ٠٠ ومن جهة أخرى فلا أمل في أن ألمانيا
تساعدنا ضد الترك ، لأنهم محتاجون اليهم ولا يريدون
أن يغضبوهم ٠٠ لا أمل في خلاص مصر على يد الترك
والألمان ، بل لو دخلها لجعلتها تركيا ولاية عثمانية
بسيطة ، أو لبقى فيها الألمان ، ولبقينا في نفس الحالة
التي نحن عليها الآن ٠ ونحن في مثل هذه الظروف
نفضل بقاء انجلترا والاتفاق معها على أخذ الدستور
ولو تدريجيا من أن يحل محلهم الترك أو
الألمان ٠٠ » (١) ٠ (*)

وخلال شهر يونيو اجتمع الوطنيون بالخدو وحاشيته عدة مرات .
في البداية أيدوا سياسته في اجراء مباحثات سرية مع البريطانيين ،
ولو أدى ذلك الى قطع علاقاتهم بالعثمانيين ، غير أن فريدا مالبت ان
اختلف مع الخديو حول معاشه الشهري ، وكان على عباس أن يدفعه بعد
أن انقطعت الاعانة المالية التي كان يدفعها له أنور (٢) وترتب على ذلك أن
قطع فريد كل علاقة له بالخديو ، ولكنه لم يسارع بمصالحة الاتراك الذين
كان قنصلهم العام بجنيف يلقيه « بالخائن » علنا (٣)

كتب فريد الى روتشبرون و « بوسنو » حول رغبته في الاستشفاء
بفيشي ، ولكن هذا كان معناه التخلي ، ربما للشيخ جاويز ، عن زعامة
الحركة الوطنية ، وأخيرا « بعد تدبر حصيف » تخلى عن الفكرة (٤)

(١) مذكرات فريد : ص ٢٠٢ ، والفواصل تشير الى فقرات آثرت حذفها ، وليس
الى كلمات مشطوبة في المخطوطة .

(٢) كان فريد يتلقى ٣٠ جنيها تركيا كل شهر كدين يسدده بعد انتهاء الحرب .
والخلاف مشرح في مذكرات فريد ص ٢٠٧ وما بعدها ، أحمد شفيق : ج ٣ ص ١١٤

(٣) مذكرات فريد : ص ٢٠٩ .

(٤) من فريد الى روتشبرون ، رينفيلدن (سويسرا) في ٢٥ سبتمبر ١٩١٦ ،
وهو مسجل في مذكرات فريد ، ص ٢١٣ ، وأكدته مدام فييار في رسالتها من باريس
في ٨ يوليو ١٩٦٥ .

(*) يعود المؤلف الى ابراز هذه الفقرة بعث وسوء نية ، وقد علقنا عليها فيما
سبق ، فنرجو القارئ الرجوع الى تعليقتنا ونؤكد هنا كما اكندا في الموضع السابق
ان هذه الخاطرة ، التي كانت دن وساوس الشيطان ، لم ترد ثانية على خاطر فريد .

محمد فريد ♦ ♦ فريداً

خلال الشهور الاولى من الحرب عاون فريد على توحيد قوى الوطنيين والخديو والأتراك ومصائيرهم في ظل حماية الألمان . وخلال السنتين الناليتين تضافرت عوامل عديدة في القضاء على هذا التحالف ، أهمها : التباين بين أهداف أطرافه ، وضعف الحركة الوطنية داخل مصر ، وفشل حملة تركيا المصرية . ورغم أن فريد كان لا يزال ينلقى معاشه الشهري من أنور باشا ، فقد ترك ليكافح وحده . ولما كان قد قطع في النهاية علاقته بفرنسا فقد تركز أمله الوحيد في تأييد ألمانيا ، على أمل أن تنتصر في الحرب ثم تفرض على البريطانيين الانسحاب من مصر . وكان هذا هو خط العمل الأساسي الذي اتبعه فريد وحده في معظم الاحوال ، حتى تمت هزيمة ألمانيا بعد سنتين .

في تلك الأثناء كان على الوطنيين أن يجعلوا صوتهم مسموعاً ، على الأقل في البلاد المحايدة والمؤيدة لألمانيا ، ومن سوء الحظ أن فريداً كان قد تشاجر مع غالبية الناطقين باسمهم غيره . وحضر الى جنيف عوض البحراوي ، وهو من أنصار جاويز في اللجنة الادارية للحزب ، وبدأ يصدر «L'Egypte» مجلة وطنية نصف شهرية . وحاول فريد عن طريق أنور أن يضع البحراوي تحت اشرافه التحريري ، ولكنه فشل ، فانتهى به الامر الى القول بأن هذه المجلة دسيسة أخرى من دسائس سعيد حليم لبث الفرقة بين صفوف الوطنيين وأيا كان الأمر فقد توقفت «L'Egypte» بعد أربعة أعداد لا أكثر . (١)

وهناك مغامرة مصرية أخرى أكثر نجاحاً اعتمدت على تمويل العثمانيين هي الأخرى ، وهي مجلة «Die Islamisch Welt»

(١) مذكرات فريد : ص ٢٠٩ ، ٢٢٠

التي بدأ صدورها في برلين في نوفمبر ١٩١٦ ، وكان يشرف على تحريرها الشيخ جاويش وعبد الملك حمزة ، وعاشت عامين ، نشرت خلالهما مقالات لكثيرين من مشاهير الكتاب والسياسيين الألمان والأتراك . وانزعج فريد الى أبعد حد لبداية صدور تلك المجلة ، اذ كانت بمثابة الدليل الناصع على أن « جاويش » قد ارتفع بتشجيع جماعة الاتحاد والترقي الى مكانة زعيم المتحدثين باسم مصرفى ألمانيا . ووجه فريد نقدا متعنتا للمجلة ، بدافع الغيرة على الأرجح ، للنقص الحقيقي ، أو المزعوم في اخلاصها للقضية الوطنية (١) . (*)

وفي أوائل سنة ١٩١٧ غادر فريد سويسرا الى ألمانيا ، وكانت السلطات السويسرية قد علمت بمسألة بولو ، وبدأت التحقيق في نشاط حاشية الخديو ، وقبضت على أحد أعضائها واستولت على أوراقه . (٢) ولم يستجوب فريد ، ولكن يوسف صديق سئل عما اذا كان الوطنيون يتلقون أموالا من الخديو . (٣) فقرر فريد في شهر نوفمبر السفر الى برلين خشية أن يورط في المسألة ، ولكنه لم يمنح تأشيرة دخول لألمانيا الا بعد شهرين (٤) .

(١) على سبيل المثال حرف مقالا كتبه أحد الألمان في العدد الأول باعتباره تهوينا من قدرة مصر على الحكم الذاتي . مذكرات فريد : ص ٢٢٠ وما بعدها .
Graf E. von Reventlov. « Egypten im Weltkrieg », Die Islamische Welt, I, 1, (November 1916) pp. 8-11.

(٢) أحمد شفيق ج ٣ ، ص ص ١٢٣ - ١٢٢

(٣) مذكرات فريد : ص ٢١٦

(٤) مذكرات فريد : ص ٢٢٥ . وكان فريد موضع شك الأتراك ، وربما الألمان أيضا ، بسبب علاقته بالخديو ومن هنا كان التأخير في منحة تأشيرة الدخول . ولعل ترقية زيمرمان وكان على صلة بفريد ، الى منصب وزير الخارجية ، هي التي عجلت بمنحه التأشيرة في يناير ١٩١٧ .

(٥) كان خلاف فريد مع جاويش اساسه ان جاويش كان يؤمن بأنه لا شعوبية في الاسلام ، وبما ان تركيا هي دولة الخلافة فلا معنى لاثارة النعرة المصرية ورفع شعار « مصر للمصريين » الذي يغضب الأتراك ، وكان فريد يرى ان الأتراك لا يؤمنون بالمثل الاسلامية التي يؤمن بها الشيخ جاويش ويدعو اليها ، ناسيا اعتبارات الحرب والسياسة الوطنية والدولية . واذ السكوت على اطماع الأتراك في مصر ، وهي اطماع معلنة ، على اعتقاد انه لا فرق بين الأتراك والمصريين في ظل الخلافة لأن « المسلمين اخوة » هو سداجة سياسية تهدد مصالح مصر ومستقبلها السياسي . ونحن - نح اعتقادنا في اخلاص الشيخ جاويش - نؤيد موقف فريد ونراه ادعى للاعتبار والتقدير .

وعند وصول فريد الى باريس ، اختار الطريق الوحيد الممكن للعمل وهو تحسين علاقاته بوزارة الخارجية الالمانية . فبحث مع كل من البارون أوبنهايم ، وزيمرمان وزير الخارجية الجديد ، وكان قد تعرف به منذ عامين ، الثورة العربية وما صاحبها من يقظة الجامعة الطورانية . ومع كل منهما أصر فريد على أن الامبراطورية لا يمكن أن تواصل حياتها الا كاتحاد يسمح بالاستقلال الوطنى لكل رعاياها الناطقين باللغة العربية ، فقد كان يرحو أن يكون لالمانيا تأثير ملطف على سياسة تركيا العربية ، وربما ليطعن فى سياسة جمال حاكم سوريا (١) .

ولم يكن معنى ذلك أن فريدا أصبح قوميا عربيا ، فقد كتب فى الوقت نفسه لمجلة «V.O.» التى تصدرها وزارة الخارجية الالمانية مقالات رد فيها أصول الحركة العربية الى مؤامرات بريطانيا مع الخديو قبل الحرب (*) . وبروح مشابهة ألف كتيبة « المؤامرات الانجليزية ضد الاسلام Les intrigues anglaises contre L'Islam » (٢) ، ودعا فيه كل المسلمين الى الاتحاد ضد التهديد البريطانى المتمثل فى خطة الانجليز مع الشريف حسين لانشاء خلافة عربية .

ومما له دلالة خاصة أن فريدا لم يبذل خلال تلك الفترة أى جهد لتحسين علاقاته بالحكومة العثمانية أو مع أنصار جاویش من المصريين ، بالرغم من أن طلعت كان قد أصبح صدرا أعظم مكان سعيد حليم فى فبراير سنة ١٩١٧ . ولم تحركه نغمة المصالحة فى مقال لعبد الملك حمزة فى مجلة «Die Islamische Welt» (٣) ، وكذلك لم يقترب من طلعت

(١) مذكرات فريد : ص ٢٢٩ ، ٢٣٢ وما بعدها .

(٢) نشر فى لوزان فى مارن ١٩١٧ .

(٣) نشر بتوقيع مستعار هو « ابن مروان »

Ibn Marwan (pseud.), « Die agyptische Nationalbewegung », Die Islamische I, 4 (March 1917), pp. 196-199,

مذكرات فريد : ص ٢٣٧ . وأوضح لى حمزه أنه أخذ اسمه المستعار من اسم الخليفة الأموى الخامس عبد الملك بن مروان .

(*) لقد أدرك فريد فى هذا الوقت المبكر كيف اتخذت بريطانيا من الجامعة العربية وسيلة لتثبيت سيطرتها على العرب ، فقد بدأت برعاية الفكرة العربية ونشرها ، لتعزيق دولة الخلافة . فلما انتهت الحرب العالمية ، بقيت تتبنى الفكرة العربية بصورة أخرى مستغلة ميل العرب الطبيعى الى الوحدة ، فلما كانت الحرب العالمية الثانية أعلن مستر ايدن وزير خارجيه بريطانيا انها تنظر الى تطلع العرب الى الوحدة العربية بعطف ، وطلعت فرسانها امثال نوري السعيد ، والملك حسين بن على ، وساسة آخرين من جميع البلاد العربية ليحذقوا اغراضها .

حينما زار الأخير برلين فى ابريل ليصلح ما فسد من علاقات بلاده بألمانيا .
وبدلا من ذلك صدق فريد ما أكد له زيمرمان من أن مستقبل مصر
لا يتوقف على نتيجة الحرب فى الشرق الاوسط ، بل على نجاح حصار
غواصات ألمانيا القوى لبريطانيا وهزيمة الحلفاء فى الجبهة الغربية . (١)

ولم تكن تصرفات فريد تعنى أنه أصبح مستقلا ماليا عن تركيا .
ففى نهاية مايو سافر وحيدا الى استوكهولم ليمثل مصر فى المؤتمر
الاشتراكى الذى سينعقد هناك . وعقب وصوله زار السفير العثمانى ،
وهو صديق قديم له ، ليطلب اعتمادات مالية للصرف على وفد أكبر
يشترك فى المؤتمر الاشتراكى ، وزيادة المعاشات التى تدفع لكل الوطنيين
وانشاء مجلة للحزب . وفى أوائل يوليو أخطر مكتب أنور باشا فريدا
أن الحكومة العثمانية وافقت على اقتراحه ، فكتب الى اسماعيل لبيب
وأحمد فريد (ابن شقيقه) فى جنيف ، والى منصور رفعت فى برلين
يدعوهم لحضور مؤتمر استوكهولم ، فرفضوا جميعا (٢) .

ولم يكن لهذا الرفض أى أهمية كما اتضح فيما بعد ، إذ أن اللجنة
التحضيرية للمؤتمر رفضت رعضوية وفد فريد لأن الوطنيين ليسوا حزبا
اشتراكيا ، وان كانت قد دعت الى تقديم مذكرة عن المسألة
المصرية (٣) .

وحين عاد فريد الى ألمانيا نظم اجتماعا عاما فى برلين بمناسبة مرور
٣٥ سنة على الاحتلال الانجليزى لمصر ، ورغم شهرة بعض المتحدثين ،
فلم يلقى الاجتماع سوى اهتمام ضئيل مخيب للآمال . (٤) وبعد ذلك عاد
فريد الى استوكهولم ليشرع فى اصدار مجلة الحزب الوطنى الشهرية ،

(١) مذكرات فريد ، ص ٢٤٥ .

(٢) المصدر السابق : ص ص ٢٤٦ - ٢٤٩ ، من لبيب الى فريد ، جنيف فى ١٥
يوليو ١٩١٧ ، من منصور رفعت الى فريد ، برلين فى ١٧ يوليو ١٩١٧ ، من أحمد فريد
الى محمد فريد ، انجدين (سويسرا) فى ٢٣ يوليو ١٩١٧ .

(٣) نشر المذكرة بعد ذلك فى مجلتى V. O. Stockholms Dagebled مذكرات
فريد : ص ٢٥٠ . ونشر أحمد وفيق الترجمة العربية فى « الأفكار » (٢٤ أكتوبر
١٩١٩) .

(٤) مذكرات فريد ، ص ٢٥٤ ، من فريد الى لبيب ، برلين فى ١٥ سبتمبر ١٩١٧ ،
عبد الرحمن الرافعى : ص ٣٥٦

وكتيب حول المسألة المصرية باعانة مالية من العثمانيين قدرها ثلاثمائة جنيه تركي (١) .

وعند نهاية ذلك الصيف قرر الخديو عباس أن يعود الى استانبول ويستأنف التعاون مع الحكومة العثمانية . ترى لماذا قرر الآن أن يدير ظهره لسياسة ثبت عليها ما يقرب من ثلاث سنوات ، وكان لها دور كبير في تعويق حملة الوطنيين ؟ هل اضطر - كما ذهب فريد - الى ابتلاع كراهيته للاتراك عامة ، وطلعت باشا بصفة خاصة نتيجة لاشتداد حاجته وكانت الحكومة العثمانية مستعدة لاشباعها بمعاش قدره ألف جنيه تركي في الشهر ؟ (٢) .

لقد ظل موقفه مترددا بعض الوقت يعكس انقساس حاشيته الى طائفة تناصر البريطانيين وأخرى تناصر الأتراك . وخلال سنة ١٩١٦ وأوائل ١٩١٧ كانت اليد العليا للطائفة الاولى الحريصة على أملاكها في مصر ، بل لعلها حظيت أيضا بمعاونة فريد وزملائه بعض الوقت . وحينما بلغ عبد المنعم أكبر أبناء الخديو سن الرشيد في فبراير ١٩١٧ ، كتب عباس الى ملك انجلترا يلتمس من حكومة جلالته أن تعترف به وريثا لعرش مصر ولكن بريطانيا تراحت في اتخاذ أى إجراء وقتذاك . (٣) وبين الحين والآخر كان عملاء بريطانيا في سويسرا يتصلون بعباس يعرضون عليه معاشا سنويا اذا تنازل عن مطالبته بالعرش وعن أملاكه في مصر . وفي يوليو سنة ١٩١٧ قدم له اللورد آكتون ممثل المفوضية البريطانية في برن عرضا أكثر اغراء ، يضمن له دخل أراضيه في مصر والأناضول (اذا خسرت تركيا الحرب) بشرط أن يعترف بحسين كامل سلطانا على مصر . (٤)

وفي تلك الأثناء كان أحمد شفيق يسعى لتحسين العلاقات مع تركيا . فانتهاز فرصة ابتعاد سعيد حليم عن السلطة ، وذهب الى

(١) مذكرات فريد : ص ٢٥٥ وما بعدها ، ص ٢٦١ ، «Landav: P. 131» ، ونشر الكتب في « الأفكار » (٢٧ أكتوبر ١٩١٩) وعبد الرحمن الرافعي : ص ص ٣٥٧ - ٣٦٠ .
(٢) مذكرات فريد : ص ٢٥٢ وما بعدها .

(٣) أحمد شفيق ، ج ٣ ، ص ١٥٢ وما بعدها . حينما عزل عباس في ديسمبر ١٩١٤ وعين حسين كامل مكانه لم تحل الحكومة المصرية وريثا للعرش . وحينما مرض حسين كامل بعد ذلك مرضه الخطير سنة ١٩١٧ حصل البريطانيون على تنازل عن العرش من ابنه كمال الدين . وأعلنوا أحمد فؤاد ، شقيق حسين كامل غير المحبوب خلفا له .

Beaman : pp. 70-80.

(٤)

استانبول حيث عقد اتفاقا مع أنور وطلعت . وظل الخديو يتأرجح بين الحانين ، ثم ما لبث أن قرر أن يجازف بمصيره الى جانب تركيا رغم عدم ثقته في نتيجة الحرب ، على أساس أن هذا الاختيار يتيح له على الأقل قدرا من الامل في استعانة عرشه ذات يوم . (١)

ورغم أن فريدا أمضى معظم سنة ١٩١٥ يحاول رأب الصدع بين الخديو والحكومة العثمانية فقد أصبح الآن يعارض الصلح . ومما زاد من حزنه أن أحمد فريد ، ابن شقيقه ، صاحب الخديو الى استانبول عضوا في حاشيته ، وكان الوطنى الوحيد الذى فعل ذلك . ولم يتردد فريد فى اعلان معارضته للخديو ، فصرح لاحدى الصحف فى استوكهولم بأنه لا توجد أى علاقة بين عباس والحزب الوطنى . (٢)

(١) شفيق : ج ٣ ، ص ص ١٥٤ - ١٧٥

(٢) مذكرات فريد : ص ٢٦٣ . وكان أحمد فريد يتقاضى ٦٥ جنيها تركيا باعتباره رئيس تشريعاتية عباس . (شفيق : ج ٣ ، ص ١٧٧)

اعادة تكوين الحلف الوطنى

أزالت استقالة سعيد حليم من منصب الصدر الأعظم أهم عقبة فى سبيل التعاون بين الأتراك والخبديو ، فأصبح من السهل مصالحة طائفتى الوطنيين التى كانت كل منهما تناصر حتى ذلك الحين أحد الجانبين .
و حينما حضر الشيخ جاويش وعبد الملك حمزة الى استوكهولم للاشتراك فى مؤتمر المسلمين المغتربين الذى يؤيده العثمانيون قبلا رئاسة فريد لهما ، واعتذرا له عن سوء سلوكهما السابق (١) .

وفى ديسمبر عاد فريد الى برلين ، وعقد بالاشتراك مع جاويش وحمزة مظاهرة احتجاج فى مناسبة ذكرى اعلان الحماية البريطانية .
ورأس فريد الاجتماع ، وألقى خطبتي الافتتاح والختام . وفى هذه المرة نشر عن الاجتماع بصورة معقولة (٢) .

بعد ذلك بقليل اجتمع المصريون المقيمون فى برلين بمقر مجلة «D'etslamische welt» واتفقوا على تنظيم نشاط الوطنيين تحت اشراف أعضاء اللجنة الادارية الموجودين خارج مصر . ولما كان عدد هؤلاء لايزيد على ستة (٣) ، فقد قرر المجتمعون تعيين مصريين آخرين فى الأماكن الشاغرة . ووافق جميع الوطنيين الحاضرين على تأييد هذه اللجنة بعد اعادة تشكيلها . ولكن بعض كارهى جاويش قاطعوا الاجتماع وما تلا ذلك من نشاط للحزب فى برلين .

(١) مذكرات فريد : ص ٢٦٢ وما بعدها

(٢) مذكرات فريد : ص ٢٦٥ وما بعدها .

(٣) وهم محمد عبي ، عبد الملك حمزة فى برلين ، واسماعيل لبيب وعوض البحراوى واسماعيل كامل وأحمد طاهر فى جيف ، وكان عليهم أن يحضروا الى برلين ، فرفض اسماعيل لبيب الحضور ، وكان معروفا بكرهه لجاويش .

وانتخب الشيخ جاويش عضواً في اللجنة الادارية لأول مرة ،
فمن الطريف أن الرجل الذي اعتبره البريطانيون أقوى الوطنيين نفوذاً (١)
لم يكن حتى تلك اللحظة قد انضم الى الحزب (٢) .

ويبدو أن الوطنيين لم يساورهم الشك في أنهم اختاروا الجانب
الصحيح حين جعلوا برلين مركزاً لعملياتهم ولإصدار مجلة الحزب أيضاً .
كان استيلاء البولشفيك على السلطة في روسيا قد أنهى حرب ألمانيا في
الشرق ، وأصبح لينين أول زعيم وطني يطالب علناً باستقلال مصر ،
فأبرق له فريد يشكره (٣) ، لما دعا المجتمعين في محادثات السلام في
برست - ليتوفسك الى استنكار الحماية البريطانية لمصر ، ولكن خاب
أمله حينما فشلت تركيا في إثارة القضية أثناء المؤتمر . ويبدو أن اهتمام
تركيا قد أخذ يزداد بالتوسع في القرم والقوقاز ، وغيرهما من الماطق التي
تسكن بعض أجزائها شعوب تركمانية ، وبدأ فريد يشك في أن تركيا
لم تعد تهتم بتحرير مصر ، خشية أن يغتصب المصريون ، وهم أذكى منهم ،
زعامة المسلمين (٤) وعلق الوطنيون آمالهم على انتصار ألماني ساحق في
الجبهة الغربية يجبر الحلفاء على قبول سلام مشروط كالروسيين في
برست - ليتوفسك . وكان عليهم أن يذكروا الألمان بصفة مسنمة
بضرورة الإصرار على استقلال مصر ، عن طريق توثيق علاقاتهم بكبار
السياسيين والصحفيين والمسؤولين . وفي إبريل نجحوا في تقوية هذه
العلاقات بتكوين جمعية أصدقاء مصر ، وكان هدفها زيادة اهتمام زعماء
ألمانيا بمطلب استقلال مصر .

وكذلك حاول الحزب الوطني استئناس التعاون مع الخديو عباس ،
وتقوية تنظيمه الداخلي ، ولكن المنافسات الشخصية عوقته . ففي يناير
ذهب الشيخ جاويش الى استانبول ووفق الى الاتفاق مع الخديو ، ولكن
الوطنيين في برلين ، لشكهم في عباس أبرقوا الى جاويش بالآيوقع أي
اتفاقية دون موافقتهم المسبقة . والحقيقة أن فريداً خشي أن يتآمر جاويش
ربما بالاشتراك مع عباس ، لكي يحل محله في زعامة الحزب باعتباره أكبر

(١) على سبيل المثال :

Alexander : pp. 141 f. and 107 f., Lloyd : I, p. 88 f.

(٢) مذكرات فريد : ص ١٩١ . وقد أكد الدكتور الغولي شقيق زوجة جاويش

(٣) مذكرات فريد : ص ٢٦٧

(٤) المصدر السابق : ص ٢٧٢ .

مدافع عن القضية الوطنية (١) . ورفض الوطنيون أيضا اقتراح جاويش انشاء مراكز للدعاية لمصر في فيينا وبودابست على أساس أنه يحاول اغتصاب سلطات اللجنة الادارية في رسم السياسة ، وقرروا كذلك أنهم في حالة الصلح مع عباس سيحاولون تكوين حكومة بالمنفى - وسيستبعدون منها كل المصريين الذين نورطوا في مسألة بولو ، وسيكون فريد نفسه رئيسا للوزراء (٢) .

وفي مايو أعيد تسمية جمعية أصدقاء مصر ، فأصبحت جمعية تحرير مصر ، وبدأ الوطنيون يغدقون عضويتها الشرفية على ذوى النفوذ من الالمان والأتراك ، وقبل الخديو عباس رئاستها الفخرية ، وتبرع لها بخمسمائة جنيه تركى ، واختير أنور (بترشيح من فريد) وسعيد حليم (بترشيح جناح جاويش) للعضوية الشرفية ، بالإضافة الى زعماء حزبى المحافظين والأحرار الالمانيين . وعرضت الرئاسة الفعلية على زوج شقيقة القيصر (٣) .

وقد ساعدت الجمعية على التمهيد لصلح رسمى بين فريد والخديو حين زار الأخير برلين فى أواخر يوليو (٤) . وكذلك سوى فريد علاقاته القديمة مع فؤاد سليم سكرتير الحزب الوطنى السابق الذى أصبح الآن السفير العثمانى ببرن بفضل علاقاته بجماعة الاتحاد والترقى (٥) .

ماذا تفعل وزارة الخارجية الألمانية مع كل هذه الطوائف المتقاتلة من المصريين بعد أن عادت الى الاتحاد أخيرا ؟

يبدو ان عملاء ألمانيا تقدموا لاسماعيل لبيب وعبد الملك حمزة ، بل ومحمد فهمى أيضا ، باقتراح انشاء «مكتب مصرى» فى سويسرا ، غير ان غالبية الوطنيين فى برلين لم يرحبوا بوضع هذا المشروع تحت سيطرة الالمان ، واتفقوا على أن يتخذ المكتب شكل لجنة فرعية ينفق عليها من أموال الحزب ، ولكن الوطنيين فى سويسرا ظلوا يعترضون مع ذلك على الفكرة ، فرفضها الحزب . وقد عادت الادارة الشرقية بالمخابرات الألمانية

(١) مذكرات فريد : ص ٢٧١ ، شفيق : ج ٣ ، ص ص ٢٠٨ - ٢١٣ ، وهو يصف بالتفصيل مقابلات الشيخ مع الخديو فى استانبول ويؤكد أنهما تشاجرا فى ابريل سنة ١٩١٨ .

(٢) مذكرات فريد ، ص ٢٧٥

(٣) مذكرات فريد : ص ٢٧١

(٤) مذكرات فريد ص ٢٨٣

(٥) مذكرات فريد : ص ص ٢٨٥ وما بعدها ، ٢٨٧ - ٢٩٠

الى مناقشة الفكرة بعد ذلك مع شاب وطنى يدعى باهر صدقى ، ولكن فريدا وأنصاره قرروا البعد عن كل مشروع من شأنه أن يجعلهم أدوات فى أيدي الألمان . (١)

وجاءت أحداث صيف ١٩١٨ لتحول كل هذه الخطط الى تدريبات مدرسية لا أكثر . فقد جئت بلغاريا أولا مستسلما للحلفاء وتلتها تركيا ، وبدأ الجيش الألماني ينسحب من الجبهة الغربية . واجتمع الوطنيون فى جنيف واستأنفوا مشاجراتهم الشخصية . وعاد فريد الى برلين ليسترد أوراقه وبقية حاجياته . وبينما كان لا يزال فى برلين يتأهب للسفر الى سويسرا وقع الألمان الهدنة . فانتهت بذلك ، لا الحرب وحدها ، بل كذلك العلاقات التى ربطت الوطنية المصرية بمصير الامبراطورية العثمانية وحلفائها .

هل كان الوطنيون حكماء حين قاموا بكل رصيدهم على انتصار ألمانيا ؟

الواقع أن هناك طريقتين لالقاء هذا السؤال وهما : هل كان من الممكن أن يخرج الحزب الوطنى من الحرب العالمية الأولى وهو فى موقف أقوى لو أنه ظل محايدا أو أيد بريطانيا ، كما فعل معظم المصريين وكثير من العرب ؟ وهل كان سيحقق أهدافه لو انتصرت ألمانيا ؟

ان مجرى الأحداث التى تلت الحرب يوحى بأن أى زعيم وطنى لم يكن باستطاعته أن يفوز باستقلال مصر التام لتعارض ذلك مع مصالح بريطانيا الاستعمارية . وقد سئل محمد فريد فى مستهل الحرب : ماذا يفعل الحزب لو انتصرت بريطانيا ؟ فأجاب انه سيشعل ثورة فى مصر . وهذا ما حدث فعلا ، وان لم يكن الوطنيون هم الذين سيطروا عليها . (*) فطالما كانت كل من بريطانيا والوطنيين يرفضون دائما التفاوض فيما بينهما فقد بدا بعيدا عن كل احتمال أن يستطيع الحزب تحقيق أهدافه سلميا .

ولو أن ألمانيا انتصرت فى الحرب لما كان من المؤكد بأية حال أن مصر ستتححرر من السيطرة الأجنبية ، أو يعاد الخديو الى عرشها ،

(١) مذكرات فريد . ص ١٤٥

(*) لا يهم أن يسيطر الوطنيون على الثورة التى اشتعلت فى مصر ضد الانجليز بعد ان وضعت الحرب أوزارها ، ولكن المهم انهم حضروا لهذه الثورة وبذروا بذورها ودعوا اليها .

أو تمنح نظاما دستوريا يسيطر فيه الوطنيون . فقد كان اسهام الوطنيين في هذا النصر المفترض من الضالة بحيث لا يكاد يسمح لهم بحق المطالبة بالسيطرة على مصر .

فلم يسهم في الحملات التركية العسكرية الا عدد ضئيل من المصريين . ولم تحدث اضطرابات داخل مصر ، وان كان من المحتمل أن نصرا تركيا ألمانيا مؤزرا كان كفيلا بإثارة بعضها . وكتب المهاجرون الوطنيون بعض الدعايات النافعة ، ولكنهم بددوا معظم وقتهم وطاقاتهم في منازعات داخلية ، حتى وضح أن ألمانيا غير قادرة على كسب الحرب ، وحتى الحكومة العثمانية التي تورطت في صرف أموال على تأييد الوطنيين أكبر بكثير من قيمة خدماتهم لمجهودها الحربي ، كانت ستحاول تقوية سيادتها على مصر على الأرجح في حالة انسحاب بريطانيا ، ولكنها لم تكن لتنجح في ذلك دون موافقة ألمانيا . وفي تلك الحالة كان من الممكن أن يصبح الوطنيون أكبر حزب سياسي في مصر ، ولكنه لن يزيد في الواقع عن أن يكون دمي في أيدي الأتراك والألمان . (*)

والحقيقة أن الحزب الوطنى كان قد انقسم منذ زمن بعيد الى عدة اجنحة ، كل منها يشك في الآخر ، وترأست كل جناح شخصية تنافس بقية الشخصيات . وقد أضفت الحرب على هذه الحركة المنقسمة بصورة سيئة قيمة محتملة في نظر أعداء بريطانيا تفوق قوتها الحقيقية بكثير . وقد ظل الوطنيون يفيدون من علاقاتهم بتركيا وألمانيا طالما ظلت نتيجة الحرب مجهولة . ولم يتضح الا فيما بعد أنهم قد أبحروا على ظهر سفينة غارقة .

(*) لا نستطيع أن نتصور أن محمد فريد واخوانه كانوا سيقبلون - إذا انتصرت انيا وتركيا - أن يكونوا دمي في أيدي المنتصرين ، وماضى زعماء الحزب الوطنى ، سيما في الفترة التي كانوا خلالها خارج مصر ، تنفى إمكان حصول هذا التصور .

الفصل التاسع الحزب الوطني بعد الحرب العالمية الأولى

- الوطنيون في أوروبا
- الثورة في مصر
- الوطنيون المغتربون ووفاء فريد
- خاتمة

الوطنيون فى أوربا

لقد ربط الوطنيون مصيرهم السياسى بمصير دول المحور ، فلما هزمت تركيا وحلفاؤها أصبحوا فى حالة شلل تام ، وقليل منهم من استطاعوا استعادة أى نفوذ فى حياة مصر السياسية . فقد مات بعضهم فى المنفى ، وعاد بعضهم الآخر الى مصر ليجدوا معارضيتهم السابقين قد استولوا على زعامة الكفاح من أجل الاستقلال . ولاشك أن نتيجة الحرب العالمية الأولى كانت السبب الرئيسى فى فقد الوطنيين لموقعهم القيادى ، ولكن الانقسامات الداخلية ، ونقص الأموال ، ثم وفاة فريد المفاجئة هى التى عجلت بانتهاء الحزب . (*)

فقبل أن يدخل الحلفاء المنتصرون استانبول بقليل حصل الشيخ جاويش على كمية من الذهب ليوزعها على زملائه الوطنيين فى أوربا . وبعد رحلة شاقة استمرت عشرة ايام عبر الاتحاد السوفييتى الذى خربته

(*) ان تعبير « انهيار الحزب » هو تعبير خاطئ من الناحية السياسية ، فكل حزب معرض لفقدان الأغلبية التى كان يتمتع بها فى وقت من الأوقات ولا يعتبر هذا التحول انهيارا . أما اذا تحلل الحزب ذاته واختفت الدعوة لمبادئه وتحول زعماءه عن عقيدته فهذا هو الانهيار . وقد بقى الحزب الوطنى متمسكا بالأفكار التى بشر بها مصطفى كامل ومحمد فريد ، وكان له فى مجلس النواب الذى انتخب فى سنة ١٩٢٣ ، والذى سادت فيه أغلبية منتمية لحزب سعد زغلول ، عدد من نواب الحزب الوطنى ، قادوا المعارضة بكفاءة ولفنوا الانتظار وضائق بهم الأغلبية . واستمر نشاط الحزب الوطنى رغم فقدانه الأغلبية ، وطوال الفترة التالية لثورة ١٩١٩ والسابقة على ثورة سنة ١٩٥٢ ، وبعد ثورة ١٩١٩ محسوسا به ، وكانت الأمة تتحول الى مبادئه بين الحين والحين ، وانتهى الأمر بالأحزاب التى كانت أقل من الحزب الوطنى تطرفا ، وأكثر ميلا للتعاون مع الاحتلال البريطانى ، باعتناق مبادئ الحزب الوطنى ، فنادت بإلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وبوحدة وادى النيل وبالجملاء الكامل عن مصر والسودان ، وبالكفاح المسلح اذا اقتضى الحال .

الحرب ، وصل جاويز الى برلين قبيل توقيع الهدنة ، فى الوقت المناسب بالضبط لتوزيع الذهب على المصريين ، مع الحرص على أن يكون بينهم زوج شقيقته ، واستبعاد أعدائه من الفوز بجزء من هبة أنور الأخيرة (١) .

وحينما نشبت الثورات فى أكبر المدن الألمانية قرر الوطنيون الفرار الى سويسرا خوفا من أن تؤدي تلك الاضطرابات الى احتلال الحلفاء لألمانيا وتسليمهم لمصر لتحاكمهم . وكانت صحة فريد محطمة فدخل مصحة ، وذهب الباقون الى جنيف ليعيدوا تنظيم دعايتهم للمطالبة بحرية مصر ، ویرسلوا البرقيات والمذكرات الى الرئيس ويلسون فى باريس والمؤتمر الاشتراكي فى برن .

ووجد فريد سببا جديدا للوم جاويز حينما التقى بالوطنيين فى يناير ١٩١٩ وعلم أن الشيخ انتحل لنفسه لقب وكيل الحزب ودعم مركزه بتكوين علاقات مع القنصل الأمريكى ببرن وزعيم حزب العمال البريطانى ، كل ذلك دون معرفة فريد أو موافقته . ويكتب فريد فى مذكراته بأسلوبه المتميز انه لام الشيخ وزمرته وقرعهم واضطربهم الى الاقرار بأنه مازال الرئيس الحقيقى (٢) . وقد يكون هذا صحيحا ظاهريا ، لكن الواقع أن المبادرة كانت قد أفلتحت من بين يديه ، وكان من الممكن ان تتحسن أوضاع الحزب فى أخرج لحظاته لو أن فريدا أسلم الزمام لزعيم أكثر حيوية ، حتى ولو كان الشيخ جاويز .

وجاء تحد آخر لزعامة فريد من جانب على الشمسى الذى كون « اللجنة المصرية » فى جنيف سنة ١٩١٨ . وكان الشمسى قد انفصل عن فريد لأنه ربط الحزب بالجانب الألمانى فيما زعم ، ولكن الحقيقة أن الشمسى الذى بدأ نشاطا سياسيا واعدا فى الجمعية التشريعية سنة ١٩١٤ لم يكن يريد الخضوع لفريد داخل الحركة الوطنية ، وكان فى أوائل الحرب قد اشتغل عميلا مأجورا للمخابرات الألمانية ، لكنه ما لبث أن قام بردة شاملة خشية أن يقضى انتصار الحلفاء على مكانته فى مصر . وقد أمضى فترة الحرب فى جنيف حيث أصدر سنة ١٩١٨ نشرة الملح فيها

(١) مذكرات فريد : ص ١٩٦ . وأخبرنى زوج شقيقة جاويز أن كلا منهم تسلم ٣٠٠٠ مارك (٧٥٠ دولار) . وكان هذا المبلغ يمثل بالنسبة لغالبيتهم ، الدخل الوحيد الذى تلقوه خلال السنة التالية للحرب .

(٢) مذكرات فريد : ص ٢٩٧ وما بعدها .

الى الرغبة فى عقد اتفاق تبادل مصالح بين الوطنيين والبريطانيين (١) .
وما ان أصبح انتصار بريطانيا مؤكدا حتى أقنع الشمسى مواطنيه
فى جنيف بتكوين اللجنة المصرية ، وكانت تؤيد الوطنيين ، ولكنها مستقلة
عن فريد ، وتضم يحيى الدرديرى ، واسماعيل لبيب ، ومحمد فهمى
الذى حلت اللجنة محل تنظيمه المحتضر « اللجنة الدائمة لمؤتمر الشباب
المصرى » . والتمست اللجنة ، كالحزب الوطنى ، من ويلسون تطبيق
مبدئه فى حق تقرير المصير على مصر ، ولكن الشمسى منع كل المصريين
الذين قضوا سنوات الحرب فى ألمانيا من المشاركة العلنية فى نشاط
اللجنة (٢) .

غير أن فريدا لم يعتمد الاعتماد كله على تأييد اللجنة المتخاذل ،
اذ منحته وزارة الخارجية الألمانية اعانة مالية لاعادة اصدار مجلة الحزب ،
ولكنها توقفت مرة أخرى بعد صدور عديدين (٣) .

(١) Ali al-Shamsi : « Egypt and the Right of Nations : An Egyptian Opinion » Geneva, Imprimerie Nationale, 1918.

(٢) مذكرات فريد : س ٣٠٠ وما بعدها .

(٣) مذكرات فريد : س ٣٠١

الثورة في مصر

بينما كان المصريون في الخارج يبددون قواهم في مشاجرات مضنية كان مواطنوهم في مصر يفتتحون فصلا هاما في تاريخ الكفاح من أجل استقلال بلادهم . ولم يكن زعيمهم عضوا في الحزب الوطني ، بل كان ممن تعاونوا من قبل مع الاحتلال ، ووزيرا سابقا خصه كرومر بالثناء في خطبة وداعه ، ومعارض لكل من مصطفى كامل والخديو ، وهو سعد زغلول الذي برز سنة ١٩١٩ زعيما لثورة ضد الحكم الأجنبي عمت الأمة كلها ، وهي أول ثورة مصرية منذ سنة ١٨٨٢ .

ومن مفارقات التاريخ المصري الحديث أن زعماء الحركة الوطنية الجديدة لم يكن بينهم من ينتمي الى الحزب الوطني الا قلة ضئيلة . فمنذ النفي الذي فرضه فريد على نفسه سنة ١٩١٢ ، انتقلت مراكز نشاط الحزب الرئيسية الى أوروبا وتركيا . وفي مصر ضعفت قيادة الحزب نتيجة لانقسامها حول استقالة فريد من رئاسة الحزب . (*)

لقد فقد الحزب الاتجاه الفعال ، ومن ثم لم يفد الا قليلا من بعث الاهتمام السياسي أثناء انتخابات الجمعية التشريعية الجديدة سنة ١٩١٣ . واذا كان بعض أعضائه قد انتخبوا (١) ، فلم يكن بينهم أي من المسؤولين عن ادارته أو المتحدثين البارزين باسمه ، بل كانوا جميعا من ملاك الأراضي بالاقاليم وليسوا من طبقة المهنيين الصاعدة . ولم ينتخب بقية أعضاء المجلس أيا منهم وكيلا للمجلس ، بل انتخبوا سعد زغلول

(١) انظر أسماءهم في الفصل السابع ، ص ٢٥٤ ، هامش رقم (٢) .
(*) لقد نفيت بشدة في موضع سابق أنه كانت هناك أزمة بسبب استقالة محمد فريد والخلاف حول قبولها أو رفضها ، والواقع أن « فريد » لم يستقل ، لكنه أبدى استعدادا للاستقالة اذا اقتضى الحال .

الذى برز كزعيم للمعارضة ضد الحكومة بعد أن أتاحت له الجمعية منبرا يستخدم من خلاله مهارته الخطابية وخبرته الطويلة فى نقد الوزراء ، وبأسلوب غير مباشر الخديو وكتشنر . وهكذا أصبح سعد زغلول ، منذ سنة ١٩١٤ ، الحامل الجديد للواء الكفاح من أجل استقلال مصر .

ومما يثير الدهشة أن مصر لم تشهد أثناء الحرب العالمية الاولى الا قليلا من أعمال العدوان العلنى ضد البريطانيين بالرغم من اعلان الحماية وعزل الخديو عباس وفرض الاحكام العسكرية والرقابة الصارمة وفض الجمعية التشريعية . فقد كان الوطنيون مشلولين ومنقسمين . وأولئك الذين كانوا يستطيعون القيام بنشاط تخريبى حوصروا ولم يتح لهم تلقى أى عون أو قيادة فعالة من الوطنيين وأنصارهم فى الخارج (١) .

واعتزل سعد زغلول الحياة العامة ليتجنب ربط مستقبله السياسى بمصير أى من الجانبين المتحاربين . وكانت المحاولة الوحيدة لكسبه الى صفوف الحلفاء هى اقتراح السلطان فؤاد بعد توليه العرش سنة ١٩١٧ ادخال سعد وعبد العزيز فهمى الوزارة . ولكن وزارة الخارجية البريطانية اعترضت عليه رغم تزكية المندوب السامى البريطانى سير ريجنالد وينجت له . (٢) وطالما ظلت نتيجة الحرب موضع شك ، فقد احتمل معظم المصريين ذوى العقليات السياسية الحماية البريطانية وان اتخذوا وضع الاستعداد والتأهب . واعتقد كثيرون أن البريطانيين حصلوا على موافقة حسين رشدى رئيس الوزراء والسلطان المعين حسين كامل على الحماية مقابل وعد بمنح مصر الحكم الذاتى بعد انتهاء الحرب .

وقويت آمال المصريين حينما قبل الحلفاء مبادئ ويلسون الأربعة عشر أساسا لأهداف حربهم . وما ان بدا أن انتصار الحلفاء قد بات

(١) من أهم المحاولات التى بذلت لايجاد اتصال بين الوطنيين فى أوروبا ومن بقى منهم فى مصر تلك المحاولة التى قام بها عبد الرحمن عزام ، وهو مصرى عمل ضابطا عثمانيا فى المارك الليبية ، والبلقانية ، والأوربية ، وفى أبريل ١٩١٨ عبر البحر الأبيض المتوسط فى غواصة ألمانية وأرسل خطابا الى فريد (عن طريق الأسطول الألمانى) يعلن فيه وصوله بسلام الى طرابلس ويطلب آلة طباعة « رونيو » صغيرة لطبع منشورات ثورية تهرب الى مصر . وافقد عزام كذلك أنه قابل ضابطا مصرى آخر بالجيش العثمانى ، كان البريطانيون قد أسروه ثم فر من السجن ، واستطاع أن يصل الى طرابلس حاملا معه شفرة من الوطنيين فى مصر لاستخدامها فى الاتصالات السرية . ولكن كان الوقت متأخرا جدا لتنفيذ خطط عزام الذى أصبح فيما بعد نائبا ، وعضو مجلس شيوخ ، ووزيرا ، ثم أخيرا أول أمين للجامعة العربية (١٩٤٥ - ١٩٥٣) .

Ronald Wingate : " Wingate of the Sudan », London, John Murray, 1955.

Lloyd : I, p. 273

وفيه يصحح ما جاء من :

أكيدا حتى بدأ كثير من المصريين يفكرون فى ارسال وفد الى مؤتمر السلام الذى سيعقب الحرب للدفاع عن قضية استقلال بلادهم . كانوا - كالوطنيين قبل الحرب - يعتبرون المسألة المصرية حالة قانونية ، وليست سببا لثورة عنيفة . والحق أن أحدا لم يتوقع قيام ثورة فى مصر فى أعقاب الحرب .

وبعد اعلان الهدنة بيومين ذهب سعد زغلول مع اثنين من زملائه السابقين بالجمعية التشريعية لمقابلة وينجت بمقر المعتمد البريطانى ، وأعلنوا خلال محادثة مهذبة وودية رغبتهم فى مصاحبة وفد رسمى الى لندن لمناقشة مستقبل مصر مع الحكومة البريطانية ، بهدف الحصول على استقلال مصر التام ، فنصحهم وينجت بالتريث ، ولكنه وافق على الكتابة الى حكومته طالبا تعليماتها .

وكانت وزارة الخارجية البريطانية مشغولة فى الاستعداد لمؤتمر السلام ، فرفضت استقبال وفد سعد . وكان من الواضح أن الحكومة البريطانية قاطعته باعتباره مجرد مثير آخر للشغب ، تماما كما سبق أن رفض السير ادوارد جراى مقابلة مصطفى كامل أو محمد فريد ، ولم تظن الى أن سعدا وزملاءه كانوا يعملون بالاتفاق مع السلطان فؤاد ووزرائه (١) ووضحت هذه الحقيقة حينما اقترح رئيس الوزراء حسين رشدى أن يسمح له بالذهاب الى لندن مع عدلى يكن وزير المعارف فى وزارته فى وفد رسمى للتفاوض مع وزارة الخارجية . ورفض هذا الاقتراح أيضا . وعلى الرغم من بلبلة وينجت بسياسة حكومته فقد استطاع اقناع وزارة رشدى بعدم الاستقالة .

فى تلك الاثناء أعلن سعد بتحريض رشدى فى الأغلب ، أنه سيرأس وفدا لعرض قضية استقلال مصر أمام مؤتمر السلام بباريس ، وبدأ حملة شملت الأمة كلها للفوز بتأييد شعبى لوفده باعتباره ممثلا لمصر . وكان الوفد مكونا من ستة من أعيان ملاك الأراضى : سعد ، وعبد العزيز فهمى ، وعلى الشريعى ، ومحمد علوبة ، ومحمد محمود ، وأحمد لطفى السيد . ومعظمهم ينتمون الى أصول مصرية لا تركية ، وكانوا مرتبطين قبل الحرب بحزب الأمة ، لا الوطنيين . وقد وزعوا نسخا من التماس يفوض موقعه بموجبه الوفد بتمثيلهم فى السعى للحصول على استقلال مصر التام . وقد أصبحت الجملة الاخيرة التى فسرت بمعنى جلاء جميع القوات الأجنبية

Wingate : p. 229, Elie Kedourie : «Saad Zaglul and the British», (٤)
Middle Eastern Affairs, no. 2 (London : Chatto and Windus, 1961),
p. 142.

عن مصر والسودان ، شعار الحركة الوفدية التالية (١) . ونجحت حملة جمع التوقيعات على الالتماس خلال شتاء ١٩١٨/١٩١٩ فى انارة الآمال فى أرجاء البلاد كلها فى أن الحرية الوطنية أصبحت قريبة المنال .

كان هدوء مصر فوق السطح يخفى بداخله آلاما عميقة . واذا كان من الممكن تجاوز سخط الطبقة المتوسطة فى المدينة الذى طال أمده ، وهو ما حدث فعلا ، فإن هذا السخط قد بدأ يمتد الآن الى جموع الفلاحين الذين كانت بريطانيا تدعى دائما حرصها على مصالحهم . لقد زعمت بريطانيا سنة ١٩١٤ أنها لن تطلب مساعدة مصر فى العمليات الحربية . ولكن حينما احتدمت المعارك وبهظت نفقاتها وطال زمنها أكثر مما قدر الجميع لم يجد البريطانيون مفرا من اخلاف وعدهم . فبناء على أوامرهم كلفت الحكومة المصرية عمدة القرى بجمع الفلاحين لكتائب الأعمال المعاونة ، ثم لكتائب النقل بالجمال . وهكذا قام أكثر من مائة ألف فلاح ، سجل الكثيرين منهم لسد نسبة الحكومة من « المتطوعين » ، بمساعدة بريطانيا فى الدفاع عن مصر ، ثم بعد ذلك فى الاستيلاء على فلسطين من أيدي الأتراك ، وطولب بعضهم بتقديم حميرهم وجمالهم . أما طلب التبرعات الاختيارية من القاهرة للصليب الاحمر (وهى جمعية كان من العسير على المسلمين استساعة اسمها) فقد ترجم الى جباية المال بالقوة ابتداء من مستوى القرية . وانتهز عمدة القرى فرصة تكليفهم بتنفيذ هذه المهام البغيضة لتصفية أحقادهم القديمة مع القاء اللوم على البريطانيين . وقام بحمل كل هذه الأثقال الفقير والجاهل ، وكل من ليس لهم علاقة بالسلطة والعاجزون عن حماية أنفسهم من الظلم .

ولحماية مصر من نقص المواد الغذائية حاولت الحكومة الحد من زراعة القطن ، فأغضبت بذلك ملاك الأراضي ، الكبار والصغار على السواء ، الذين وجدوا زراعة القطن أعظم ربحا من انتاج الاغذية . وثبت عدم جدوى هذا الاجراء ، اذ ارتفعت أسعار الطعام رغم ذلك فأرهقت مرتبات الموظفين المدنيين وعمال المدن . وصدر قرار يحرم على أفراد الشعب حمل الأسلحة النارية لأسباب عسكرية فقبول بسخط شعبى كبير . وكان آلاف الجنود البريطانيين والاستراليين والهنود العسكريين فى مصر سببا فى احتكاكات

(١) يذهب المؤرخ عبد الرحمن الرافعى الى أن هذا التعبير أقحم على الالتماس بناء على طلب أربعة من أعضاء الحزب الوطنى . (« ثورة ١٩١٩ » ، ج ١ ، ص ٧٧) ومن المحتمل أن الوطنيين قاموا بدور رئيسى فى المراحل الأولى من ثورة ١٩١٩ ، وإن كان هذا غير ثابت .

لا مفر منها . وعلى هذا النحو حينما اقتربت الحرب من نهايتها كان كثير من المصريين ، حتى غير المهتمين بالسياسة من قبل ، يتمنون رؤيته البريطانيين يرحلون عن بلادهم .

وفى شتاء ١٩١٨/١٩١٩ أخذت درجة الاثارة تتصاعد باستمرار خلال طواف توكيلات الوفد . وأخيرا وافقت الحكومة البريطانية على السماح لرشدى وعدلى - وليس سعدا - بالذهاب الى لندن . وكانت وزارة رشدى تدرك بوضوح تام أن أى اتفاق لا يمكن أن يتم الآن دون سعد ، فاستقالت فى فبراير ، واستدعى وينجت للتشاور . وقتذاك أرسل سعد خطابا الى السلطان يحذره فيه من عدم تشكيل وزارة جديدة ، وفى الوقت نفسه أرسل قائد القوات البريطانية انذارا الى الوفد يطلب فيه وقف نشاطه السياسى . فلما تجاهلوا الانذار قبض على سعد وثلاثة من زملائه ورحلهم الى جزيرة مالطة . فكانت تلك هى الشرارة التى أشعلت ثورة ١٩١٩ . بدأت باضراب الطلبة والموظفين فى القاهرة ، ثم امتدت بسرعة الى كل بقعة فى مصر . ولم تسفر جهود قوات الاحتلال لقمع الاضرابات والمظاهرات الا عن مزيد من العنف وسفك الدماء وخسائر كبيرة فى الأرواح فى كلا الجانبين .

وعلى أمل سحق الفتنة عين جورج لويد رئيس الوزراء الجنرال اللنبى مكان وينجت . ووصل المندوب السامى الجديد الى مصر فى ٢٥ مارس ، وسرعان ما أدرك أن على البريطانيين أن يقدموا بعض التنازلات لزعماء الثورة . فاصدر فى أوائل ابريل نداءين ، الاول يدعو « المصريين المسئولين الذين يحملون مصالح بلادهم فى قلوبهم » أن يقدموا اقتراحات بالخطوات الكفيلة باستتباب الأمن ، والآخر اعلان الافراج عن سعد ورفاقه فى المنفى . وابتهج المصريون ، وتوقفت أعمال العنف تدريجيا ، فى حين سافر أعضاء الوفد الى باريس على أمل عرض قضيتهم أمام مؤتمر اسلام .

ومين لخص فريد هذه الأحداث فى مذكراته علق عليها بقوله انه من المؤكد أن هذه الحركة الثورية كانت غير متوقعة ، وأن ما أظهره المصريون من التضامن والاتفاق ما كان أحد ليحلم به ، كما سجل اشتراك النساء فى المظاهرات ومظاهر اتحاد الاقباط والمسلمين وكل طبقات الأمة وكتب فريد عن رواية طالب مصرى عائد الى جنيف بعد أن شهد أحداث الثورة بنفسه انها « أحييت الأمل فى قلوبنا ، وأوجدت عندنا الاعتقاد

اليقين بأن هذه الأمة العريقة فى القدم لن تموت أبدا ، وأنها لا بد حاصلة على استقلالها يوما ما . » (١)

ومن ناحية أخرى فقد كان من الطبيعى ، من الناحية الانسانية فحسب ، أن يرفض فريد حركة يقوم فيها زعماء آخرون بحصد ثمار ابندور التى زرعها هو ومصطفى كامل ، فهاجم تصريحات الوفديين بأن الشعب المصرى عاون الحلفاء على هزيمة تركيا بمحض ارادته . ولاحظ أن معظم زعماء الحركة جاءوا من حزب الأمة (*) وخشى أن يساوموا البريطانيين اذا ما مال الآخرون للمصالحة . فالحزب الوطنى الذى التزم من زمن طويل بالكفاح من أجل استقلال مصر التام ، هو وحده الذى لا يمكن أن يتزحزح ولكنه رأى مع ذلك أن أعضاءه يجب أن يؤيدوا الوفد والثورة ويتجنبوا أى مظهر للانقسام . (٢)

ان دور الحزب الوطنى فى مصر مازال غامضا . فقد رحب كثير من أعضائه بالثورة ، ولكنهم لم يشقوا بزعماء الوفد الذين لم يكن من بينهم من انتمى من قبل الى الحزب الوطنى سوى محمد على علوبة وعبد اللطيف المكباتى ، ولم يكن أى منهما من قياداته العليا . ومن بين الوطنيين الذين أيدوا الوفد أمين وعبد الرحمن الرافعى ، وقد سجل الأخير نشاطهما خلال تلك الفترة بالتفصيل فى مؤلفاته التاريخية ومذكراته ، وأسهم أمين بمذكرة ضافية عن تاريخ المسألة المصرية (٣) ، ثم أصبح سكرتيرا مساعدا للجنة الوفد المركزية عند تكوينها فى ابريل ١٩١٩ ، بدعوى جمع تبرعات لتمويل نشاط الوفد فى باريس (٤) . وعين وطنيون آخرون فى اللجنة من بينهم : مرقص حنا ، ومحجوب ثابت ، وعلى المنزلاوى ، ولم يكن لأى منهم نشاط ملحوظ فى الحزب منذ مدة طويلة .

وقد رفض وطنيون آخرون تأييد الوفد ، وكونوا بتحريض الأمير عمر طوسون ، وفدا منافسا هو « الوفد الوطنى » برئاسة رئيس الوزراء

(١) مذكرات فريد : ص ٣٠٣ وما بعدها . وقد استشهد بها عبد الرحمن الرافعى : « محمد فريد » ، ص ص ٣٦٣ - ٣٦٥

(٢) مذكرات فريد ص ٣٠٤

(٣) الرافعى : « ثورة ١٩١٩ » ، ج ١ ، ص ص ٨٠ - ٩٤ ، حيث نشر النص الكامل للمذكرة . وقد نشرت المذكرة فى ٢٠ نوفمبر ١٩١٨ مما يوحى بأن « أمين » اشتمل باعدادها أثناء الحرب .

(٤) « The Egyptian Gazette »; 17 April 1919

(*) هذا ما لاحظته سعد زغلول نفسه ، حينما اختلف مع زملائه فى الوفد بان وجودهم فى باريس . وقد عبر عن رأيه هذا لسكرتيره الخاص محمد كامل سليم الذى سجل هذا الراى فى كتابه الذى نشرته دار « الاخبار » مؤخرا .

السابق محمد سعيد (١) . وكان معظم أعضاء « الوفد الوطنى » من أعضاء اللجنة الادارية للحزب بالقاهرة : أحمد لطفى ، ود . اسماعيل صدقى ، وحافظ رمضان ، وعبد اللطيف الصوفانى ، وأحمد وجدى ، ومصطفى الشوربجى ، وأحمد وفيق (٢) .

ويبدو أن البريطانيين قد رحبوا بانقسام معارضيههم ، فقد سمحوا « للوفد الوطنى » بمغادرة مصر ، غير أن الوطنيين قبيل الموعد المحدد لرحيل وفدهم استشعروا المتاعب التى يمكن أن يسببها ، فحلوه ، وسعوا الى التفاهم مع الوفد . ووافق سعد على ضم بعض ممثلى الوطنيين الى وفده . فاختارت اللجنة الادارية للحزب أحمد لطفى ومصطفى الشوربجى . ولما كان الشوربجى مشهورا بعداؤه للوفد ، فقد رفض سعد هذين العضوين المختارين ، واختار بدلا منهما مصطفى النحاس ، وهو قاض لم يكن له نشاط ملحوظ بالحزب (رغم أنه سسيخلف سعدا فيما بعد فى زعامة الوفد) ود . حافظ عفيفى الذى كان عضوا بالحزب قبل الحرب . (٣) وانضم أيضا الى الوفد وقتذاك وطنيان قديمان هما محمود أبو النصر وويصا واصف .

هذه الاضافات الى الوفد قوت مظهر الوحدة الوطنية ، غير أن جميع هؤلاء الرجال لم يكونوا من الوطنيين البارزين ، ولذلك مضى الحزب يتصرف ككيان متميز عن الوفد ، لدرجة أنه قدم مذكرة منفصلة الى مؤتمر السلام بباريس . (٤) وحتى حينما لم تكن هناك خلافات جوهرية بين الفريقين ، فقد فرضت العوامل الشخصية طريقين مختلفين للوفد والحزب الوطنى . فكان ذلك الانقسام المسئول عنه كلا الجانبين نذير شؤم على مستقبل الوطنية المصرية ومحاولة البلاد التالية فى مجال الديمقراطية البرلمانية .

(١) Landau, p. 152 . وكان محمد سعيد وسعد زغلول على علاقة سيئة منذ كانا وزيرين معا .

(٢) مذكرات فريد : ص ٣٠٥ وما بعدها . ويذكر فريد عضوين آخرين ليسا من زعماء الحزب .

(٣) محمد أبو الفتح : « المسألة المصرية والوفد » ، القاهرة ، د٠ت . ، ص ٤٨ . Amin Youssef : «Independent Egypt», London, John Murray, 1940. عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، ج ١ ، ص ٢٣٥ ، وقد أكد الشوربجى معارضته للوفد فى لقاء معى بحضور لويس كاتورى بالقاهرة سنة ١٩٦٤ . ومن الصعب ادراك كيف توقع الوطنيون رأب الصدع بينهم وبين الوفد باختيار الشوربجى مثالا لهم .

(٤) للمذكرة ترجمة عربية فى «ثورة ١٩١٩» ، ج ١ ، ص ١٢٦ - ١٢٨ ولم يذكر الرافعى من الذى كتب المذكرة : الوطنيون فى مصر أم الوطنيون فى سويسرا .

حاول فريد وأنصاره في أوروبا تقديم مساوئهم ، أو على الأقل تشجيعهم للوفد في باريس ، ولكن برقياتهم ورسائلهم ذهبت بلا رد . وأكثر من ذلك رفض سعد اقراض المصريين في أوروبا الذين منعت عائلاتهم من امدادهم بالمال . فقد اعتبر زعماء الوفد الحزب الوطنى عامل انقسام يمكن لاعداء البلاد استغلاله . وحينما دعا عبد الرحمن فهمى السكرتير العام للجنة المركزية في القاهرة الى ضم فريد الى الوفد (لأسباب تكتيكية بلا ريب) رفض سعد على هذا الأساس :

« . . فأما ضم حضرة محمد بك فريد الى الوفد فقد رأى الوفد عدم التعرض له لما فيه من الخطر الكبير على القضية المصرية التى تحتاج على الدوام لعطف الذين اشتهر فريد لديهم عموما - ولدى الفرنسيين منهم خصوصا - بممالة أعدائهم والتداخل مع الخديو وبولو ممن ساءت سمعتهم كثيرا في أوروبا . ولا يخفاكم أن الانكليز كانوا يتهمون المصريين بأن حركتهم غير ذاتية وأنها حاصلة بدسائس من الترك والألمان . فضم مثل محمد فريد الى الوفد من شأنه أن يؤيد مطاعن الخصوم ويشوه جمال قضيتنا . . » (١)

وهكذا كانت مواقف زعماء الوطنيين أثناء الحرب العالمية الاولى سببا في حرمانهم من المشاركة العامة في الكفاح من أجل الاستقلال بعدها .

ولم يسمح في النهاية بادراج المسألة المصرية في مؤتمر السلام بباريس ، ففي يوم وصول الوفد الى باريس أعلن الرئيس ويلسون ، الذى علق عليه المصريون آمالهم ، اعتراف الولايات المتحدة بالحماية البريطانية فكانت اساءة ما زالت مصر تذكرها الى اليوم (٢) .

(١) من سعد زغلول الى عبد الرحمن فهمى : باريس في ٧ نوفمبر ١٩١٧ ، أوردها محمد أنيس : « دراسات في وثائق ثورة ١٩١٩ » ، ج ١ القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٣ ، ص ٢٢٨ .

(٢) انظر على سبيل المثال رسالة عبد الناصر الى الرئيس كنيدي ، القاهرة حوالى ١٩٦١ ، وقد نشرت في « الأهرام » في ٢١ سبتمبر ١٩٦٢ ، وتوجمت في " Middle Eastern Affairs », XIII (1962), p. 273 f.

وعن تصرف ويلسون انظر : الرافعى : « ثورة ١٩١٩ » ج ١ ، ص ٢٣ - ٢٥ United States, Department of State : « Papers Relating — to the Foreign Relations of the United States, 1919 », Washington, Government Office, 1934, pp. 202-204.

وفى أوائل مايو صوت المؤتمر على تضمين اتفاقية السلام النهائية
اعترافا عاما بالحماية • وبتوقيع ألمانيا على معاهدة فرساي فى ٢٨ يونيو
سنة ١٩١٩ فقد المصريون كل أمل فى أن ينال استقلالهم أى تأييد أوربى
رسمى •

ومع تراخى الرقابة على البريد والمطبوعات فى يوليو برز الوطنيون
فى مصر الى العلن • فبدأت اللجنة الادارية تجتمع بصفة دورية ، ودعت
الى مؤتمر عام لأعضاء الحزب فى مناسبة مرور ٣٧ سنة على الاحتلال
البريطانى • (١) وللإعلام عن نشاط الحزب استولى الوطنيون على جريدة
« الافكار » ، وقاموا باعانة جريدة الاسكندرية اليومية « وادى النيل »
التي أرسلت محمود أبو الفتح (سيحقق فيما بعد شهرة كبيرة حين
يؤسس « المصرى » أكثر صحف مصر شعبية قبل ثورة ١٩٥٢) لتغطية
أخبار الوفد فى باريس ، فاتصل بفريد وأرسل مقالا ، أعاد نشره فيما بعد
فى كتابه عن الوفد ، يصف فيه نشاط الوطنيين أثناء الحرب ، وكان
مجهولا فى مصر حتى ذلك الحين بسبب الرقابة البريطانية (٢) •

وحاول الوطنيون كذلك الوصول الى رأى العام عن طريق حركة
العمال الوليدة ، فساعد أحمد لطفى ، أحد وكيلى الحزب على تنظيم
نقابات العمال لتوجيههم الى القيام باضرابات ومظاهرات معادية لبريطانيا •
ومن أولى ثمرات عمله اضراب عمال شركة ترام القاهرة والمطرية البلجيكية
فى أغسطس ١٩١٩ • (٣) ومن الخطأ نسبة كل الاضطرابات التى تلت
الحرب فى مصر الى الوفد فى الوقت الذى كان الحزب الوطنى لا يزال
قوة ثورية لها كيائها •

(١) الرافعى : « ثورة ١٩١٩ » ، ج ٢ ص ٥١ وما بعدها •

(٢) مذكرات فريد ص ٣٠٩ ، « مع الوفد المصرى » ، ص ص ٩٧ - ١١٧

(٣) مذكرات فريد : ص ٣١٦ ، وكان أحمد لطفى أيضا أحد المحامين الذين ترفعوا
عن المضربين من عمال شركة الترام سنة ١٩١١ • والمؤرخون الغربيون قلما التفتوا الى
العلاقة الهامة بين البورجوازية الوطنية والحركة العمالية فى مصر • ورغم ذلك فساجازف
بافتراض أن المحرك الرئيسى لأول تنظيم عمالى فى السكة الحديد والترام لم يجرى من
الوطنيين ، بل من العمال الايطاليين واليونانيين المتقدمين سياسيا •

الوطنيون المغتربون ووفاة فريد

استمر الوطنيون في سويسرا يبددون معظم وقتهم وطاقاتهم في منازعات داخلية ، فاستقرت مجموعة جاويش في برن لتكون قريبة من فؤاد سليم السفير العثماني . وغضب فريد لعدم اهتمامهم بتدهور صحته ووبخ الشيخ جاويش لعدم كتابته اليه ، وأخذ يضخم فكرة عدم ولاء الشيخ للقضية الوطنية . وقرر عبد الحميد سعيد ، أحد أعضاء لجنة الحزب الادارية أن « جاويش » حاول اخطار الوفد أن الوطنيين مستعدون لقبول وضع الدومنيون (أو الحكم الذاتي) لمصر داخل الامبراطورية البريطانية . (١) ولكن سعيدا وحمزة أثارا أيضا غضب فريد بتكوين علاقة مع ضابط بريطاني حاول اقناعهما (ولم ينجح) ببلاغ الوفد عن استعداد الوطنيين للتعهد بالمحافظة على مصالح بريطانيا في مصر مقابل استقلال بلادهم . (٢) فقد كان فريد لا يقبل المساومة في المبدأ ، حتى وهو مهزوم .

كان زعيم الحزب الوطنى يقترب من الاحتضار . فخلال السنة التالية للهدنة استنفد كل مدخراته ، ورهن أوراقه المالية ، واستدان كثيرا من أسرته وأصدقائه (٣) بحثا عن الشفاء من مرض الاستسقاء . ونصحه طبيبه بالاتفاق مع بريطانيا ليعود الى مصر ، لان صحته قد لا تحتمل

(١) مذكرات فريد : ص ٣١٣ وما بعدها .

(٢) مذكرات فريد : ص ٣١٤ وما بعدها . وكان هذا بالضبط ما منح للمصريين سنة ١٩٢٢ .

(٣) من محمد فريد الى اسماعيل لبيب ، باسوج في ١٨ يونيو ١٩١٩ ، وترينت في ١٤ سبتمبر ١٩١٩ من محمد فريد الى أحمد فريد ، سامادن في ٢٥ يونيو ١٩١٩ ، وترينت في ٢١ سبتمبر ١٩١٩ .

وفضلا عن ذلك فقد كان فريد خطيبا رديثا ، وهو نقص خطير بالنسبة لزعيم وطنى مصرى ، كما أنه لم يكن كاتباً بارعا للنثر العربى . وكان كلا من مصطفى كامل والشيخ جاويش أقدر منه فى الخطابة والكتابة ، والمصريون - كغالبية . شعوب البحر الأبيض - يسرفون فى تقدير المواهب البلاغية . الا أن أكثر سمات شخصيته ازعاجا كان توهمه الواضح والمستمر فى مذكراته أن جميع الزعماء الوطنيين الآخرين يتآمرون ضده ، وهو وهم قريب من جنون العظمة ، مما كان له تأثير قوى على الكثير من أحكامه ، وشتت طاقاته فى تدبير الدسائس المضادة والاتهامات القاسية بدلا من توجيهها للعمل على تماسك الحزب .

أما من الناحية الايجابية ، فقد حمل فريد مسئولية بالغة المشقة حينما تولى زعامة الحزب الوطنى بعد وفاة مؤسسه المحبوب بصورة مفاجئة ، فكان عليه أن يحول مشاعر أمة من التعلق بشخص الى الولاء لحزبه وما يناضل من أجله . وكما فعل أبو بكر ، أول الخلفاء ، نهض فريد بمسئوليته بتفان تام لمبادئ سلفه ، ولذلك فالشعب المصرى محق فى تمجيد ذكراه . فقد فاز رجال كثيرون فى بلدان عديدة بالثروة والجاء عن طريق استغلالهم لوطنية أبناء شعبهم ، ولكن فريدا ضحى بثروته ومكانته وصحته ، وأخيرا حياته فى سبيل مثله . ولعل من حسن حظ مصر فى مرحلة نمو احساسها بكيانها أن قدم أحد أبنائها هذا المثل الرائع للتضحية الوطنية لتهديب الأجيال التالية التى ستحتاجه بشدة ، فأكبر منسكلات الشرق الأوسط ليست زيادة الاحساس بالوطنية ، بل قلة المثل العليا الوطنية .

خاتمة

استمر تدهور الحزب الوطنى بعد ثورة ١٩١٩ ، فالوفد وهو أفضل تنظيمًا على المستويين القومى والداخلى ، وأغنى تمويلا بكثير ، وعلى رأسه زعيم محبوب شغل مكانة الحزب الاقدم باعتباره الحامل الرئيسى للواء الكفاح القومى ، واجتذب جمهوره السابق ، وقاد شباب الطبقة المتوسطة فى القاهرة والاسكندرية .

وظل زعماء الحزب الوطنى رغم تضائل مؤيديهم ، مخلصين لتنظيمهم الضامر الذى سرعان ما تحول الى حزب المتقدمين فى السن . ولم يكتف الوفد باغتصاب مكانة الحزب الوطنى فى قلوب أبناء الطبقة الوسطى بالمدينة ، بل عمل بنجاح ملحوظ فى اكتساب تأييد الفلاحين الذين شاركوا فى اضطرابات سنة ١٩١٩ ، وفى الانتخابات النيابية سنة ١٩٢٤ وما تلاها . فكما ظل الحزب الوطنى يوسع قاعدته من التأييد الشعبى حتى فاق فى قمة نجاحه ما سبق أن حققه العرابيون ، كذلك مثل الوفد خطوة أخرى نحو مزيد من مشاركة الجماهير فى سياسة مصر . ويرجو الاتحاد الاشتراكى العربى أن يمضى خطوات أبعد فى نفس الاتجاه .

لقد حول الوفد حركة ثورية الى حزب شبه ديمقراطى برلمانى . وباستطاعته أن يشير الى نجاحه كحركة قومية فى دفع بريطانيا الى الاعتراف باستقلال مصر (ولو جزئيا) سنة ١٩٢٢ ، ثم توقيع معاهدة التحالف الانجليزية المصرية سنة ١٩٣٦ . غير أن الاستقلال التام عن بريطانيا لم يتحقق الا سنة ١٩٥٦ مع الجلاء عن منطقة قناة السويس .

ومن ناحية أخرى فقد حافظ الحزب الوطنى على شخصيته باتخاذ موقف العداء المتطرف لبريطانيا فى سلم السياسة المصرية ، فعارض كل مفاوضة مع بريطانيا قبل الانسحاب التام لقواتها من مصر والسودان ، وبذلك أصبح الحزب الوحيد الذى رفض معاهدة ١٩٣٦ ، واقترح اجبار

بريطانيا على الجلاء بمظاهرات الشوارع والاثارة بالخطب والصحافة ،
وتكنيك المقاطعة الذى طوره مصطفى كامل ثم أتقنه الوفد .

واذا بدا أن مثل هذا العناد لا ينجح فى التغلب على التفوق الهائل
لقوة بريطانيا وبصفة خاصة فى مثل موقع مصر الاستراتيجى ، فقد كان
فى موقف الحزب الوطنى مع ذلك قوة منطقية ما زالت تستهوى بعض
الشباب المصرى ، كما أثبتت تجربة مصر خلال الحرب العالمية
الثانية .

وقد ظل المندوب السامى طالما ظلت قوات بلاده المسلحة فى مصر
قادرا على فرض ارادته على سياسة الحكومة المصرية . وأفضل مثل
على ذلك الانذار الذى وجهه السير مايلز لامبسون الى السراى سنة ١٩٤٢
فاضطر الملك «فاروق» الى تعيين وزارة مستعدة لتنفيذ شروط معاهدة
سنة ١٩٣٦ . وذهب الوطنيون الى أن بريطانيا لن تمنح مصر تنازلات
ذات قيمة طالما ظلت قواتها العسكرية تحتل مصر مما يجعل لها دائما
اليد العليا فى كل مفاوضة . وباعتبارهم حزبا من المحامين أساسا فلم
يتخلوا أبدا عن منطقهم القديم فى الحاجة بأن الاحتلال البريطانى يتعارض
مع القانون الدولى ، وأخذوا يحثون بريطانيا على تنفيذ وعودها العديدة
بالجلاء .

وظل الوطنيون عدة سنوات دون رئيس ، ثم عقدوا سنة ١٩٢٣ جمعية
عمومية انتخبت حافظ رمضان المعتدل خلفا لفريد . ورمضان ينتمى لأسرة
قاهرية ثرية ذات نفوذ ، درس القانون بفرنسا . وهو خطيب مفوه ، ولكنه
كان أكثر دماثة وطموحا من أن يصلح لزعامة حزب معارض ، فاكثفى
بالجلوس فى مجلس النواب ثم فى مجلس الشيوخ ، وصدم أنصاره عدة
مرات بالاشتراك فى وزارات معادية للوفد .

وأدى قبوله لمنصب وزارى سنة ١٩٤٠ رغم معارضة اللجنة الادارية
للحزب الى انقسامها الى فريقين ، ظل كل منهما يجتمع على حدة طوال
سنوات الحرب والتأم الصدع سنة ١٩٤٦ بالاتفاق على أنه لا يجوز لأى
وطنى الاشتراك فى أى وزارة ما لم تقر اللجنة الادارية أن مبادئها
تتفق مع مبادئ الحزب . (١)

(١) عبد الرحمن الراعى : « فى أعقاب الثورة المصرية » ، الطبعة الاولى القاهرة .

مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥١ ، ج ٣ ، ص ٨٧ وما بعدها ، ٢١٤ وما بعدها .
ولتفسير آخر لما حدث انظر :

Moshe Zetzer : « Aspects of Near East Society » , New York, Bookman
Associates, 1962, p. 94 f.

وهكذا رُفِمت واجهة وحدة الحزب بضم كل الأعضاء الذين أضافهم كل من الفريقين المنشقين خلال ست سنوات من الوجود المنفصل الى لجنة الادارية بعد توحيدها . ولا ندهش بعد ذلك حينما لا يقوم اجماع اوضح بين أعضاء اللجنة حول دورهم فى السياسة البرلمانية فيحدث انقسام جديد سنة ١٩٥٠ . (١)

وبعد الحرب العالمية الثانية ازدادت مشاركة الوطنيين فى أعمال لاثارة والعنف ضد البريطانيين بهدف الغاء معاهدة ١٩٣٦ . وفى سنة ١٩٤١ اشترك الحزب مع الاخوان المسلمين و ١٣ جماعة متطرفة أخرى فى جبهة لتنظيم المقاومة الوطنية للبريطانيين ومقاطعتهم ومنع أى مصرى من التفاوض معهم (٢) . وخلال تلك السنوات كان للشباب القدير فتحى رضوان المحامى الكاتب تأثير فتى هام على الحزب ، فقد جذب اليه عددا من للبة الجامعة المصرية الذين لم يستطيعوا قبول انتهازية الوفد الهابطه . لا التعصب الدينى (أو بمعنى أدق تملق الطبقة الدنيا) الذى عرف به لاخوان المسلمون . وهذه الفصائل بعد أن تشبعت بالمثلى التاريخية مصطفى كامل ومحمد فريد ، خيب آمالها استعداد أعضاء الحزب القدامى لاشتراك فى الوزارات أيا كانت مبادئها المزعومة طالما ظلت فوق أرض مصر قوات بريطانية ، وأحسوا بالعار حينما اشترك اثنان من تلاميذ فريد هما محمد زكى على وعبد الرحمن الرافعى فى وزارة ائتلافية سنة ١٩٤٩ . لعل فتحى رضوان كان رأس الحربة فى انقسام سنة ١٩٥٠ ، ولكن الذى شك فيه أن مجموعته قد احتشدت لتأييد الضباط الأحرار بعد ثورة ١٩٥١ ، وأصبح رضوان بعد ذلك أول وزير للإرشاد القومى فى مصر (٣) . ضمت الوزارات التالية وطنيا واحدا على الأقل بين أعضائها المدنيين .

ومما يستلفت النظر قلة عدد تلاميذ مصطفى كامل وفريد الذين ساهموا بأى دور هام فى سياسة مصر بعد سنة ١٩١٩ . فعند وفاة فريد

= وعن حافظ رمضان (١٨٧٩ - ١٩٥٥) انظر كتابه :
Choix de discours et d'entretiens politiques sur la question egyptienne », Cairo, Imprimerie Parladi, ca. 1923, pp. 3-9,

لزركى : « الاعلام » ، ج ٦ ص ٣٠٥ وما بعدها .

(١) الرافعى : « فى أعقاب الثورة المصرية » : ج ٣ ، ص ٢١٥ .
J. Heyworth-Dunne : « Religious and Political Trends in Modern Egypt »
Washington, D.C., privately printed, 1950, p. 46.

(٣) « الإرشاد القومى » هو الاصطلاح المصرى « للاعلام » . ومن الوطنيين الآخرين الذين عينوا وزراء عدة مرات بعد سنة ١٩٥٢ الدكتور نور الدين طراف .

كان الوطنيون منقسمين في أوروبا بين فريق جاويش في برن المحيط أساسا بالسفير العثماني فؤاد سليم وبين اللجنة المصرية في جنيف . وسرعان ما بدد الشيخ جاويش مدخراته واضطر الى الاشتغال في عمليات الاستيراد وان حرص في الوقت نفسه على اكتساب الولاء السياسي لفريق الطلاب المشق في ألمانيا ، وكان عددهم أخذ في التزايد . وفي سنة ١٩٢٢ دعاه مصطفى كمال أتاتورك الى أنقرة لرأس لجنته الثقافية ، ولكنهما سرعان ما اختلفا حول انهاء الخلافة وهو ما عارضه جاويش . فأعاده بعض أقربائه وأصدقائه سرا الى القاهرة في ديسمبر ١٩٢٢ حيث أعلن عودته بأسلوب درامي في المقال الاول من سلسلة نشرتها له جريدة « الأفكار » .

وبعد أن رشح نفسه لانتخابات سنة ١٩٢٤ على مبادئ الحزب الوطني وسقط ، قبل وظيفة بادارة التعليم ، وظل بها حتى وفاته سنة ١٩٢٩ . وقد كرم في سنيه الأخيرة باختياره وكيلا لجمعية الشبان المسلمين ، وكانت بمثابة التمهيد للاخوان المسلمين (١) .

وأعيد ثلاثة من أتباع جاويش الى مصر سنة ١٩٢٠ على نفقة الحزب الوطني ، وهم عبد الملك حمزة ، واسماعيل كامل ، وعوض البحراوى ، وقد هجر ثلاثتهم الحزب بعد ذلك حين فشلوا في اقناعه بالتعاون مع الوفد . وقد انتخب حمزة عضوا في مجلس النواب عن بورسعيد في فترات متقطعة باعتباره مستقلا ، وأصبح اسماعيل كامل موظفا بوزارة الخارجية ، وأصبح أخيرا أول سفير لمصر بالهند . (٢) وانتخب الدكتور عبد الحميد سعيد وهو الآخر من أنصار جاويش عضوا بمجلس النواب عدة مرات ، كما أصبح أول رئيس لجمعية الشبان المسلمين (٣) .

أما بقية أعضاء اللجنة المصرية ، فقد ظل محمد فهمي بجنيف حتى قبيل وفاته سنة ١٩٦٣ ، وانضم على الشمسي الى الوفد في باريس ، واستأنف فيما بعد نشاطه السياسي في مصر عضوا بمجلس النواب ، ثم وزيرا للمعارف ، ثم رئيسا لمجلس ادارة البنك الاهلى المصرى . ورأس يحيى الدرديرى مؤتمرا للطلبة المصريين في برلين سنة ١٩٢٣ ، وعند عودته الى القاهرة تولى رئاسة تحرير مجلة الشبان المسلمين (٤) .

(١) أنور الجندي : « عبد العزيز جاويش » ، ص ص ١٣٠ - ١٥٣ .

(٢) حصلت على المعذومات الخاصة بعبد الملك حمزة خلال لقاءاتى الشخصية معه سنة ١٩٦٤ .

(٣) Hayworth-Dunne : p, 11 f.

(٤) Ibid : p. 12. ، الزركلى : ج ٩ ، ص ١٦٤ .

ورأس اسماعيل لبيب جمعية لم تعمر طويلا اسمها « اتحاد النيل المصرى الحر » . ثم عاد الى القاهرة حيث نشر عددا من المقالات الهجومية على جاويش ، ثم اعتزل السياسة . وبقي شقيقه د . منصور رفعت عدة سنوات فى برلين حيث كون فريقا بمفرده بعد اختلافه مع فريد سنة ١٩١٧ بسبب صلحه مع جاويش . وبدأ توازن رفعت العقلى يختل ، ونشر مقالات عديدة هجوما على سعد زغلول وأنصاره . وتوفى سنة ١٩٢٥ والمرجح أنه انتحر (١) .

ومن بين الوطنيين الذين قضوا سنوات الحرب فى مصر اثنان كان لهما أبرز دور فى سياسة الحزب بعد الحرب ، وهما حافظ رمضان ومحمد زكى على اللذان سبقتا الإشارة اليهما . وحقق الشقيقان الرافعى شهرة جديدة بانشائهما جريدة « الأخبار » التى قدمت للوفد تأييدا كبيرا سنة ١٩٢٠ . (٢) وتوفى أمين الرافعى سنة ١٩٢٧ ، فى حين واصل شقيقه الاصغر عمله الناجح محاميا ، ونائبا وطنيا ، وعضوا بمجلس الشيوخ ، ووزيرا وكاتبا ومؤرخا ، وأصبحت كتبه المفصلة مصادر أساسية لكل الدراسات التى تلتته . أما على فهمى كامل ، الوكيل الاول للحزب ، فقد رشح نفسه أمام سعد زغلول فى انتخابات سنة ١٩٢٤ ولم ينجح ، وأصدر عدة صحف ، ثم توفى فجأة بعد أن ألقى خطبة فى ذكرى فريد سنة ١٩٢٦ . (٣) أما الوكيل الثانى أحمد لطفى فقد أصبح نقيبا للمحامين المصريين ، وتوفى بعد قليل من هزيمته فى انتخابات سنة ١٩٢٦ .

وانتخب عبد اللطيف الصوفانى باعتباره وطنيا فى برلمان سنة ١٩٢٤ ، ولكنه فشل فى إعادة الانتخابات سنة ١٩٢٥ ، وتوفى فى السنة

(١) انظر : Dr. M.M. Rifat : « Die Patriotismus bei dem agyptern », Berlin, Oriental Club, 1923.

وهو حافل بالمعلومات عن الوطنيين فى أوروبا ، وكذلك كتابه : Enthüllungen uber die inneren verhaltirisse Agyptiens», Berlin, 1923. Landau : p. 152

ويعطى مراسلات متبادلة بينه وبين الأمير عزيز حسن الذى كان يؤيد الوفد . ومن بين الوطنيين الذين هاجمهم رفعت لأنهم أصبحوا وفدين : محمد فهمى ، وأمين الرافعى ، وعلى الشمسى ، فى حين وجه لومه الى فهمى كامل والشيخ جاويش لأنهما رشحا نفسيهما فى الانتخابات فى ظل دستور سعد زغلول « الزائف » .

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر : عبد اللطيف حمزة « أدب المقالة الصحفية فى مصر » ، ج ٧ : أمين الرافعى (القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٥٩) .
(٣) الرافعى : « فى أعقاب » ، ج ١ ، ص ٢٦٨ وما بعدها .

نفسها • (١) ودخل مصطفى الشوربجي عدة برلمانات ، وأصبح سنة ١٩٣٩ وزيرا للعدل مستقلا •

ومن الصعب أن نعتبر هذا تاريخا مشرفا للحزب الوطنى الذى التف حوله قبل سنة ١٩١٤ عدد من الشباب المصرى المثقف أكبر بكثير ممن التفوا حول حزب الأمة • ومع ذلك فقائمة مشاهير مؤيدى حزب الأمة فيما بين ١٩٠٧ و ١٩١٤ تكاد تكون دليلا للسياسة المصرية عقب سنة ١٩١٩ : سعد زغلول ، عبد العزيز فهمى ، عبد الخالق ثروت ، أحمد لطفى السيد ، محمد محمود ، محمد حسين هيكل ، وطلعت حرب ، وكثيرين غيرهم • وربما كان أعضاء حزب الأمة يكونون نخبة فكرية كما ذهب بعض كتاب الغرب (٢) ، ولكن من الحق أيضا أنهم كانوا أقدر من الوطنيين على التأقلم ، ولم يخرجوا أنفسهم بالارتباط بالجانب الخاسر فى الحرب •

أما أولئك الذين كانوا تلاميذ مصطفى كامل ومحمد فريد ، وبصفة خاصة من قضوا تتلمذهم مهيجين سياسيين تحت اشرافهما فلم يستطيعوا أن ينسوا روابطهم الشخصية بهذين البطلين الراحلين ، وظلوا متعلقين بذكرىات ماضى الحزب وما كان يبشر به ، مصرين على سياسته فى معارضة البريطانيين دون مساومة • ولا يستطيعون أن يقفوا من عربة الحزب الوطنى • وإذا كان جمودهم قد عوقهم بالقياس الى انتهازية الوفد فان اعتبارهم السياسى كان يرد بين الحين والآخر بعد ثورة ١٩٥٢ (بعد وفاتهم فى معظم الأحوال) وما تلاها من جلاء القوات البريطانية عن أرض مصر •

(١) الرافعى : « مذكراتى » ، ص ٦٠ ، يرد وفاتها الى الفشل فى الانتخابات وقد تدخلت السراى فى انتخابات سنة ١٩٢٥ و ١٩٢٦ لدعم مؤيديها •
(٢) وبصفة خاصة جمال م. أحمد ، وألبرت حوراني ، وناداف صفران •

الفصل العاشر نتائج الدراسة

كان الحزب الوطنى المصرى بقيادة مصطفى كامل ومحمد فريد أكبر جماعة قاومت الاحتلال البريطانى لمصر من سنة ١٨٩٥ الى ١٩١٩ . وكانت حركته مطابقة تماما للحركة الوطنية المصرية التى شملت فى بعض الفترات على الأقل ، السراى وأحزابا وطوائف أخرى ليست تابعة بالدرجة الأولى لمصطفى كامل أو فريد . ومع ذلك فقد كان الحزب الوطنى أقرب تجسيده لتنظيمى للحركة منذ بدايته حتى قيام الوفد .

وسمح الحزب الوطنى بإجراء بعض التغييرات فى برنامجها والمنتسبين اليه ، فقام كبعث للحزب الوطنى السابق المكون من ضباط الجيش المصرى والدستوريين المدنيين والمصلحين الاسلاميين . ورغم قلة تنوعه بالقياس الى سابقه فقد بدأ هو الآخر تأكيداً لوعى المصريين بانفصالهم عن حكاهم ، ورد فعل لاختلال التوازن الاجتماعى بسبب التغييرات السياسية والاقتصادية فى القرن التاسع عشر ونتيجة لنقل الأفسكار السياسية الأوروبية الى بيئة اسلامية . ولا ينبغي أن ننسى أن تسعة أعشار المصريين فى القرن التاسع عشر كانوا مسلمين وأن الاسلام قصد به أن يكون أسلوباً يشمل كل نواحي الحياة . فعن طريق الأنبياء ، والقرآن بصفة خاصة ، كشف الله للانسان لا عن وجوده فحسب ، بل كذلك عن تعاليمه عن المجتمع المثالى على الأرض ، والمسلمون باعتبارهم بشرا قد يقصرون عن الكمال ، ولكن الدولة الاسلامية ينبغي أن توفر للمسلمين بيئة يستطيعون أن يجاهدوا فيها لاتباع خطة الله . وهذا ما لم تحققه مصر القرن التاسع عشر ، فالتأثير الأوروبى الذى بدأ عسكرياً ما لبث أن أصبح اقتصادياً وسياسياً وأيدولوجياً . وغيرت الثورة الصناعية الأوروبية جوهر اقتصاد مصر ، فتطور الرى النيلى الدائم ، وظهر انتاج المحصول الزراعى لكى يباع فى السوق العالمى ، وحفرت قناة السويس . وبسبب موقعها الاستراتيجى

وجاذبيتها للمستثمرين الاجانب أصبحت البلاد مطمعا سياسيا للقوى
الأوربية المتنافسة ، حتى فازت بها بريطانيا سنة ١٨٨٢ •

وحينما سيطر على البلاد أجانب مسيحيون كان من الطبيعي أن يعمل
كثير من المصريين المسلمين لاهياء الأفكار والنظم الاسلامية • وقد أيد كثير
من الوطنيين هذه النظرة دون وعى أحيانا ، فقد كان هدفهم الرئيسى منازلة
حكام مصر الأجانب بنفس أسلحتهم الايديولوجية ، وهى ليبرالية القرن
التاسع عشر •

وليس مما يثير الدهشة أن الحزب الوطنى يدين بجانب كبير من
قوته المبكرة الى عوامل خارجة عنه ، وصادرة عن سراى عابدين ووزارة
الخارجية الفرنسية وقصر يلدز • ونتيجة للمادة الأصلية التى اكتشفت
حديثا عن علاقة مصطفى كامل بدسائس الخديو عباس ضد كرومر مال
كثيرون الى تصوير الحزب الوطنى باعتباره مؤامرة من تدبير السراى ،
فاذا أضفنا الى ذلك التأييد المادى المعروف الذى تلقاه مصطفى من
الفرنسيين والاتراك ، كاد يصبح باستطاعتنا وصف الحزب الوليد بأنه
نتاج هذه القوى الخارجية الثلاث • فهل معنى ذلك أن ننتهى الى القول
بأن الوطنية المصرية من صنع الخديو والقوى الأجنبية الحريصة على طرد
البريطانيين من مصر لا أكثر ؟ من الممكن التسليم بأن وصول مصطفى
السريع الى الشهرة تحقق باعتماده على تأييد جهات أجنبية ، ولكن الحزب
الوطنى نفسه دعم وجوده ، وبصفة خاصة بعد سنة ١٩٠٦ معتمدا على
سخط أعداد متزايدة من المصريين على الحكم الأجنبى •

وبالطبع لم يكن كل المصريين ساخطين ، ولا كان كل الساخطين
يحملون بطاقات عضوية فى الحزب الوطنى ويسددون اشتراكاته • فأقصى
عدد بلغته العضوية العاملة فى الحزب لم يتجاوز العشرة آلاف ، وهو رقم
ضئيل اذا قيس بتعداد مصر كلها ، وكان قد تجاوز العشرة ملايين بالفعل •
ولكن مثل هذه الأرقام تصبح بلا معنى اذا فصلت عن سياقها التاريخى •
فالمصريون بطبيعتهم حاملون ، سلبيون (*) لا يثورون الا فى فترات

(*) ليس هذا كلاما مقبولا من عالم حصل على اجازة الدكتوراه من كلية هارفارد
الشهيرة فى الولايات المتحدة ، فوصف شعب بأسره بأنه شعب من الحاملين السلبيين ، فى
حين أن هذا الشعب هو أقدم شعوب الأرض حضارة واسبقها الى تأسيس دولة قومية ، هى
اسبق الدول القومية الى الوجود ، وهذان انجازان عظيمان خالدا لا يصدران عن شعب
خامل ولا عن أمة تتهم بالسلبية • اما التاريخ الحديث فشاهد على نقى هذه الصفات ،
فقد حارب المصريون نابليون وثاروا ضده مرات ، وأصلوا جيشه فى الصعيد نارا

الأزمات الاقتصادية العصبية أو الانقلابات السياسية مثلما حدث عام ١٨٨١/١٨٨٢ . والحزب الوطنى ظهر وازدهر خلال فترة امتازت بالرخاء المتزايد والاستقرار السياسى ، وكان كثير من مؤيديه أفقر وأجهل من أن يصبحوا أعضاء عاملين ، وحتى بعض معارضيه لم يكونوا يقلون عنهم رغبة فى رؤية البريطانيين يرحلون . باختصار الوطنيين ليسوا أعضاء فى الحزب الوطنى .

من هم الوطنيون اذن ؟

أولا كانوا جميعا مسلمين تقريبا ، على الرغم من أن الحزب لم يفرض أى شروط على العضوية . وحاول مصطفى كامل فى سنيه الأخيرة أن يوحد الأقباط والمسلمين تحت لواء الحزب الوطنى ، ولكن المسيحيين الذين انضموا للحزب فعلا كانوا قليلين ، وخرجت غالبيتهم بعد وفاته حينما نشر الشيخ جارش مقالته المقذع فى « اللواء » . كانت الرابطة التقليدية بين الدين والسياسة مازالت أقوى من أن تسمح بتحويل الوطنية المصرية الى حركة علمانية .

= حامية ، ثم ما لبثوا أن كونوا - بقيادة محمد على - دولة ضخمة فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، بسطت نفوذها على مصر والسودان وكل البلاد العربية فى شرق قناة السويس ، وكادت جيوشها تصل الأستانة عاصمة الدولة التركية ، وبلغ اسطولها من القوة بحيث اضطرت انجلترا وفرنسا وروسيا أن تتآمر عليه لتفرقه بغدر وخسة فى موقعة « نقارين » . ولم تكن قوة دولة محمد على عسكرية بحتة ، فقد أنشئت فيها معاهد الطب والهندسة المدنية والعسكرية ، والمساحة والترجمة ومصانع البحرية والعسكرية وسبقت بذلك نهضة اليابان بسنوات ، تكاد تبلغ نصف قرن وخرج من صفوف أبناء الفلاحين الأطباء والمهندسون والمترجمون والمشرعون ، ولو لم يجزع استعمار الغرب الذى لم تهدأ أطماعه فى هذه المنطقة الثمينة منذ الحرب الصليبية فى القرن الحادى عشر ، ولم يبذل أقصى ما يملك من جهد وحيلة ليقطع هذه الدولة الناشئة وهى بعد غضة لقادت مصر حركة تنوير وتعمير وحضارة ، لا على شواطئ النيل فى مصر والسودان وحدهما ولا فى ربوع البلاد العربية فقط ، بل فى مجاهل افريقيا التى أضاعت ظلماتها عن طريق السودان والصومال وأريتريا وموانئ البحر الأحمر مثل مصسوع وزيلع وبربرة ، التى لا تزال تشهد آثار الحضارة والعمران فيها بما فى مصر من حيوية واستعداد نادر للتقدم والريادة ، وبما فى أبنائها من قدرة على الكشف والابتكار والقفز فى مجالات العلم والفن ، بما لا تحققة دول كثيرة فى الشرق والغرب . ان اتهام مصر وأبنائها بالجهول والسلبية ، شئ اقرب الى التجديف فى حق الله ، والكفر بآياته البينات ودلائل اعجازه الناطقات ، انه ثجرة حقد الغرب على المصريين والعرب والشرقيين . انها العصبية الجهول ، وضيق الأفق الذى جعل حياة الغرب أزمات لا تنقضى ، وحروبا لا تنتهى ، ومآسى خلقية ونفسية ، لا علاج لها ولا طب .

ورغم أن ضعف التنظيمات الطائفية بدأ في حكم محمد علي واستمر في عهد خلفائه فإن أنماط التفكير والسلوك التي بذرتها لم تختف بسرعة . وحتى بعد اختفاء الأحياء المنفصلة المسورة استمرت أنماط السكنى والجوار في القاهرة والاسكندرية تعتمد على التجانس الدينى والعرقى ، كما ظلت العلاقات الشخصية بنفس الطريقة تكاد تكون محصورة داخل المجتمع الطائفى حتى بين أكثر المصريين تأثرا بأوروبا (*) .

ورغم جهود الحزب الوطنى لتكوين شخصية متعددة الطوائف ورعايتها ، فقد عادى معظم الأقباط بتحالفه التكتيكي مع الجامعة الاسلامية التى روج لها العثمانيون ، وبالتعصب الدينى الذى عبر عنه بعض أنصاره فى مظاهرات الشوارع ومخاطباته الخاصة للعاطفة الاسلامية . ولكن السبب الرئيسى فى رجحان كفة المسلمين أنهم كانوا منبوذين أكثر من سواهم نتيجة للنفوذ الغربى . وحتى اليوم وقد أصبحت الدولة والمجتمع أكثر علمانية لا تخطيء العين سيطرة المسلمين على الأجهزة السياسية .

(*) هذا كلام آخر يلقى على عواهنه مخالفا للواقع وللحقائق الثابتة فى كتب أهل الغرب مثل كتاب «وصف مصر» لعلماء الحملة الفرنسية وكتاب ادوارد لين ، ولست أدري من أين جاء مؤلف الكتاب بما يذكره عن الأحياء المنفصلة ، وأنماط السكنى القائمة على التجانس « العرقى والجنسى » والعلاقات الشخصية التى « ظلت محصورة داخل المجتمع الطائفى » . ليست هذه الأقوال كذبا فحسب ، بل إنها أقرب ما تكون الى الهديان . فاهل القرية الواحدة فى أقصى الصعيد ، وأقل المناطق حظا من التعليم يعيشون القبطى والمسلم متجاورين بل متلاصقين ، يرتدون نفس الزى ، ويتكلمون نفس اللغة ويمارسون نفس العادات ، وتعمل وجوههم نفس القسمات والتقاطيع ولايستطيع أى اجنبى أن يميز الواحد منهم عن الآخر فى شيء مطلقا . وفى القاهرة فى الأحياء التى يكثر فيها المسيحيون نجد الأسرة القبطية مع العائلات الاسلامية فى المبنى الواحد ، يلعب اطفال الجميع بلا توجس ولا تحفظ ولا احتياط كما تعيش العائلات الاسلامية فى الأحياء التى تغلب عليها الاكثرية القبطية يختلطون ويتزاوون ويتعاملون ، وكانهم ينتمون جميعا الى دين واحد . ويعيش الأزهرى فى شقة تلاصق شقة القسيس ، فلا يجد الاثنان فى ذلك حرجا ولا ضيقا .

وإذا كان عدد الأقباط فى الحزب الوطنى فى عهد مصطفى كامل ومحمد فريد قليلا فليس مرد ذلك الى شيء فى مبادئ الحزب ولا تقاليده ولا قراراته ولا تصرفاته ، إنما كان مرد ذلك الى أن الأقباط كانوا أقل ميلا فى تلك الفترة للاشتغال بالسياسة ولكن الحزب الوطنى كسر حاجز التحفظ عند الأقباط فاشتغلوا بالسياسة والشئون العامة وأسهموا فى تكوين حياة بلادهم بالقدر الذى يتناسب مع كفايتهم ومزاياهم .

وكانت الغالبية العظمى من زعماء الحزب الوطنى تنتمى الى طبقتى ملاك الأراضى والمهنيين مع غلبة المحامين ، وكان الشباب أهم سماتهم ، فلم يزد عمر أى مسئول فى الحزب فى أزهى فتراته عن خمسين عاما ، كما كانوا علمى قدر كبير من التعليم نسبيا ، معظمهم من خريجي مدرسة الحقوق الخديوية ، اذ أصبحت تعتبر بمثابة الخطوة الاولى نحو مناصب الحكومة الكبرى . وكان الطلبة عنصرا أساسيا فى صفوف الحزب وتنظيماته والأجهزة التابعة له ، ومن باب أولى فى جمعياته السرية . كانوا أول من قفز الى عربة القافلة الوطنية وبين آخر من تخلوا عنها .

وكما سبق أن لاحظنا لم يكن فى الحزب الوطنى عسكريون . وكل الوطنيين كانوا مطربشين (أى من لابسى الطربوش الذى ظل يدل حتى عهد قريب على الانتماء الى الطبقة العليا أو المتوسطة .) فى مقابل المعممين (أى لابسى العمامة التى ترمز الى ٩٥٪ من الأمة وهم الفلاحون والعمال ورجال الدين) . ومع ذلك فقد حاول الحزب الوصول برسائلته الى تلك الفئات التى تغلب عليها المحافظة ، ولذلك أدخل على أيديولوجيته برنامجا اجتماعيا أصيلا ، تمثل خطبة فريد سنة ١٩١٢ أوضح بيان له . وقد مضت التنظيمات السياسية التالية خطوات أبعد فى محاولة كسب تأييد الجماهير الشعبية وتطوير ما أصبح يعرف الآن باسم « الاشتراكية العربية » .

وأعظم منجزات الحزب الوطنى ، بالإضافة الى مثل الوطنية التى قدمتها حياة زعمائه ، تتمثل فى مجالات التنظيم والتكتيك ، فهو الذى طور الحزب السياسى غير البرلمانى ليصبح الاداة الرئيسة للحركة الوطنية وحتى اليوم بعد أن تحقق الاستقلال ، ورفض النظام الحاضر قيام الأحزاب ، مازلنا نلمح بعض آثار ابتكارات الحزب الوطنى ، كاللجنة الفرعية المحلية واستخدام اتحادات الطلبة وتقابات العمال كتنظيمات معاونة مندمجة فى الاتحاد الاشتراكى العربى .

وكان الحزب الوطنى هو أول تنظيم سياسى مصرى له لائحة رسمية ومسؤولون منتخبون ، ولجان ذات وظائف محددة ، ومؤتمرات سنوية ونظام للعضوية وحقوق وواجبات محددة للأعضاء ، وحرص على اصدار جريدة يومية كوسيلة للتعبير عن آرائه ، كما أنفق على دعايات أخرى باللغة العربية واللغات الأجنبية .

ولا شك أن تنظيم الحزب مال الى الانحراف عن بنائه الرسمى نحو السرية والاستبداد . ولكنه ازاء تهديد المنافسة بين الأنصار والانقسامات

الداخلية وقمع الحكومة كاد يعود الى شكل التنظيم السياسى التقليدى ،
أى ذلك الشكل الذى يقوم على ارتباط مجموعة من الشباب بشخصية قائدة
أو زعيم ، يجيد التعبير عن آرائهم . وقد ظل هذا النمط هو السائد فى
مصر طوال فترة الأحزاب السياسية البرلمانية . وحتى اليوم مازال تجسيده
السياسة فى شخص أحد الملامح البارزة فى نظام عبد الناصر .

وقد تركز جانب كبير من حياة الحزب الوطنى حول صحفه ، حتى
لقد وصف المؤرخ البريطانى جورج يونج الفترة من سنة ١٨٩٢ الى ١٩١٩
بأنها المرحلة الصحفية من تاريخ الوطنية المصرية . فقد كان عدد الصحف
يتزايد بسرعة مذهلة ، حتى أصبح لكل طائفة جريدتها ، ولكل جريدة
جمهورها . فمعظم الصحف المصرية قبل سنة ١٩٥٢ لم تكن تعتمد على
اشتراكات القراء وأكشاك البيع وإيرادات الاعلانات ، بل كان النمط
الشائع للجريدة أن تكون وسيلة للتعبير عن آراء مديرها أو ناشرها أو
مموليها . وكانت أنجح الصحف هى التى عبرت عن آراء يرضى عنها
جمهور قراء الصحف ، واستطاعت صحف أخرى أن تواصل حياتها ببراعة
معتمدة على إعانات السراى ، أو القنصليات الأجنبية ، أو الأحزاب
السياسية ، أو بعض الأثرياء .

وتمثلت مشكلة الحزب الوطنى فى المحافظة على جريدة تعبر بإخلاص
عن خط الحزب ، ولا تغضب المساهمين الرئيسيين فيها ، وتجذب فى الوقت
نفسه عددا كبيرا من القراء . واتخذ حلهم لهذه المشكلة ، وبخاصة بعد
وفاة مصطفى كامل وظهور صحف منافسة أسلوب الهجوم اللاذع على
الأفراد والأحزاب السياسية الأخرى والاحتلال البريطانى . وهو أسلوب
يناسب ثقافة تعلّى من شأن التعبير الشفاهى ، واللغة العربية غزيرة فى
المجاملات واللعنات على السواء ، وكل من يظهر براعة - خطابية أو كتابية
- فى مدح أصدقائه وهجاء أعدائه يضىء عليه الجميع مكانة عظيمة .
وبالنسبة لشعب يدرك ضعفه بالقياس الى الأجانب لا شك أن الاهانات
حسنة الصياغة يمكن أن تكون تعويضا عن أعمال العدوان . ولذلك فقد
كان لأسلوب الصحافة الوطنية اللاذع جاذبية شعبية كبيرة ، ومن ثم قلد
على نطاق واسع ، وخلف آثارا باقية فى أساليب الصحافة العربية .

وشملت مبتكرات الوطنيين التكتيكية تنظيم اجتماعات ومؤتمرات
عامة بهدف الدعاية الداخلية والخارجية ، وتطوير المسيرات ومظاهرات
الشوارع لاثارة المعارضة الشعبية وتوجيهها ضد الحكم الأجنبى والتأثير
على الأصدقاء والاعداء معا ، كما شملت أول محاولات لمقاطعة منتجات
دول أجنبية معينة . ومعظم هذه الإضافات لقائمة تقنية العمل السياسى

فى مصر مقتبسة من الحركات الثورية الأوربية ، وقد تفوق فيها الوفد أكثر بعد الحرب العالمية الأولى ، ولكن الوطنيين هم الذين عرفوا مصر بها .

ومن الصعب تعريف الموقف الايديولوجى للحزب الوطنى لانه عبر عن آراء مختلفة لجماعات متباينة . فقد قدم الوطنيون أنفسهم للأوربيين باعتبارهم مواطنين مصريين يطلبون الحكم الذاتى ويتوقون الى تطبيق - الافكار والنظم الاوربية لحل مشكلات مصر وأنكروا مزاعم بريطانيا بأنهم متعصبون دينيا أو معادون للأجانب ، مرددين شعارا لهم كلمة مصطفى كامل : « أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا » .

غير أنهم حينما يخاطبون المصريين أو المسلمين خارج مصر كانوا يؤكدون ولاءهم للامبراطورية العثمانية والعقيدة الاسلامية ، وكثيرا ما عبروا عن الخوف الشائع من أن الاوربيين يريدون اضعاف العالم الاسلامى وهزيمته ، ورددوا أصدااء نداءات جمال الدين الأفغانى بالوحدة الاسلامية والمقاومة والاصلاح ، بل لقد مضى بعض الوطنيين فى دفاعهم عن الاسلام الى حد مهاجمة المصريين المسيحيين ، متجاهلين جهود مصطفى كامل المبكرة لخلق حركة وطنية متكاملة ، ومشيعين بين غير المتعلمين الاعتقاد بأن الحزب الوطنى جماعة من المجاهدين فى سبيل الاسلام .

هذا الازدواج الايديولوجى أضفى على الوطنيين مظهر الانتهازية ، وان كان الاختيار بين الموقفين ليس بالأمر السهل . فالاسلام التقليدى يناقض القومية الاقليمية ، والتحرر السياسى يحل صوت الشعب محل صوت الله ويقضى الدين الى منطقة مهجورة لا صلة لها بالسياسة ، حتى يستطيع الأقباط والمسلمون أن يجدوا صفتهم المشتركة كمصريين . وبالرغم من ذلك فقد كان الاسلام فى الوقت نفسه عامل التماسك الرئيسى فى مجتمع أخذ فى التغير السريع وصمام الأمان ضد ضراوة انتهازية الطبقات الحاكمة ثم خط الدفاع الأخير ضد مد الثقافة الغربية .

كان من المستحيل تماما فصل الدين عن السياسة فما زالت القيم الاسلامية تؤثر فى المواقف السياسية وتوجهها . ولن نكون واقعيين اذا أدنا الوطنيين لانهم تصرفوا كمسلمين . واذا كان خلفاؤهم الوفديون قد وفقوا أكثر منهم فى التوحيد بين الأقباط والمسلمين بتمسكهم بالقومية العلمانية بحزم أشد ، فينبغى الا ننسى أن ظهور الاخوان المسلمين كان فى جانب منه رد فعل لسياسة الوفد . والواقع أن التهديد المستمر الذى يمثله الاخوان لنظام عبد الناصر يوحى بأن جميع المصريين لم يتقبلوا محاولته فصل القومية العلمانية عن الدين .

وزاد تردد الوطنيين بالنسبة لاستراتيجيتهم من سوء حظهم بالقياس الى أمثالهم من أصحاب الايديولوجيات . فقد بدأ الحزب جمعية سرية ، وبالتدريج تحول الى حركة شعبية واسعة النطاق لا تكف عن السعى لاجلاء القوات العسكرية البريطانية عن مصر ، وهو هدف ثوري حاولوا تحقيقه بوسائل غير ثورية . لذلك لا ندهش حين نرى مؤيدي الحزب من الشباب يسارعون لتحقيق هذه الغاية بتكوين جمعيات سرية ذات خطط محكمة للتوعية الشعبية والارهاب السياسي . واذا كانت قلة عددهم وتشتت تنظيماتهم قد جعل تنفيذ خططهم يبدو بعيد الاحتمال ، فقد كان اغتيال بطرس غالى سنة ١٩١٠ مؤشرا على قدرتهم الكامنة على التخريب .

كانت كل الاحزاب وغالبية المصريين المستنيرين يريدون الاستقلال وشكلا من أشكال الحكومة البرلمانية ، ولكن المحامين الذين يديرون الحزب الوطنى لم يكونوا مستعدين للتحول الى ثوريين . وبدلا من ذلك تنكروا للجمعيات السرية ، وحاولوا اقناع الأوربيين أنهم يعملون من أجل حرية مصر بالوسائل المشروعة ، فلم يلقوا أذانا صاغية .

فى تلك الأثناء كانت الحكومة المصرية تستجيب للضغط البريطانى وتفرض قوانين من شأنها تعويق قدرة الحزب على القيام بدوره فى مصر كحركة علنية . ترى لو كان مصطفى كامل على قيد الحياة أكان باستطاعته أن يحرك ويدير تمردا شعبيا على مستوى ثورة ١٩١٩ ؟ أم ترى أن قيادة الحزب الوطنى لكونها واقعية كانت سترى ضالة الفرص المتاحة لتبجح ثورة ضد الاحتلال ؟

ويتردد أحيانا بأن فشل الحزب الوطنى فى الفوز باستقلال مصر لا يرجع الى وفاة مصطفى كامل ، بل الى سياسة الدون جورست الأرية التى نجحت فى عزل الخديو وأنصاره عن الحزب الوطنى ، كما فرقت بين الأقباط والمسلمين (*) . والواقع أن جورست قلما ينسب اليه الفضل الذى يستحقه لتقليم أظفار حركة كان من الممكن أن تقوض الحكم البريطانى لمصر . اذ حينما انقطعت علاقة الوطنيين بالسراى فقدوا مصدرا هاما للدعم المالى والمعنوى . وان اكتسبوا مزيدا من الحرية فى اختيار استراتيجيتهم وتكتيكهم . وكان مصطفى كامل زعيما محبوبا يسهل عليه اقناع معاوئيه بسياساته ، غير أن حرصه على نفوذه جعله يحيط نفسه بأتباع مخلصين

(*) نقول للمرة المائة ان التفريق بين الأقباط والمسلمين لم يحدث قط ، وان كان من اماني الاحتلال البريطانى ومن يسانده من القسوى ، فكلام المؤلف عن هذا التفريق من قبيل التمنى .

لم يكن بينهم واحد على درجة من القوة تكفى ليواصل زعامته بعد وفاته .
لا شك أن فريدا كان شريفا ووطنيا ، ولكنه لم يستطع أن يفرض نفس
القدر من الولاء أو ينال نفس الاجماع من الأعضاء على سياسته فى الحزب
وحيثما استبدل جورست بكتشنر الأكثر استبدادا كان الوطنيون فى حالة
انقسام شديد وعجز عن اثاره السراى أو التأييد الشعبى ضد الحكم
البريطانى . لذلك فالتصور الذى يطرحه هذا البحث أن أهم تفسير لفشل
الحزب الوطنى فى الفوز باستقلال مصر لا يمكن العثور عليه الا فى قيادة
الحزب نفسه .

من الممكن القول بأن الحرب العالمية الاولى أتاحت للوطنيين فرصة
جديدة لنيل استقلال مصر من بريطانيا ، وكان هذا يصح لو أنهم نجحوا
فى تنظيم تمرد وطنى لتأييد الحملة العثمانية لتحرير مصر . أما فى الواقع
فقد كان الوطنيون فى مصر بلا قيادة تقريبا ، وفى الخارج منقسمين ، ومن
ثم لم يستطيعوا بدء ثورة . وفرقهم المختلفة فى الخارج علق آمالها فى
النهاية على هزيمة دول المحور لبريطانيا ، ولم تكن تلك مقامرة خاسرة
تماما ، فقد أتاحت لهم الدعم المالى والسياسى طوال فترة الحرب ، وان
كانت قد أساءت الى سمعة زعماء الحزب حينما هزم الجانب الذى راهنوا
عليه . وحتى لو انتصر الألمان والأتراك لكان من المستبعد أن يفوز الوطنيون
بحرية كاملة من الاحتلال العسكرى والاشراف السياسى الأجنبى ، بل فى
احسن الأحوال كان سيسمح لهم بقيادة نظام من الدمى تحت وصاية الألمان
والأغلب أن وضع مصر كان سيخفض الى ولاية عثمانية عادية . ويبدو
أن فريدا قد تنبه الى ذلك وتردد بعض الوقت سنة ١٩١٦ فى معارضته
للسيطانيين ، ولكنه لم يكن أمامه وقتها بديل آخر . فأى حركة من أجل
استقلال مصر لم يكن ليقدّر لها النجاح اذا لم تبتعد عن الخضوع لأى قوة
أجنبية مهما كان كرم ادعاءاتها ، فقد كانت مصر تمثل مطمعا عظيما فى
نظر أى دولة أجنبية بحيث يستحيل أن تحررها لمصلحة أهلها وحدهم .
وحيثما هبت مصر كلها تقريبا سنة ١٩١٩ فى ثورة ضد البريطانيين
بعد أن أدركت أن الحماية لم تكن اجراء مؤقتا لفترة الحرب وحدها ، ألم
يكن باستطاعة الوطنيين تولى قيادة هذه المرحلة الجديدة من الكفاح من
أجل الاستقلال ؟

لقد قام الوطنيون بالدور الرئيسى فى التمهيد لهذه المرحلة فى الأغلب
ولكن زعماء الحركة الجديدة كانوا جميعا تقريبا من المصريين الذين لم
يسبق لهم تأييد الحزب الوطنى . والواقع أن أشهر الوطنيين كانوا خارج
مصر حين شكل الوفد وقامت الثورة ، وقد حاولت زعامة الحركة الجديدة

عزل نفسها عنهم ، كما رفض الحزب الوطني التضحية بكيانه داخل الحركة الجديدة مفضلا أن يعيش حياة طويلة باهتة على أطراف هامش السياسة المصرية .

اذن ما الدلالة التاريخية للحزب الوطني ، حزب مصطفى كامل
ومحمد فريد ؟

من الواضح أنه يمثل مرحلة فاشلة(*) في كفاح مصر من أجل حريتها غير أنه لم يكن مجرد فشل يمكن تسجيله على هامش تاريخ مصر الحديث فلقد ساعد على جذب أعداد متزايدة من المصريين للاهتمام بالسياسة بصفة عامة ، والكفاح من أجل الاستقلال بصفة خاصة . وكما يفرز الكيان الحي أجساما مضادة لمقاومة التلوث الذي تسببه الجروح أو البكتريا ، فقد كانت الحركة الوطنية هي افراز مصر لحماية نفسها من أخطار التفكك الاجتماعي في مواجهة تفشى الأفكار والنظم الأجنبية .

ولم يكن الحزب الوطني مجرد حركة محافظة ، فقد تنبى تصورات سياسية أوربية استخدمها في غرس الولاء الإيجابي لمصر باعتبارها أمة ودعا المصريين الى اعتبار أنفسهم مواطنين لا رعايا ، كما أسهم في نشر - لا فكرة القومية وحدها - بل كذلك التحررية والديمقراطية ، فضلا عن الاهتمام الأصيل بالعدالة الاجتماعية ، بين المصريين الذين لم يكونوا يتدخلون في السياسة من قبل .

ومنذ عهد فريد ظلمت معاني هذه الكلمات أيديولوجيات جديدة ، والحكومة المصرية الحالية المعرضة لأخطار من الداخل والخارج تتصور « القومية » و « الحرية » « الديمقراطية » بطريقة مختلفة تماما عن تلك

(*) كيف يكون الحزب الوطني « مرحلة فاشلة » وقد قاد حركة رفض الاحتلال ، ونال أكثر المصريين من الولاء له والاطمئنان اليه الى مقاومته الصريحة . وقد أدى هذا التغيير الروحي الى قيام حركات مستمرة لمقاومة اجراءات الاحتلال والتخلص من قيوده ، ظهرت في صورة اغتيال او شروع فيه ضد أعوان الاحتلال وفي مذبحتهم السلطان حسين ، ثم انتهى ذلك الى ثورة شاملة في سنة ١٩١٩ اضطرت معها بريطانيا الى شيئين : اولهما استعمال أقصى العنف من اطلاق الرصاص في الشوارع واقتحام بيوت الفلاحين ، والتورط في فتك اعراض النساء ، مما لوث سمعة الحكم البريطاني واهرجه في المعازل الدولية احراجا شديدا ، ثم نفى الوطنيين في مائة وغيرها وزج بهم في معتقلات بالداخل . والأمر الثاني هو محاولة ترضى الشعب بإسقاط الحماية وعلان استقلال مصر ، وتغيير اسم حاكمها من سلطان الى ملك ، وإنشاء وزارة الخارجية ، وعلان الدستور ، وهي تغييرات شكلية ولكنها كانت نواة لتغيير حقيقى في وضع مصر السياسى فيما بعد .

التي فهمها مصطفى كامل وأنصاره الذين نهلوا من منابع الليبرالية الغربية في عصر أقل اضطرابا ، وإيمانهم بحقوق الفرد وحياته التي يضمنها دستور مكتوب يحدد من سلطات الدولة لم يتحقق في نظام عبد الناصر مهما كانت ادعاءاته . ولكن يحدث أحيانا أن تصبح التصريحات بالنوايا الطيبة ، مهما كان بعدها عن الحقيقة وسيلة لتحقيق الذات .

وخلف أحابيل الدكتاتورية العسكرية توجد أصول النظرية الوطنية : نشر التعليم العام على كافة المستويات ، المنافسات الانتخابية للمجالس القومية والمحلية للاتحاد الاشتراكي العربي ، وأيضا نشر المناقشات الموجهة في وسائل الاعلام الجماهيرية بالقاهرة .

غير أن الأحداث الأخيرة أثارت الشك في وجود الوطنية بين المصريين . فليس من السهل أن تنمو الوطنية والقومية (بمعناها الإيجابية خاصة) بين شعب طالت معاناته من الفقر والجهل والخوف من الأجانب ، فهذه الصفات كثيرا ما تنحدر ، كما حدث أيام الحزب الوطني ، إلى معاداة للأجانب (*) . ومشكلات مصر الراهنة تتحدى زعماءها ومواطنيها ومدى استعدادهم للتضحية بمصالحهم في سبيل المصلحة القومية . ان تراث الحزب الوطني يمر الآن باختبار جديد .

(*) لم تعان مصر قط من (فوبيا) الأجانب ، أي مرض عداوة الأجنبي لمجرد أنه أجنبي ، ففي جميع أطوار الحركة السياسية من عهد مصطفى كامل إلى اليوم كانت مظاهر النشاط الأجنبي الاقتصادي والسياسي مزدهرة وأصحاب المتاجر بأنواعها آمنون ومطمئنون وحتى في حالات التاميم والحراسة والمصادرة كانت هذه الإجراءات تشهد المصري والأجنبي ، بقصد تحقيق أغراض وطنية بحتة ، وليسست أغراضا انتقامية من الأجانب كطائفة .

الفهرس

٣	● مقدمة	بقلم : فتحي رضوان
١٥	● الفصل الأول - بدور القضية القومية المصرية :	
١٧	- مدخل	
٢٢	- الخلفية الجغرافية والتاريخية	
٣٧	- قيام الحركة الوطنية الأولى وفشلها	
٥١	- ملاحظات عامة	
٥٥	● الفصل الثاني - الاحتلال البريطاني والبعث القومي :	
٥٧	- الاحتلال	
٦٥	- بداية البعث القومي	
٧٧	- تكوين الائتلاف الوطني	
٨٩	- ابتعاد التيار الوطني عن عابدين	
١٠٣	● الفصل الثالث - تكوين الحزب الوطني :	
١٠٥	- انسحاب وبعث	
	- سياسة جورست في اتجاه الوفاق ونشأة	
١٢٥	- الأحزاب المصرية	
١٣٣	- وفاة مصطفى كامل	
١٣٩	● الفصل الرابع - تقدم الحزب الوطني :	
١٤١	- الصراع على الزعامة	
٣٢٩	الحزب الوطني -	

١٥٠	.. الخديو والدستور
١٦٠	.. الشيخ جاويش والأقباط
١٧٢	.. نمو الحزب الوطنى
١٧٧	● الفصل الخامس - الحزب الوطنى فى أوج قوته :
١٧٩	.. ازدياد عنف الوطنيين
١٨٣	.. قانون المطبوعات
١٨٩	.. الوطنيون المصريون و «تركيا الفتاة»
١٩٤	.. الشباب المصرى فى أوربا
١٩٨	.. الخلاف حول قناة السويس وعواقبه
٢٠٥	● الفصل السادس - أفول الحزب الوطنى فى مصر :
٢٠٧	.. الاجراءات البريطانية المضادة
٢١٧	.. حملة الوطنيين فى أوربا
٢٢٣	.. الزعيم السجين والانقسام الطائفى
٢٣١	.. نظام الحكم الجديد فى مصر
٢٣٩	● الفصل السابع - انتكاس الحزب الوطنى فى مصر :
٢٤١	.. الأزمة داخل الحزب
٢٤٧	.. الوطنية المصرية خارج مصر
٢٥٧	● الفصل الثامن - الوطنيون المصريون أثناء الحرب العالمية الأولى :
٢٥٩	.. الأوضاع الدولية
٢٦٣	.. الوطنيون ، والأتراك ، والخديو
٢٦٨	.. فسخ التحالف بين الأتراك والخديو
٢٧٩	.. محمد فريد .. فريدا
٢٨٥	.. إعادة تكوين الحلف الوطنى

● الفصل التاسع - الحزب الوطنى بعد الحرب العالمية الأولى : ٢٩١

٢٩٣ - الوطنيون فى أوربا

٢٩٦ - الثورة فى مصر

٣٠٥ - الوطنيون المغتربون ووفاة فريد

٣٠٩ - خاتمة

● الفصل العاشر - نتائج الدراسة ٣١٥

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٣/٢٠٦٦

ISBN ٥ - ١٦٠ - ٠١ - ٩٧٧ -

الكتاب الذي اقدمه لقراء العربية والمحبين الحرب الوطنية المصرية هو كتاب فريد ووصفه بالفريد ليس من قبيل الثناء عليه او الاسادة به . بل من باب تقرير الحقيقة . لانه لا يوجد في مكتبة التاريخ الحديثة ولا في المكتبة الامريكية المعاصرة كتاب يشبهه فهو كتاب علمي . قائم على جميع الحقائق من مصادرها ومراجعها مع ذكر هذه المصادر والمراجع . اولا بآول في الموضوع المناسب . وهو في الوقت نفسه كتاب سياسي لا يروي الوقائع رواية المورخ العالم . حسبه ان يذكرها . او حسبه ان يذكرها مصحوبة بالتعليق الذي يقوى دلالتها . من وجهة نظر المؤلف . وضوحا . بل ان الشرح الذي يتبعه في جميع هذه الحقائق تم في تدرجها وتنسيقها . ثم الاسلوب الذي يلتمه في التعليق والشرح . كلاهما خدما لافراض المؤلف وغاياته . التي لا تقتصر على اهداف العالم المورخ . بل تتجاورها ان تحقيق معتقداته . ووجه نفوذ هذا الكتاب بين امثاله واشاهد ان مؤلفه الاستاذ ارنو جولد شميت (الاس) هو من ابناء الولايات المتحدة وهو قد خرج من جامعة هارفارد التي تعتبر بحق معملا لتخرج اساتذة السياسة المطربة . وكما ان رجال السياسة العملية

فتحتي رصوا